الأكثر مبيعًا على قائمة نيويورك تايمز

MAID
خادمة

عن العملِ الشاقِّ والأجورِ المتدنية وعزيمةِ أمٍّ من أجل النجاة

ستيفَني لاند

ترجمة: مريم ناجي

NETFLIX
يعرض الآن على نتفليكس

عصير الكتب

t.me/twinkling4

"ملهمة".

- ذا أتلانتيك

«رحلـةٌ تنويريـة تفتـحُ أعيننـا على حيوات الفقراء العاملين».

- مجلة بيبول

«إن دمجنـا ما بيـن السـرد المعبِّر فـي مذكِّـرات 'المتعلِّمـة' لتـارا ويسـتوفر مـع النقـد المجتمعـي الـذي نقـرؤه فـي كتـاب 'أمريـكا الفقيـرة' لباربرا إرينيرك وسـتكون النتيجـة هـي الكتاب الـذي تحمله بيـن يديـك... إنهـا مذكِّـرات أتت في وقتهـا، مُلحَّةً فـي صوتها ولا تُنسـى، من أفضل المذكرات التي قرأتها».

- سوزانا كهالان، مؤلفة 'دماغٌ مشتعل: شهرٌ من الجنون'

«نحتـاج إلـى أعمالٍ أكثـر مثل هذا العمـل الـذي يحمل وجهـات نظر مـن خلـف الكواليـس. فـي جعبة سـتِيفَني لاند شيءٌ تُعلِّمه لنا عـن جـانبي التفـاوت الاقتـصادي، كلاهما يخالِف توقعاتنا».

- باربرا إرينيرك

MAID
خادمة

عصير الكتب

عصير الكتب
لتجارة الكتب

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: Maid: Hard Work, Low Pay, and a Mother's Will to Survive
- العنوان العربي: خادمة: عن العمل الشاق والأجور المتدنية وعزيمة أمٍّ من أجل النجاة
- طُبع بواسطة: Hachette Book Group
- طُبع بواسطة: مجموعة هاشيت للنشر
- حُقوق النشر: 2019، ستيفني لاند
copyright © 2019 Stephanie Land
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: مريم ناجي
- مراجعة وتحرير: محمد المتيم
- تدقيق لغوي: د. محمد حماده جاد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: أكتوبر / 2022م
- رقم الإيداع: 16764/2022م
- الترقيم الدولي: 978-977-6972-45-2

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» لتجارة الكتب
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط

الأكثر مبيعًا على قائمة نيويورك تايمز

MAID
خادمة

عن العملِ الشاقِّ والأجورِ المتدنية وعزيمةِ أمٍّ من أجل النجاة

ستيفَني لاند

ترجمة: مريم ناجي

NETFLIX
يعرض الآن
على نتفليكس

عصير الكتب

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

تحرير وتدقيق: **هدى/ mohamed**

ترتيب وتصميم: **أشرف غالب**

t.me/twinkling4

ملاحظة من الكاتبة:

جَمَّعتُ هذه المذكَّرات بمساعدة اليوميات والصور والتدوينات ومنشورات الفيسبوك. غَيَّرتُ معظم الأسماء والأوصاف الأساسية لحماية خصوصية الشخصيات. قصَّرتُ الزمن. وعدلت الحوارات لتقريبها، وفي بعض الحالات أعدتُ ترتيبها. أولَيتُ سَردَ الحقيقة عنايةً فائقة. هذه قصتي، وعلى هذه الشاكلة أتذَكَّرها.

إلى ميا

تصبحين على خير

أحبكِ

أراكً في الصباح.

ماما

«تعلَّمتُ أن هنالك فارقًا بين أن يكسب المرء لقمة عيشه

وأن يبني حياته».

مايا آنجلو

المقدمة

مرحباً بكم في عالم ستِيفَني لاند

يتطلب دخول هذا العالم ثمنًا يتمثل في أن تتحرر من أي صورٍ نمطية سابقة عن الخَدَم في المنازل، أو عن الأمهات المستقلات، أو عن أي تصورات مُستَقَاة من الإعلام عن الفقر قد تكون راسخة في ذهنك. ستِيفَني امرأة مجتهدة و«فصيحة اللسان» إن أردنا استخدام المديح المتعالي الذي يصفها به النخبة حادُّو الذكاء بشَكلٍ غير متوقع ممن لم يتلقوا تعليمًا عاليًا. تدور مذكراتها -«خادمة»- عن رحلة كفاح أمومتها، إنها قصة أُمٍّ تحاول توفير حياة آمنة وبيتٍ لابنتها ميا، بينما تحاول النجاة على الفُتَاتِ الذي تجمعه من الإعانات الحكومية، والأجر البخس إلى حَدٍّ بائس الذي من عملها تتقاضاه خادمة.

كلمة «خادمة» كلمة مُنَمَّقة، مُحَمَّلة بصور صينيات الشاي والأزياء الرسمية المُوَشَّاة، وصور من مسلسل «داون تاون آبي». ولكن في واقع الأمر، عالم الخادمات مُلَطَّخٌ بالقذارة والأوساخ. تُسَلِّك تلك العاملات بالوعاتنا المسدودة بشعور أجسادنا، يقفن شاهِدَاتٍ على غسيلنا الوسخ حرفيًا ومجازًا. مع ذلك، يبقين خفيات مُهمَلاتٍ في سياسة بلادنا وقوانينها، يُنظَرُ إليهن نظراتً مهينة على عتبات أبوابنا. أعرِفُ هذا لأنني عِشتُ فترةً وجيزة في تلك الحياة خلال عملي مُراسِلَةً لأكتب كتابي «أمريكا الفقيرة[1]»، شَغَلتُ فيها وظائف متدنية الأجر. على عكس ستِيفَني، كان دائمًا بوسعي العودة إلى

---

(1)- عنوان الكتاب الأصلي (Nickel and Dimed)، آثرت استعارة ترجمة العنوان الفرنسية نظرا إلى أنه لم يُتَرجَم إلى العربية. تدور أحداثه بين عامي ١٩٩٨ و٢٠٠٠، حيث تَخَفَّت الصحفية باربرا إرينيرك في هيئة خادمة لدراسة تلك الطبقة العاملة والتحقيق في أثر قانون إصلاح الرعاية الاجتماعية في عام ١٩٩٦ على الفقراء العاملين في الولايات المتحدة. فُرِضَ القانون في فترة رئاسة بيل كلينتون، ونَصَّ على تقليص الإعانات الحكومية للفقراء بدافع حَثِّهِم على العمل، ولكنه أتى بنتائج عكسية. احتَلَّ الكتاب في عام ٢٠١٩ المرتبة الثالثة عشرة في قائمة صحيفة الجارديان لأفضل ١٠٠ كتاب في القرن الحادي والعشرين. (المترجمة)

حياتي المريحة التي كُنتُ أعيشها كاتِبةً. على عكسها كذلك، لم يكن لدي طفل أرعاه من الدخل الذي أكسبه. كان أبنائي قد كبروا وليس لديهم أدنى اهتمام بالعيش معي في مقطورة كجزء من طموحٍ صحفي مجنون، لذا، نعم، أعرفُ الكثير عن العمل في تنظيف المنازل؛ عن الإنهاك والاحتقار الذي أُجابِهُه حين أرتدي زيَّ شركة التنظيف على مرأى من الجميع، المُزيَّن بختم «شركة إنترناشونال لخدمات التنظيف». ولكن في مقدوري أن أخمن -أن أخمن فحسب- قلق ويأس الكثيرات من زميلاتي في العمل. حالهن حال ستِيفَني، نساء كثيرات منهن مَنْ كُنَّ أمهات مستقلات، ينظفن المنازل كوسيلةٍ للنجاة، ويتعّذَّبن طيلة اليوم من اضطرارهن إلى ترك أطفالهن في أحوال غير مستقرة كي يذهبن إلى أعمالهن.

لقد أفلَتُّ -بضربة حظ- من العيش في عالم ستِيفَني. سَتَعرِفُ من خلال قراءة مذكراتها أنه عَالَمٌ يحكمه شُحُّ كل شيء. لا يتوفر أبدًا ما يكفي من المال، وأحيانًا ما يكفي من الطعام. يُصبِحُ لزبدة الفول السوداني ومعكرونة رامن أهمية لا تخطر على البال، وتصبح وجبات ماكدونالدز متعةً نادرة. لا شيء يمكن الاعتماد عليه في هذا العالم، لا السيارات، ولا الرجال، ولا المسكن. تغدو القسائم الغذائية ركيزةً مهمة لنجاتها، والتشريعات الأخيرة التي تنُصُّ على أن المرء عليه أن يشغل وظيفة كي يحصل على القسائم الغذائية تلك ستجعلك تُكَوِّر قبضتك غضبًا. ستعجز هؤلاء العاملات، الأمهات المستقلات، وكل من يعيش مثلهن عن النجاة دون تلك الموارد الحكومية. هذه ليست مجرد صدقات. إنهم -مثلنا جميعًا- يريدون أرضا مستقرةً يقفون عليها في مجتمعنا.

ربما السِّمة الأشد إيلامًا في عالم ستِيفَني هي الكراهية التي يَصُبُّها عليها الأكثر حَظًّا. إنه التحيز الطبقي، الذي يتعرض له العُمَّال على الأخص، الذين يُنظَر إليهم عادةً على أنهم الأدنى أخلاقيًّا وفِكريًّا مُقارَنَةً بأولئك الذين يرتدون البدلات، أو يعملون خلف المكاتب. يرمُقُ الزبائن في محال البقالة عربة تسوق ستِيفَني بنظرات انتقادية لاذعة بينما تدفع حساب مشترياتها

بالقسائم الغذائية. مَرةً قال لها رَجُلٌ عجوز بصوتٍ عالٍ: «على الرحب والسعة»، وكأنه هو من دفع ثمن مشترياتها شخصيًّا. تتخطى هذه العقلية حدود الموقف الذي تعرضت له ستِيفّني، وتمثل آراء أغلبية مجتمعنا.

تَمُرُّ حكاية عالم ستِيفَني بمنحدر يبدو وكأنه يتجه نحو انهيارٍ كارثي. في البداية، يحدث التآكل الجسدي جراء الرفع والكنس والفرك ست ساعاتٍ يوميًّا. في شركة تنظيف المنازل التي عَمِلتُ بها، عانَتْ كل واحدة من زميلاتي اللواتي تتصاعد أعمارهن بداية من التاسعة عشرة وما فوقها من ضرر عصبي عضلي من شتى الأنواع: آلام الظهر، أو إصابات الكفة المدورة، أو مشكلات في الركبة والكاحل. تُجَاري ستِيفَني حياتها بمساعدة كمياتٍ مُقلِقَة مُسَكِّن الإيبوبروفين الذي تستهلكه يوميًّا.

وتنظر بحسرةٍ -في مرحلةٍ ما- إلى العقاقير الأفيونية المخزنة في دورة مياه أحد العملاء، ولكنَّ الحصول على وصفة طبية ليس خيارًا مطروحًا لها، ولا التدليك، ولا العلاج الطبيعي، ولا زيارة المختصين.

وعلاوةً على الاستنزاف الجسدي الذي يفرضه نمط حياتها، يتضافر معه الصراع العاطفي الذي تُجابهه ستِيفَني. إنها نموذجٌ حيٌّ لـ «المرونة النفسية» التي يشجع الأطباء النفسيون الفقراء على تعلُّمها. تعثر ستِيفَني على طريقةٌ لتمضي قُدُمًا كلما واجهت عقبة. ولكن يصل هجوم العقبات إلى حدود الحمولة الزائدة. كُلُّ ما يبقيها متزنة هو محبتها العميقة نحو ابنتها التي ستكون النور الجليَّ الساطع الذي يُضيء الكتاب بأكمله.

لن يكون حَرقًا لقصة الكتاب إن قُلتُ إنَّ نهايته سعيدة. أنعَشَتْ ستِيفَني رغبتها في ان تصبح كاتبة خلال سنوات المعاناة والكدح المكتوبة هنا. قابَلتُ ستِيفَني منذ سنواتٍ عديدة، حين كانت في أولى خطوات مستقبلها المهنيِّ في الكتابة. إضافةً إلى عملي صحفيةً وكاتبةً، فقد أسَّستُ منظمةً تُسمى «مشروع تقارير الضوائق الاقتصادية»، وهي منظمة تدعم الصحافة رفيعة الجودة التي تتناول انعدام المساواة الاقتصادية، خصيصًا تلك المكتوبة بأقلام مَن

يعاني منها شخصيًا. أرسَلَتْ إلينا ستِيفَني استفسارًا، تلَقَّفناها، عملنا معها على تطوير كتاباتها وتحسين مسوداتها وإرسالها إلى أفضل منابر نجدها، بما في ذلك صحيفتي نيويورك تايمز ونيويورك ريفيو أوف بوكس. إنها بالضبط واحدة من الأشخاص الذين نعمل من أجلهم؛ كاتبة مجهولة من الطبقة العاملة، وتحتاج إلى دَفعَة حتى تنطلق في مسارها المهني.

إن ألهَمَكَ هذا الكتاب -وهو ما قد يحدث- فتَذَكَّر أنه كاد ألَّا يُكتَبَ بالمرة. كان مُحتَمَلًا أن تستسلم ستِيفَني لوطأة اليأس أو الإنهاك، كان ممكنًا أن تُصَابَ بإصابةٍ بالغة في عملها تؤدِّي إلى عجزها. فَكِّر في كل النساء اللواتي -لأسباب كهذه- لم يتمَكَّنَّ مُطلَقًا من قَصِّ قصصهن. تُذَكِّرُنا ستِيفَني أن هناك الملايين منهن، كل واحدة بطلة بطريقتها الخاصة، في انتظارنا أن نُنصِتَ إلى حكاياتهن.

باربرا إرينيرك

الجزء الأول

1

المقصورة

تَعَلّمَتْ ابنتي المشي في ملجأ المشردين.

حدث هذا أحد أمسية يونيو، عشيَّة عيد ميلادها الأول. كُنتُ أجلسُ في على حافة أريكة الملجأ الرثَّة أحمِلُ في يدي كاميرا رقمية عتيقة لأصَوِّرَ أولى خطواتها. تَنَاقَضَ شَعرُ ميا المُجَعَّد ورداؤها المُقَلَّم مع إصرار عينيها البُنِّيَّتَين بينما تطوي أصابع قدميها وتفردها كي توزان نفسها. وأنا من خلف الكاميرا، ألتَقِطُ ثنيات كاحليها والتفافات فخذيها واستدارة بطنها. هَمَهمتْ وهي تشقُّ طريقها نحوي حافية القدمين على الأرضية المبلطة. أعوامٌ من القذارة نُقِشَتْ على هذه الأرضية، ولا تتأثر بأي قوة تفركها، لا تُنَظَّفُ أبدًا.

كان هذا الأسبوع الأخير من إقامتنا التي امتدت تسعين يومًا في المقصورة التي تقع في الجانب الشمالي من المدينة، خصَّصتها هيئة الإسكان لأولئك الذين لا بيوت لهم. الخطوة التالية هي الانتقال إلى سكنٍ انتقالي؛ شقة قديمة متهالكة، تشابكت مع أرضيات أسمنتية شفعت لها بأن تكون منزلًا معقولًا. بذلتُ كل جهدي لأجعل من المقصورة بيتًا لابنتي رغم كونها مسكنًا مؤقتًا. فرشتُ مفرشًا أصفر على الأريكة الصغيرة؛ لا لأضيف لمسةً ودودةً على

الجدران البيضاء الشاخصة والأرضية الرمادية فحسب، بل لأضيف اي شيء مشرق ومفرح في خلال فترة حالكة الظلام.

علقتُ جوار الباب روزَنامةً صغيرة على الحائط. كانت ملأى بالمواعيد مع موظفين اجتماعيين في منظماتٍ ألجأ إليها للحصول على المساعدة. بَحثُ أسفل كل حجر، نَظرتُ عبر كل نافذة في كل مبنى يقدم معونات حكومية وانتظرتُ في صفوفٍ طويلةٍ من الناس، يحملون ملفاتٍ اعتباطية من الوثائق التي تُثبتُ أنه ليس بحوزتهم أية أموال. أذهلني مقدار الجهد الذي تَطَّلبهُ إثبات أنني مُعدمَة.

لم يكن مسموحًا لنا أن نستقبل زوارًا، أو أن نحظى بأي شيءٍ في المطلق. كانت معنا حقيبة أغراض واحدة، وبحوزة ميا سلَّة ألعابها. احتَفظتُ بمجموعةٍ صغيرة من الكتب أضعها على أرفف قليلة تفصلُ ما بين الصالة والمطبخ. وضعت في المكان طاولةٌ مستديرة كنتُ أشبكُ بها مقعد ميا العالي، وهناك مقعد أجلسِ عليه وأراقبها تأكل، بينما في أغلب الوقت أشربُ القهوة لأخمد جوعي.

راقَبتُ ميا تقطع تلك الخطوات الأولى المعدودة، حاولتُ أن أتجاهل الصندوق الأخضر من خلفها، حيثُ أضعُ فيه وثائق المحكمة التي تسرد تفاصيل خلافي مع أبيها على حضانتها. جاهَدتُ كي أحافظ على تركيزي عليها، أبتسِمُ لها كأن كل شيٍء بخير. إن كُنتُ قد قلَبتُ الكاميرا وقتها، فلم أكن لأميز انعكاس صورتي. تُظهِر صوري القليلة شخصًا مختلفًا تمامًا، ربما كُنتُ وقتها أنحفَ ما يكون في حياتي كلها. عمِلتُ مُنسِّقة حدائق بدوامٍ جزئي، حيث قضيتُ عدة ساعات في الأسبوع أشذبُ الشجيرات وأعاركُ أشجار العليق التي نَمَتْ أكثر من اللازم، وألتقطُ العشب من أماكن ليس مفترضًا أن يوجد فيها. أحيانًا كُنتُ أنظفُ الأرضيات ومراحيض بيوتٍ أعرفُ أصحابها؛ هم أصدقاء سمعوا عن حاجتي المُستَميتة إلى المال. لم يكونوا أغنياء، ولكن كان لهؤلاء الأصدقاء شبكات دعم مالية احتياطية يستندون عليها، شيءٌ لم يكن عندي.

بالنسبة إليهم، تعني خسارة راتب شهري ضائقةً مالية، ولكنه ليس بدايةً لسلسلة من الأحداث ستنتهي بهم في العيش في ملجأ المشردين. يقفُ بجانبهم آباؤهم أو أقارب آخرون من العائلة، بوسعهم أن يهرعوا إليهم ومعهم المال وإنقاذهم من كل هذا. لم يهرع أحدٌ لأجلنا، كُنتُ وحدي أنا وميا.

خلال تجهيز الأوراق المطلوبة لهيئة الإسكان، كتبتُ حين سألوني عن أهدافي الشخصية للشهور القادمة عن أنني أحاول أن أجعل علاقتي بجايمي - والد ميا- تنجح. ظننتُ أننا قد نحلُّ الموضوع لو حاولتُ بكل قوتي. كُنتُ أتخيَّلُ أحيانًا لحظاتٍ نكون فيها عائلةً حقيقية، أمًّا وأبًا وابنةً جميلة. كُنتُ أتشبَّثُ بأحلام اليقظة تلك كأنها حبلٌ مربوط ببالونٍ عملاق. كان البالون سيحملني بعيدًا عن تعنيف جايمي، ومشقة أن أكون أمًّا مستقلة، إن بقيتُ مُمسكةً بهذا الحبل كُنتُ سأطفو فوق كل شيء. إن وضعتُ جُلَّ تركيزي على صورة العائلة التي أردتُها، كُنتُ سأقدر على التظاهر بأن الأجزاء السيئة ليست حقيقية؛ كأن هذه الحياة كانت حالة مؤقتةً من الوجود، وليست وجودًا جديدًا.

أهدَيتُ ميا حذاءً جديدًا في عيد ميلادها. كُنتُ أدَّخرُ ثمنه شهرًا كاملًا. لونه بُنِّيٌّ، ومُطرَّزٌ بعصافير صغيرة وردية وزرقاء. أرسلتُ دعوات الحفل كأي أمٍّ عادية، ودعوتُ جايمي وكأننا زوجان عاديان نتشارك تربية ابنتنا. أقمنا الحفل على طاولةٍ تطلُّ على المحيط من تلةٍ عُشبية في شيتزيموكا بارك بمدينة بورت تاونسند في واشنطن العاصمة حيثُ كنا نعيش. جَلَسَ الناس مبتسمين على المفارش التي جلبوها معهم. أحضرتُ عصير الليمون والفطائر بما تبقى لي من القسائم الغذائية لذلك الشهر. سافَر أبي وجدي قرابة الساعتين من مكانين مختلفين ليحضُرا، وأتى أخي وعدة أصدقاء، أحدهم أحضر جيتارًا. طلبتُ من صديقٍ أن يلتقط لنا صورًا معًا، ميا وجايمي وأنا، لأنه كان حدثًا شديد الندرة أن نجتمع ثلاثتنا ونجلس هكذا. أردتُ أن تحظى ميا بذكرى طيبة تسترجعها. ولكن وجه جايمي في تلك الصور لم يُفصِح سوى عن اللامبالاة والغضب.

سافرت أمي جَوًّا بصحبة زوجها ويليام، من لندن أو فرنسا، أو أيًّا كان بلد إقامتهما وقتها. عقب حفل ميا، أتيا إلى ملجأ المشردين -كاسِرَين قاعدة «ممنوع الزوار»- ليساعداني في نقل أغراضي إلى الشقة الانتقالية. هززتُ رأسي في شيء من الاعتراض على ملابسهما- ارتدى ويليام بنطالًا ضيقًّا من الجينز الأسود، وسترة وحذاءً طويل الرقبة أسودين، أما أمي، فارتدتْ ثوبًا مُقلَّمًا بالأبيض والأسود عَصَر وِركَيها المستديرتين في ضيقٍ بالغ، وجوربين أسودين طويلين، وحذاء كونفرس رياضيًّا، كانا مستعدين للجلوس في مقهى واحتساء الإسبريسو، وليس لنقل أمتعة من مسكن إلى آخر. لم اسمح لأي ، يرى مكان عيشنا، لذا فقد حلِّ تطفل لكنتهما الإنجليزية وملابسهما أحد أن الأوربية، وجعل المقصورة -بيتنا- تبدو أقذر حالًا مما كانت عليه.

بدت المفاجأة على ويليام حين رأى أن كل ما نقلناه معنا كان حقيبة صوفية فحسب. أمسكها وخرج بها، وتبعته أمي. التفتُّ لألقي نظرةً أخيرةً على تلك الأرضية، على ذكرى نفسي وأنا أجلس وأقرأ كُتُبًا على الأريكة الصغيرة، على ذكرى ميا وهي تُفَتِّشُ في سَلَّة ألعابها، وهي تجلس في الدُّرج أسفل السرير. كُنتُ سعيدةً بالرحيل. ولكنها كانت لحظةً عابرة أستوعِبُ فيها ما قاسيته، وداعًا حلوًا مُرًّا إلى المكان الواهن الذي قضينا فيه بدايتنا.

كانت حالة نصف المقيمين في مبنى شقتنا الجديدة -ضمن برنامج الإسكان الانتقالي العائلي في نورث ويست باسيدج- تُشبه حالتي؛ انتقلوا من ملاجئ المشردين إلى هنا، ولكنَّ النصف الآخر كانوا أناسًا قد أُطلِقَ سراحهم من السجن، كان مفترضًا أن يكون السكن كخطوة تقدم أقطعها من الملجأ ولكني كنت أفتقد الخصوصية التي منحتنها إياها المقصورة. هناك، في ذلك المبنى، شعرتُ بأن حياتي مكشوفة على مرأى ومسمعٍ من الجميع، حتى أمام نفسي.

انتظَرتْ أمي وويليام خلفي بينما أقترب من باب بيتنا الجديد. تعاركتُ مع المفتاح، وضعت الصندوق أرضا واضطربتُ مع القفل أكثر، حتى دخلنا أخيرا. قال ويليام مازحًا: «إنه على الأقل مكانٌ آمن للغاية».

لاحظت سرنا عبر مدخلٍ ضيق، كان الحمام في مواجهة الباب. على الفور المغطس، حيث سيكون في وسعي أنا وميا أن نستَحمَّ معًا، لم نَحظَ برفاهية المغطس منذ زمنٍ بعيد. كانت غرفتا النوم على اليمين. في كل واحدةٍ نافذة تُطلُّ على الطريق. وفي المطبخ الضئيل، خدش باب الثلاجة الخزانات على الجانب المقابل. سرتُ على البلاط الأبيض العريض، الذي كان شبيهًا بأرضية الملجأ، وفَتحتُ الباب إلى شرفةٍ ضيقة. كان وسعها بالكاد كافيا لأجلس فيها وأمدد ساقي.

أرتني جوليا -الموظفة الاجتماعية المسؤولة عن حالتي- المكان في جولةٍ سريعة قبل أسبوعين. عاشت العائلة التي أقامت في الشقة قبلي أربعةً وعشرين شهرًا؛ الحد الأقصى للمدة المسموح بها. أخبَرَتني بأنني «محظوظة لأن هذا المكان أصبح متاحا. خاصة بعد أن انتهت المدة المسموح لَكِ بها في الملجأ».

حين قابلتُ جوليا أول مرة، جلستُ قبالها أتلعثمُ في محاولة إجابة أسئلةٍ عن خططي، عن كيف سأدبر مكانًا آمنا لابنتي. ما خطتي للوصول إلى الاستقرار المالي، وأي وظائف أتقنها. بدا على جوليا أنها تتفهَّمُ حيرتي، تساعدني بطرح اقتراحاتٍ لكيفية الاستمرار، وقتها كان الانتقال إلى مساكن ذوي الدخل المنخفض هو خياري الوحيد. المشكلة كانت في إيجاد مكانٍ شاغر. عَمِلَ محامون في «مركز رعاية ضحايا العنف الأسري والاعتداء الجنسي» الذين أتاحوا ملجأ آمنًا للضحايا الذين لا ملاذ لهم، ولكنها كانت مجرد ضربة حظ حين قدمت لي هيئة الإسكان مكانًا خاصًّا بي وسبيلًا إلى الاستقرار.

في لقائنا الأول، راجَعتُ أنا وجوليا قائمة من أربع صفحات تشمل تعليماتٍ وجيزة؛ قواعد عليَّ الالتزام بها كي أقيم في دارهم.

(على النزيلات أن يفهمن أن هذا ملجأ طوارئ، ليس منزلًا. قد يُطلَبُ في أي وقت وتحت أي ظرف تحليلٌ للبول. ممنوع منعًا باتًّا استقبال الضيوف في الملجأ. لا توجد استثناءات).

أوضَحَتْ جوليا أنهم يقومون بجولات عشوائية كي يتحقَّقوا أن الحدَّ الأدنى من الأعمال الروتينية اليومية قد أُنجِزَ، مثل غسل الصحون، وتنظيف المنضدة من بقايا الطعام، وترتيب المكان. وافقتُ ثانيةً على إجراء تحليل عشوائي للبول، وتفتيش عشوائي للشقة، وحَظرٍ للخروج يبدأ من الساعة العاشرة مساءً. لم يكن مسموحًا ببيات أي ضيوف دون إذنٍ سابق، وليس أكثر من ثلاثة أيام. عليَّ أن أبلغهم فورًا بأي تغيرات في دخلي الشهري. وعليَّ أن أسَلِّمّ تقارير شهرية مُفَصَّلة عن أي مالٍ كسبته ومصدره، وأين أنفقته.

كانت جوليا لطيفةً طوال الوقت، وتبتسم خلال حديثها، شعرت بالامتنان نحوها لأنها لم ترمقني بنظراتٍ ضجرةٍ ومُرهقَة وطويلة كتلك التي تلوح في أعين كل الموظفين الاجتماعيين في المكاتب الحكومية. عاملتني كإنسانة، تعقصُ خصلات شعرها القصير الأحمر النحاسي خلف أذنها. ولكن توقفت أفكاري عند وصفها لي بالـ «محظوظة». ممتنة، نعم، بلا شك. ولكن محظوظة؟ قطعًا لا، ليس وأنا أنتقل للعيش في مكانٍ تنصُّ قواعده على أنني مدمنة وقذرة، أو أنني فشلتُ في الحياة لدرجة أنني في حاجةٍ إلى حظر تجول إجباري وتحليل للبول.

شعرتُ أن حياة الشخص المُعدَم، أو العيش في ظل الفقر، يشبه إطلاق السراح المشروط؛ جريمته هي قلة وسائل نجاته في الحياة.

نَقَلتُ أنا وأمي وويليام أغراضنا بسرعة معقولة من شاحنة نصف نقل استعَرتُها عبر السلم المؤدي إلى شقتي في الطابق الثاني. كنا قد أخرجنا أغراضي من المخزن الذي وفَّره لي والدي قبل انتقالنا إلى المقصورة. كانت أمي وويليام متأنقين أكثر من اللازم، فعرَضتُ عليهما قميصين من عندي، ولكنهما رفضا، قَضَتْ أمي حياتها كلها تعاني من زيادة وزنها، عدا خلال فترة

طلاقها من أبي. كانت تعزو نُقصَان وزنها إلى حِميَة آتكنز. عَرفَ والدي فيما بعد أن دافعها المفاجئ لممارسة الرياضة لم يكن اللياقة البدنية، بل علاقة غرامية، مع رغبةٍ جديدةٍ للهرب من قيود كونها زوجةً وأمًّا. كان تحوُّل والدتي كحالةٍ من الخروج أو الصحوة إلى الحياة التي تاقَتْ لها دومًا، لكن ضَحَّتْ بها لأجل عائلتها. بالنسبة إلي، شعرتُ فجأةً بأنها أصبحتْ إنسانةً غريبةً عليَّ.

في الربيع الذي تَخَرَّج فيه أخي تايلر في المدرسة الثانوية، تَطلَّق أبواي، وانتَقَلَتْ أمي للعيش في شقةٍ ما. بحلول عيد الشكر، كان قد انكمش مقاس ملابسها إلى النصف تقريبًا، وأطالَتْ شعرها. دخلنا مرةً إلى إحدى الحانات، ورأيتها تُقَبِّلُ رجالًا من عمري، ثم تَغِيبُ عن الوعي عند إحدى الطاولات. كان الحَرَجُ يغمرني. تحوَّل هذا الشعور إلى فَقدٍ لم أعرف كيف أحزن عليه. أرَدتُ أن أستَردَّ أمي.

أذابَ والدي نفسه في عائلةٍ جديدة بعد فترة. كانت المرأة التي واعَدَها عقب طلاقه تشعر بالغيرة ولديها ثلاثة أبناء. لم تَرتَح لأكونَ حولها في المكان. «اعتني بنفسك». أعلَنَها لي أبي ذات يوم ونحن نتناول الإفطار في مطعم دينيز قرب منزلهم.

مضى أبواي قُدُمًا في حياتهما بعد أن يّتَّماني عاطفيًّا من خلفهما. أقسّمتُ ، لنفسي إنني لن أضع بيني وبين ابنتي ميا بُعدًا مكانيًّا ونفسيًّا مثل هذا.

الآن، أحدِّقُ إلى أمي؛ متزوجة من رجلٍ إنجليزي يكبرني بسبع سنواتٍ فحسب. أراها وقد ازداد وزنها كيلواتٍ أكثر مما مضى، كثيرةً لدرجة أنها بَدتْ غير مرتاحة في جسدها. لم يكن في وسعي سوى أن أحدِّق إليها وهي تقف جواري وتتحدث بلكنة بريطانية مزيفة. مَرَّتْ قرابة سبع سنوات منذ انتقالها للعيش في أوروبا، ولكنِّي لم أرها خلالها إلَّا مراتٍ تُعَدُّ على الأصابع.

وسط نقل صناديق كتبي الكثيرة، بدأتْ تتحدث عن جمال شطائر البرجر. ثم أضافَتْ حين مررنا جوار بعضنا بعضًا على السلم: «مع البيرة». كانت ظهيرة

اليوم لم تَنقضِ بعد، ولكنَّها كانت في مزاج شخصٍ يقضي عطلةً صيفية؛ ما يعني أن الثمالة تبدأ مبكرًا. اقتَرحَتْ أن نذهب جميعًا إلى سيرينز، وهي حانة وسط المدينة، ومُلحَقٌ بها حديقة خارجية. سالَ لعابي؛ لم أكل في أي مطعم منذ شهور.

قُلت: «عليَّ أن أذهب إلى العمل بعد الانتهاء من هذا، لكن في وسعي الذهاب معك». كُنتُ أنَظِّفُ حضانةً يملكها أحد أصدقائي مرةً في الأسبوع لقاء ٤٥ دولارًا. كان علي أيضًا أن أعيد الشاحنة التي استَعرتُها، وأُقِلَّ ميا من منزل جايمي يومها كذلك.

فرزت أمي صناديق ضخمة تخصها، بها صور قديمة وتحف رديئة كانت تخزِّنها في مرأب أحد أصدقائها. أحضرتها إلى سكني الجديد كهدية. أخَذتُها بكامل إرادتي وشعور بالحنين يتملكني، وكدليل على حياتنا السالفة معًا. احتفظت بكل صورةٍ من صور المدرسة، وكل صورةٍ من صور الهالوين, وجدتُ صورةً وأنا أحمل أول سمكةٍ أصطادها، وأخرى وأنا أحتَضنُ باقة أزهار بعد حفل موسيقي في المدرسة. كانت أمي وسط الجمهور، تدعمني، تبتسم لي وتحمل الكاميرا. ولكن الآن، ونحن في الشقة، بَدَتْ لي كأنها مجرد شخصٍ بالغ يقفُ معي في الغرفة، شخص رأسه برأسي، بينما وقفتُ في مكاني أشعر بتيه عميق، أعمق ما شعرت به طيلة حياتي. كُنتُ في حاجة إلى عائلتي. كنتُ في حاجة إلى أن أراهم يشيرون إلي، يبتسمون، يطمئنونني بأنني سأصبحُ بخير.

جلستُ جوار أمي على الأرض حين ذهب ويليام إلى الحمام، وناديتها. أجابَتني باقتضاب: «نعم؟»، وكأنني على وشك أن أطلبَ منها شيئًا. راودني دائمًا شعور أنها قَلِقة من أن أطلُبَ منها مالًا، ولكن لم أفعل ذلك قط. عاشَتْ مع ويليام حياةً مقتصدةً في أوروبا، وأجَّرا شقة ويليام في لندن، بينما أقاما في كوخ بفرنسا، في مكانٍ ليس ببعيد عن مدينة بوردو، الذي قد يُحوِّلانه إلى نزلٍ متواضع يوفر مكانًا للمبيت ووجبة إفطار.

سألتُها: «كنتُ أتساءل إن كان في وسعنا قضاء بعض الوقت معًا؟ أقصد أنا وأنتِ وحدنا».

- ستف، أظنه لن يكون لائقًا.

سألتُها وأنا أستقيمُ في جلستي: «لماذا؟»

- أقصد... إن كُنتِ ترغبين في قضاء الوقت بصُحبتي، فعليكِ أن تتقبلي حقيقة أن ويليام سيكون موجودًا أيضًا.

في تلك اللحظة، كان ويليام يسير نحونا بينما يتمَخَّط بصوتٍ عال في منديله. أمسَكتْ بيده ونَظَرَتْ إليَّ بحاجبين مرفوعين وكأنها فخورة بنفسها لأنها رسمت بيننا تلك الحدود.

لم يكن سِرًّا أنني لم أحبّ ويليام. حين زرتهما في فرنسا، اشتَبَكت ويليام في نقاش حاد أغضب أمي بشدة، لدرجة أنها ذهبتْ إلى السيارة وبَكَتْ فيها. تمنيتُ خلال تلك الزيارة أن أستعيد علاقتي الضائعة بوالدتي، ولم يكن السبب أن تساعدني في رعاية ميا. كُنتُ أتوقُ إلى أن يكون لي أم، شخص أثقُ به، يتقبَّلُني بلا قيدٍ ولا شرط رغم حقيقة أنني أعيش في ملجأ المشردين. لو كانت لي أم أتحدثُ معها، فربما كان في مقدورها أن تشرح لي ما كان يحدث لي، أو تسهِّلهُ علي، أو تعاونني في ألَّا أرى نفسي إنسانةً فاشلة. كان من الشاق الاعتراف بالوصول إلى درجة اليأس هذه؛ أن أدخلَ منافسةً لأنال اهتمام أمي.

لذا ضَحكتُ على دعابات ويليام. ابتَسَمتُ حين سَخِر من طريقة كلامي الأمريكية. لم أُعلِّق على لكنة أمي الجديدة، ولا على عجرفتها حديثة العهد، كما لو أن جدتي لم تكن تُعِدُّ السلطة من الفاكهة المُعَلَّبة والكريمة الرخيصة.

ترعرع أبواي في مناطق مختلفة من مقاطعة سكاجيت[1]، وهي تشتهر بحقول التوليب، وتقع على بُعد ساعةٍ من شمال سياتل. عاشت كلتا العائلتين في فقرٍ مدقعٍ امتد أجيالًا. أقامَت عائلة أبي في التلال كثيفة الأشجار أعلى بحيرة «كلير ليك». تدور إشاعةٌ بأن أقاربه البعيدين كانوا ما يزالون يصنعون ويسكي مون شاين[2]. عاشَتْ أمي أسفل الوادي، حيث كان الفلاحون يزرعون حقولًا من البازلاء والسبانخ.

طالَ زواج جدي وجدتي قرابة الأعوام الأربعين، تدور أولى ذكرياتي عنهما في بيتهما المتنقل في غابة يشقها نُهَير، بينما كنت أبقى بصحبتهما نهارًا، يذهب والداي إلى العمل، أعدَّ لنا جدي شطائر بالمايونيز والزبدة، يدهن بهما شرائح الخبز المحمص من نوعٍ ونَدر فيكون غداؤنا جاهزًا. لم تكن معيشتهما رغدةً، ولكن امتلأت ذكرياتي عن جدَّيَّ لأمي بالمحبة والدفء. صورة جدتي وهي تُقَلِّبُ حساء طماطم «كامبل» المُعَلَّب على الموقد، كانت تحملُ في إحدى يديها علبة مشروب غازي وتقفُ على قدم واحدة بينما تثني الأخرى على وركها مثل طائر الفلامينجو، ودائما كانت هناك سيجارة تحترق على منفضة سجائر على مقربةٍ منها.

انتقلوا إلى منزلٍ قديم في المدينة، قريب من وسطِ مدينة أناكورتس[3]، التي تدهورت حالها عبر السنين لدرجة أنها أصبحت شبه وعرة. عَمِلَ جدي سمسار عقارات، وكان يظهر فجأة بين جولات عرض المنازل للعملاء، ويندفع عبر الباب حاملًا ألعابًا صغيرة عثر عليها من أجلي، أو ربحها في لعب الكَمَّاشة في صالة البولينج.

1- إحدى مقاطعات واشنطن. (المترجمة)

2-(Moonshine) نوع من أنواع الويسكي المُقَطَّر، يُحَضَّر من الذرة بشكل غير قانوني؛ لأنه يدخل في تركيبته مواد سامة مثل الميثانول، قد تسبب العمي أو الوفاة. (المترجمة)

3- مدينة ساحلية تابعة لولاية واشنطن. (المترجمة)

أيام طفولتي، حين لا أكون في منزلهما، كنتُ أتصلُ بجدتي في الهاتف. قضيتً وقتًا طويلًا أتحدثُ إليها، لدرجة أنه توجد في كومة الصور صور كثيرة لي وأنا في الرابعة أو الخامسة من عمري، أقفُ في المطبخ مع سماعةٍ صفراء ضخمة أسندها على أذني.

عانَتْ جدتي من الفصام الارتيابي، ومع مرور الزمن أصبح مُحالًا خوض حوارٍ معها؛ ازدادَتْ أوهامها. آخر مرةٍ زرتها أنا وميا، أحضَرتُ لها بيتزا من «بابا مورفي» » كنتُ قد اشتريتها بالقسائم الغذائية. ظَلَّتْ جدتي بعينين ثقيلتي التحديد وشفتين فاقعتي الحُمرَة خارج المنزل تُدَخِّن طيلة زيارتنا. كان علينا أن ننتظر عودة جدي إلى المنزل لنأكل، وحين عاد، قالت جدتى إنها ليست جائعة، واتّهَمَتْ جدي بأنه يخونها، والأدهى، أنه كان يتغزلُّ بي.

رغم ذلك، كانت أناكورتس مستقرَّ ذكريات طفولتي. ورغم أن أواصري بعائلتي تقطعت، فإنني دائما أحكي لميا عن «خليج بومان»، إحدى مناطق «ديسبشن باس»، وهو أخدود في المحيط يفصل بين جزيرة «فيدَلجو» وجزيرة «ويدبي»، »، حيث كان يصطحبني أبي للتنزه وأنا صغيرة، كان ذاك الجزء الصغير من واشنطن -بأشجاره العملاقة وشُجيراته دائمة الخضرة- المكان الوحيد الذي شعرتُ فيه أنني في وطني. كُنتُ قد استكشفتُ كل ركن من أركانه، عرفتُ مساراته، والفروق الدقيقة بين تيارات محيطه، ونَقَشتُ أحرف اسمي الأولى على جذع برتقالي مُحمَرّ لشُجَيرة قَطلب أقدر على تحديد موقعها بالضبط. كلما عدتُ إلى أناكورتس لزيارة عائلتي، أجد نفسي أتمشَّى على الشطآن أسفل جسر ديسبشن باس، أقطع الطريق الطويل إلى المنزل عبر طريق «روزاريو»، مرورًا بالمنازل الفسيحة أعلى المنحدرات الصخرية.

اشتَقتُ إلى عائلتي، ولكنِّي وجدتُ عزائي في أن أمي وجدتي ما زالتا تتحدثان كل يوم أحد. تتصل أمي بها أينما كانت في أوروبا. وجدتُ في هذا الاتصال عزاءً لي، كأنني لم أخسر أمي بالكامل، بل ما تزال تتذكر في أعماقها الناس الذين تركتهم في ذيلها.

طَلَبتْ أمي زجاجة بيرة أخرى حين أتت فاتورة غدائنا في مطعم سيرينز. تَحَقّقتُ من الوقت، كان عليَّ أن أتفرغ مدة ساعتين لأنَظِّفَ الحضانة قبل أن أحضِرَ ميا. بعدما استمعتُ إلى ويليام وأمي وهما يستمتعان بقَصِّ حكاياتٍ غريبة عن جيرانهما في فرنسا مدة ربع ساعة كاملة، أخبرتهما أنني سأغادر مضطرة.

وقتها قال ويليام بحاجبين مرفوعين: «هل تودين أن أنادي النادلة كي تدفعي حساب الغداء؟».

حدَّقتُ إليه، ثمَّ قلتُ: «لا، لا أريد». نظرنا إلى بعضنا بعضًا كأننا في خضم مواجهةٍ ما. «ليس معي مالٌ لأدفع».

كان ليصبح من الذوق أن أدفعَ ثمن غدائهما؛ إنهما في ضيافتي، وساعداني في نقل أغراضي، ولكن يُفتَرَض أنهما أبواي. أرَدتُ تذكيره بأنه نقلني منذ لحظات من ملجأ مشردين، ولكنني التَفَتُّ إلى أمي بعينين مستجديتين. عَرَضَتْ مساعدتها قائلةً: «في وسعي أن أضيف البيرة على حسابي».

قُلتَ: «ليس في حسابي سوى عشرة دولارات». كانت العُقَد في حلقي تتضخم.

قال ويليام مندفعًا: «لن يكفي هذا حتى شطيرة البرجر التي أكلتِها».

كان مُحِقًّا. كَلَّفَت شطيرة البرجر ١٠,٥٩ دولارات. طَلّبتُ وجبةً ثمنها أقل بثمانية وعشرين سنتًا بالضبط مما لديَّ في حسابي البنكي. قرقعَ الخزي تَهَشَّم أي شعور بالنصر تذوقته ذاك اليوم إثر انتقالي من داخل صدري. الملجأ. لم يكن في وسعي دفع ثمن شطيرةٍ بائسة.

نقلتُ نظري من أمي إلى ويليام، ثم تحججتُ بالذهاب إلى دورة المياه. لم أكن في حاجة إلى التبول، بل إلى البكاء.

عَكَسَتْ لي المرآة امرأةً هزيلة، ترتدي قميصًا للأطفال وبنطالًا يصغرها؛ طَوَيتُ نهايته عدة ثنيات لأخفي قصره. في المرآة، رأيتُ تلك المرأة، امرأة استهلكها العمل لكن جيوبها خاوية من أي إثبات، امرأة عَجَزَتْ عن دفع ثمن شطيرة برجر. كُنتُ معظم الوقت مضغوطةً في العمل حَدَّ أنني لا آكل شيئا، ومَرَّتْ وجبات كثيرة مع ميا أقضيها في مراقبتها تَغتَرِفُ الطعام وتضعهُ في فمها، ويغمرني الامتنان مع كل لقمةٍ تتناولها. بدا جسدي أعجف غائرًا، وكل ما كان في حيلتي هو أن أبكي هَمّي في ذاك الحَمَّام.

منذ سنواتٍ وَلَّت، حيت كُنتُ أفكِّر في مستقبلي، بدا الفقر أمرًا لا يُصَدَّق، بدا وضعًا أعجَزُ عن تصوره، بعيدًا للغاية عن واقعي. لم أظن قط أن الحال هنا. ولكن الآن، بعدما أنجَبتُ طفلةً وخَرَجتُ من علاقةٍ عاطفية، ستنتهي بي كُنتُ عالقةً في واقعٍ لم أعرف طريق الخروج منه.

حين عُدتُ من دورة المياه، كان ويليام ما يزال جالسًا بمنخارين منتفخين غضبًا مثل تنينٍ صغير. انحَنَتْ أمي ناحيته وهَمَسَتْ بشيءٍ ما، فهَزَّ رأسه في استنكار.

قُلتُ وأنا أجلس: «بإمكاني دَفعُ عشرة دولارات».

قالتْ أمي: «حسنًا».

لم أتوقع أن تقبل أن أدفع. أيامٌ ستمرُّ قبل أن أقبضَ راتبًا. فَتَّشتُ في حقيبتي بَحثًا عن محفظتي، ثمَّ ناولتها بطاقتي لتضعها مع بطاقتها. بعد أن وّقَّعنا الفاتورة، نَهَضتُ وحَشَرتُ بطاقتي في جيبي، وعانقتها عناق وداعٍ مقتضب ثم غَادرتُ. كُنتُ على بُعد خطواتٍ قليلة من الطاولة حين قال ويليام: «في حياتي لَم أرَ أحدًا يشعر بالاستحقاق مثلها!».

2

مقطورة التخييم

هديتي في كريسماس عام ١٩٨٣ كانت دميةً من «كابدج باتش كيد[1]» أهداها لي أبواي. انتَظَرَتْ أمي ساعاتٍ في الطابور الطويل أمام أحد فروع «جي. سي. بيني» قبل أن يفتح أبوابه. كان مديرو المتجر يرفعون مضارب بيسبول فوق رؤوس المتسوقين ليمنعوا الحشود من التدافع أمام الأرفف. دَفَعَتْ أمي بمرفقها المتسوقين عن يمينها ويسارها مثل محاربة، والتقفتِ العلبة الأخيرة على الرف قبل أن تتمكن امرأةٌ أخرى من الاستيلاء عليها أو هكذا قَصَّتْ عليَّ القصة. أنصَتُّ لها بعينين جاحظتين، متلذذةً بحقيقة أنها حارَبَتْ من أجلي. أمي البطلة المنتصرة، جالبة الدُمى المنشودة.

في صباح الكريسماس، حَمَلتُ دُميتي الجديدة في حضني الصغير كان شعرها أشقر وقصيرًا ومضفرًا، وعيناها خضراوين. وقَفتُ أمام أمي ورفعتُ يدي اليُمنى وقلت: «بعد أن التقيتُ دُميتي، وتعلَّمتُ تلبية كل احتياجاتها أقسم

---

[1] تُصنع دمى (Cabbage Patch Kid) منذ عام ١٩٧٨، وتُباع في كل أنحاء العالم. معنى اسمها: طفل أرض الملفوف. كل دمية منها فريدة من نوعها، ولها سمات تختلف عن أختها مثل لون العيون أو الشعر أو الوظيفة يُرفق معها شهادة ميلاد تتيح للأطفال تبنيها ورعايتها كجزء من تجربة اللعب. تقول القصة الأصلية إن فتى قاده أرنبٌ عبر شلال ثم نفق طويل، وخرج به إلى أرض سحرية حيث ينمو الأطفال في قطعة أرض مع الملفوف. وحين طلبوا مساعدته لم يتخاذل، وبدأ يعثر على منازل لطيفة تتبنى الأطفال الصغار (المترجمة)

إنني التزم الالتزام الأكبر بأن أكون أمًّا صالحةً لدُميتي انجيليكا ماري». ثم وقعتُ أوراق التبني، والتي كانت جزءًا من ظاهرة دُمَى «كابدج باتش». كانت تعزز القيم الأسرية وتشجع على تحمُّل المسؤولية. حين تسلَّمتُ شهادة ميلاد دُميتي مطبوعًا عليها اسمي عانقتنا أمي عناقًا فخورًا أنا وأنجيليكا التي تحممتْ بعناية وارتدت ما يُناسب المناسبة.

تمنيت -طيلة حياتي - أن أصبحَ كاتبة. كبرتُ وأنا أكتبُ الحكايات وأختفي بصحبة الكتب وكأنهم أصدقاء قدامى. أفضل أيام العطلات المفضلة بالنسبة إلي هي المُمطرة منها، حين كنتُ أبدأ في قراءة كتابٍ جديد صباحًا في المقهى، وأنتهي منه مساءً في البار. حدث في أواخر عشرينياتي، خلال أول صيفٍ بصحبة جايمي أن بدأتْ جامعة مونتانا في ميزولا إغوائي ببطاقاتٍ بريدية عن برنامج الكتابة الإبداعية الذي تُديره الجامعة. تصَّورتُ نفسي داخل تلك الصور أسير عبر ريف مونتانا، في مكانٍ ما وسط الاقتباسات من كتاب شتاينبك، «رحلات مع تشارلي»، الذي رُسِمَ عنوانه بخطٍّ متشابك مائل، كُتِبَ فيه ببساطة: «...ولكن في مونتانا يكون الحب». الكلمات التي شَدَّتني إليها -إلى «بلاد السماوات الفسيحة»- في أثناء بحثي عن وطنٍ أستقر فيه خلال المرحلة التالية من حياتي.

التقيتُ جايمي بينما كنتُ عائدةً إلى المنزل من البار، حيث كنتُ أجتمع أنا وزملائي في العمل بعد مناوبتنا الأخيرة. كان الليل قد قارب على الانتصاف، وصراصير ليالي الصيف تطنُّ من العشب. ربطتُ كنزتي الرياضية على خاصرتي وأنا أتعرَّقُ وأرقص طوال الليل. حللتُ عقدتها استعدادًا لجولةٍ طويلةٍ بالدرَّاجة إلى المنزل. كان بنطالي متسخًا بقليلٍ من قطرات القهوة من مكان عملي في المقهى، وكان مذاق آخر جرعةٍ من الويسكي عالقًا في فمي. سمعتُ وسط النسيم العليل صوت جيتار مرتحل يأتي من مقعدٍ في المتنزه ومعه صوت جون براين الذي لا تُخطئه أي أذن. تَسَمَّرتُ في مكاني وقتاً كافياً لأميِّزَ الأغنية، ولاحَظتُ شابًّا يحملُ في حجره مشغل MP3 وسَمَّاعات

خارجية. كان يرتدي معطفًا قطنيًّا أحمر وقبعة فيدورا بنية، ويجلسُ محدودب الظهر يهزُّ رأسه بخفة في تناغمٍ مع الموسيقى.

ودون أي تفكير، جَلَستُ جواره. كان دفء الويسكي يضطرم في صدري. قُلتُ: «مرحبًا».

أجابني وابتسم: «مرحبًا».

جلسنا هكذا برهة، نستمع إلى أغنياتنا المفضلة، نتنفس هواء الليل على ضفاف المجرى المائي في قلب بورت تاونسند. ارتَفَعَتْ مبانٍ من القرميد ڤيكتورية الطراز فوق الأمواج المتلاطمة على أرصفة المرسى.

حين نَهَضتُ لأغادر -ملأى بحماس لقاء شاب جديد- خَربَشتُ رقم هاتفي على صفحة في دفتري ثم قطعتها.

سألته ويدي ممدودةٌ بالورقة: «هل تودُّ أن نخرج في وقتٍ ما؟».

رَفَعَ بصره ناحيتي، ثم رمى بصره إلى مصدر صوت الضحك حيثُ يغادر الناس مترنِّحين من مطعم سيرينز. أَخَذَ قُصَاصَة الورق من يدي ونظر إليَّ ثم أومأ.

في المساء الذي تلاه، رنَّ هاتفي وأنا أقود سيارتي إلى المدينة.

سألني: «إلى أين؟»

-وسط المدينة. انحَرَفتُ بسيارتي، عاجزةً عن تهدئة سرعتي والتحكُّم في المقود وحمل هاتفي في آن واحد.

قال: «لنَلتَقِ أمام متجر بيني سيفر». ثم أغلق الخط.

بعد قرابة خمس دقائق، كنتُ أركن السيارة في ساحة الانتظار. كان جايمي في انتظاري، يستند على مؤخرة سيارة فولكس فاجن حمراء مُجَمَّعة الأجزاء،

ويرتدي ملابس البارحة نفسها. ابتسم لي بجفاء، وأظهر أسنانًا معقوفةً لم ألحظها في عتمة الليل.

قال: «هيا لنشرب البيرة». ثم رمى عقبَ سيجارة ملفوفة على الرصيف.

دَفَعَ حساب زجاجتَي بيرة ساموبل سميث القوية، ثم عدنا إلى سيارة الفولكس فاجن وقاد بنا إلى جُرف لنرى غروب الشمس. تبادلنا الحديث، وخلاله كُنتُ أقَلِّبُ صفحات نسخةٍ من مجلة «نيويورك ريفيو أوف بوكس» وجدتها في المقعد الخلفي. حكى لي عن جولة السفر بالدراجة التي خَطَّطَ لها، تبدأ من ساحل المحيط الهادي على الطريق السريع ١٠١، وتنتهي في سان فرانسيسكو.

قال وهو ينظرُ إليَّ: «أخَذتُ إجازةً من العمل بالفعل».

كان لعينيه لونٌ بنيٌ أغمق من عيني.

سألته حين أدرَكتُ أنني لا أعرفُ عنه أي شيء باستثناء ذوقه في الموسيقى: «ماذا تعمل؟»

- مقهى ذا فاونتين.

سَحَبَ نفسًا من سيجارته.

ثم تابع: «كنتُ أعمل مساعد طبَّاخ، لكن الآن أحَضِّر الحلويات».

نفث الدخان، فتلاشي عموده في الجرف.

سألته حين توقفتُ عن محاولاتي الواهنة لألف سيجارة بنفسي: «هل أنتَ من يعدُّ حلوى التيراميسو؟».

أومأ، وعَرَفتُ من فوري أنني قد أنام معه؛ كانت التيراميسو مذهلةً لهذه الدرجة.

لاحقًا في آخر ذلك الأسبوع، أحضر لي جايمي مقطورة التخييم خاصته لأول مرة. وقَفتُ في مساحتها الضيقة، التي شملت أرضيةً خشبية الألواح، والكرسي الإسفنجي البرتقالي، وأرفف الكتب.

اعتذر جايمي حين لاحظ تَمَعُّن نظراتي إلى أرجاء المكان، وتلعثم شارحًا أنه يعيش في المقطورة ليدَّخِرَ المال من أجل رحلته بالدرَّاجة. ولكنِّي كنتُ قد رأيتُ كتب بوكوفسكي وسارتر وسط صَفٍّ من الكتب فوق الطاولة، ولم أعبأ البتَّة بمنظر مقطورته. التفتُّ إليه على الفور كي أُقَبِّلَه.

دَفَعَني ببطءٍ على وسادة سريره البيضاء. تبادَلنَا القُبَلَ ساعات، كأن شيئًا آخر لا يوجد في العالم. ملأ عالمي.

ولكن اتفقنا أنا وجايمي في نهاية المطاف أن كُلًّا منا سيمضي في طريقه الخاص؛ أنا إلى ميزولا، وهو إلى بورتلاند في أوريجون. فعلتُ ما طَلَبَ فورًا حين اقتَرَحَ عليَّ أن أنتقل إلى مقطورته لأوَفِّر المال. عشنا في مقطورةٍ مصممة لرحلات التخييم مساحتها عشرون قدمًا، ولكن الإيجار كان مئةً وخمسين دولارًا فحسب لكل واحد. كانت لعلاقتنا نهاية واضحة ومحددة؛ كان يساعد أحدنا الآخر ليحقق هدف مغادرة المدينة.

اقتصرت القوى العاملة في بورت تاونسند بشكلٍ رئيسي على قطاع الخدمات، تحديدًا تلبية خدمات السياح وأولئك ذوي الدخل الفائض الذين يتوافدون أفواجًا خلال الشهور الدافئة. كانت العَبَّارات تكتظُّ بهم، يتزاحفون فوق المياه بين اليابسة وشبه الجزيرة، على المعبر ما بين الغابات المطيرة وحرارة الربيع على الساحل. دَرَّت القصور الڤيكتورية المُطِلَّة على المياه والأسواق والمقاهي المال على المدينة، وفي المقابل وفَّرت سُبل العيش للكثير من سكَّانها. على ذلك، فالمال لم يكن مالًا وفيرًا، عدا في حالة أنْ قرَّرَ مواطن

بورت تاونسند تأسيس مشروعٍ تجاري؛ فلم تتوافر العديد من الفرص للعامل العادي كي يبني مستقبلًا لنفسه.

أرسى كثيرٌ من المقيمين الأساسيين قواعد مستقبلهم بشكل راسخ. في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، انتَقَلَتْ مجموعةٌ من الهيبيين إلى بورت تاونسند، ثم نَجَتْ مدينة كادت أن يهجرها البشر، والفضل يعود إلى مصنعٍ للورق وَظَّفَ كلَّ سكانها تقريبًا. بُنيت المدينة على أمل أن تكون أحد أضخم الموانئ الغربية، وفشلت حين غيَّرت قلة التمويل من أيام الكساد العظيم وجهتها ناحية سياتل وتاكوما. اشترى الهيبيون، الذين أصبحوا وقتها أرباب عملي وزبائن ثقة القصور الڤيكتورية، التي كانت في حالةٍ مستمرة من التدهور، تأثُّرًا بإهمال دام قُرابة قرنٍ كامل. عملوا سنواتٍ على هذه المباني؛ يحافظون عليها باعتبارها معالم تاريخية، يُحَسِّنون حال المدينة، يبنون مخابز ومقاهي، ومصانع بيرة، وبارات، ومطاعم، ومحال بقالة، وفنادق. أصبحت بورت تاونسند شهيرةً بإيواء الزوارق الخشبية، باهتمامٍ تطوَّر ليُصبحَ مدرسةً رسميةً ومهرجانًا سنويًا. حينئذٍ، تلك المجموعة التي حشدت قوتها لإحياء المدينة، خبت عزيمتها وتباطأت سرعتها، واستقر أمرها على أن تكون برجوازية. نكرس أنفسنا جميعًا -العاملون في قطاع الخدمات- لهم، نخدمهم بشتى الطرق، نعيشُ في كبائن ضيقة أو منازل اليورت[2]، أو شقق مشتركة. كنا نعيش هناك لأجل الطقس -لأجل الظلال المطرية التي تُلقيها الجبال الأولمبية علينا- لأجل المجتمع الفني الخفي الذي كان على بُعد توصيلةٍ بالعَبَّارة من سياتل. كنا هناك لأجل مياه المحيط الهادئة على الخليج، بسبب العمل الشاق ونمط الحياة الذي قدَّمته المطابخ الصاخبة.

عمل كلانا -أنا وجايمي- في مقاهٍ مختلفة، مستمتعين بشبابنا وحريتنا لنعمل ما نريد. كنا نعرف أننا مقبلون على أمورٍ أهمَّ وأفضل. كان يساعد أصدقاءه

---

[2]- منازل متنقلة تُشبه الأكواخ الخشبية. (المترجمة)

في مشروعهم التجاري، وأدى أي اعمالٍ جانبية أتت في طريقه، وكانت تُدفَعُ مستحقاتها في الخفاء دون تسجيلها. أما أنا، فعملتُ في مركز رعاية كلاب إلى جانب عملي في المقهى، وبِعتُ الخبز في أسواق المزارعين. لم يحصل أيٌّ منا على درجةٍ جامعية -اعترف لي جايمي بأنه حتى لم يتخرج من المدرسة الثانوية- لذا شغلنا أي وظائف تمكننا من كسب المال منها.

كانت مناوبات جايمي في المطعم مستقرة؛ من آخر العصر حتى الليل، لذا كنتُ معظم الوقت نائمةً حين يعود إلى المنزل، ثملًا بعض الشيء بعد ذهابه إلى البار. كنتُ أحيانًا أذهب للقائه في محل عمله، وأنفقُ ما حصلتُ عليه من بقشيش على بضع زجاجات من البيرة.

ثم اكتشفتُ أنني حبلى. هاجت معدتي بسبب الغثيان الصباحي، وانكمش العالم فجأة حتى شعرتُ أنه توقف عن الحركة. وقفتُ أمام مرآة الحمام وقتًا طويلًا، أرفع كنزتي لأفحص بطني. تكوَّن الجنين في عيد ميلادي الثامن والعشرين، عشية رحيل جايمي ليبدأ جولته بالدراجة.

أن أختار إبقاء الحمل يعني أن أظل في بورت تاونسند. أردتُ أن أُبقِيَ خبر حملي سرًّا لأمضي قُدُمًا في خطتي للانتقال إلى ميزولا، ولكن لم يكن هذا ممكنًا. كان لزامًا عليَّ أن أمنحَ جايمي فرصته ليكون أبًا؛ شعرتُ أنه من الخطأ تجريده من هذا الحق. ولكن البقاء معناه تأجيل حلم أن أُصبِحَ كاتبة، تأجيل الإنسانة التي توقعتُ أن أكونها، الإنسانة التي ستكمل مسيرتها لتصبح ذات شأن. لم أكن واثقةً تمامًا من رغبتي في التخلي عن هذا الحلم. كنتُ أستعملُ وسائل منع الحمل، ولم أكن ممن يرون الإجهاض قرارًا ظالمًا، لكنِّي فكرتُ في أمي كثيرًا، التي ربما وقفت تحدِّق إلى بطنها تناقش خياراتها في حياتي بالطريقة نفسها.

رغم أن كل آمالي كانت تتجه في اتجاهٍ مختلف، رَقَّ قلبي في الأيام التالية، وبدأتُ أقعُ في في حبِّ الأمومة، في حبِّ فكرة أن أكون أمًا. كان جايمي قد أنهى رحلته حين أخبرته عن الحمل. تَبَدَّلَ -فورًا- لُطْفُه الأول في تَمَلُّقي لأنهي

الحمل حين أخبرته أنني لن أُقدِمَ على فعل ذلك. لم يمضِ على معرفتي جايمي وقتها سوى أربعة أشهر فحسب، كانت ثورة غضبه وكراهيته نحوي مروعة.

ذات مساء، دخل جايمي إلى المقطورة مندفعًا بينما كنتُ أجلس على الأريكة المجاورة للتلفاز وأحاول تناول حساء الدجاج وأشاهد برنامج موري بوفيتش وهو يكشفُ عن نتائج فحوصات الأبوة. ذرعَ جايمي المكان وهو يحدق إليَّ مثلما فعل بقية الرجال في البرنامج، ويصرخُ أنه لا يُريد أن يُكتَبَ اسمه في شهادة ميلاد الطفل. كَرَّرَ قوله مُشيرًا إلى بطني: «لا أريدُ أن تُلاحقيني لأنفق على طفلكِ البائس». حافَظتُ على هدوئي كعادتي حين تبدأ زوبعات غضبه؛ على أمل ألَّا يُلقي الأشياء عليَّ. ولكن تلك المرة، كلما علا صراخه وزاد إصراره وتكرار قوله بأنني أرتكبُ خطأً، زاد تشبُّثي بالطفل واقترابي منه، لأحميه. حين غادر المقطورة، اتصلتُ بوالدي بصوتٍ مرتجف. أخبرته بما قاله جايمي، ثم سألته: «هل أنا أتخذ القرار الصائب؟ لأنني لا أعرفُ حقًّا. أريد أن أكون متأكدة. لستُ أعرفُ أي شيء».

قال: «اللعنة». ثمَّ توقف. «كنت آملُ فعلًا أن يكون جايمي على قدر المسؤولية هذه المرة». توقف ثانيةً، ربما في انتظار ردي، ولكن لم يكن عندي أي شيءٍ أقوله.

- تعرفين؟ مَرَرتُ أنا ووالدتكِ بالموقف نفسه حين اكتشفنا أمر وجودك، عدا أننا كنا مراهقين وقتها. وكما تعلمين، لم يكن وضعًا مثاليًّا، كان أبعد ما يكون عن المثالية. كنا جاهلين بما نفعل، لم نعرف إن كان قرارنا صائبًا. ولكن الآن أنت وأخوك وأنا ووالدتك، جميعنا بخير. انتهت بنا الحال خيرًا. وأنا على ثقةٍ بأنكِ أنت وجايمي والطفل ستصبحون على ما يُرامٍ أيضًا، حتى إن لم تؤمني بأن ذلك سيحدث.

بعد تلك المكالمة جلست ونظرت من النافذة. حاولتُ ألَّا أدعَ محيطي الحالي -المقطورة المجاورة لمخزنٍ ضخم في الغابة- أن يشتتني عن تصوُّر مستقبلي. بدأتُ أتحدثُ بنبرةٍ مختلفةٍ إلى نفسي، أُهدئ شكوكي. ربما سيغير جايمي

رأيه. ربما سيتطلبُ الأمر وقتًا. حَسَمتُ قراري أنه إن لم يفعل، فبوسعي التعامل هذا، حتى دون أن يكون لدي أدنى فكرة عن كيفية فعل هذا. لم أتمكَّن من الارتكاز عليه في قراري، أن أربِّي طفلًا معه، ولكن عرفتُ في قرارة نفسي أنه على الأقل عليَّ أن أمنحه فرصة أن يكون أبًا. هذا ما يستحقه طفلي. رغم أن الموقف لم يكن مثاليًّا البتة، كنتُ سأفعل ما يفعله الآباء والأمهات، ما فعلوه أجيالًا وأجيالًا، سأنجحُ فيه، لم يساورني شك. ما من خيارٍ بديل. كنتُ أمًّا وقتها. سأحتفي بهذه المسؤولية وأراعيها ما تبقى من حياتي. نهضتُ، وفي طريق خروجي، مَزَّقتُ طلبَ الالتحاق بالجامعة وذَهَبتُ للعمل.

3

السكن الانتقالي

انتقل والداي من واشنطن بعيدًا عن كل أقاربنا حين كنتُ في السابعة من العمر. عشنا في بيتٍ ملاصق لسفوح جبال تشوجَتش في أنكوريج بألاسكا. قَدّمَت الكنيسة -التي كنا نذهب إليها وقتها- عددًا من برامج التوعية للمشردين ومنخفضي الدخل. كان نشاطي المفضل في طفولتي أن أتصدَّق على المحتاجين خلال العطلات. بعد قداس يوم الأحد، كانت أمي تجعلني أنا وأخي نختار ملاكًا ورقيًا من المُعَلَّقين على شجرة الكريسماس في رواق الكنيسة. ثم نذهبُ إلى مركز التسوق بعد الإفطار لنختار الأغراض المذكورة في القائمة لأجل فتاةٍ أو فتىً مجهول الاسم في مثل عمرنا كنا سنُهديه ألعابًا جديدة، وبيجامة، وجوارب، وأحذية.

في سنةٍ من السنين، ذهبتُ بصحبة أمي لتوصيل العشاء إلى إحدى العائلات. انتظرتُ حتى حان دوري لأعطي الهدايا التي غلَّفتها برقةٍ إلى الرجل الذي فتح باب الشقة الكئيبة. كان له شعرٌ أسود كثيف، وجلدٌ لفحته الشمس أسفل قميصه الأبيض. بعد أن أعطيته حقيبة الهدايا، ناولته أمي صندوقًا به ديكٌ روميٌّ وبطاطس وخضراوات معلَّبة. أومأ لنا ثم أغلق الباب بهدوء. غادرتُ مكاني خائبة الأمل؛ ظننتُ أنه سيدعونا للدخول كي أساعد ابنته الصغيرة في فتح الهدايا التي انتقيتُها بعنايةٍ وحرص، أردتُ أن أرى السعادة التي سترسمها الهدايا على وجهها. كنتُ سأخبرها أن «الحذاء البَرَّاق الجديد كان الأجمل في

المحل». استغربتُ غياب سعادة والدها لمنحها الهدايا. أيام مراهقتي قضيتُ أمسيات كثيرة في وسط أنكوريج، أوزّع وجبات الغداء على المشردين. كانت وظيفتنا هي أن «نُبَشِّرَ» بالإنجيل وندعو إليه. ولقاء آذانهم المنصتة لنا، كنا نمنحهم تفاحًا وشطائر. كنت أقول لهم إن المسيح يحبُّهم، ولكن حدث أن ابتسم رجلٌ لي وقال: «يبدو أنه يحبكِ أكثر قليلًا». غَسَلتُ السيارات لجمع التبرعات، ولنسافر إلى دور الأيتام في ولاية باها كاليفورنيا في المكسيك، أو لإقامة مخيماتٍ دينية للأطفال في شيكاغو. أفكر في تلك الأيام وتلك الجهود المبذولة، وفي المكان الذي أنا فيه الآن، أجاهدُ لأعثر على عمل ومسكن آمن، تلك الجهود التي رغم نُبلِ غايتها، كانت التبرعات الخيرية والمساعدات الهشَّة هي ما حوَّل المعدمين إلى رسومٍ كاريكاتيرية؛ ملائكة مجهولة مصنوعة من الورق ومعلَّقة على شجرة. مرَّ ببالي الرجل الذي فتحَ لنا الباب، الرجل الذي أعطيته حقيبة الهدايا الصغيرة.

الآن أنا من أفتحُ الباب، أقبلُ التبرعات، أقبلُ حقيقة أنني عاجزةٌ عن إعالة أسرتي. أقبلُ عطاياهم البسيطة –زوجين جديدين من القفازات أو لعبة- التي يمنحونها بدافع الشعور بالرضا. ولكن محالٌ أن تضعَ «الرعاية الصحية» أو «رعاية الأطفال» على أي قائمة.

بما أن والديَّ ربياني أنا وأخي في مكانٍ يبعد آلاف الأميال عن جذورنا في حي نورث ويست بواشنطن حيث عاش أجدادي، أصبحت نشأتي مثل معظم العائلات الأمريكية من الطبقة المتوسطة.

لم نُحرَم من الاحتياجات الأساسية، ولكن عَجَزَ أبواي عن تحمُّل كثيرٍ من النفقات الإضافية، مثل مصاريف دروس الرقص، أو الكاراتيه، ولم يكن هناك أي حسابٍ لمصاريف تعليمنا الجامعي. تعلَّمتُ أهمية المال بسرعةٍ شديدة؛ بدأتُ أجالس الأطفال وأنا في الحادية عشرة من عمري، ودائما كنتُ أشغل وظيفةً أو اثنتين منذ ذلك الوقت. جرى العمل مجرى الدم عندي. كنتُ في مأمنٍ أنا وأخي تحت مظلة ديننا واستقرار عائلتنا المادي. انغرس شعور الأمان بداخلي. كنتُ آمنة، ولم أشكك قط في شعوري هذا، إلى أن ضاع المأمن.

قلتُ له إنني «بحثتُ على الإنترنت». كنتُ أخرج قصاصة ورقٍ من جيبي بينما أحمل ميا في حجري. «توجد قاعدة لنفقة الطفل، والمبلغ أكثر من عادل».

انتزع الورقة من يدي وكرمشها، ثم ألقى بها في وجهي، ونظرته المشتعلة غضبًا لم تفارق عينيه. ثم قال ببرود: «لن أدفع لكِ أي نفقة. بل أنتِ من عليه أن يدفع لي!». كان صوته يعلو أكثر وأكثر وهو يتحدَّثُ ويذرع المكان.

- لن تذهبي إلى أي مكان.

أشار إلى ميا: «سآخذها منكِ بسرعةٍ رهيبة تجعل رأسكِ يدور». ومع قوله هذا استدار ليُغادر، مُطلِقًا صرخة غضبٍ وهو يلكمُ الحائط مُحدِثًا ثقبًا في نافذة الباب الزجاجية. جَفَلَتْ ميا وأطلقت صيحة حادة لم أسمعها منها من قبل قط.

ارتعشت يداي وأنا أُدْخِلُ أرقام الخط الساخن للعنف المنزلي. تمكَّنتُ بصعوبةٍ بالغة من شرح ما كان يحدث قبل أن يبدأ جايمي في الاتصال بي مرةً تلو المرة. نصحوني بأن أُنهي المكالمة معهم وأتصل بالشرطة. دقائق مرت قبل أن تنير كشافات سيارة الدورية المقطورة بأكملها. طرقَ شرطيٌّ الباب المكسور بلطف. كان طويلًا للغاية؛ لمس رأسه السقف تقريبًا. كان يُدوِّن الملاحظات وأنا أحكي له ما حدث، يفحصُ الباب ويُومئ ويسأل عن حالنا، إن كنا بخير، إن كنا نشعر بالأمان. بعد عامٍ كامل من التعنيف والتهديد والصراخ بالإهانات، أتى هذا السؤال بردًا على قلبي. معظم آثار غضب جايمي كانت خفيَّة. لم يترك كدماتٍ أو علامات حمراء. ولكن هذا، هذا بوسعي أن أُشير إليه. بوسعي أن أطلبَ من شخصٍ آخر أن ينظر إليه. بوسعي أن أقول: «لقد فعل هذا. لقد فعل هذا بنا». والشخص الآخر سينظر إليه ويومئ، ويقول لي: «إنني أراه. أرى ما فعله بكِ». التقرير الذي كتبه الشرطي كان إثباتًا

بأنني لَستُ مجنونة، حَمَلتُه في حقيبتي شهورًا طويلة مثل شهادة تصديقٍ على تلك الحقيقة.

ملأ الارتياب والحيرة الليالي الأولى التي قضيناها في شقة السكن الانتقالي المطلَّة على شارعٍ رئيسي. كل صوتٍ كان يصدر عبر الجدران أو من الأرضيات كان يُفزِعُني. كنتُ دائمًا أتحقق أنني أغلَقتُ الباب بالقفل ونحن في المنزل، شيءٌ لم أفعله من قبل قط. لكني كنتُ وحدي مع ابنتي، وكنتُ أنا حمايتنا الوحيدة.

حين أقمنا في ملجأ المشردين، كان الشارع يُفضي مباشرةً إلى باب مقصورتنا، لذا فقد كانت سيارتي مركونةً في الخارج إن أردنا أن نرحل في أي وقت. لم أسمع أصوات جيراننا المُقيمين في مقصوراتٍ منفصلة، ولم أرهم قط؛ كنا محاطين بالطبيعة من كل جانب، بالأشجار والحقول التي بثَّتْ بداخلنا شعورًا بالسلام لا القلق. ذاك البراح الصغير كان خاصتي، ولم أقلق من أي تطفلٍ خارجي. ولكن في الشقة، كانت الجدران والأرضية رقيقةً للغاية، وكنا نسمع أصواتًا غريبة كثيرة. صعد غرباء السلالم ونزلوها بينما يصرخون في وجوه بعضهم بعضا. كنتُ أحدِّقُ إلى الباب، الشيء الوحيد الفاصل بيننا وبين بقية العالم، وأنا على يقينٍ بأن أحدًا قد يكسره في أي لحظة.

أحاطت بنا الشُقق الأخرى في ذاك المستطيل الرمادي، ولكن كان دليل مُقيميها الوحيد هو أصواتهم التي تأتي من خلف الجدران والقمامة المكومة في سلال النفايات والسيارات المصفوفة في مواقفها. ربما لو كنتُ التقيتُ جيراني ورأيتُ أشكالهم لكنتُ شعرتُ بأمانٍ أكثر. أقلقت نومي الأصوات التي يصدرونها ليلًا، والكعوب التي تضرب الأرض، أو أن يصدر صوتٌ مُباغِتٌ عميق ثم يتبعه ضحك أحد الأطفال. كنتُ أستقيظ مراتٍ كثيرة ليلًا لأطمئن على ميا. كانت تنام في مهد متنقل في الغرفة المجاورة.

مَرَّتْ ليالٍ كثيرة بقيتُ ساهرةً ساعات أستعيدُ فيها لحظاتٍ حدثت في المحكمة مع جايمي.

وقفتُ أمام القاضي، جوار جايمي ومحاميه. كنتُ بلا مأوى، وأحاربُ لأفوز بحضانة ميا، لم يكن سِرًّا أن الشهور الملآنة بكلمات جايمي الغاضبة كانت قد أدخلتني في حالةٍ من الاكتئاب، والآن هو يستند على هذا دعامةً لادِّعائه بأنني لستُ كُفئًا لرعاية ابنتنا. شعرتُ أن الفشل يقوِّضني. كأن محامي جايمي ظَنَّا فِعلًا أنني أُفَضِّل تربية ابنتي على هذا النحو، كأنني أومن بأن والقاضي رعاية طفلٍ بلا منزل مستقر كان أمرًا مناسبًا. كأنني لم أقضِ كل ثانية أفكر كيف سأحَسِّنُ وضعنا، إنْ كان باستطاعتي. بشكل ما، انعكس سلبًا عليَّ أنني انتَزَعتُ ميا من مكانٍ فيه كُنتُ أُعاقَبُ وأقاسي معاملةً وحشية حتى أتكور على نفسي على الأرض وأنا أنتحب مثل طفلٍ صغير. لم يرَ أحدٌ أنني كنتُ أحاول منح ابنتي حياةً أفضل، الكل رأى أنني أخرجها مما اعتبروه منزلًا مستقرًّا ماديًّا.

في مكانٍ ما بداخلي عَثرتُ على قوة جامحة وفزتُ بقضية الحضانة. حصلتُ على مكانٍ خاص، مكان لتكون ميا معي. على ذلك نهشني الشعور بالذنب معظم الليالي بسبب ما كان ينقصنا، كان الذنب ثقيلًا لدرجة أنني لم أكن بكامل انتباهي مع ميا. كنتُ بالكاد أتدبَّر أمري وأقرأ لها قصصها قبل النوم، أهزُّها بحنوٍّ على الكرسي نفسه الذي قرأت لي أمي قصصا عليه. كنتُ أقول لنفسي إن غدًا سيكون أفضل، سأكون أمًّا أفضل.

كنتُ أجلس وأنظر إلى ميا وهي تأكل، أو أدور في أنحاء المطبخ وأنا أشرب قهوتي وأحدِّقُ إلى جداول العمل والميزانية المُعَلَّقَة على الحائط. إن ذهبتُ واشتريتُ أغراض البقالة، كنتُ أقضي الصباح أقلِّبُ في رصيد حسابي المصرفي وفي بطاقة إي. بي. تي (تحويل التأمينات الإلكترونية) خاصتي -وهي بطاقةٌ ائتمانية مخصصة للطعام الذي تدفع الحكومة ثمنه- لأرى ما تبقى معنا من المال. كانت بطاقات إي. بي. تي حديثةً نسبيًّا، ولم يكن قد بدأ استخدامها سوى عام ٢٠٠٢. قدَّمْت طلبًا للحصول على القسائم الغذائية

وأنا حبلى، كان جايمي ما يزال يتذكَّر أن والدته كانت تدفعُ لمشتريات البقالة بقسائم ورقية، فكان يسخر بشدة من تلك الذكري. كنتُ ممتنةً لتلك البرامج التي تُطعِم عائلتي، لكنِّي كنتُ أعود إلى المنزل وأنا أحمل حقيبةً من المهانة كل مرةٍ أصارع في فِكري الظنون التي ظَنَّها المحاسب بي؛ امرأة تحملُ طفلتها في معلاقٍ على صدرها وتبتاع طعامها بالإعانة الحكومية. كل ما رأوه هو القسائم الغذائية، كوبونات ويك[3] الورقية الكبيرة التي وفرت لنا البيض والجبن والحليب وزبدة الفول السوادني. ما لم يروه كان الرصيد، الذي كان قُرابة الدولارات المئتين -حسب دخلي- وكان هذا كل ما أملك لشراء طعامي. كان عليَّ أن أمدد هذا المبلغ ليغطي نفقات الشهر كله حتى تحين دفعة الشهر الجديد. لم يروني وأنا أتناول شطائر زبدة الفول السوداني والبيض المسلوق، أو وأنا أرَشِّد في فنجان قهوتي الصباحية حتى لا تنفد قبل نهاية الشهر. رغم أنني وقتها لم أكن أعرف أن الحكومة كانت تسعى تلك السنة لتغيير الوصمة التي تحيط بالناس البالغ عددهم تسعة وعشرين مليونًا ممن يستخدمون القسائم الغذائية من خلال منحها اسمًا جديدًا؛ برنامج الدعم الغذائي التكميلي (سناب)[4].

ولكن سواء أسمَوها سناب أو القسائم الغذائية، لم يتغير البتة افتراض أن الفقراء يسرقون أموال ضرائب الأمريكيين الكادحين لشراء الوجبات السريعة.

رغم التيه الذي كنتُ أعيشه في رأسي، كنتُ مهووسةً حيال إن كنتُ أمًّا جيدةً أم لا. كنتُ أفشل؛ كنتُ منهمكة في التفكير في كيف سيمرُّ هذا الأسبوع عليَّ وابنتي ونحن على قيد الحياة. حين كنتُ برفقة جايمي، أتاحت لي وظيفته القدرة على البقاء في المنزل بصحبة ميا. كنتُ مشتاقةً للأيام التي كنا نقضيها كلها مع بعضنا بعضًا، نتوقفُ لنُمعِنَ النظر إلى ما حولنا ونتعلَّم ونتجول. أما وقتئذ فكنتُ أشعر أننا بالكاد نرى بعضنا بعضًا، دائمًا متأخرين على أمرٍ ما،

---

[3]- برنامج التغذية التكميلية الخاصة للنساء والرضع والأطفال. (المترجمة)
[4]- سناب هي مختصر الاسم بالإنجليزية: (Supplemental Nutrition Assistance Program). (المترجمة)

دائمًا في السيارة، دائمًا في عجلةٍ أمرنا لننهي طعامنا وننظف مكاننا، دائمًا في حالةٍ من الحركة وقليلًا ما نقفُ لنلتقط أنفاسنا. كنتُ أعيش حالةً من الخوف من التأخر في أمرٍ ما، أو نسيان شيءٍ ما، أو أن أخرِّب حياتنا أكثر؛ لم أحظ بوقتٍ من أجعل ميا تُراقِبُ يرسوعةً تشقُّ طريقها زحفًا على الرصيف.

ورغم أنني سَمِعتُ تقريبًا كل دفقة مرحاض مرعبة وكل حركة مقعد على أرضية شقق جيراني، كانت المرأة التي تُقيم أسفلنا قد عَرَّفَتنا بنفسها حين دقت على السقف بالمقشة أو عصا الممسحة، وتصرخُ كلما ركضت ميا. حين انتقلنا إلى هنا في أول الأمر، كَنَستُ أوراق الشجر وشِبَاك العناكب من الشُّرفة وأنزلتها على الأرض من تحتها. راحت تصرخ من الأسفل: «اللعنة! ماذا تفعلين؟!». إلى جانب الدقِّ بعصا المقشة، كانت تلك أول مرة تتحدثُ إليَّ بشكلٍ شبه مباشر. استَرسلَتْ في حديثها: «ما كل هذه القذارة؟ ترمين قذارتكِ عَلَيَّ!». عُدتُ إلى الداخل متسللة وأغلَقتُ الباب ببطء وجلستُ على الأريكة متيبسةً وكلي أملٌ بألا تصعد إلى الأعلى وتطرق بابي.

أمَّا جيراني في الأعلى -والدةٌ بصحبة أطفالها الثلاثة- فلم يكونوا في منزلهم قط. سمعتُ أصواتهم في الأسابيع الأولى فحسب. كنت أنام بحلول العاشرة مساءً تقريبًا، وكانوا يصعدون السلَّم في الوقت نفسه. وبعد مرور نحو عشرين دقيقة، تخبو أصواتهم ثانيةً.

ذات صباح، وبينما الشمسُ تشرق، سمعتهم يغادرون؛ ركَضتُ إلى النافذة لأراهم، يملؤني الفضول حيال الناس الذين يعيشون ظروفي نفسها.

كانت المرأة طويلة، وترتدي معطفًا واقيًا من المطر يختلطُ فيه الأحمر والبنفسجي، وحذاءً رياضيًّا أبيض. كانت تعرجُ في خطواتها. سار في ذيلها فتيان بَلَغَا سن المدرسة وفتاة صغيرة. كنتُ عاجزةً حتى عن تخيُّل ما تمر به، أنا التي ترعى طفلةً واحدة. رأيتها من وقتٍ إلى آخر عقب ذلك. كان شعر البنت الصغيرة مُسَرَّحًا على الدوام في جدائل إفريقية مزينة بشرائط ملونة فاقعة اللون. تساءلتُ عن مكان غيابهم طول اليوم، كيف أبقَتْ أطفالها هادئين

ومؤدبين على هذا النحو. بدت أمًّا بارعة؛ يحترمها أطفالها، وهو أمرٌ حسدتها عليه. كانت ابنتي قد تعلَّمتْ لتوِّها المشي وكأنها تهربُ مني أو تتشاجر معي خلال كل ثانية كانت تقضيها مستيقظة.

«تتعلمين الوقوع في حب قهوتكِ». هذا ما أخبرتْني به جارتي بروك حين التقينا بعد أحد الفحوصات المنزلية التي تُؤكِّدُ على أننا ممنوعون من الكحول. تلاقينا في صدفةٍ مُربِكةٍ بعض الشيء، وكانت هذه أول مرةٍ نتحدثُ فيها. تعرَّفتُ على بروك فيما بدا لي حياةً من الماضي، وقتها كانت تصبُّ لي كؤوس البيرة التي أطلبها على البار. تساءلتُ عمَّا أدَّى بها إلى هذا المكان، لكن لم أسألها قط. تماما مثلما لم أرغب أن تسألني.

لم أتحدَّث مطلقًا مع أيٍّ من الرجال المُقيمين في مركز إعادة التأهيل الواقع في الطرف الأقصى من المجمع السكني. كنت أراهم يقفون على المسار الذي يُفضي إلى شققهم يدخنون السجائر وهم يرتدون سراويل قطنية وشَباشِب. أحدهم كان رجلًا كبيرًا في السن، تزوره عائلته وتصطحبه معها من حينٍ إلى آخر، أما البقية، فلم يبرحوا مكانهم. ربما كانوا يقضون عقوبتهم في ذلك المكان فحسب. انتابني الشعور نفسه.

كنتُ أفتقدُ الذهاب إلى البارات، أفتقدُ شرب البيرة متى يحلو لي، ليس بسبب البيرة ذاتها، بل لأتحرر من القلق من أن تهبط عليَّ هيئة الإسكان فجأةً تلك الحرية! كنت أفتقد متعة حرياتٍ كثيرة؛ أن أروحَ، أن أجيء، أن أعمل، أن آكل أو لا آكل، أن أنام في أيام إجازتي، أن أحظى بإجازة.

كنت أتمتعُ أنا وميا بما بدا كأنه حياة طبيعية، تلك التي بها عِدَّة أمكنة علينا أن نكون فيها خلال اليوم. تأهَّلتُ للحصول على معونة رعاية الأطفال، ولكن كانت تُغطي نصف الأيام فحسب. كان زوج صديقتي -جون- يدير عملًا لتنسيق الحدائق، وكان يدفع لي عشرة دولارات في الساعة لقاء اقتلاع الحشائش وتشذيب الشجيرات وتقليم شجر الورد من الأزهار الميتة. كنتُ أقود سيارتي حول الجزء الشمالي الشرقي من شبه جزيرة أولمبيك نحو

مجتمعاتٍ مسوَّرة صغيرة مع حاوية قمامة كبيرة في صندوق سيارتي تحتوي على دلوٍ من الطلاء الأبيض وأدوات البستنة وعددٍ من القفازات. كان بعض العملاء لديهم مناطق مخصصة لألقي فيها ما اقتلعته من الحشائش والأشجار، أو كنتُ أضطر إلى وضعها في كيس أضعه جوار مهد ميا، أو حتى أحشرها حشرًا في صندوق السيارة. كان لدى جون قليلٌ من العملاء الثابتين بمهماتٍ صعبة بما يكفي كي تتطلب تدخلي؛ لذا كنتُ أملأ معظم وقتي بأعمالٍ أجدها بنفسي وأرفع التسعيرة من ٢٠ إلى ٢٥ دولارًا في الساعة، ولكن بعد حساب الوقت الضائع في السفر، لم أقدر على العمل سوى ساعتين أو ثلاث في اليوم.

كان تنسيق الحدائق مرادفًا للزحف؛ وظفني معظم الناس لأزيل الحشائش من سفوح تلالٍ شاسعة مغطاةٍ برقائق الخشب. كنت أقضي ساعاتٍ رابضةً على يديَّ، في القفاز وبنطال كارهارت السميك عند الركبتين، أعَبِّئ الدلاء وحاويات القمامة وأكياسها بالحشائش التي يدفعُ لي الناس مالًا كي أقتلعها من الأرض وأقتلها بطريقةٍ طبيعية.

كان عملًا مناسبًا، ولكن لكونه عملًا موسميًّا كان ينتهي خلال أسابيع، ولم أكن أعرف ما أفعله الانتهاء منه. كانت سوق العمل في بورت تاونسند كلها موسمية كذلك؛ يعتمدُ على السياح، بجيوبهم العامرة وبطونهم الخاوية. لم تتوفر وظائف «اعتيادية» بدوامٍ «مناسبٍ للأمهات»، ولا وظائف لديَّ أدنى قدر من الخبرة فيها على أي حال. كنت دومًا أعمل في المقاهي، أو في حفلات غريبة لم يكن في وسعي سردها في سيرتي المهنية. حتى تنظيف الحضانة أيام الآحاد لم يكن كافيًا. ولكن كان عندي عملٌ وقتها، وحاولتُ أن أصبَّ كل تركيزي على فعل أفضل ما في وسعي بما بين يدي.

كنتُ أتركُ ميا في الحضانة ظهرًا، وكان والدها يُقِلُّها ويبقيها في منزله حتى السابعة في ثلاثة أيام كل أسبوع. خلال بعض الليالي التي قضتها ميا في منزل جايمي، كنت أجلسُ في الشرفة وأسند ظهري على الحائط. إحدى جاراتي كانت دائما في الخارج مع ابنتها، تجلسان في مكانٍ عشبيٍّ صغير بين المبنى

والأشجار، وابنتها تَصغُرُ ميا قليلًا. كانت لكلتيهما بشرةٌ وضَّاءة، تبدو وكأنها تكاد تكون شفافة. كنت أصغي السمع للأم الشابة وهي تسأل بحنو: «هل ستتزحلقين على الزلاقة؟»، بينما تتسلقُ ابنتها سلالم الزلاقة البلاستيكية ذات اللون الأحمر والأزرق الباهتين. كانت متروكةً هناك على الأغلب منذ وقتٍ طويل. صاحت الأم وطفلتها تتزحلق: «ويييييي!»، رُحتُ أفكر أنها أمٌّ أفضل مني، أسمعها تسردُ رحلات صعود ابنتها وهبوطها من الزلاقة، مُدرِكةً أنني لن أقدر على استجماع هذا القدر من الحماس أبدًا.

ولكن في أحد تلك الأمسِية، سار المسعفون ورجال الإطفاء جوار تلك الزلاقة الصغيرة على العشب، وأزالوها من الطريق. اتجه جميعهم إلى شقة الأم صافية البشرة. لم أسمع الطفلة. استَنَدتُ على حاجز شرفتي لأرى ما يجري، وفعل مثلي بِضعٌ من جاراتي. أحدُ رجال الإطفاء رَفَعَ بصره إلينا جميعًا، فانزويتُ لا شعوريًّا لأختبئ. هَزَّ رأسه يمنةً ويسرةً. تساءلتُ كيف بدا شكلنا، رجالًا ونساءً في مساكن مؤقتة، يسترقون النظر من خلف حواجز شرفاتهم. تساءلتُ عن الطريقة التي تحدَّث بها رجال الإطفاء والشرطة عن المبنى، عنَّا، أي ذرائع أخرى طُلِبوا بسببها. عدتُ إلى الداخل قبل أن يأخذوا الأمَّ جَرًّا على نَقَّالة. لم أرغب أن تراني أراقبها، حتى وإن كانت مغمضة العينين؛ أردتُ أن أمنحها الاحترام الذي تستحقه. هذا ما سأرغبُ فيه إن كنت مكانها.

بعدما مرَّت ساعة وكنت قد غادرتُ شقتي وفي طريقي لأحضر ميا خَرَجَتْ بروك، عيناها ذاهلتان ووجهها محمر، وعلى أهبة أن تُذيع النميمة بأكملها. قالت مُسرِعَةً نحوي: «عَرَفتِ بما حدث؟».

هَزَزتُ رأسي. قالت إن شخصًا أتى لاستعادة الطفلة حين عثروا على والدتها فاقدةً الوعي في السرير. لم يتمكنوا من إيقاظها. كانت قد تناولت حبوبًا منومة وتجرعت زجاجةً كاملة من الفودكا. طمأنتني بروك قائلةً: «ولكنهم وصلوا إليها في الوقت المناسب؛ إنها على قيد الحياة». ثم تنهدتْ ورفعتْ كتفيها في استهانة: «نهاية منع الكحول».

لم تَدُر أفكاري الأولى حول صحة الأم أو الطفلة الصغيرة، كل ما تمنيته هو ألا يصل ما يحدث إلى مسامع جايمي. عِشتُ في خوفٍ دائم من حدوث أي شيءٍ سيئ حول ميا، حتى في حضانة «إيرلي هيد ستارت» التي كانت تذهب إليها، قد يؤثر سلبًا في التصريح الهش لرعايتها طوال الوقت.

لقد أغرقتُ ميا في عالم الفقر، أحطتُها بأناسٍ يحاولون التكيُّف معه بطرقٍ مأسوية أحيانًا، سُجِنَ البعض أو قضى وقتًا في مراكز إعادة التأهيل ودفع خسارة منزله ثمنًا، كان البعض غاضبًا للغاية من قلة الراحة المتواصلة، وعاني البعض من أعراض الأمراض العقلية. هنا أمٌّ اختارت أن تستسلم تمامًا. خيارٌ مُغرٍ بشدة؛ حَدَّ أنني شعرتُ - لحظة عابرة من الزمن - بوخزةٍ من الحقد عليها.

4

شقة أرض المعارض

- هل جولي هنا؟

سألتُ وأنا في انتظار السيدة خلف الزجاج أن تحرر إيصال استلام الإيجار. يتفاوت المبلغ كل شهر حسب تقرير الدخل، ولكنه لم يَقِلّ قط عن مئتي دولار تقريبًا.

ضيقت المرأة عينيها وهي تنظر إلى اللوح الأبيض المُعَلَّقِ على الحائط خلف مكتبها. أجابت بتنهيدة: «لا، إنها في الخارج مع أحد العملاء. أتريدين أن تتركي لها رسالة؟»

- أجل.

أخبرتُ جولي في اليوم التالي في قاعة المؤتمرات بأنني: «أمرٌ بوقتٍ عصيب حيال الاستقرار في الشقة».

لم تسأل جولي عن السبب، فتنفستُ الصعداء.

كان وقتًا مربكًا؛ امتلأ بتساؤلات عمَّا إذا كانت هيئة الإسكان ستَطرُقُ بابي، والمشي على أطراف أصابعي في الشقة خوفًا من أن تصرخ المرأة التي تسكنُ أسفلنا وتدكَّ أرضيتنا بعصا مقشتها. وصل إلى حد أنني دعوتُ جايمي على

العشاء لأن الوحدة بدأت تنهشني. لم أخرج منذ فترة، لم أقابل أصدقائي، ولم أدعُ أيًّا منهم. شعرت بالعزلة. لم يكن هذا المكان مكاني.

قالت لي جولي: «انتظري هنا». ثم عادت بعد لحظات مع حزمة من الأوراق. «في وسعنا تَسجيلكِ في برنامج تيبرا»، إشارةً إلى تي. بي. آر. ا. آر. ا. وهو اختصار اسم برنامج الدعم الإيجاري بناءً على وضع المستأجر[5]. «يُشبه كثيرًا برنامج القطاع الثامن. أنتِ على قائمة انتظار القطاع الثامن، صحيح؟».

أومأتُ. كان القطاع الثامن كالحصان المجنَّح للمعونات الحكومية؛ تسمعُ عنه طوال الوقت، لكن لا تعرفُ أي أحدٍ حصل عليه. كان عبارة عن قسيمة تأجيرية تُغطي أي تكاليف سكنية بنسبة تتراوح بين ٣٠ إلى ٤٠% دخل المستأجر، بمعنى أن شخصًا يعمل بالحد الأدنى للأجور ويقبضُ ألف دولار شهريًّا، سيدفعُ بالقسيمة ثلاثمئة دولار للإيجار، والحكومة ستتولى دفع البقية ما دام محل الإيجار يتماشى مع احتياجات المستأجر. يكون على الأغلب غرفتي نوم أو ثلاثا. على المبنى كذلك أن يستوفي شروط القطاع الثامن، والتي كانت بسيطة للغاية؛ مثلًا أن يخلو طلاؤه من الرصاص، وأن تكون سباكته بحالةٍ جيدة، وتفاصيل من هذا القبيل. بمجرد أن يعثر عليه الواحد فهو أمرٌ جلل -ما دام بإمكانك إيجاد مستأجر يقبل بالبرنامج- في أي مكانٍ وأي ولاية، ولا تنتهي صلاحية سريانه إلى الأبد.

سُجِّلَ اسمي على قوائم انتظار ثلاث مقاطعاتٍ مختلفة. كان لمقاطعة جيفرسون -حيثُ بورت تاونسند- أقصر قائمة: أي عامٌ واحد من الانتظار، أما بقية الأماكن التي تواصَلتُ معها، فكان الانتظار يصل إلى خمسة أعوام أو أكثر. بعض الأماكن لم تكن تقبل متقدمين جددًا من الأساس، لأن الحاجة كانت في أوج ارتفاعها.

---

[5]- (TBARA) اختصارا للاسم الإنجليزي (Tenant-Based Rental Assistance). (المترجمة)

عَرَّفتني جولي على موظفة اجتماعية جديدة كانت مختصةً في أعمال القطاع الثامن وبرنامج تيبرا. كانت تلك السيدة تجلسُ خلف مكتبٍ فسيح، ويلفُّ شَعرُها القصير الغامق المموج وجهها المتجهِّم. طلبت مني أن أملأ عدة طلبات تقديم كلها أسئلة عن خطط العام المقبل وما بعده. إضافة إلى إثبات تفصيلي لدخلي الخاص وحساباته، و٢٧٥ دولارًا من معونة دعم الطفل الشهرية، والإيجار المتوقع أن أدفعه لقاء مسكن من حجرتين. سيُخَفَّضُ إيجار شقة تؤجر بسبعمئة دولار في العادي إلى ١٩٩ دولارًا.

أخبرتني جولي التي كنت ممتنةً لها لأنها جلست بصحبتي خلال هذا الاجتماع بأن «المبلغ سيزيد أو ينقص بناء على تقارير دخلكِ».

كان برنامج تيبرا يتطلَّبُ كذلك حضور محاضرة أو ندوة كي أعرف أكثر عنه، ولكن السبب الأساسي كان أن أتعلَّم طريقة اقتراح البرنامج (ونظام القطاع الثامن) على المؤجرين لدفع إيجاري. أخبرتني جولي ونحن في طريق مغادرتنا: «أغلبُ المؤجرين لديهم تجارب مع القطاع الثامن، أو لديهم على الأقل فكرة عامة عن البرنامج. ولكن بعضهم لا يدرك أنه أمرٌ إيجابي فعلًا». لم أفهم مقصدها، وتساءلتُ لِمَ قد يُعَدُّ أمرًا سلبيًّا، لكن لم أسألها.

توقفنا في موقف السيارات، حيث دونت لي موعد ومكان محاضرة المعونة الإسكانية. قالت بنبرةٍ متفائلة: «أنتِ محظوظة؛ ستُقَام واحدةٌ غدًا. أظنكِ ستتمكنين من الانتقال إلى مكانٍ جديد خلال فترةٍ وجيزة!»

ابتسمتُ وأومأتُ لها، لكن لم أعقد أي آمالٍ على أن أيًّا من تلك البرامج سيُحَسِّن وضعي. كانت صدمة ستة أشهر من التشرُّد وقبلها تعنيف جايمي المتصل قد شلَّا عالمي كله. كان عقلي ومعدتي وأعصابي وكل شيء في حالةٍ لا تنتهي من التأهب القصوى. لا شيء آمن، لا شيء دائم. أسير كل على بساطٍ قد يُسحَبُ من تحت قدمي في أية لحظة. رأيتُ الناس يبتسمون لي، يهزون رؤوسهم، يخبرونني مرارًا وتكرارًا كم أنا محظوظة لأن هذا البرنامج أو ذاك

المكان متاح لنا، لكن لم أشعر قط أنني سعيدة الحظ. حياتي بأكملها انقلبت رأسًا على عقب وأصبحتُ لا أفهمها.

أمْلَى عليَّ الموظَّفون الاجتماعيون وجهة الذهاب، وطريقة التقديم، والاستمارات التي عليَّ تسليمها. سألوني عما أحتاج إليه، وكنت أجيبهم: «مكان أعيش فيه»، أو «طعام»، أو «رعاية لطفلتي كي أتمكَّن من العمل».

وساعدوني، أو كانوا يعثرون على أشخاصٍ يساعدونني، أو لم يساعدوني تماما. ولكن كان هذا كل ما في مقدروهم فعله. كان التعافي من الصدمة أمرًا مهمًّا، بل ربما الأهم في المطلق، ولكن لم يكن هناك أحد في وسعه ، مساعدتي في هذه المسألة فحسب، بل لم أكن أعرف أنني في حاجة إلى التعافي من الأساس. خلقت بداخلي أشهر الفقر والاستقرار المتزعزع وانعدام الأمان ردَّ فعلٍ مذعور سيستغرق إصلاحه سنواتٍ طوالًا.

- قد تظنون أن المُلَّاك سيقدِّرون قيمته.

قال الرجل الواقف أمام الغرفة لنحو عشرين شخصا يجلسون حول طاولتين في غرفة ضيقة. كان اسمه مارك، الرجل نفسه الذي يقدِّم ندوة برنامج لاي-هيب[6] (برنامج دعم استهلاك الطاقة المنزلية لذوي الدخل المنخفض). كان قد مرَّ عامٌ كامل على حضور ندوةٍ طالَتْ ثلاث ساعات عن كيفية استخدام الكهرباء بطرقٍ أكثر فعالية. كانت المعلومات مُطنَبةً وبديهية. حاولتُ إيجاد الطَّرافة فيما يجري، أن أفصلَ نفسي عن ظروفي، أن أتعلَّم أن إغلاق المصابيح كان أمرًا مطلوبًا لأتلقَّى منحةً من أربعمئة دولار تغطي وقود مع كل خطوة كنت أشعر أن المحتاجين إلى الدعم الحكومي كان يُفتَرَض أنهم فئة

[6] (LIHEAP) اختصارا لاسم البرنامج الإنجليزي (the Low-Income Home Energy Assistance Program). (المترجمة)

جاهلة وغير متعلَّمة، وكانت تُعامَلُ على هذا الأساس. كم كان مُهينًا أن أعرف أنه بما أنني في حاجةٍ ماسةٍ إلى المال، فحتمًا أنا في جَهلٍ تام بكيفية تخفيض فواتير الاستهلاك.

آنذاك كان علي أن أحضر عرضًا يمتدُّ عدة ساعات كي أتعلَّم كيف يدفع برنامج المعونة الإيجارية إلى المُلَّاك لأتمكَّن من طمأنتهم أن أموالهم ستصل إليهم، لأنه من وجهة نظر الحكومة وأي شخصٍ آخر، كان صُلب الموضوع أنني غير جديرةٍ بثقتهم. كل شيءٍ بدا متضاربَ الأهداف والنتائج؛ كنت أستقطعُ من وقت العمل لأكون هناك، وعلي أن أوفر رعايةً لابنتي. جَلَستُ هناك أحدث إلى مارك الذي وقفَ في مقدمة الغرفة. ارتدى القميص القطني طويل الأكمام نفسه والبنطال الجينز الأزرق الذي يرفعه حتى معدته الذي ارتداه حين ألقى محاضرة برنامج لاي-هيب. كان ذيل الحصان الرفيع المتدلي من رأسه قد طالَ قليلًا عن آخر مرةٍ رأيته فيها العام الماضي. ابتَسمتُ حين تذكرتُ اقتراحه لترشيد الكهرباء بألَّا نسخِّن الفرن قبل استعماله، وأن نبرِّده بترك بابه مفتوحًا. قال إنه علينا ألا نتخلص من الماء الساخن بعد الاستحمام مباشرةً، بل علينا أن نترك الحرارة تنبعث من المياه إلى أرجاء المنزل كي تدفئه.

قال مارك: «إن برنامج القطاع الثامن عظيمٌ للغاية للمُلَّاك؛ لأنه إيجار مضمون الدفع. إنهم فقط لا يحبذون فكرة التأجير للناس في القطاع الثامن؛ إنها وظيفتكم أن توضحوا لهم أن الأمر يستحق».

خطر ببالي عدد المرات التي أتت فيها الشرطة ورجال الإطفاء والمسعفون إلى مبنانا خلال الشهرين الماضيين؛ أتوا لأجل التحقق عشوائيًّا من أن المساكن نظيفة، أو للتأكد أن السيارات المُعَطَّلة في باحة السيارات قد أُصلِحَت، أتوا لتفتيشنا، كي لا نرتكب فظائع الأعمال المتوقعة من الفقراء، مثل أن تُراكِمَ الملابس المتسخة والقمامة، بينما نحنُ في واقع الأمر كنا نفتقر إلى الطاقة الجسدية والموارد بسبب العمل في وظائف ينفر من عملها أي أحد. كان يُنتَظَر منا أن نعيش على الحدِّ الأدنى للأجور، أن نعمل عدة وظائف في ساعاتٍ متغيرة، أن نتحمل تكاليف الاحتياجات الأساسية بينما نُحارب

للعثور على أماكن آمنة نترك فيها أطفالنا. لم يلحظ أحد أعمالنا، الكل رأى نتيجة عيش حياةٍ تَدَهسُكَ يوميًّا باستحالتها. بدا كأنني مهما حاولتُ إثبات العكس، فإن الفقر سيقترن بالقذارة لا محالة. كيف عساي أن أقدِّمَ نفسي إلى المؤجرين بأنني مستأجرةٌ كُفء وأنا يصدُّني جدارٌ شاهقٌ من الوصم؟

أكَّد مارك قائلًا: «إن كان أحدكم بالفعل في تيبرا، فعليه شرح عملية الانتقال منه إلى برنامج القطاع الثامن، ولكن من الضروري توضيح فوائد البرنامجين بالتساوي. ما تقدمه هذه البرامج هو تقسيم الإيجار على دفعتين؛ دفعة تدفعها أنت، والأخرى يتولَّاها البرنامج». بدا متحمسًا من حديثه. يظنُّه الواحد يعرض سلعًا في مزاد، وليس يتحدثُ أمام متقدِّمين لبرنامج القطاع الثامن. «لا يروق للمُلَّاك أن دفعة القطاع الثامن تأتي في يومٍ محدد، يرغبون دومًا في تسلُّمها أول الشهر، ولكن في وسعكم إقناعهم!»، تناول رزمةً أخرى من الورق ليوزعها، وكرر قوله: «إن برنامج القطاع الثامن مالٌ مضمون».

هناك عوائق أخرى على المتقدم تخطيها بعد كسر جدران النظرة الدونية وإقناع المالك بالتأجير له. رغم أن المفترض أن الحصول على موافقة التمويل من البرنامج تقع على عاتق المالك، فعلى المنزل أو الشقة أن يتبعا عددًا من معايير السلامة، بما في ذلك كواشف الدخان، وشروطًا أخرى للمساكن الآمنة ومعظم الوقت كان معنى هذا أنه في حالة لم يتوافق المنزل أو الشقة تلك المعايير، فلن يُتَاحا لعائلة حاصلة على قسيمة تأجير.

يؤدي بنا هذا إلى معضلة؛ بما أن المُلَّاك في الأحياء المناسبة لا يرغبون في التأجير لـ «أناس القطاع الثامن»، كان علينا البحث عن أي سكنٍ في أماكن بالية، ونخاطر بألا تجتاز فحص صلاحية السكن.

أشار مارك إلى أنه «مطلوبٌ من المُلَّاك استيفاء معايير برنامج القطاع الثامن، ولكن غالبيتهم لا يرغبون في الإقدام عليه فحسب؛ إنه قرارهم الشخصي. ليس فيه جريمةٌ ولا تمييز...».

صَرَخَتْ فتاةٌ بجواري: «بل هو التميز بعينه!».

كنتُ أعرفها من مطعم وترفرونت بيتزا؛ كنا نتبادل الابتسامات لا أكثر. أظنني أتذكَّر اسمها، آيمي، ولكن لَستُ متأكدة.

أكمَلَتْ: «وَجدتُ أنا وصاحبي مكانًا رائعًا، ولكن انتهى الأمر بأن صديقةً لي حصلتْ عليه. قال المالكُ إنه لا يرغب في التأجير للمنتسبين إلى برنامج القطاع الثامن لأنهم سيخربونه». مَسَّدَتْ أسفل بطنها الحامل. «قال إنه يرفض أن يكون مؤجِّرَ عشوائيات».

التَفَتَ الجميع إلى مارك الذي وضع يده في جيبه.

استغرَقتُ -بطريقةٍ ما- أسبوعًا واحدًا لأجد مسكنًا. ليس هذا فحسب، كان متاحًا من ساعتها، واجتاز فحص الأمان؛ تمَكَّنَّا من الانتقال فورًا من السكن الانتقالي إليه. كانت الشقة تقع في مبنىً يطل على أرضٍ للمعارض، ويبعُدُ عدة أحياء عن شاطئ نورث بيتش. رَفَعَتْ جيرتي -مالكة المبنى- كتفيها في عدم اكتراث حين أخبَرتُها بطريقة دفع الإيجار، شَرَحتُ لها أنني سأدفع الجزء الخاص بي في بداية الشهر، ولكن سيصلها الجزء الآخر في اليوم العاشر من كل شهر.

قالت: «لا مشكلة». ثم ابتسمتْ لميا، التي خَبَّأت رأسها في كتفي. «هل هي في حاجة إلى سرير أطفال أو أي شيء محدد؟»

أرَدتُ أن أجيب بنفي قاطع؛ أملَتْ علي غريزتي دوما أن أرفُضَ محاولات الناس لمساعدتي. قد يحتاج إلى تلك المساعدات شخصٌ آخر أكثر مني. ولكن خطر ببالي الثقب في سرير ميا القديم.

أجَبتُها: «نعم، ستحتاجُ إلى واحد».

قالت جيرتي: «عظيم، تَركَ المستأجر السابق بضعة أشياء، ولم أكن أعرفُ ماذا سأفعل بها». سارت إلى مؤخرة شاحنتها وأخرَجَتْ سريرًا للأطفال أبيض اللون مثل أولئك المستخدمين في حضانة ميا. داخل السريرِ كان هناك قميصٌ صغيرٌ أحمر. مَدَدتُ يدي وأمسَكتُه، ثم ناولته جيرتي.

قالت: «بإمكانكِ أخذه كذلك، أظنه زيًّا تنكريًّا».

نَفَضتُه بيدي الأخرى، ورأيتُ العينين المخيَّطتين في قلنسُوَتِه وذيله القطني من الخلف. قلتُ بابتسامةٍ واهنة: «هل هو كركند؟»

ضحكت جيرتي: : «أظنُّ أن هذا ما يُفَتَرُض أن يكونه».

لم تحظَ ميا بزيٍّ تنكُّريٍّ للهالوين من قبل قط. كنا وقتها في سبتمبر، ولم يخطر ببالي الأمر لأن بالي انشغل في رحلة العثور على بيتٍ جديد.

ساعدتني جيرتي في إدخال السرير، ثم تركتنا لأمرنا والمفاتيح بيدنا. حصلنا على شقة الطابق الأرضي، كان بها شرفة أمامية تُفضِي إلى فسحة صغيرة عشبية، يمتدُّ خلفها حقلٌ فسيح. أحاطت النوافذ غُرفَةَ الطعام جوار المطبخ من كل اتجاه. كان أخي قد جمع لي حاسوبا مكتبيا، فوضعته على منضدة المطبخ الثابتة، ثم وضعت أسطوانة في محرك الأقراص. رقصت ميا قليلًا، وراحت تركض حول المنضدة وإلى الصالة، ثم دفنت وجهها في الأريكة، وركضت في الردهة قبل أن تعود من حيث أتت، وأعادت الكرَّة.

امتلأت الأرفف بالكتب في الصالة. عَلَّقتُ بضع صور وأعمال فنية . إياها أمي؛ لوحات الحقول المغطاة بالثلج، رسمها فنانو ألاسكا منحتني وكبرتُ بصحبتها. رنَّ هاتفي برقم جايمي بينما كنتُ أعلق اللوحة الأخيرة -لوحة لشجرة البَتُولا- وكنتُ تركتُ له رسالةً آنفًا.

قال حين أجَبتُ: «ماذا تريدين؟»

- أنا!... عندي فرصةٌ للعمل يوم السبت، وكنت أودُّ سؤالك إن كان بوسع ميا أن تكون معك وقتًا أطول.

- أطول إلى متى؟

كان يأخذها عدة ساعات أيام السبت والأحد، عدا الإجازة الأسبوعية الأخيرة من كل شهر.

أجبتُه: «العمل خارج المدينة؛ سيأخذ مني ساعات طويلة، لذا أطول وقتٍ ممكن».

لم يقل جايمي شيئًا عدة ثوانٍ. سمعتُ أنفاسه متحشرجة؛ من المؤكد أنه كان يدخن سيجارة. كنت أطلبُ منه كثيرًا أن تظل ميا معه وقتًا خلال تلك الفترة، في محاولةٍ لإنجاز أكبر قدرٍ ممكن من العمل قبل انقضاء الموسم.

أجاب: «لا».

- لماذا؟ إنني أطلبُ هذا يا جايمي كي أتمكَّن من العمل.

انفجر قائلًا: «لا أريد أن أساعدكِ. أنتِ تأخذين مالي كله لأنكِ لا ترسلين معها حفَّاضات، وعليَّ أن أعدَّ لها عشاءً، لذا لا». تحدثتُ معه أكثر كي أقنعه بالعدول عن رأيه.

صَرَخَ مرةً أخرى: «لا! لن أساعدكِ في أي شيء!»، ثم أغلق الخط.

تسارع نبض قلبي بطريقةٍ متقطعةٍ ساحقة تحدث بعد محادثاتٍ شبيهةٍ بهذه، المحادثات التي تنتهي بصراخه المعتاد في اذني. ضاقَ صدري تلك المرة أكثر وأكثر، شعرتُ بصعوبة التقاط نفس واحدٍ عميق. نصحتني بياتريس -طبيبتي النفسية في برنامج الحماية من العنف الأسري- بأن أتنفس في كيس ورقي حين أمرُّ بهذا الموقف. أغمَضتُ عيني وتنفستُ عبر أنفي، ثم حَبَستُ

نفَسي خمس ثوانٍ، ثم زفرته من فمي في المدة نفسها. كررت العملية مرتين قبل أن أفتحَ عينيَّ وأرى ميا تقفُ أمامي تُحَدِّثُ إليَّ. سألتني: «مااااااااذاااااا تفعلين؟»، خَرَجَ صوتها مُشوَّشًا عبر أسنانها التي تعضُّ بها دميتها.

قلتُ وأنا أنزل إلى مستواها لأحملها: «إنني بخير». ثنيتُ أصابعي لأجعل منها مخالب؛ وحش الزغزغة. زَارْتُ، فصَرَختْ ميا صُرَاخًا مسرورًا، ورَكَضَتْ حول منضدة المطبخ وأنا من خلفها. أمسَكتُ بها على الأريكة، زَغزَغْتها بقوةٍ أسقَطَتْ دميتها من فمها من شدة الضحك. ثم شملتها بذارعي وحملتها. عانقت جسدها الصغير، شعرتُ بدفئها وتنفستُ رائحتها.

راحَتْ تتلوى: «لا! يا ماما!» ضَحِكَتْ. «مرةً ثانيةً! مرةً ثانيةً!».

رَكَضَتْ إلى حجرتها، ورَكَضَتُ خلفها دون أن يصرخ بنا أحد أو يطرق أرضيتنا بمقشته.

5

سبعة أنواع مختلفة من الإعانات الحكومية

رَفَعتُ يدي إلى قلنسُوَة معطفي المَطَرِي وسحبتها على رأسي، ولكنَّ أمطار أواخر الصيف كانت قد بدأت تهطلُ بغزارةٍ وسرعةٍ شديدتين؛ فابتلَّ شعري بالفعل. سِرتُ بمحاذة الجدار المرصوف بالأحجار حيثُ وقفَ رفيقي في العمل ووجهه منغمسٌ في قلنسُوَته. قُلتُ بصوتٍ عالٍ ليسمعني عبر المطر المنهر: «ماذا سنفعل الآن؟»

أجاب جون، زوج صديقتي إيميلي: «نعود إلى المنزل». كان قد وظَّفَني لمساعدته في تنسيق الحدائق منذ ستة أشهر. رفع كتفيه في عدم اكتراث وابتسم شبه ابتسامة، رغم أن معطفه الأخضر اخضرار الأشجار كان ملآن بحبَّات الثلج التي زُخَّت علينا قبل هطول المطر. خلع نظارته ومسح الضباب وقطرات المطر، ثم ارتداها ثانيةً.

طأطأتُ رأسي في هزيمة. حدث هذا كثيرًا في الآونة الأخيرة؛ نترك العمل قبل إنهائه بسبب الأمطار. كانت نهاية الموسم على الأبواب، ومعه سيُغلَقُ مصدر دخلي الرئيسي.

وضعنا حاويات القمامة والمَشَاذِب والقَشَّاشَات في صندوق سيارة جون النصف نقل. ابتسم لي مرةً ثانية قبل أن يركب السيارة ويرحل. راقبته يبتعد قبل أن تقع عيني على سيارتي التي ركنتها في زاويةٍ من الشارع. كانت النوافذ الأمامية مفتوحة. اللعنة!

وقفتُ حين وصلتُ إلى البيت على قدمٍ واحدةٍ على المربع المشمع أحاول خلعَ حذائي البلاستيكي من نوع إكستراتَف. فتحتُ أزرار بنطالي الكارهارت وأنزلته حتى ركبتي كي أتمكَّن من التجرد منه، كان متشبعًا بالوحل والمطر لدرجة أنه ظَلَّ منتصبًا في شكلٍ أشبه بالأكورديون. يَشِيعُ مَثَلٌ بين سكان ألاسكا الأصليين يقول إن بناطيل كارهارت تُغسَلُ فقط حين تخلعها فتتمكن من الوقوف وحدها، وحينها فحسب تكون مستعدةً للغسيل.

كانت ميا في منزل جايمي ذاك المساء حتى الساعة السابعة، لم أعرف وقتها كيف أزجي الوقت. قَبَعَت بضعة كُتُب فوق منضدة المطبخ تذكِّرني بالفروض الدراسية التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياتي. كنتُ قد انطلقتُ في الرحلة المستنزِفة للحصول على شهادةٍ جامعية، وسَجَّلتُ في برنامج من اثنتي عشرة ساعة دراسية. فصلان أحضرهما عن بُعد وواحدٌ يُقام في مبنًى قريب من حضانة ميا. حين التقيتُ مستشارة القبول الجامعي، أخبرتها أنني أرغب في الحصول على شهادة التحويل إلى دبلوم الآداب. كانت معظم الفصول التي التحقتُ بها في المدرسة الثانوية تابعةً لبرنامج «رَنينج ستارت»، وهو برنامجٌ أتاحَ لي أن ألتحق بفصولٍ جامعية لصالح الساعات المطلوبة للدراسة الثانوية، وكانت جامعة ألاسكا تنتهجُ هذا النهج كذلك وتحسبُ تلك الساعات. سيكون الحصول على درجةٍ علمية خلال سنتين من كليةٍ عامَّة هو مكان البداية الأسهل، وكنتُ سأُنهي المواد الأساسية بأرخص الوسائل الممكنة. بعدها سيكون بإمكاني الانتقال إلى جامعة ذات نظام دراسة السنوات الأربع بسهولةٍ أكبر. ولكن -حالي حال معظم الأمهات المستقلات اللواتي لا يحظين بالكثير من الدعم- كانت الخطة ستأخذ مني سنواتٍ طوالًا حتى أصل إلى ذلك الهدف. بما أنني أضَفتُ ميا في قائمة الأفراد الذين أعولهم

في مصلحة الضرائب، كان الحصول على إعانةٍ حكومية لسداد المصاريف الدراسية مسألةً سلسةً نسبيًّا. أبسط طرق توضيح أنني أعول طفلةً بأجري الذي كان الحدَّ الأدنى -أو يكاد يكون غير موجود- كانت إضافتها مُعالَةً وحوزة الوثائق الضريبية التي تثبتُ ذلك.

كانت منحة «بيل جرانت» -وهي برنامج فيدرالي يمنح مساعداتٍ مادية إلى الطلاب ذوي الدخل المنخفض- تدفع أكثر مما يغطي الرسوم الدراسية لبرامج الدوام الكامل ربع السنة، تاركين لي ١٣٠٠ دولار زيادة. ومع ٢٧٥ دولارًا شهريًّا من نفقة ميا، و٤٥ دولارًا أسبوعيًّا من تنظيف الحضانة، كان يعني هذا أن في حوزتنا قرابة ٧٠٠ دولار في الشهر ندبِّر أمرنا بها. كانت قيمة القسائم الغذائية أقل من ٣٠٠ دولار، وما يزال معنا كوبونات برنامج وِيك. بفضل تيرا ولاي-هيب، كانت مصاريف السكن لا تتجاوز ١٥٠ دولارًا، وما تبقى كان لمصروفات تأمين السيارة والهاتف والإنترنت. مع حلول فصل الشتاء توقَّفتُ عن العمل؛ لذا انتهت إعانة حضانة ميا. لم تؤهلني رغبتي في التعلُّم وحضور المحاضرات للحصول على إعانة رعاية الطفل؛ لذا كان لِزامًا عليَّ أن أجد مَن يرعى ميا ساعتين أسبوعيًا خلال محاضرة اللغة الفرنسية، والتي لم تكن مادةً مطلوبةً فحسب، بل كان الحضور الشخصي إلزاميًّا أيضًا. ورغم أنني كَرِهتُ كل ما يمتُّ لها بصِلَة، كانت معظم الأحيان هي المكان الوحيد الذي أجلِسُ فيه بصحبة أناسٍ آخرين في غرفةٍ واحدة.

كُنتُ في معظم الليالي أُعِدُّ كوبًا كبيرًا من القهوة بعد أن تنام ميا، وأسهرُ حتى الواحدة أو الثانية فجرًا لأُنهِيَ التسليمات. لم تَنم ميا في النهار مطلقًا، ولم تتوقف عن الحركة أو الكلام طوال الوقت؛ كانت في حاجةٍ دائمة إلى اهتمامي وانتباهي. فشلتُ في العثور على وظيفة تملأ الفراغات في جدولي؛ لذا كنا نتمشَّى تمشياتٍ طويلة عبر الغابات، وعلى شاطئ المحيط، تمامًا ما كُنتُ أتوق لفعله وأنا منهمكةٌ في العمل، ولكن الفارق آنذاك هو أنني سِرتُ مُثقَلَةً بأربع ساعات فقط من النوم والحاجة الماسة إلى المال.

كان الأمر أيسر حين كانت ميا أصغر سِنًّا؛ قبل أن تتعلم المشي، وقبل أن تطال احتجاجاتها مدة ساعات نومها. أما حين كبرت، فقد فَرَضَتْ طبيعتها الجامحة فعلًا. كانت ميا تتمتع بروحٍ ميالةٍ إلى الاستقلال؛ روح شرسة حَدَّ أنها تُنهِكُ قواي كل صباح.

ولكن حتى بعد أن تنام، كنتُ أحدِّقُ إلى الكتب وسط جمود مطبخنا. أُلقِيَتْ أمامي المهمات المُضنِيَة لفروض القراءة وإجابة أسئلة المناقشة في نهاية كل فصل، تُضَخِّمُ وحدتي فحسب، كنتُ في ذلك الصيف في حالةٍ لا تستكنُ من الحركة، لأنني رَكَّزتُ على تأمين مسكنٍ لنا. ولكن الآن، بما أن كل شيءٍ اسقرَّ كما يجيب، هدأ عقلي قليلًا، فتسلَّلَ إدراك أنني أرعى طفلتي وحدي تمامًا إلى فكري مثل ضبابٍ كثيف. مع الدراما المُفرِطَة التي تُحيط بالفترة التي تقضيها ميا في منزل والدها، وبسبب أن أوقاتها معه لم تطل أكثر من ساعتين أو ثلاث في كل مرة، لم أشعر قط بأنني أنال قِسطًا من الراحة. لا حدَّ لطاقة ميا؛ كانت تُصِرُّ في تمشياتنا على دفع العربة بنفسها ببطء الحلزون. وفي المتنزه، كانت تُصِّرُ أن أدفعها على الأرجوحة وقتًا طويلًا شعرتُ أنه لن ينتهي، أو حين كنتُ أراقبها تتزحلقُ على الزلاقة، مرةً تلو المرة تلو المرة. كنتُ تقريبًا قد بلغتُ الثلاثين من عمري، وتزوج الكثيرون من صديقاتي وأصدقائي واشتروا منزلًا وبدؤوا في تكوين عائلاتهم. فعلوا كل شيءٍ بالطريقة الصائبة. تَجَنَّبتُ الاتصال بهم تمامًا، والحرج يغمرني حين أعترف بسوء ظروفي. إن أحصيتهم -منحة بيل جرانت، وسناب، وتيبرا، ولاي-هيب، ودعم وِيك، وبرنامج ميدك آيد للدعم الصحي، ومعونة رعاية الطفل- فقد كان مجموعهم سبعة برامج مختلفة قَدَّمتُ لأحصل عليها. كُنتُ في حاجة إلى سبعة أنواعٍ مختلفة من الإعانات الحكومية لأنجو بحياتي. كان عالمي هادئًا وسطَ فوضى طفلتي وعثراتي وتوتُّري.

حَلَّ عيد ميلادي في ذاك الشهر دون أن يلحظه أي أحدٍ من عائلتي لأول مرةٍ في حياتي. من المؤكد أن جايمي أشفق عليَّ فوافق على الذهاب معي أنا وميا لتلوين الفناجين الخزفية بنفسنا. كنا نتناول عشاءنا في مطعم أوليف جاردن.

رُحتُ أتأمله وهو يحمل ميا في حضنه بينما تُقحِمُ ملاعق المعكرونة في فمها. حين عدنا إلى شقتي، وقفتُ مكاني ثواني معدودات قبل أن أفتح الباب.

قلتُ له: «تفضل!».

سألني وهو يقرعُ المقود بأطراف أصابعه: «لماذا؟».

مَنَعتُ دموعي من الانهمار بشِقِّ الأنفس، دموع الحاجة إلى رفقته. ثم أجبتُه: «لكي تُنيم ميا؟».

زَمَّ شفتيه في حنق، ولكنه أدار المفاتيح ليُطفئ السيارة. نَظَرتُ إليه، ثم نظرتُ إلى ميا وابتسمت. كان جايمي وميا هما العائلة الوحيدة التي حَظِيتُ بها. أرَدتُ أن يبيت جايمي ليلته عندنا، حتى لو كان سينام على الأريكة.

في الأيام العادية، كُنتُ كلما خطر ببالي أنني أنامُ بمفردي شعرتُ أن وحشًا يربض في صدري ويمزقه. كنتُ أتكوَّر على نفسي إلى أقصى حدٍّ أستطيعه وأحتضن وسادتي بقوةٍ شديدة، ولكن شيئًا لم ينجح في تهدئة صدى الهوة العميقة بداخلي. كُنتُ أريد تنفيس هذا الشعور بيأسٍ بالغ، مع أنني كل ليلة كنتُ مصممةً على أن يظلَّ مكانه. ولكن في عيد ميلادي، أول عيد ميلاد يمرُّ عليَّ منذ سنوات دون شخصٍ يعانقني في دفئه حتى أغُطَّ في النوم، قاومتُ هذا الشعور.

هَمهَمتُ وأنا أنظر إلى الأرض لكيلا أنظر مباشرةً إلى جايمي: «هل يمكنك أن تبيت هنا؟»

قال شبه ضاحك: «لا». ثم خرج من الباب دون أن يودعني أو يتمنى لي عيد ميلادٍ سعيدًا. ندمتُ أشدَّ الندم على ما طلبته.

جَلَستُ على الأرض وهاتَفتُ والدي. كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً، ولكن كنتُ أعرفُ أنه ما يزال مستيقظًا ويشاهد برنامج «العد التنازلي مع

كيث أولبرمان» على قناة (MSNBC) مع زوجته شارلوت كما يفعلان كل ليلة. كنتُ أحبُّ هذا الوقت على الأخص حين عِشتُ معهما. أقَمتُ في منزلهما بضعة أسابيع بعد أن طردنا جايمي ولم يكن أمامي مكانٌ آخر ألجأ إليه.

قلتُ: «مرحبًا يا أبي». ثم توقفت. لم أعرف ماذا أقول؛ كنتُ في حاجة إليه، ولكن لم أتمكَّن قط من الاعتراف له بذلك. كانت لغة عائلتي السرية هي ألَّا يتكلَّم أحد أبدًا.

أجابني بصوتٍ نمَّ عن استغراب: «مرحبًا يا ستف، كيف حالكِ؟».

لم أكن أتصل به قط. لم نلتقِ أو حتى نتحدث منذ حفل عيد ميلاد ميا منذ ثلاثة أشهر، رغم أنه كان يُقيم على بُعد بضع ساعاتٍ عنا.

تنفستُ بعمق. «اليوم عيد ميلادي». كان صوتي يرتجف.

قال وتنَهَّدَ تنهيدةً عميقة: «أوه! ستف».

ثم سكتنا. لم أسمع صوت التلفاز في الخلفية، وتخيَّلتُ صالة منزله المظلمة تُنيرها الصورة المُثَبَّتَة على الشاشة. ربما راحَتْ شارلوت لتدخِّن سيجارة. خطر ببالي سؤال: هل ما زالا لا يشربان النبيذ في أيام العمل؟

في البداية، حين هَجَرتُ جايمي ولجأتُ إلى والدي، كان ينظر إليَّ وأنا أجلسُ على منضدة مطبخه في وقتٍ متأخرٍ من الليل تُحيطُني أكوام الورق ووثائق المحكمة. تصوَّرتُ أن أبي يحاول فَهمَ مجريات حياتي.

كان كل ما يعرفه عني أنني خاوية الجيوب، وبلا منزل، وميا تبلغ من العمر سبعة أشهر. لم يكن عنده أدنى فكرة عن كيفية تحسين وضعي. كان في

مقدوره توفير الطعام لنا، ولكنه عاجزٌ عن تحمُّل التكلفة. تأثَّرَ عمل والدي بسبب الفقاعة العقارية[1].

حدث في عام ٢٠٠٨ أن ذاق المطوِّرُون العقاريون الأمرين لأن السوق كلها لم ترغب في خدماتهم. حاولتُ أن أخفِّفَ حِملَ استضافتنا بأن أشتري طعامًا للمنزل بالقسائم. كنتُ أُعِدُّ العشاء والإفطار، وأنظف المنزل نهارًا، ولكن كنتُ أعرفُ أن ما أفعله لا يكفي. كنتُ أطلبُ الكثير من والدي وشارلوت، وهما في الأساس يعملان كي يعيشا على حدِّ الكفاف. انتقلا إلى قطعة الأرض منذ نحو أربع أو خمس سنوات، وخططا للإقامة في مقطورةٍ متنقلة خلال فترة بناء منزل أحلامهما. ولكن انخفضت قيمة قطعة الأرض انخفاضًا حادًّا، فتلاشت معه أحلامهما. كانت شارلوت تعمل من المنزل مُبَرمِجَةً طِبِّيَّةً لصالح شركات التأمين، وهي وظيفةٌ تطلبت عودَتَها إلى مقاعد الدراسة لتحصل على شهادةٍ خاصة. أما أبي، فكان يعمل فَنِّيَّ كهرباء منذُ أن أنهى دراسته الثانوية.

اشتَرَتْ شارلوت المقطورة عقب طلاقها، حيثُ كانت مستقرها لرعاية ابنها الوحيد براتبها المتواضع. حاول والدي جاهدًا أن يحولها إلى بيتٍ حقيقي، وبنى شرفةً واسعة من الخلف، وعلَّق فيها قُرابة عشرة صناديق لإطعام الطيور. كانت ميا تحبُّ مراقبتها من نافذة الصالة؛ تَنقَضُّ طيور القيق الزرقاء عليها لتلتهم الفول السوداني؛ فكانت تصفقُ ذراعيها وتصرخُ في سعادة. كان

---

[1]- الفقاعة العقارية أو الإسكانية هي ظاهرة اقتصادية تحدث عند ارتفاع الطلب على العقارات فيرتفع معها السعر، وتستمر الأسعار في الازدياد نتيجةً للفجوة بين قوى العرض والطلب في الاستجابة بسبب بطء حركة بناء المنازل وبيعها. تشجع تلك الزيادة ترقب المستثمرين لمزيد من الرفع للأسعار فيبدأ الجميع في بناء العقارات وبيعها، أو شرائها بغرض المضاربة أملًا في بيعها بعد ارتفاع سعرها. تستمر الزيادة السعرية في تغذية نفسها وتتضخم، فتكون على وشك الانفجار، لتفوق الأسعار في النهاية مستوى القدرة الشرائية لمعظم السكان. أشهرها هي الفقاعة المذكورة، التي ضربت الولايات المتحدة عام ٢٠٠٨. (المترجمة)

أبي يضحك كلما فَعَلَتْ هذا، ويقول في شيءٍ من الذهول: «إنها صورةٌ طبق الأصل مِنكِ حين كُنتِ في مثل عمرها».

عاد أبي ذات ليلةٍ متأخرًا إلى المنزل وهو يحمل بين ذراعيه كيسين من أغراض البقالة. بعدما وضعتُ ميا في سريرها، جلستُ في الصالة مع شارلوت نشاهد التلفاز. خرج أبي في الخفاء إلى حوض الاستحمام ومعه زجاجة نبيذ. ومن بين أصوات التلفاز، تناهى إلى سمعي أنا وشارلوت صوتٌ يشبه النحيب، نحيبَ رَجُلٍ راشد. لم أسمعْ صوتًا كهذا من قبل قط. خَرَجَتْ شارلوت إلى الشُرفَة لتطمئن عليه.

ثم سمعتها تصرخ: «كُفَّ عن هذا! أنت تُفزِعُ ابنتك!».

لم أرَ والدي يبكي من قبل -حتى تلك اللحظة- وكما ستفعل أي ابنة في مكاني، افتَرَضتُ أن الخطأ خطئي. أثقَلتُ عليه بطلب المساعدة في مرحلةٍ لم يكن في وسعه تقديمها. في وقتٍ سابق من الأسبوع نفسه، أخبرني أن عليَّ أن أرحل. وحين قلتُ لشارلوت طمأنَتني، وقالت إنه في وسعي البقاء قدر ما أريد. تساءلتُ إلى أي مدى تجادلا في الأمر.

أنذرني انهيار أبي بسوءٍ يتمثل في اضطرارنا إلى الانتقال إلى مكانٍ آخر. وبقدر ما حاولتُ أن أتعاطفَ مع والدي، كانت فكرة أن أعيش وميا في مكانٍ عليَّ أن أدفع إيجاره مستحيلةً دون أن أعمل، بل إنني حتى عجزتُ عن تخيل الوضع وقتها. لم أحظ بأي وقتٍ لأتعافى من صدمة التشرد مع ابنتي الرضيعة. كانت شارلوت على حق؛ لقد أرعبني، ولكن ليس بالطريقة التي قصدتها.

عادتْ شارلوت للمرة الثالثة وجلستْ في مكانها على الأريكة. لم نتبادل كلمة واحدة. أزالتْ كتم التلفاز وأكملنا مشاهدة «العد التنازلي مع كيث أولبرمان». لم أستطع أن أُدير عُنقي لأنظر إليها، لكن حاولتُ أن أظل ثابتة، هادئة.

بعدها نهضتُ لأنام. كان عمي قد أحضر مقصورةً للتخييم ذات سقفٍ منخفض وأوقفها في الممر، فاتخذتها وميا منزلًا مؤقتًا. كان السقفُ يسرِّبُ المياه على الباب، ولم نستطع استخدام المطبخ أو الحمام الضيقين للغاية، ولكن كانت بها مدفأةٌ كهربائية ومساحةٌ ننامُ فيها.

سألتني شارلوت في محاولةٍ لتتصرف وكأنها ليلةٌ عادية: «هل ستنامين يا ستف؟»

- نعم، إنني مرهقةٌ للغاية.

لم أكن مرهقة. توقفتُ عند الباب ونظرتُ إليها: «شكرًا لأنكِ سمحتِ لنا بالبقاء هنا».

ابتسمتْ شارلوت كعادتها دومًا وقالت: «في وسعكِ البقاء قدر ما تريدين». لكن عرفت كلتانا أن هذا لم يعد ممكنًا.

حين دخلتُ برأسي إلى المقطورة، رأيتُ ميا تغطُّ في نومٍ عميق على الأريكة التي نبسطها فتصبح سريرًا. تسللتُ أسفل اللحاف أتأرجحُ على حافة السرير جوارها. لم أكن مرهقة، أرَدتُ فقط أن أستلقي هنا وأنصت إلى ضوضاء الليل، أن أنسى كل شيءٍ عداها في عالمنا الجديد. استَدَرتُ ونِمتُ على ظهري، ثم على جنبي، لكن لم أتمكَّن من إسكات صوت نحيب أبي في رأسي، قلتُ لنفسي إنه بوسعي استئجار أي مكان في باحة المقطورات فترةً من الوقت وأركن مقطورتنا فيها. أو ربما نعود إلى الباحة الخلفية لمنزل جدي في أناكورتس. ولكن لَستُ أقدر على تصور العيش بالقرب من جدتي، التي سمعتُ أنها بدأتْ تُطعم خمسين قطة ضالة.

بعد مرور ساعة سمعتُ عبر جدران المقطورة الخفيفة صوت أبواب تُصفَق في المنزل. كان أبي وشارلوت يتشاجران، وسمعتُ أصوات تكسير الأشياء ورميها. ثم حلَّ الصمت.

عدتُ في الخفاء إلى المنزل لأرى ما حدث. رأيتُ في المطبخ قطع المغناطيس التي كانت على الثلاجة مفككةً وملقاةً على الأرض، والمنضدة ليست في مكانها. كان في المكان سكونٌ مُربِك. ثم سمعتهما من الشرفة الخلفية. استمر أبي في البكاء، ولكنه كان يعتذر لشارلوت مرةً تلو المرة. كان والدي قد غادر إلى عمله حين عُدتُ وميا صباحًا لتناول الإفطار. جَلَسَتْ شارلوت على طاولة المطبخ التي ما تزال في غير مكانها. جَلَستُ ثم مَدَدتُ يدي عفويًا وأمسكتُ بيدها. رفعتْ بصرها نحوي؛ كانت عيناها متورمتين وشاحبتين.

قالت وبصرها معَلَّق على الجدار: «لم يفعل أي شيءٍ كهذا من قبل». ثمَّ فجأةً لاقَتْ عيناها عينيَّ: «إنه رجلٌ حنون».

بدأت تحكي وقائع البارحة؛ كيفَ أخبرت أبي أنها ستذهبُ إلى منزل شقيقتها وبدأت في تحضير حقيبتها، بل حتى قالت إنها ستأخذ الكلب معها. نظرتُ إليها بإعجابٍ شديد، وتمنيتُ لو كانت في قلبي الشجاعة لأهجر جايمي حين اندلع انفجار غضبه بعد معرفته بخبر الحمل مباشرةً. لو كنتُ في مثل قوتها.

قالت شارلوت وهي تنظرُ إلى جاك المتكوِّرِ على الأرض عند قدميها: «كانت تلك غلطتي». وضعت كوب قهوتها على الطاولة، ثم رَفَعَتْ كُمَّ قميصِها بحذر، لتكشف عن كدمات أرجوانية داكنة.

نَظَرتُ إلى ميا التي كانت تلعبُ بمرحٍ مع الكلب في المطبخ، تُرَبِّتُ على ظهره وتقول مع كل لمسة: «كلبوب، كلبوب». كان شعرها مُشعَّثًا من آثار النوم وما تزال ترتدي بيجامتها.

أغمَضتُ عينيَّ... عليَّ أن أرحل.

في ذاك اليوم بالتحديد بدأتُ الاتصال بملاجئ المشردين. سيوفر لنا الملجأ على الأقل سقفًا فوق رؤوسنا فترةً محددة من الزمن، وسيمنحني وابنتي في أحسن الأحوال فرصة العيش بلا خوفٍ من تعنيف أي أحد. حين اتصل بي

والدي من عمله ليُخبِرَني بأن أغادر كُنتُ بالفعل قد حَزَمتُ أغراضي وجَهَّزتُ السيارة لنرحل.

حين حاولتُ أن أُفضِيَ بسر الكدمات التي أرتني إياها شارلوت إلى عمتي وشقيقي، كان أبي قد اتصل بهما قبلي وأخبرهما أنني أكذب لنيل اهتمامهما، وأن كل ما قلته عمَّا بدر من جايمي كان كذبًا غرضه استمالتهما أيضًا.

كرر أبي قوله عبر الهاتف ليلة عيد ميلادي: «آسفٌ يا ستف». قال إنه كان منهمكًا في العمل، ولكني لم أسمع ما قاله بعدها، وندمتُ على اتصالي.

حاول أن يسترضيني لأنه نسيَ عيد ميلادي؛ وصلت إليَّ بطاقة في البريد ومعها شيك بمبلغ مئة دولار. حَدَّقتُ إليه مدركةً أنه مبلغٌ ضخم بالنسبة إليه. قَرَّرتُ -وأنا عاجزةٌ عن كبح غيظي منه لأنه طردنا- أن أقوم بشيءٍ أرعن بهذه النقود. بدلًا من أن أدَّخِرَها لتسديد فاتورة أو لشراء أدوات النظافة الضرورية، ذهبتُ أنا وميا لتناول الغداء في المطعم التايلندي الجديد، ذاك الذي كان يقدِّم أطباقًا صغيرةً من الأرز المحلَّى بحليب جوز الهند والمانجو للتحلية. اختلطت حَبَّات الأرز بخصلات ميا الرقيقة حَدَّ أنني حَمَّمتُها حين عدنا. بعدها نامت قيلولتها، وجَلَستُ أمام شاشة الحاسوب على منضدة مطبخي، ثمَّ قَرَّرتُ أن أفعل شيئًا لنفسي فقط.

ظل موقع ماتش.كوم مفتوحًا في متصفحي عدة أيام. كنتُ قد ملأتُ صفحتي وأضَفتُ صوري، وألقيتُ نظرةً على صفحات الرجال ممن في مثل عمري. وجد أبواي الاثنان شريكيهما الحاليين في هذا الموقع، وكذلك عمتي. وبينما لم أكن واثقةً تمامًا أنه سأجد ما وجدوه، كانت حياتي ينقصها شيءٌ واحدٌ بلا شك، متنفسٌ اجتماعي. ضعفت صداقاتي خلال العام الماضي لأنني عزلتُ نفسي واختبأتُ حَرَجًا من حياتي. في ساعات الليل، بعد أن تنام ميا بوقتٍ طويل، حين كنتُ أجلس مكاني لأول مرة طيلة اليوم في توقٍ إلى أي صُحبة،

حتى إن كانت في صورة كتابة رسالةٍ بريدية أو حتى محادثةٍ هاتفية، ليس مع أصدقاءٍ على اطِّلاع بكل الدراما التي تُحيط بظروفي؛ كنتُ منهكةً من سماع نفسي أتكلَّم عنها.

أردتُ أن أقول كلامًا عذبًا لأحدهم، أن أهربَ إلى المرأة التي كُنتها قبل كل هذا، إلى الفتاة التي غطَّت الوشوم جسدها، التي تعقصُ شعرها البُنِّيَّ القصير بوشاح، الفتاة التي كانت ترقص بقميصٍ مربوطٍ حول خصرها. أردتُ أن أتعرَّف على أصدقاء جدد.

كان التسجيل في موقعٍ للمواعدة وأنا في وضعي هذا أمرًا ميؤوسًا منه، ولكن لم أكترث. تحدثتُ مع رجالٍ من بلادٍ بعيدة، مثل وينثروب في واشنطن، وسولت ليك سيتي في يوتا. فَضَّلتُ الرجال الذين أقاموا بعيدًا عني مسافة لا بأس بها لأنني لم أرد أن أخاطر بتكوين مشاعر ناحيتهم. طريق السفر إليهم مسدودٌ تمامًا، ولن يأتي أحدهم للإقامة معي بما أن ميا كانت تزور والدها فتراتٍ قصيرة. كل هذا بدا لي جهدًا مبالغًا فيه على أية حال. فعلًا كنتُ حاجة إلى أن أضحك، وأذكِّر نفسي بالمرأة التي كنتها قبل احتلال الأمومة والفقر كل مناحي شخصيتي. ضاعت مني تلك المرأة تمامًا، المرأة التي كانت تستمتع بحرية الحركة، حرية أن تقرر لقاء أصدقائها أم لا، حرية أن تعمل ثلاث وظائف لتدخر مالًا للسفر. كنتُ أريد أن أتأكد أن هذه المرأة ما تزالُ موجودة.

لو كنتُ صادقةً لكنتُ اعترفتُ أنني كنتُ فعلًا بصدد البحث مع نفسي عن شريك، أو آمل سِرًا أن ألقاه. أدرَكتُ مواطن ضعفي، أو ربما الأجزاء المنطقية والواقعية بداخلي؛ انعدام فرصة حدوث هذا.

كنتُ أعيش على عن الإعانات الحكومية، ويهجم عليَّ القلق هجمات دورية، وما زلتُ عاجزةً عن استيعاب معظم التعنيف العاطفي الذي قاسَيتُه، أو فهمت مدى توغُّل تأثيره. كانت حياتي في حالةٍ أشبه بالثبات على هويتي الجديدة؛ في كوني مستنزفةً في الأمومة، والتي لا أظنني أحببتها حتى. أقصد أيُّ أحدٍ بكامل قواه العقلية سيرغبُ في مصاحبة امرأةٍ مثلي؟

بعد قضائي شهرًا واحدًا على الموقع، سافر فعلًا رجلٌ للقائي، ويا لفزعي! كان يعيش في مدينةٍ قريبة تسمى ستانوود، مررتُ عبرها عدة مرات خلال بحثي عن أي مكان نعيش فيه عدا بورت تاونسند. كانت ستانوود مجتمعًا زراعيًّا صغيرًا يقع جنوب مقاطعة سكاجيت، حيثُ تعيش عائلتي بأكملها. كانت قريبة، ولكن ليست قريبةً للغاية، وتجاور جزيرة كمانو، ذات الشطآن الخفية التي لا حصر لها، وكان معظمها على حالته الطبيعية الأولى. لم يكن هذا الرجل قريبًا مني فحسب، بل كان يكتب رسائل كأنها من كتابة جون شتاينبك وهو يحكي عن عيشه في منزلٍ بناه جده الأكبر ثم أطلق النار على نفسه.

حكى تراڤيس عن المزرعة التي يعيش فيها بقدرٍ هائلٍ من المحبة، قائلًا إنه لم يغادرها سوى مرة واحدة، وكانت فترةً قصيرة. ذكر أن له صورًا من طفولته وهو يتحمم في حوضٍ يقف الآن جوراه ليلًا ليفرِّش أسنانه. اشترى أبواه الأرض من جده، وما يزالان يعيشان ويعملان فيها؛ يديران إسطبل الخيول ويتوليان كل أمورها. توَلَّتْ والدة تراڤيس إدارة الحسابات مع رعاية أحفادها الخمسة خلال أيام الأسبوع. جذبني هذا إليه، إضافةً إلى فكرة أنه سيُتاح لي امتطاء حصانٍ متى ما أردت، فقبلتُ دعوته إلى العشاء.

طلبَ من والده أن يطعم الأحصنة ويسقيها بدلًا عنه تلك الليلة، وكان أكثر من مستعد ليسافر إلى بورت تاونسند. حين التقيتُه في محطة العَبَّارة كانت عيناه متسعتين دهشةً.

قال لاهثًا بعض الشيء: «لم أركب هذه العَبَّارة قط من قبل. لم أكن أعرفُ أن هذه المدينة موجودة هنا من الأساس». ضحك في ارتباك، ثم اقترحتُ أن نسير حتى مطعم سيرينز. كانت الساعة الرابعة مساءً؛ لذا كان المكان خاليًا. كنتُ أعرفُ أنه لو رآني أحدٌ أتناول الطعام مع رجلٍ غريب ومنظره غير مألوف فإن الخبر سيصل إلى جايمي لا محالة. قبل شهرين تقريبًا، بعد يومٍ طويل قضيته في العمل في تنسيق إحدى الحدائق، ذهبتُ إلى وسط المدينة لأنني كنتُ في حاجةٍ ماسة إلى أن أجلس وحدي مع كأسٍ من البيرة. أحدٌ من هناك

أخبر جايمي، واتهمني أنني كنتُ ثملةً حين عدتُ لأُقِلَّ ميا. حاولت البقاء بعيدةً عن كل البارات تمامًا بعد تلك الحادثة.

وجدنا طاولةً شاغرة داخل المطعم، وطلب كلانا شطائر البرجر والبيرة. ألقيتُ نظرةً إلى الطاولة التي جلستُ عليها مع أمي وويليام منذ ستة أشهر، آخر مرة دخلتُ فيها هذا المكان. لم يصلني انطباع أن تراڤيس كان معتادًا حياة المطاعم؛ نظرًا إلى اضطرابه وهو يطلب. ظننتهُ مرتبكًا، لكن كنتُ معجبةً به، فلم أبُالِ.

سألته رغم أنه أخبرني مرةً في الرسائل ومرةً في الهاتف: «ماذا تعمل بالضبط؟».

أجاب: «أنظف الإسطبلات صباحًا، وأطعم الأحصنة مساءً، وأصلحُ ما يحتاج إلى الإصلاح خلال اليوم». بدا أن تراڤيس لم يمانع اهتمامي وأسئلتي المستمرة، وكان يضحك بسهولة محاولًا أن يمزح أحدنا. «ولكني أعمل طوال الوقت في موسم البرسيم».

هززتُ رأسي كأنني فهمتُ ما قال.

- يعني تزرعون البرسيم لإطعام الأحصنة التي يتركها الناس في رعايتكم؟ كم حصانًا لديكم؟

- لدى أبويَّ اثنان في المزرعة، إضافةً إلى عدة أحصنة أخرى يرعيانها لأصدقائهما.

قضمَ قضمةً كبيرة من شطيرة البرجر، وانتظرتُ أن يُكمِلَ كلامه. أظنه كان يرتدي ملابس عمله؛ بنطالًا جينز أزرق مشققًا ومُبقَّعًا بالزيت، وحذاءً طويل الرقبة بُنِّيَّ اللون، وكنزةً مفتوحة ذات قلنسُوَة فوق قميصٍ باهت. كانت ملابسي تُشبه ملابسه إلى حدٍّ ما، عدا أننى ارتديتُ بنطالًا لطيفًا من الجينز من لاكي براند، اشتريته في الصيف من محلٍّ يبيع البضائع المستعملة.

- أمَّا سوزان، وهي المرأة التي استأجرت أحد المضامير، فهي تعطي دروسًا في حظيرتها. الحظيرة الرئيسية تكفي ١٢٠ حصانًا تقريبًا، ولكننا حاليًّا نملأ نصفها فقط. خسر الناس الذين كانوا يتركون أحصنتهم في رعايتنا كل أموالهم تقريبًا، ولم يعد في وسعهم الإنفاق على خيولهم، فما بالك بأن يدفعوا لشخصٍ آخر لرعايتها.

لم يخطر ببالي قط أن رعاية الأحصنة تكلِّفُ الكثير من المال، ولكن كنتُ أعرفُ أنها تستلزمُ الكثير من العمل. حين كنت أعيش بالقرب من منزل جَدَّيَّ وأنا صغيرة، قضيتُ معظم أيام الصيف في المنزل في نهاية الشارع الطويل الترابي حيث نشأ والدي. عَمِلَ جدي حَطَّابًا قبل أن يتقاعد ويتولى خطوط أحصنة النقل عبر الغابة. وضعني مرةً على ظهر حصان وأنا في عمر ميا. كنتُ أمتطيه بلا سرج بمهارةٍ تفوق مهاراتي في الركض على قدمي. امتلأ رأسي بصور لميا وهي تفعلُ مثل هذا.

بدأتْ الدنيا تُظلِم ونحنُ عائدان إلى محطة العَبَّارة. وَدَّعنا بعضنا بعضًا بعناق، ووَجَدتُ نفسي أرغبُ في دفن وجهي في صدره ولا أفلته أبدًا. كان جسده يعبق برائحة الخيول والعلف والزيت ونشارة الخشب. كانت رائحته رائحة العمل، والتي ترجمها رأسي إلى الاستقرار. بَثَّت الروائح عبق الحنين؛ فغمرني الحنين إلى العمل على السيارات، وركوب الخيول مع جدي، ومناولة أبي المفكَّات وأنا طفلة صغيرة. ذَكَّرَني عناق تراڤيس بكل تلك الذكريات، طمأنني، وبطريقةٍ ما، أعادني إلى البيت.

6

المزرعة

طويتُ مِطوَاة جيربر ووضعتها في جيب بنطالي. هَبَّ هواء الخريف الرطب على وجهي بينما كنا أنا وترافيس نُلقي بعشراتٍ من بالات القش التي تزن الواحدة منها سبعين باوندًا إلى الفَرَّامة، فتفرُمها إلى قطعٍ أصغر من نصف بوصة، لنخلطها مع رقائق الخشب لتكون حِشيةً تنام عليها الأحصنة. مَسَحتُ جبيني من الأغبرة الصفراء الداكنة قبل أن أعيد أصابعي داخل قفاز العمل الذي وضعته تحت إبطي. توقَّفتُ هنيهةً ألتقطُ أنفاسي، ثم سحبتُ الحبل الرفيع الأحمر نحوي. إنْ قَطَعتُ الحبل الذي يُمسِكُ بالة القش في كتلةٍ واحدة من مقدمة العقدة فسوف أتمكَّن من سحبها بسلاسة، ولن تتفكَّك البالة تمامًا؛ مما سيُسَهِّلُ من جمع الندف ورميها في الفرَّامة. ولكنَّ قَطعَ العقدة من الخلف كان يُمَزِّقُها ويُصَعِّب رميها بالطريقة الصحيحة، فتتفكَّك في ندف تسقط على الأرض في كومة عشوائية وتعرقل سير عملنا.

صَرَخَ ترافيس مرةً ثانية حين تكوَّمَت ندف البالة عند قدمي: «أنتِ لا ترمينها بشكلٍ صحيح».

صَرَختُ أجيبه بنبرةٍ حاوَلتُ أن تكون صادقة: «آسفة!». أعَدتُ الكَرَّة عبر جبل من البالات، أحولها إلى جبلٍ أضخم من العُشب الجاف والمقصوص بعناية.

انتقلنا إلى ستانوود لنعيش مع تراڤيس بعد أربعة أشهرٍ فحسب من لقائنا الأول. كانت ميا وقتها تقتربُ من عامها الثاني. مَضَتْ تسعة أشهرٍ شاقة منذ ذلك الحين. كان تراڤيس يعمل بجهدٍ جهيد في المزرعة وخارج المنزل. أمَّا داخله، فلم يُشِح بنظره عن التلفاز تقريبًا. منحتني علاقتنا الاستقرار؛ منحتني بيتًا. ولكن ربما الأهم هو أنها منحتني ختم القبول الخفي.

كنتُ -مع ترافيس- جزءًا من خلية العائلة؛ كنتُ مكتملة. ولكن لم أتوقع أن أفقد استقلالي، دون أن أدرك أن هذا أثرى هوية أمومتي. في عيني تراڤيس، كانت قيمتي تعتمدُ على العمل الذي أؤديه خارج حدود المنزل، في المزرعة تحديدًا، لأن أي عملٍ آخر أعمله داخله -التنظيف أو الطبخ- لم يكن له أي قيمةٍ في نظره. ولكني فشلتُ في العثور على وظيفة، لذا تعادَلَت فائدتي مع العمل الذي أدَّيتُه لمساعدته. المشكلة أن كل ما كان في حوزتي لرعاية ميا كان النفقة التي يدفعها جايمي والقسائم الغذائية. كُنتُ أرى تراڤيس يقبضُ ثمن العمل الذي قُمتُ بجزءٍ لا بأس منه دون أن أحصل على حصتي.

كان ممتعًا في بادئ الأمر أن أذهب كل مساء لأضع الطعام والمياه أمام نحو خمسين حصانًا تركها العملاء هنا. حين استقال عُمَّال النظافة، تطوَّع تراڤيس أن يحلَّ محلهم ويجني مئة دولار إضافية كل أسبوع، علاوةً على المئة التي يدفعها والداه له لإطعامه الخيول. خلال عُطلات نهاية الأسبوع، كانت ميا مع والدها، كنتُ أستيقظُ في السابعة صباحًا وأساعده في جرف الروث من الإسطبلات، إضافةً إلى توزيع العلف كل مساء، وتراڤيس يضع في جيبه رزمة النقود التي يعطيها والداه له دون أن يعرضَ عليَّ شيئًا.

أخبرته في المرة الثانية: «تراڤيس، أليس من المفترض أن آخذ جزءًا من هذا؟ لقد ساعدتك».

أجاب دون تفكير: «ولِمَ أنتِ في حاجة إلى المال؟ أنتِ لا تدفعين الفواتير».

كَبَحتُ دمع الإهانة المتراكمة، ونَجَحتُ في أن أقول بصوتٍ يشبه الصرير إن سيارتي تحتاج إلى الوقود.

- هاكِ!

ثم قَلَّبَ في وريقات النقود وأعطاني ورقةً بعشرين دولارًا.

تشاجرنا كل مرةٍ رَفَضتُ فيها إطعام الخيول، وكُلَّ مرةٍ لم يكن العَشاء جاهزًا على المائدة، وكل مرةٍ قَرَّرتُ الاستيقاظ متأخِّرًا وأنا على عِلمٍ بأنني سأتلَقَّى الصمت عقابًا. قَدَّمتُ بيأسٍ على كل وظيفةٍ شاغرة مُعلَنَة في موقع كريجزليست[2]، أو في الجريدة المحلية. أقَدِّمُ في أي مكانٍ طلباتٍ بالعشرات كل أسبوع، ولكن نَدُرَ أن تلقيتُ ردًا. ثم أعطاني صديقٌ رقم سيدةٍ في حاجةٍ إلى موظفةٍ جديدة في شركتها لخدمات التنظيف، وشَغَلتُ الوظيفة فورًا. كانت تبدو واعدة؛ سأقبضُ عشر دولاراتٍ في الساعة، ووعدتني جيني -صاحبة الشركة- أن تجد لي عشرين ساعة من العمل كل أسبوع؛ يعني هذا مئتي دولار أسبوعيًّا أكسبها بعرق جبيني، بل ربما يكون في وسعي العمل قليلًا في المزرعة.

أخبَرتُ ترافيس وهو يترجَّل عن الجرار: «إنها وظيفةٌ عظيمة؛ كل المنازل التي تتولاها الشركة تقع في ستانوود. لا أظن حتى إن لديهم فترة تدريب. فقط أعمل وأقبض المال دون ضرائب ولا مشكلات». حاولتُ أن أبتسم بلطف رغم أننا لم نتبادل سوى بضع كلماتٍ قليلة منذ أيام. «أشعر أنها من نصيبي». كانت ميا -التي بلغت وقتها عامين ونصفًا- سعيدةً للغاية في حياتنا مع

[2]- موقع إعلانات. (المترجمة)

تراڤيس. وإن كُنتُ صادقةً مع نفسي، فأنا كذلك كنتُ سعيدة، ولكن بسبب حقيقة كوني معه فحسب؛ انزاحت عني وصمة كوني أمًّا مستقلة.

سألني تراڤيس منزعجًا وكأنه لم يسمع سوى نصف ما قلت: «ماذا؟!»، كان يرتدي الملابس نفسها التي ارتداها في لقائنا الأول. حاولتُ أن أتذكَّر إحساس عناقه آنذاك. شعرتُ -منذ عامٍ مضى- بالأمان والراحة بين ذراعيه.

ولكن في تلك اللحظة كانت ذراعاه مشحونتين بالأحقاد، فلم تضُمَّاني.

سِرتُ خلفه بينما يوَصِّل المقطورة بوصلة الربط المعدنية في مؤخرة الجرار. شَرَحتُ له بالمنطق: «إن عَمِلتُ بدوامٍ جزئي في الصباح، فسأتمكن من ترك ميا في الحضانة بقية اليوم، وقتها سأستطيع مساعدتك في أعمال المزرعة؟»، أقنَعتُ نفسي أن العمل في المزرعة هو بمكانة دفع حصتي من الإيجار والفواتير، طلب مال الوقود لسيارتي هو ما لم أتحمله.

نظر إليَّ بوجهٍ خالٍ من أي تعبير.

قُلتُ في تجاهلٍ لكرامتي المنسحقة في هذا التوسل: «سأعملُ بجد. سأنظفُ الإسطبلات. سأضع الطعام والمياه للخيول. سأبذل قصارى جهدي لأحَضِّر العشاء رغم أنني أكرهه».

قال: «لا أكتَرِثُ بالعشاء ما دُمتِ عَمِلتِ في المزرعة». ثمَّ تنهد.

انتَظَرتُ.

قال عائدًا إلى الجرار: «ساعديني في طحن حمولة العلف هذه».

قُلتُ بصوتٍ عالٍ ليسمعني من صوت محرك الجرار: «يعني ذلك أنك تظن أن الوظيفة مناسبة؟». رمقني بخشونة، لكن لم يجبني. كان خياري الوحيد

أن أتجَهَّمَ في صمت وأسير خلف المقطورة المُحَمَّلة بأكوام العلف إلى الحظيرة.

كنا آنذاك في عام ٢٠٠٩، خلال فترة الركود، حين عجز الناس عن تحمل تكاليف رعاية الخيول بهدف التسلية أو لأي هدفٍ آخر. هبطت أعمال تراڤيس ووالديه إلى أدنى مستوى، بينما ازدادت أسعار البرسيم الحجازي ورقائق الخشب التي يستخدمونها في حشية النوم. كانت معظم معداتهم قديمة وتتعطل. ضجر والداه من إدارة العمل، واعتمدا عليه لإدارة الجزء الأكبر منه. عمل على مدار الساعة خلال موسم البرسيم؛ قضى قرابة الساعات الاثنتي عشرة من يومه على الجرار. وخلال أشهر الشتاء كان يُصلِحُ الأعطال والأنابيب المتجمدة، بينما ينظِّفُ من أربعين إلى ثمانين إسطبلًا كل صباح.

نَظَرتُ عبر غبار العلف المتطاير في الهواء متفاجئةً من رؤية تراڤيس يبتسم لي. كنا في خضم طحن الحمولة الثانية، والعلف يغطي قمة قبعته الحمراء وكتفيه، وكنزته ذات القلنسوة. حين بَسَطَ يده المغطاة بالقفاز ليُبَعثِرَ شعري، تَمَلَّصتُ منه، ثم ألقيتُ عليه بضعة حبال. ضحك تراڤيس وأنارَتْ عيناه الزرقاوان وجهه بأكمله.

كانت شركة جيني في منتهى التنظيم، حسب ظَنِّي. سجَّلَتْ عملاءها في سجلٍّ للمواعيد حملته مثل حقيبة يدها. في اليوم الأول من العمل، أعطتني أدوات التنظيف ولفافةً من المناشف الورقية. قابلتها مع بضع نساءٍ أخريات خارج منزل العميلة. كان شاسعًا وبُنِّيَّ اللون، ويُطِّلُ على الوادي. لم تُقَدِّمني جيني باسمي، بل اكتَفَتْ بقول: «العاملة الجديدة». وأومأت النساء دون أن يتوقفن للسلام عليَّ أو النظر إلى وجهي، كُنَّ يُخرِجنَ أدواتهن من صناديق سياراتهن. كانت العميلة التي فتحت لنا الباب امرأةً عجوزًا بشعرٍ أشيب مجعد. ابتسمتْ لنا كأننا ضيوفها على العشاء. تفرَّق الجميع؛ سارت كل

واحدةٍ إلى منطقتها المخصصة من المنزل، ووَقَفتُ مكاني في انتظار أي تعليمات.

قالت كُبرى العاملات: «نظفي الحمام الرئيسي وغرفة النوم إن زاد الوقت». كان اسمها تريسي حسب ما أتذكر. أشارَتْ إلى غرفةٍ بها مقعد وردي عريض بجوار السرير، وتركتني واقفةً هناك دون أن يتسنَّى لي طرحُ أي أسئلة.

حين قارَبتُ الانتهاء، أتَتْ جيني كي تتحقق من عملي. لم يُفصِح وجهها لحظةً عن أي تعبير، ثم ابتسمتْ وقالت: «عظيم!» واختفتْ ثانيةً. كان الكل يجمع أغراضه حين خرجتُ. قالت جيني: «اتبعينا إلى المنزل التالي». مضى الأسبوع الأول كله على الوتيرة نفسها؛ ينزلُ فريقٌ كامل في منزلٍ مدة ساعة، نتوزع داخله إلى زوايا وغُرَفٍ مختلفة، ننظفه من بدايته حتى باب مدخله، ثم نعود معًا إلى الموكب الصغير لسياراتنا القديمة وننتقل إلى المهمة التالية.

في قلب كل هذا كانت جيني، بشعرها الأشقر الضارب إلى الحمرة مربوطًا بشدة في ذيل حصان، كانت تتحرك كأنها كانت طالبةً ذائعة الصيت في مدرستها الثانوية وما تزال تتوقع استرضاء الناس لها. حين كانت تُملِي عليَّ تعليمات ترتيب أي مكان، سواءً الحمام أو السرير، كانت تبتسمُ وتقول: «اجعليه يلمع!». كنتُ أرشُّ سائل التنظيف وأمسحه بالمناشف الورقية، وأنفضُ الأغبرة بالريش الأبيض، وأعَطِّر الغرف بمعطر الجو قبل أن أغادرها.

كان لكل فتاةٍ مهمتها المفضلة في العمل. أحبَّ بعضهن تنظيف المطبخ، وأخريات فضَّلن كنس غرف النوم والمعيشة بالمكنسة الكهربائية. ولا واحدة منهن أحبت تنظيف الحمامات؛ توَلَّتْ العاملة الجديدة هذه المهمة.

قد يبدو الحمام نظيفًا أو جميلًا؛ تكسوه أغطية مقعد الحمام والسجادات الصغيرة والفوط الوردية لتتماشى مع ستارة الاستحمام المزدانة بالورود، ولكن كل هذا لا يعني أن المرحاض لن يكون مُرَوِّعًا. في البداية، أشد ما أثار قرفي كان الشعر المتناثر، ولكن كميته الهائلة خَفَّفَتْ صدمتي بالتدريج.

تَعَلَّمتُ كيف أرمي أكياس القمامة الصغيرة دون أن ألمس -حتى والقفازات تغطي يديَّ- السدادات القطنية والمناديل الملآنة بالمخاط وتكتلات الشعر.

كان الناس يتركون علب الأدوية على المناضد جوار معجون الأسنان أو النظارة. بالطبع وظيفتي كانت أن أنَظِّفَ المكان، ولكن ظَلَلتُ أتوقع أن يتحلى الناس بقدرٍ من الترتيب، أو حتى أن ينظموا الفوضى التي تركوها خلفهم. كُنتُ أقضي نحو خمس دقائق أرفَعُ مختلف الأشياء وأمسحها، وأمسح تحتها، ثم أعيدها إلى مكانها بطريقةٍ مُرَتَّبَة.

بعد الأسبوع الأول من السير في ذيل الفريق، جعلوني أخيرًا برفقة امرأة ذات شعرٍ بُنِّيٍّ ومموجٍ وقصيرٍ يصل إلى كتفها، كانت تكبرني بعشر سنواتٍ تقريبًا، واشتكى الكل منها سِرًا حتى لا تصل شكواهن إلى مسامع جيني.

اصفَرَّت أسنان أنجيلا وأظافرها من تدخين السجائر، ولم أتعَرَّف عليها بشكل لائقٍ إلا حين أخبرتني أننا سنذهبُ إلى المنزل التالي وحدنا. قالت جيني: «أنجيلا تَعرِفُ المنزل، ستُطلِعُكِ على الطريق حتى توصليها إلى منزلها وتمري عليها صباحًا أيضًا. سأراسلكِ اللية يا أنجيلا وأخبركِ بالمنازل التي سنعمل عليها غدًا، اتفقنا؟»، لَوَّحَت جيني واستَقَلَّت سيارتها مع امرأتين أخريين، وشعرتُ أن تلك اللحظة كانت نهاية فترة تدريبي.

في المنزل، ظَلَّتْ أنجيلا تدردشُ مع العملاء؛ كانا زوجين متوسطي العمر، يرتديان سراويل مكوية وزيتونية اللون، بينما كنتُ أنظفُّ المطبخ والحمامات. لم يَبدُ لي أنها تعمل فِعلًا حتى سَمِعتُ صوت المكنسة الكهربائية وقتًا قصيرًا قبل أن تأتي إليَّ في الحمام الرئيسي.

سألتني وهي تغلقُ المكنسة وتبتسم: «هل انتهيتِ؟»

بعدما وضعتني جيني في فريقٍ واحدٍ مع أنجيلا، انتَظَرَتْ زميلةً أخرى مغادرتها قبل أن تهمس بأن عليَّ مراقبتها خلال التنظيف. «إنها تَسرِقُ الإسفنج

والمناديل من المنازل». أغراض من المفترض أن نجلبها نحن من مالنا الخاص. في بعض الأحيان، حين كنا ننتهي من العمل في منزلٍ ما، كانت أنجيلا تأخذُ من الوجبات الخفيفة في خزانة المطبخ، وتركب السيارة وبيدها كيس من رقائق البطاطس شارف على الانتهاء أو علبة من المقرمشات المالحة. كنتُ أراقبها وهي تلتهم الطعام في نهم وأنا أعرفُ أنه لم يكن في حوزتها قبل دخولنا المنزل.

سألتني: «هل تريدين منه؟» ومدت الكيس ناحيتي، غير مُدرِكَةٍ نظرتي المزدرية إليها ورغبتي في الصراخ.

أجَبتُها: «لا». كنت وقتها أنتظر العاملتين الأخريين كي تُخرِجَا سيارتهما التي سَدَّت الممر. توقفتْ تريسي ذات الشعر الأسود القصير أشيب الجذور لتُشعِلَ سيجارة، وكانت تجلسُ في مقعد القيادة.

سألتني أنجيلا للمرة الثالثة أو الرابعة: «هل يمكنني أن أدخن هنا؟»، مثلما كانت تفعل ميا حين تعرفُ أنني مرهقة وربما أرضخُ لرغبتها.

أجبتها بصراحةٍ فَجَّة: «لا».

قالت: «إذن سأطلبُ من تريسي أن أركب معها». ثم فتحت الباب واندفعتْ إلى السيارة من خلفي، التي بدأت تعود إلى الخلف وتفتح الطريق.

لم أُشِر إلى سلوكيات أنجيلا أمام جيني. تَجَنَّبتُ المتاعب ولم أشتَكِ، كنتُ مستكينةً وممتَنَّةً لأنني وجدتُ عملًا. ولكني كذلك كنتُ في حاجةٍ إلى العمل ساعاتٍ أطول. تكلَّمَت جيني عن موظَّفَاتها برأفة، وشعرتُ أن أنجيلا تنظفُ معها منذ وقتٍ طويل، من المحتمل أنها كانت أقدم عاملة. تساءلتُ ما قصتها، كيف تردَّت الحال بأنجيلا لتصل إلى مكانها هذا. فَكَّرتُ في قصص كل زميلاتي. ما الذي حدث في حياتهن وأتي بهن إلى هنا، إلى مكان تنظيف المراحيض مقابل مبلغٍ تافهٍ من المال.

أخبرتني جيني ذات مرةٍ في حَدَثٍ نادر حيثُ كنا نتجه نحن الاثنتان وحدنا إلى المهمة التالية: «كانت واحدةً من أفضل الموظفات». رَقَّ صوتها وأردفت: قلتُ: «إنها تمرُّ بوقتٍ عصيب. قلبي معها».

قُلتُ: «صحيح، لاحَظتُ هذا». ولكن قطعًا لم ألحظ. كانت أنجيلا تتلكَّأ في المنازل التي نَظَّفناها معًا؛ تُقَلِّبُ في المجلات والخزانات بينما أنَظِّفُ بضعف سرعتي تقريبًا. بعد فترة بدأت أصابعي تتشَقَّقُ من جوانبها. فاحَتْ مني رائحة الأمونيا والمبيضات، وذاك المسحوق الذي كنا نرشُّه على السجاد قبل كنسه.

تشَبَّعَ هواء الشتاء برطوبةٍ ملأت رئتيَّ. أُصِبتُ بدورٍ حادٍّ من الزكام بعد بضعة أسابيع من العمل. حاولتُ قدر استطاعتي أن أخفيه بقطرات السعال وأدوية البرد، ولكنه كان يزداد سوءًا. ذات صباح، بينما نقطعُ أنا وأنجيلا الطريق المفروش بالحصى إلى منزلٍ أزرق يقبعُ بأناقة وسط الغابة، انتابتني نوبة سعالٍ شديدة. كانت قويةً للغاية، حدَّ أنني عجزتُ عن التقاط أنفاسي.

قالت أنجيلا بشيءٍ من الاهتمام الحزين: «يا إلهي! هل أنتِ مريضةٌ أيضًا؟»، حاولتُ أخذ نفسٍ عميق، ولكنني شعرتُ كأنني أتنفسُ عبر منشفةٍ مبللة. نظرتُ إليها، منزعجةً ومريضةً بوضوح. قالت: «ربما علينا أن نتصل بجيني. الناس الذين سنذهبُ إليهم كبارٌ في السن. لا أظن أنه يجدر بنا تنظيف منزلهم».

أخرَجَتْ أنجيلا هاتفها وبدأت تبحثُ عن رقم جيني.

أدارت ظهرها لي وابتعدت عدة خطوات. وضَغَطَتَ زر الاتصال قبل أن أتمكَّن من منعها. لَوَّحتُ بيديَّ إليها وهَزَزتُ رأسي وأنا أقول: «لا، لا». ولكنها استمرت في حديثها مع جيني.

قالت أنجيلا بصوتٍ خفيض أجش يشبه الصوت الذي يستخدمه طفلٌ يود الغياب من المدرسة: «ستِيفَني مريضةٌ بشدة، وأظنها نقلتْ إليَّ العدوى أيضا». أسنَدَتْ الهاتف على كتفها وسَحَبَتْ علبة السجائر من جيبها.

عَبَسَتْ حين وَجَدَتها فارغة، وألقتْ بها في صندوق أدوات التنظيف.

لم أُرِد أن أضيع أجر يومٍ عليَّ أو أتغيب مرضًا وأنا موظفة جديدة. كنتُ في حاجة ماسَّة إلى هذا العمل، ولم أُرِدْ أن تظن جيني أنني متكاسلة. تجاهلتني أنجيلا حين تَرَجَّلتُ من السيارة وبدأتُ بعنادٍ أُخْرِجُ مستلزمات التنظيف. قالت أنجيلا: «يُناسِبُني مساء الخميس». نَظَرَتْ إليَّ بابتسامةٍ عريضةٍ ورفعت إبهامها في سعادة لأنها حصلت على بقية اليوم إجازة.

قالت متحدثةً في الهاتف وما تزال تبتسم، ولكن نَسيَتْ أن تغيِّرَ نبرة صوتها لتبدو متعبة: «عظيم، تمام، سنكلمكِ لاحقًا».

قُلتُ حين عادتْ عند صندوق السيارة: «أخبرتكِ ألا تفعلي هذا». كان رأسي ينبض. عليَّ أن أبرر ما حدث لتراڤيس؛ لأنني أعرفُ أنه سيستاء من عودتي المبكرة. ولكن لسعة المال الناقص كانت أشد.

- لا يمكنني التغيبُ عن العمل، ألا تفهمين

قالَتْ وهي ترفع صندوق أدواتها شبه الفارغ لتضعه في سيارتي: «لا بأس يا بنت. غَدًا ستجدين مهمات أكثر».

قطعنا الطريق كله إلى منزلها دون أن نتبادل كلمةً واحدة، وأدَرتُ المذياع لنظل على تلك الحال. مالت أنجيلا برأسها مع الموسيقى، وطَبَّلَتْ بخِفَّةٍ على أعلى ساقيها. لم أصدق أنها لم تتوتر تمامًا من خسارة ذاك المال. دارت في رأسي أسئلةٌ وددتُ لو أطرحها عليها عن أبنائها وظروف حياتها كي أفهم حالها بشكلٍ أفضل بما أنني أسير أيضًا في طريق الأمهات المستقلات والتشرد والفقر. كان هذا جزءًا من أسباب بقائي مع تراڤيس، ولكن لم أعترف لأي أحدٍ

بهذا قط. كان منزل أنجيلا -الذي اتَّضَحَ أنه قريبٌ من منزلنا- مُصادَرًا رَفَضَتْ مغادرته رغم أن أمرًا بإخلائه وصل إليها. كانت تعيشُ بلا مياهٍ جاريةٍ ولا كهرباء.

ولكن تلاشى تعاطفي أو فضولي مع خسارة الدولارات العشرين من أجر ذاك اليوم. حين توقَّفتُ أمام منزل أنجيلا، طأطأتُ رأسي في محاولة الا أحدِّق إلى الإنذارات الكثيرة الملصقة على الباب مُعلِنَةً أنه غير صالحٍ للسكن.

تمَهَّلَتْ هنيهةً قبل أن تترجَّل: «هل يمكنكِ إقراضي المال لأشتري علبة سجائر؟»

- هذا أجرُ ساعةٍ كاملة.

تعمدتُ أن أجيبها بامتعاضٍ لأنني أعرفُ أنها ستحاول الضغط عليَّ لأمنحها المال في كل الأحوال.

ولكنها أومأت؛ ربما تَفَهَّمَت مدى انزعاجي. بل ربما فهمتْ أنه ليس بحوزتي هذا القدر من المال أيضًا.

انتظرتها كي تأخذ صندوقها، وحاولتُ ألَّا أنظر إلى منزلها. لم أُرِدْ أن تشعر بالحرج من حياتها وأنا أتذكر حالتي حين عِشتُ في الملجأ العام الماضي. كان بعض العاملات يتبادلن الهمسات بأنها خَسِرَتْ حضانة أبنائها في تلك المرحلة. لم أكن متأكدةً من صحة هذا الكلام، ولكن لم أرَهَم كثيرًا حين كُنتُ أوصلها إلى منزلها.

قالت بصوتٍ عالٍ وهي تُغلِقُ باب الصندوق: «تمام». أومأتُ في محاولة لئلا أفكر في كيف ستقضي بقية يومها. أملتُ فقط أن تكون مستعدةً حين أُقِلُّها صباح اليوم التالي.

حين عدنا إلى منزل العجوزين لاحقًا في الأسبوع نفسه، رأيتُ شخصين بنيا حياةً معًا، تحيطهما صور عائلتهما، وهما الآن يُنهيان وقتهما المتبقي بصحبة بعضهما بعضًا. ضحك الزوج ومَزَحَ مع أنجيلا بينما كنتُ أراقبه وهو يُزِيلُ طبق زوجته ويحضر لها بطانيتها المفضلة قبل أن تجلس على الأريكة، فآلَمَني صدري من فكرة موت أحدهما. كان صعبًا ألا أتأثر بالدور الذي لَعِبْتُه في حياة عملائي.

أصبَحتُ شاهدةً على مجريات الحياة. والأغربُ أنني كنتُ شَفَّافَةً ومجهولة، رغم أنني قضيتُ ساعاتٍ في منازلهم كل شهر. تمحورت وظيفتي حول نفض الغبار وإزالة الأوساخ وكنس السجاد، وأن أظل خفيةً عن كل عين. شعرتُ أنني نِلتُ فرصة معرفة عملائي أفضل مما يعرفهم أقاربهم شخصيًّا. عَرَفتُ عن ظهر قلب طعام إفطارهم، والبرامج التي يحبون مشاهدتها، وحالات أمراضهم ومدتها. كنتُ أراهم -حتى وهم ليسوا في المنزل- في الآثار التي خَلَّفوها على أسِرَّتِهم، والمناديل التي تركوها على مناضدهم. كنتُ أعرفهم كما عرفهم قِلَّةٌ من الناس، أو كما لم يعرفهم أحدٌ قط.

7

الوظيفة الأخيرة على سطح الأرض

مرَّ شهرٌ ولم يَصدُق وعدُ جيني بزيادة العمل. شعرتُ -لسببٍ ما- أنها لم تحببني. ربما بسبب قلة كلامي واهتمامي بمَن تُواعِد. ربما ظهر امتعاضي من جدول العمل غير المنتظم أكثر من اللازم -الذي حال بيني وبين وضع خطةٍ وميزانية لرعاية ابنتي- أو ربما كنتُ ممتعضةً بشكلٍ عام.

ولكن -رغم ذلك- توليتُ أكبر عددٍ ممكنٍ من المهمات كلفتني بها جيني، متحملةً مهاراتها الإدارية الشنيعة. راسلتني جيني مساءً بالمهمات بدلًا من أنجيلا حين صارت غير جديرةٍ بالثقة. كنتُ أتوقُ لأحظى بجدول عملٍ عادي، خصوصًا أن عرض جيني الأصلي بالعمل مدة عشرين ساعة أسبوعيًّا تحوَّل إلى عشر ساعاتٍ أو أقل، على حسب ما تأتي أنجيلا إلى العمل أو تتغيب. ولكن شعرتُ أن أحدًا لن يُشير إلى هذا السبب. لم أستطع أن أشتكي الانتظار مدة ربع ساعة أمام منزل أنجيلا في الصباح، في انتظارها أن ترتدي ملابسها وتؤخرنا عن موعد عملنا. كانت جيني ترى الشكوى فشلًا في العمل الجماعي. حين تبجحتْ أنجيلا بسعادتها بأنها تقبض أجرها سِرًّا -دون أن يُسجل في الضرائب- كي تتمكن من الحصول على أموالٍ أكثر من الإعانة الحكومية،

استحَالتْ مفاصل يدي -التي كنتُ أقبضُ بها على عجلة القيادة- بيضاء من في قوة الضغط. ضايقني مدى ارتياحها للأمر. شعرتُ أنه من المفترض أن نرعى بعضنا بعضًا، ولكنني كنتُ مهمومةً أكثر برعاية ميا وما سيأتي مستقبلًا.

في تلك الأثناء كان تراقيس يتعامل مع وظيفتي وكأنها نادٍ أدبيٍّ، شيءٌ يُعطِّلُني عن أداء العمل المهم في منزل المزرعة. عانيتُ لأتمكَّن من رعاية ميا وأحافظ على البيت نظيفًا في الوقت نفسه. تنامى غضبي نحو تراقيس كلما نظر إليَّ نظرة المترقب لأُطعِمَ الخيول. كلما ازداد صخب حياتي كوني «زوجة المزراع»، تنامَتْ شكوكي ومخاوفي حيال إن كانت ستطول إقامتنا في منزل تراقيس أم ستنتهي. كانت مقدرتي على العمل -على كسب المال- هي شبكة أماني الوحيدة في حال انهارت الأرض من تحتي. ولم تكن جيني تقدِّم ما فيه الكفاية لنا، ولا بأي طريقةٍ تُذكَر.

كان دائمًا يظهر إعلان كلاسيك كلين -وهي شركة تنظيفٍ مرخصة- في قسم الإعلانات المبوَّبَة المحلية. مكتوبٌ بخطٍّ عريض: «مطلوب عاملات نظافة!»، نَوَيتُ الاتصال بهم إن لم تسِر الأمور كما ينبغي مع جيني، وكان الوقت قد آن.

قالت السيدة التي فتحت الباب: «مرحبًا. ستِيفَني؟ صحيح؟ هل وجدتِ المكان بسهولة؟ يحار البعض أحيانًا بسبب كل تلك المباني».

حاوَلتُ أن أبتسم بدفء رغم أنني تشاجَرتُ مع تراقيس حَدَّ البكاء حيال الوحل الذي تَرَكَتْه قدماه في المطبخ. قلتُ: «لا، وصفكِ كان مثاليًّا». فبدا السرور على السيدة.

قالَتْ بيدٍ مبسوطة: «أنا لوني، مديرة الموارد البشرية في كلاسيك كلين».

مَددتُ يدي وصافحتها، ثم ناولتها سيرتي الذاتية. بَدَتْ لوني متفاجئةً كأنها لم تَرَ الكثير مثلها.

قالت بسرورٍ بالغٍ على ما يبدو: «يا إلهي، مذهل!»، كأنها كانت الوظيفة الأخيرة على سطح الأرض، سيُغنيني أي قدرٍ أجنيه من المال عن الحاجة إلى الاتصال بقائمة ملاجئ المشردين مجددًا، ثارت أعصابي وغَضِبتُ من نفسي لأنني وَجَدتُ أنني عالقة في الوضع نفسه مرةً ثانية، سيكون جدول العمل المنتظم والوظيفة الحقيقية هما تذكرة استقلالي، وفي النهاية نجاتي وابنتي. كان مستقبلنا يعتمدُ على الحصول عليها.

أومَأتْ لوني نحو طاولةٍ في نهاية مساحة المكتب المستطيل، بُنيَت في إحدى الحُجرات الملحقة الشاسعة. أخبرتني في الهاتف أن العمل يُدار من المكتب، الكامن في مبنى بام، صاحبة الشركة. قالت: «لم لا تتفضَّلين بالجلوس وتبدئين في تعبئة الاستمارة. نحتاجُ إلى موافقتكِ على إجراء فحص الخلفية الجنائية أيضًا، تمام؟».

أومأتُ وفَعَلتُ ما قالته. أتَتْ لوني بعد فترة وجلستْ جواري. قالت: «ربما يمكنكِ تمييز أنني من جيرسي من لهجتي». صحيح. كانت تتحدثُ مثل شقيقة داني ديڤيتو الصغيرة. كانت لوني قصيرة ومكتنزة الجسم، لها شعرٌ أسود مجعد على شكل سمكة بوري منفوشة؛ تُشبه نوع الناس الذين تودُّ أن تظل على وفاقٍ معهم. كانت مباشِرَةً وعملية، تتكلمُ بسرعة لكن تتوقفُ وقفاتٍ قصيرة لتمنحني وقتًا أستوعبُ ما تقول، وترفعُ حاجبيها حتى تسمعني أقول: «مفهوم» قبل أن تُكمل.

قالَتْ لوني: «هذا جدولنا». مشيرةً إلى لوح إعلانات خلف مكتبها. كان كبيرًا للغاية، حَدَّ أنها استعانت بمقعدٍ منخفض كي تصل إلى قمته. «نَكتُبُ اسم كل عميل على الملصق، وتدور أسماؤهم عبر الأسابيع (أ) و(ب) و(ج) و(د). نحنُ حاليًّا في الأسبوع (ج) كما ترين من إشارة السهم. نتعامل مع بعض العملاء شهريًّا أو أسبوعيًّا، ولكن معظمهم مرتين في الشهر، أي مرة كل

أسبوعين. تحصل كل عاملة على نقطةٍ ملونة تُشير إلى مهمتها كي نُميِّزَ أي عاملةٍ تتولى أي منزل». توقفتْ لتنظر إليَّ، وقفتُ جوارها وذراعاي مطويتان على صدري. سألتني: «فَهِمتِ؟». أومأتُ. «حَسَن. لو اجتَزتِ فحص الخلفية...

لا أقصد أنكِ لن تجتازيه طبعًا، ولكنكِ ستُفَاجَئِينَ مما نجد أحيانًا». ضَحِكَتْ ضحكةً مكتومة بينها وبين نفسها. «على أية حال، بعد اجتيازه، سنجهزكِ ونحضر لك أدواتك ومكنستكِ وبعض الملابس. ما مقاسك؟ صغير؟ أم متوسط ؟ الأفضل على الأرجح ألَّا تأخذي المقاس الصغير. من اللطيف أن تتركِي براحًا كي ترتاحي في حركتك. أظنُّ أن لدينا المقاس الوسط. هل لديكِ أي أسئلة؟».

كان لدي الكثير، لكن شعرتُ أن كل ما أردتُ معرفته عن الأجر أو ساعات العمل، أو إن كانوا يقدِّمون تأمينًا صحيًّا أو إجازات مرضية بلا أهمية. كل ما هَمَّني أن العاملة التي سأحل محلَّها كانت نقطةً صفراء؛ ما يعني أن كل النقاط الصفراء على اللوح هي أنا، أي أنني سوف أعمل كل أربعاء وخميس وجمعة، ومرةً في الشهر يوم الاثنين.

أشارت لوني إلى ملصقٍ على الحائط كُتِبَ عليه «٨,٥٥ دولارات في الساعة»، وكان ذاك الحد الأدنى للأجور في واشنطن آنذاك. قالت: «سنبدأ بهذا المبلغ خلال الفترة التدريبية. ولكنه يصل إلى تسعة بعد ذلك». سيكون حاصله ١٨,٧٢٠ دولارًا في السنة إن عَمِلتُ بدوامٍ كامل، وهو ما كان تحقيقه مُحَالًا؛ كانت سياسات الشركة تمنعُ العمل أكثر من سِتِّ ساعاتٍ يوميًّا.

قالت إن الزيادة على ذلك تصيب العاملات بالإنهاك. كذلك لن يُدفَع لي بدل التَنَقُّل. كانت جيني تأخذ في حسبانها الساعات التي أمضَيتُها في القيادة من منزلٍ إلى آخر وتُضيفها إلى أجري؛ ما كان يمنحني دولارًا إضافيًّا أو اثنين كل يوم. في الوظيفة الجديدة، كنت أقضي أحيانًا ما يصل إلى ساعتين غير مدفوعتين يوميًّا وأنا أنتقلُ من منزلٍ إلى آخر، ثمَّ عليَّ أن أغسل المناشف

التي أستخدمها في العمل في منزلي بمنظفاتي، وكذلك ملابس العمل المطرز عليها عصفورٌ صغير أحمر بجانب اسم الشركة.

لم تمانع لوني وقفتي هناك أتمَعَّنُ في جدول العمل بينما هي مستمرة في شرح نظامهم. كانت منازل عديدة تستغرق ساعتين، أو حتى ثلاث ساعات. قِلَّةٌ منها أخذت أربعة، والبعض تَطَلَّبَ ست ساعات. كل منزلٍ أُكَلَّفُ به يأتي معه ورقة تشرحُ كل غرفةٍ به بالتفصيل، وتعليمات تنظيفها، والمدة اللازمة لها. أخرَجَتْ ورقةً لتُطلِعَني عليها. تأتي ملاحظاتٌ إضافية مع معظم الغرف لتُحَذِّر العاملات من البلاط المخلوع، أو التنبيه على نفض أماكن يُغفَلُ عنها عادةً، أو أماكن أغطية الأسرة النظيفة في حالة نسى العميل إعدادها. لم يُكتَب كل شيء مُنتَظَر مني فحسب، بل كُتِبَ أيضًا ما عليَّ توقعه بتفصيلٍ دقيق باللونين الأبيض والأسود. لن يكون هناك محادثات في آخر المساء أو تخطيطات بالمراسلة، في حالة أردت، فيمكنني التخطيط سابقًا. وأعرفُ أنني بعد ثلاثة أشهر من الآن في يوم الأربعاء الثاني من الشهر، سأبَدِّل الملاءات في أحد المنازل قبل أن أقود سيارتي مسافة ثلاثة أميال وأتجه إلى المنزل التالي. لم أندهش من حاجتي الماسة إلى هذا النوع من الثبات، هذه الموثوقية، كُنتُ على وشك أن أعانق لوني. اضطررتُ إلى إخفاء الدموع التي مَلَأتْ عيني.

اتَّصَلَتْ بي لوني في اليوم التالي. كنتُ أنهيتُ تنظيف أحد المنازل مع أنجيلا وأجلسُ في سيارتي بصبرٍ نافد في انتظار أن تنتهي، وأحاول جاهدةً أن أتجاهل أنها ربما تأخذُ شيئًا ليس مِلكَها.

قالت لوني: «اجتَزتِ الفحص. كُنتُ أنكِ ستجتازينه بسهولة، ولكن علينا التحقق من هذه الأمور».

قُلتُ وأنا أتمنى أن أفصح لها عن مدى سعادتي لأنهم يأخذون تلك الخطوات: «أفهَمُكِ طبعًا».

سألتني: «هل أنتِ متفرغة لتأتي بعد الظهر اليوم كي تأخذي بعض الأغراض؟ بام ليست موجودة، بإمكاني إعداد كل شيء لَكِ فتكونين جاهزةً لبدء العمل. بعدها ربما يمكننا الذهاب إلى منزلي -ليس بعيدًا، في آخر الشارع- وأدَرِّبكِ قليلًا بتنظيف حَمَّامي وإزالة الأغبرة من هنا وهناك».

حاوَلتُ استيعاب ما قالته. معنى كلامها أنني قُبِلتُ في الوظيفة، وسأبدأ العمل في تلك الظهيرة. لديَّ وظيفة، وظيفة حقيقية مع إيصال استلام الراتب وجدولٍ منتظم. قلتُ بنَفَسٍ لاهِثٍ فجأةً وبنبرةٍ تُشبه الصراخ: «نعم! عظيمٌ للغاية!». ضَحِكَتْ لوني وأخبرتني أن أمُرَّ على المكتب بعد الظهر.

في صغري، كُنتُ أقضي صباحات أيام السبت أنظفُ المنزل تنظيفًا دقيقًا. لم تكن أمي تخلعُ ملابس التنظيف إلا بعدما ينتهي كل شيء. كنتُ أصحو على رائحة الفطائر المحلاة أو اللحم المقدد أو النقانق تفوحُ في غرفتي، وموسيقا بيانو جورج وينستون تصدحُ في الخلفية، ثم بعد الإفطار نبدأ في عمل المهمات المحددة سابقًا، والواجبات التي نوافق عليها على مضض. كانت مهمتي تنحصر في الحمامات، فترةً ما كُنتُ أتشارك مع أخي، ولكن مهاراتي كانت مذهلة، وامتدحتني أمي بما يكفي لأرغب في تنظيف الحمام الرئيسي أيضًا. كانت أمي تتباهى أمام أصدقائها ببراعة تنظيفي لحوض الاستحمام، مُبَاهاةً بالغة حَدَّ أنني كنتُ أنفخ صدري بالهواء وأنا أُطيلُ جذعي في وقفتي.

أولَتْ أمي أهميةً للمظاهر دائمًا. كانت تقول عن أي ملابس بيضاء أرغبُ فيها: «سوف تتسخ منكِ». لم يكن مسموحًا لي أن أطلي أظفاري، لأنها كانت تقول كلما رأت فتاةً بطلاءٍ متشقق إنه يجعل منظرها قذرًا. في إحدى ليالي السبت التي قضيتها في منزل جدي حين كنتُ في الخامسة أو السادسة، رأيتُ جدتي تطلي أظفار يديها وقدميها بطلاءٍ ورديٍّ داكن قبل أن تطلي أظفاري، رغم أنني أخبرتها أن أمي ستغضب.

صباح اليوم التالي في الكنيسة، كلما كان علينا ثني أيدينا للدعاء كنتُ أطوي أظفاري داخل كَفَّيَّ لأخفيها عن أنظارها.

كانت طريقة تعامل كلاسيك كلين مع منازل العملاء تختلفُ تمامًا عن طريقة جيني؛ غَدَوتُ شَبَحًا بلا اسم. أظهَرُ إما في التاسعة صباحًا وإما قبل الواحدة ظهرًا -حسب جدول العميل ووجوده في المنزل- ولكن ليس بعد ذلك. لم أعمل بعد الساعة الثالثة إلا فيما ندر. أخبرتني لوني: «مواعيد الأمهات، تعرفين، حين يكون الأولاد في المدرسة». كان عليَّ تنظيف المنزل بطريقةٍ محددة، بنفس أسلوب العاملة التي سبقتني وفي المدة الزمنية نفسها، لأمنع أي اختلافٍ يظهر بين العاملات. كان عليَّ أن أكون مُتَّقِدَة النشاط وحادَّة النظر. مواقد المطبخ يجب أن تُلَمَّع بلا شائبة، والوسائد تُنفَخُ كل زيارة، ومناديل الحمام الورقية تُطوَى في مستطيلاتٍ صغيرة بالطريقة نفسها كل مرة.

كان اختبار تدريبي الأول تنظيف مطبخ وحمامات منزل لوني وبام، فلم أقلق حيال براعتي مطلقًا. كان كلا المنزلين لطيفًا للغاية، ويتكونان من طابقين، ويقعان في الغابة. ليسا شاسعين، ولكنهما ليسا ضيقين أيضًا. تبعتُ سيارة لوني الكِيَا سبورتاج إلى منزلها، معي أدوات التنظيف الجديدة، التي جُرِدَت وسُجِّلَت بدقة في ملف توظيفي: بخاختان، وصندوق واحد من مسحوق كومِت، وإسفنجتان، وزوجان من القفازات الصفراء، وخمسون منشفة بيضاء، ومنفضتا غبار، ومكنسة كهربائية من نوع أوريك، ومقبضا ممسحة، وهكذا. أخبرتني لوني أن عليَّ استخدام الأدوات التي تمنحني إياها الشركة فقط، وأعيدها إلى المكتب لتعبئتها وقت الحاجة، تبادلنا الحديث قليلًا خلال بحثها عن كل ما أحتاج إليه لأبدأ العمل، وأتيتُ على ذكر أنني في حاجةٍ إلى أن أُوصِلَ ميا ذاك اليوم لقضاء إجازة نهاية الأسبوع عند أبيها.

قالَتْ لوني: «إنني أعرف، صدقيني». أخبرتني أن ابنتها بلغتْ عامها العاشر حين تزوَّجَتْ مرةً ثانية. «وبام أيضًا، مَرَّتْ بالوضع نفسه. بل في الواقع، بدأتْ هذه الشركة وهي أمٌّ مستقلةٌ. أراهن على أنه لديكما الكثير لتتحدَّثا عنه». جيني كذلك كانت أمًّا مستقلة. فكَّرتُ في كم كان أمرًا عاديًّا أن العاملات

المنزليات هن أمهاتٌ مشردات، عالقات بين الأعمال المنزلية في بيوتهن والسعي خلف وظائف تدفع أجرًا معقولًا. بَدَتْ تلك الوظيفة الملاذ الأخير.

أخبرتني لوني أن أتصل بالمكتب فور وصولي إلى المنزل الذي سأنظفه لتسجيل الوقت رسميًا. قلتُ بمجرد انتهاء الرسالة وسماع صوت الصفير: «مرحبًا، أنا ستِيفَني لاند وسأبدأ العمل في منزل لوني». ثمَّ أغلقتُ الخط.

قالتْ لوني بجديةٍ أجفلتني: «لا! عليكِ قول التاريخ والوقت!» ثم أردفت بسرعةٍ تصحح قولها: «صحيحٌ أنه يذكر الوقت والتاريخ بعد الرسالة على أية حال، ولكن عليكِ أن تفعلي هذا كل مرة في البداية والنهاية، ويجب أن يكون الاتصال من هاتف العميل ليظهر رقمه على الشاشة. إنها فقط طريقةٌ تساعدنا على تتبع سير العمل». أومأتُ واتسعتْ عيناي قليلًا. أخبرتني بكل هذا سابقًا حين أعطتني ملفَّ أوراق العملاء المُكلَّفة بهم، ولكني نسيته مع بقية المعلومات. شعرتُ -مع كل تلك التعليمات- أنها معتادةٌ تكرار كلامها.

أشارَتْ لوني إلى حمامها في نهاية الردهة من المطبخ الضيق المربع: «في هذا الحمام، عليكِ أن تولي اهتمامًا خاصًا بالخزانات والحائط خلف الحوض». قالت لوني إنها تستخدم مثبتات الشعر بإفراط، بدليل علبتي بخاخ أكوا نِت الموضوعتين بحذر على حافة المرآة. «عدا ذلك فكل شيءٍ هنا عادي، تعرفين، لديكِ طبعًا مرحاض وحوض استحمام». رَبَّتَتْ على كتفي. «ابذلي قصارى جهدكِ، وسآتي لاحقًا لأرى عملكِ».

قبل سنواتٍ من حملي بميا، قَدَّمتُ للعمل في الفرعِ المحلي لشركة ميري ميدز للنظافة في تَطَّلُعٍ يائس للعمل خارج المقاهي. قضيتُ يومي الأول في المكتب أشاهد أربعة مقاطع مُسَجَّلة تدريبية؛ امرأة شقراء ترتدي قميص بولو أخضر أدخَلَته بأناقةٍ في بنطالها الزيتوني، تبتسم بينما ترتدي ضمادات الركبة الواقية، ويسألُ صوتُ المُعلِّقة المتملِّق: «وكيف سننظفُ الأرضيات؟ بالضبط؟ على أيدينا ورُكَبِنا». جفلتُ، ولكن اتضح أن جزءًا من تلك المقاطع كان مفيدًا للغاية؛ تحتاج كل مساحة وكل غرفة وكل أرضية إلى خريطةٍ مُفَصَّلة

لتنظيفها. كانت تعليمات ميري ميدز تُملي على العاملات أن ينظفن في اتجاهٍ واحد: من اليسار إلى اليمين، ومن أعلى إلى أسفل.

وأينما نظفتُ أي شيءٍ من ذلك الحين، عَجَزتُ عن مسح ذاك المقطع من رأسي، وأبدأ التنظيف من أعلى زاويةٍ في اليسار وأنزِلُ حتى أُنهي العمل.

على نحوٍ شبه غريزي، نَظَّفتُ حمام لوني بالطريقة نفسها، بدأتُ مباشرةً من الركن الأيسر لباب الحمام، ثم الجزء الأيسر من أعلى المرآة، وانطلقتُ من هناك. كان أي منظفٍ أرُشُّه ولا يصل إلى المرآة ينزل على أي سطح كنتُ سأنظفه في كل الأحوال، فلن أُغفِلَ أي بقعة. وظيفة الخادمة في الأساس لَمسُ كل بوصةٍ من أسطح المنزل.

ولأن بعض المنازل بها أربع غرف نوم وحمامان كبيران وآخران صغيران ومطبخ وغرفة طعام ومعيشة بخلاف الغرف العائلية؛ لذا كنتُ أتعبُ من كمِّ الأسطح، ومن التحقق من نظافتها كلها.

حين أخبرتُ لوني بأنني انتهيتُ من تنظيف الحمام، زَمَّتْ شفتيها استعدادًا لمعاينة عملي. نادت بعد مرور ثوانٍ معدودةٍ من اختفائها في الحمام: «ستِيفَني!».

رَكَضتُ إليها. كانتْ منحنيةً أمام المرآة، ثم وقفت بسرعة وانحنت من جديد، ثم طلبت مني أن أفعلَ مثلها، أشارت إصبعها إلى البُقَعِ التي غفلتُ عنها على المرآة، والتي لن تُرى سوى من مكانٍ منخفض. جَرَتْ بكفها على المنضدة، ثم قالت وهي تهزُّ رأسها: «عليكِ إعادة كل شيء. بللي رذاذ مثبِّت الشعر المنتشر على المنضدة والحائط كي يلين، ثم امسحيه».

جحظتْ عيناي؛ نسيتُ الجدار.

جعلتني أسير بيدي على المنضدة لأستشعر السطح الزَّلِق، وأخبرتني أن أفعل ذلك على كل أسطح الحمام. غَطَّتْ طبقة رقيقة من رذاذ المثبت كل مكان، حتى خلف المرحاض؛ منطقة أخرى نسيتها.

قالت وهي تُرَبِّتُ على كتفي مرةً ثانية قبل أن تتركني للعمل: «مع ذلك فإن حوض الاستحمام رائع».

حين وقفتُ في الحمام الفارغ أحَدِّقُ إلى صورتي في المرآة، خَطَرَتْ ببالي مباهاة والدتي أمام أصدقائها: «في وسع ستِيفَني أن تجعل أي حوضٍ يتلألأ».

أمَّا انعكاسي، فقد أظهر إنسانةً مُهَانة حدباء، تريد الهرب من امرأةٍ لا تنظفُ مرحاضها بينما هي تجلسُ في غرفةٍ أخرى تتصفح الكتالوجات فحسب، بل وأمَرَتها أن تُعيد تنظيفه من جديد.

وحين لاح في الأفق عدد ساعاتٍ محترم من العمل، طردتني جيني. طردتني عبر رسالةٍ نصية بالطبع، أرسَلَتها لي في الثامنة مساءً بعد أن رَفَضتُ تنظيف منزلٍ كلفتني به في اليوم التالي. كُنتُ مُكَلَّفةً بمنزلٍ آخر من كلاسيك كلين، كانت تَعرِفُ بأمره ونسيته، ولكنها استخدمته حجةً ضدي على أي حال.

كَتَبتْ إلي: «لقد خَصَّصتُ هذا العميل لكِ تحديدًا لأنكِ قُلتِ إنكِ في حاجةٍ إلى ساعاتٍ إضافية. ولكن هذا لن ينفع. أريد شخصًا يجيد العمل الجماعي».

لم أدافع عن نفسي، لأنني عرفتُ أن لوني سيسعدها أن أكون متفرغةً للشركة طوال اليوم. كان الأجر في كلاسيك كلين أقل، ولكن طبيعة عملهم المنظمة والجادة عَوَّضت الفارق، تلك الفترة على الأقل. عليها أن تعوضَ عنه. كانت تلك الوظيفة هي كل ما تبقى لدي.

8

المنزل الإباحي

في أول أسبوعين عِشتُ في ظل كاثرين، الفتاة التي حَلَلتُ محلها. كانت طويلة وأكبر مني، ولكن تقود طرازًا أحدث لسيارة چيب شيروكي. قالت إنها ستبدأ العمل مُحاسِبةً بدوامٍ كامل في شركة زوجها المتخصصة في أعمال المقاولات. كان التنظيف وظيفةً إضافية لها حين كان العمل بطيئًا. بَدَتْ متعبة، لكن مسرورة بزيارة منازل عملائها للمرة الأخيرة.

سِرتُ خلف چيب كاثرين إلى عدة منازل طوال أسبوعين، أحاول تقليد طريقتها السلسة الهادئة في التعامل معهم. لاحَظتُ قبل الكريسماس أنها تحصلُ أحيانًا على بطاقة معايدة من عملائها بداخلها عشرة دولارات أو نحوها. لم يكن لديهم أدنى فكرة أننا كنا عامِلَتَين، أو أنني شَغَلتُ مكانها. في كل مرة ترك أحد العملاء بطاقةً لها كانت تتصرف وكأنها مفاجأة سعيدة، ولكن شعرتُ أنها مجرد إكرامية بمناسبة الكريسماس، وليست شيئًا معتادًا. سيكون عليَّ أن أعمل طوال العام، أن أفرك كل مرحاضٍ بيدي عشرين مرة لأحصل على إكراميةٍ بعشرة دولارات.

أتتنا التعليمات بأن ندخل المنازل من أبوابها الخلفية، أو من باب المطبخ الجانبي. ندخلُ المكان بصناديقنا المنظمة بعنايةٍ، الملآنة بالبخاخات

والفُرَش، وكيسٍ كبير من مناشف بيضاء، ومكنسة وممسحة. كان لديَّ شيءٌ من الخبرة عن طريقة استخدامها في البداية. اختلف العمل في كلاسيك كلين عن العمل مع جيني؛ هناك كُنَّا ندعك ونفرك كل شيءٍ بأيدينا. لم يتمحور عملي حول نفض الأغبرة وتلميع الأسطح لأجعل الأشياء جميلة الرائحة وبَرَّاقة، بل كنا نفعل هذا بكميةٍ هائلة من الإسفنج، والفرش، والصابون العضوي، والخل.

كنتُ أتعثر في دخولي، أحاول حَملَ أدواتي كلها من السيارة دُفعةً واحدة، وأجهز «مقر عملي» تمامًا كما طُلِبَ مني؛ أفتحُ الملف على سِجِلِّ الدوام وأكتبُ اسم العميل الأخير، ثم أتصل بالمكتب لأسَجِّلَ الساعة وأقول وقت بدء العمل. بدايةً كان الأمر أشبه بسباقٍ مع الزمن وأنا أناضل لأنهي كل منزل في الساعات الثلاث أو الأربع المخصصة له وأسَجِّلَ موعد الانتهاء.

ولكن انتَظَمَتْ أيامي من جديد، وبدأتُ بتوصيل ميا إلى الحضانة المجاورة لمنزلنا. لم يطمئن قلبي لتلك الحضانة قط، ولكنها كانت المكان الوحيد الذي قَبِلَ بالدفع من دعم رعاية الطفل. لم يكن المكان باردًا ومكتظًّا فحسب، بل بدا أن العاملين فيه يكرهون وظائفهم، وعادت ميا إلى المنزل مُصابةً بمرض جديد مباشرةً بعد تعافيها من وعكتها الأخيرة. كُنتُ في حاجةٍ إلى تركها هناك كي أتمكَّن من العمل، رغم أنني ضَحَّيتُ بسعادتها وعافيتها. جُلُّ ما هَمَّنا وقتها كان التمكُّن من جني المال. وقفتُ ذات مرة عند مدخل حضانة ميا أمسِكُ بيدها الصغيرة الرطبة. كانت في حاجةٍ إلى أن نكون معًا في بيتنا، ولكن عَجَزتُ عن أن أشرح أنني سأخسر وظيفتي إن بقيتُ معها، ومعنى هذا بالنسبة إلى وضعنا. توقفنا برهةً قبل أن ندخل. نظرتُ إليها ورأيتُ أعلى فمها مُلَطَّخًا بسيلٍ من المخاط الأخضر.

سألَتْ امرأةٌ داكنة الشعر تسير نحونا: «ما هذا الذي يخرجُ من أنفكِ؟»، افتَرَضتُ أنها مساعدةٌ في الحضانة لم أرَهَا من قبل. وَجَّهَت السؤال إلى ميا، ولكنها في الواقع كانت تتحدث معي. استغاثت ميا بي، وابتعدت المرأة بعيدًا عنا وهي تهزُّ رأسها. غمرني استياءٌ شديدٌ من نفسي لأنني أتركُ ميا في ذاك

المكان. بعد جرعات من مُسَكِّن التايلينول، بعد أن قضت الليلة الماضية تتقيأ ما في بطنها، لم يتبقَّ لي خيارٌ آخر.

كانت تتصل بي حضانة ميا لأخْذِها في حال أصبَحَتْ مُتعَبَةً ودائخة، أو تتقيَّأ أكثر من مرة، أو ارتَفَعتْ درجة حرارتها. كُنتُ في بعض الأيام أُوصِلُها إلى المنزل وأضعها على الأريكة أمام التلفاز أسفل بطانيتها. كانت تُمسِكُ في يديها كاس العصير ولا تتحرك حتى يحين وقت العشاء وحمام قبل النوم. كان يجلس تراقيس جوارها، يُشاهدان أفلام الكارتون بينما أطبخُ وأنظف.

رغم مشاعر غضبي المتراكمة، لم أرَ سوى أن تراقيس أحَبَّ ميا بصدق. كان يُحِبُّ أنها صُحبَتُه الصغيرة على دَرَّاجته الرباعية، أو أن تجلس بجانبه على الأريكة لمشاهدة التلفاز. ولكن أظنني أحببتُ ما كنَّا نمثله أكثر من حقيقة الواقع. كان صورةً رائعة للأب، يُعَوِّضُها عَمَّا افتقر إليه جايمي. كان رجلًا كادِحًا، مثل أبي. وحين يَقِلُّ ضغط العمل، كان يتصرفُ بطفوليةٍ ويعدُّ لها الفطائر المُحَلَّاة. بالنسبة إلي، تلك الخِفَّة الطفولية لم تُغنِ عن حملقته الفاترة الطويلة إلى شاشة التلفاز، ولكن رأيت عيني ميا تلمعان حين تنظرُ إليه. غَبطتُها. أرَدتُه أن يُحِبَّني أيضًا. ملأتني رؤيتهما جالسين على الأريكة -بعد العمل طوال اليوم- بشيءٍ من الأمان؛ ربما حتى تلك الأمور يمكن أن تكون على ما يُرام.

في العمل، بعد رحيل كاثرين، أديتُ أنا ولوني بعض الطقوس؛ مع كل تكليفٍ جديد كانت «تُعَرِّفني» على المنزل، كأن لكل منزلٍ روحًا عليَّ معرفتها.

لم يكن معظم ما أخبرتني به لوني في تلك اللقاءات مكتوبًا في أوراق كل عميل التي سَلَّمتها إلي. هناك ملاحظاتٌ غير مذكورة لا يراها العملاء أبدًا، مثل: «عليكِ فَركُ كابينة الاستحمام لأنه يتسخ بشدة من هذه الناحية»، أو «احذري البول المتجمّع على الأرض في حمام الضيوف أمام الصالة». ولكن جعلتني ملاحظاتها أرى وظيفتي بعينٍ جديدة -تتجاوز الجانب المهني فيها- أننا كنا نتقبَّل سِرًّا الطبيعة القذرة لعملنا.

في كلاسيك كلين، تناوبتُ بسبب كوني عاملةً وحيدة على عدد قليل من المنازل كبداية. كانت أيام الأربعاء طويلةً، تَصِلُ إلى ست ساعات، أنظفُ فيها منزلين صغيرين متجاورين يقعان على حافة جرفٍ يطلُّ على المحيط.

عاشَ عددٌ من عملائي في جزيرة كامانو المجاورة، والتي كانت تبعدُ مسافة ثلاثين دقيقة بالسيارة عن حضانة ميا، كان يُسافر كثيرٌ من العملاء إلى أعمالهم في سياتل أو إيڤريت يوميًّا، مسافة ساعةٍ على الأقل. لم أعرف طبيعة وظائفهم، ولكني افترضتُ أنهم أطباء أو محامون ناجحون حتى يتمكَّنوا من تحمل تكاليف الضرائب العقارية لمنازلهم. كانت جزيرة كامانو منحصرةً بين البرِّ وجزيرة ويدبي، لذا فمعظم المنازل التي نظفتها كانت تطلُّ على المحيط. كان مَنزِلَا يوم الأربعاء من بين أصغر المنازل؛ بهما مرائب منفصلة مساحتها ضعف مساحة صالة المنزل.

أخبرتني لوني بأن أبدأ بتنظيف منزل الزوجين حتى يتسنى للعميل الآخر مغادرة منزله قبل موعد وصولي. في الصباح الذي سِرتُ فيه مع لوني إلى المنزل الأول، أشارَتْ إلى المنزل المجاور: «لنَمنَحهُ بعض الوقت ليستيقظ وينزل؛ إنه مريضٌ بشدة». سألتها عن السبب. رَفَعَتْ لوني كتفيها وقالت: «توفيتْ زوجته. سترين بنفسك. شيءٌ حزين».

سَمَّيته المنزل الحزين من وقتها. لم أتمكَّن من رؤيته بصورةٍ مختلفة. كنتُ أمنح كل منزل اسمًا حين أتعمقُ في معرفته أكثر؛ هناك منزل السيدة المُدَخِّنة، ومنزل المزرعة، وهكذا.

حين بدأتُ العمل شعرتُ أنه أمرٌ غريب ألا يعرف عملاء يوم الأربعاء أن عاملةً جديدة تنظفُ المنزل، ولكنِّي لم أمانع الأمر. لا أظنُّ أن على لوني أن تنظف تخبرهم بالمستجدات؛ نظرًا إلى أننا خَفِيَّات. ستتأثر الشركة سلبيًّا إنْ عَرَفَ العملاء معدل استقالة العاملات المرتفع في الشركة. ربما ينتابهم القلق من عدد الغريبات اللواتي تناوبن على التجول في منازلهم. لم أكن خادمةً شخصية، بل جزءًا من الشركة. وَظَّفَ العملاء الشركة نفسها ووضعوا ثقتهم

فيها، وليس فيَّ أنا. قَضَيتُ ساعاتٍ وساعاتٍ في منازلهم شهريًّا، ولا أظنهم حتى يعرفون اسمي.

المنزل الإباحي -كما سَمَّيته- كان المهمة الأولى في يوم الأربعاء ذاك. تكَوَّن من ثلاث حجراتٍ ذات نوافذ ضخمة تواجه الجرف، وحديقة من الورود في الخلف. ينتجُ عن وجود شخصين مع كلب وقطة في مساحةٍ ضيقة الكثير من الأغبرة والشعر والوبر. كان عليَّ أن أُولِيَ اهتمامًا دقيقًا بأماكن مثل الرفوف وأعلى شاشات التلفاز وغرفة الغسيل.

قالت لوني: «كابينة الاستحمام هذه...»، وسحبت الباب المنزلق ليكشف عن مربعٍ مغطى بالشعر وزجاجات الشامبو، وما ظننته تَكَتُّلاتٍ من المخاط الأخضر. «عليكِ أن تنقعيها كي تلين».

كانت أدوات التنظيف المتاحة قليلةً للغاية. كان في صندوقي قارورة واحدة يُعادُ تعبئتها عند الحاجة، نصفها مياه ونصفها صابون د. برونر القشتالي[1]. وقارورة أخرى من الخل الأبيض المخفف بالمياه. لديَّ علبةٌ منظف كومت، وخُرفُشة وفرشاة أسنان، وقطع قليلة من الإسفنج الأخضر، وفُرشَتَا تنظيف من مقاسين مختلفين. كان هناك نظامٌ مُتَّبَع في حالة هذا الحمام المُغطَّى بطبقات من بقايا الصابون والأوساخ.

بدايةً، أزيلُ عُلَبَ الشامبو والمناشف واللوف وأنظمهم عند الباب. ثم أرشُّ المكان كله بما كانت كلاسيك كلين تُسميه منظفًا شامل الأغراض كي تلين الأوساخ. بعد تنظيف المنضدة والمرحاض، أمْلأُ مقدار إبريقٍ صغيرٍ من المنظف المخفف بالمياه وأرشه في المكان، ثم ألجأ إلى الإسفنجة وفرشاة التنظيف وقارورتي المنظفات وعِدَّة مناشف. أُعيدُ الكَرَّة مع الباب الزجاجي

---

[1]- شركة أمريكية تنتج المنظفات ومنتجات العناية الشخصية العضوية. (المترجمة)

من الداخل، وأضع مسحوق كومت على الإسفنجة، ثم أدعكه من اليسار إلى اليمين ومن أعلى إلى أسفل.

ثمَّ أغسله بمياه الخل وأجفِّفُه بالمنشفة وأزيل أي بُقَعٍ أفلَتَتْ مني، وأتحقق من نظافته مرةً أخيرة قبل أن ألتفت إلى بقية الأركان التي عليَّ دَعكُها وفَركُها بالطريقة نفسها. في أول مرة، قَضَيتُ ساعةً كاملة أنظفُ فيها كابينة الاستحمام الزجاجية، وأنا أتمنى لو أن معي منظفًا «حقيقيًّا» شامل الأغراض.

لم تُصَنِّف كلاسيك كلين نفسها في الإعلانات بأنها شركة صديقة للبيئة، ولكن استخدموا منتجاتٍ عضوية لتخفيض التكلفة، واعتمدوا على كدح العاملات ومجهودهن الجسدي في التنظيف. رغم أنني لم أخبر المديرة بأمره، فإن تَلَفًا عصبيًّا في عمودي الفقري أعاقني عن الإمساك بأي إسفنجة أو فرشاة بيدي اليُمنى الأساسية.

كُنتُ مصابةً بالجنف منذ كنتُ طفلة، وهي حالةٌ يميل فيها عمودي الفقري ميلًا جانبيًّا. ولكن مؤخرًا بسبب أعمال النظافة، التوى عَصَبٌ متصلٌ بذراعي اليمنى. لأنظف كابينة الاستحمام تلك، كَوَّرتُ كَفِّيَ اليمني في قبضة، ووضعتُ الإسفنجة بينها وبين الحائط، ثم ضغطتُ عليها بمفاصل أصابعي بأقصى قوةٍ ممكنة.

ولأنظف الأرضية، ثَبَّتُّ مرفقي وشَكَّلتُ قبضةً بكفي، ووضعتُ كل ثقل جسدي العلوي على يدي اليمني لأزيل آثار الصابون والأوساخ، وكي لا أؤذي يدي. كُنتُ أعمل بيدي اليسرى حين تُرهَقُ اليُمنى، ولكن عَمِلتُ سِتَّ ساعاتٍ يوميًّا خلال الأشهر الأولى، فكنتُ أعود إلى المنزل وأنا عاجزةٌ حتى عن الإمساك بأطباق العشاء أو أكياس البقالة.

عَمِلتُ وقتًا إضافيًّا في المهمات الأولى، واشتعل غضبُ بام؛ لا ترفعُ الشركة السعر على العملاء، وكان عليها أن تتحمل التكلفة الإضافية لتدفع لي. لم يكن مبلغًا كبيرًا، ولكن تذمَّرَت بام من العبء المالي كأنني تسببتُ لها في أذًى

شخصي لأنني تأخرتُ في العمل ربع ساعةٍ زيادة. كنتُ متوترةً من أن أستغرق وقتًا طويلًا، وحَيَّرَني كيف لمنزل كامل -حتى وإن كان صغيرًا- أن يُنَظَّفَ في ثلاث ساعاتٍ لا أكثر. لم يَنَل هذا المنزل اسمه إلا بعدما نَظَّفته عدة مرات. ذات مرة دَخَلتُ غرفة النوم لتبديل الملاءات، ورأيتُ مُزَلِّقًا على المنضدة جوار السرير أمام ساعةٍ رقمية، أنارَته الأرقام الحمراء الساطعة، فنَظَرتُ إليه كأنه سينقضُّ عليَّ. تَحَرَّكتُ بحذر إلى زاوية السرير حتى أتجَنَّبَه، كان دُرجُ المنضدة شبه مفتوح، كاشفًا عن عددٍ من مجلة «هاسلر»، ومُلقًى جوار قدمي جوربٌ متسخ.

جفلتُ وأنا أسحبُ الأغطية. أزلتها بسرعة واستخدمتها لأمسك الجورب بها. وضعتُ كل شيءٍ في الغَسَّالة. فَرَشتُ ملاءاتٍ نظيفة على السرير، تمامًا مثلما دُرِّبتُ على فرشِها، الزوايا المائلة المموَّجَة في الأسفل، مع سحب الجزء المستوي ، بأكمله إلى الأعلى. قررتُ حين وصلتُ إلى خطوة نفض الغبار أن أترك المنضدة للنهاية حتى أتجنَّب المزلِّق. رغم أنني قَط لم أكن لأنتقد أحدًا لفعله أمورًا خاصة، كُنتُ سأنتقده حتمًا لتركها على مرأى من عاملة النظافة. قُلتُ لنفسي ربما نسي أن اليوم الأربعاء.

ولكن مع الوقتِ فَهِمتُ أن المزلِّق هو تفصيلٌ صغير من قصةٍ أكبر تجري في المنزل. فَهِمتُ أن الزوجين في ذاك المنزل يعيشان حياتين منفصلتين. تعملُ المرأة ممرضةً في مواقيت غريبة؛ عَرَفتُ هذا من زيٍّ عَمَلِها الموضوعِ بعناية على مقعدٍ في الغرفة الخلفية. لم أستطع معرفة وظيفة الرجل بالضبط. لم أرَ صورًا من حفل الزفاف على الحائط، رغم افتراضي أنهما متزوجان، فقط رأيت صورًا عادية يرتديان فيها كنزتين متطابقتين. كان المنزل قاتمًا بسبب تفضيلهما الألوان الغامقة مثل الكُحلي والأخضر الداكن. وُضِعَ على حافة نافذة المطبخ فوق الحوض إطارٌ ذو حامل كُتِبَ عليه: «إننا معًا لأجل القطة».

امتلأت القمامة في المنزل بفيضٍ من المناديل الورقية، والسدادات القطنية، والفوط الصحية، وشباكٍ من خيوط تنظيف الأسنان. كَشَفَتْ خزانة الأدوية

شبه المفتوحة عن صفوفٍ من المضادات الحيوية. ونظرًا إلى المناديل والمخاط في كابينة الاستحمام، بدا أن أحدهما يُعاني من مشكلات في الجيوب الأنفية، مثلي ومثل ميا، وتقريبًا مثل معظم الناس الذين يعيشون في مناخ الشمال الغربي الرطب، حيث تظهرُ بقع العفن الأسود بين عشيةٍ وضحاها في المنازل والأقبية، وعلى حواف النوافذ.

كان في الصالة أريكة وعدة مقاعد تواجه التلفاز والمدفأة. شعرتُ أن الأريكة كانت مكان الممرضة المفضل، جوار المصباح، حيثما تجلسُ قطتهما عادةً. من الواضح أن زوجها كان يجلس على المقعد الذي جاورته سلَّةٌ امتلأت بأعداد قديمة من مجلة هاسلر مدسوسة بين أكوام من مجلات السفر. مدة شهر تقريبًا ظلت طاولة السفرة مغطاةً بنشراتٍ إعلانية عن بضعة منتجعات شاملة جميع الخدمات، ولكن لا أظن أنهما ذهبا إلى أيٍّ منها أبدًا؛ إذ من عادة العملاء إلغاء مواعيد التنظيف في حالة سفرهم.

في الغرفة الخلفية الملاصقة لغرفة الغسيل، رَتَّبتُ السرير المزدوج في عناية، وعلى المقعد المجاور له وضَعتُ زيَّ الممرضة المطوي. من خلفه اكتظَّ ركنٌ بالروايات الرومانسية، من نوع الكتب التي نراها في محال البقالة، على أغلفتها رجالٌ ذوو عضلات مفتولة وصدور عارية ويعانقون نساء طويلات الشعر. تساءلتُ عن سبب نومها هناك؛ يوجدُ سريرٌ كبير في غرفة النوم، مع خزانة ملابس صغيرة بها جرة يلتفُّ حولها طوق كلاب. ربما كان يشخر، أو ربما بسبب أنها تنام وتصحو في أوقاتٍ متغيرة.

ولكن أدهشتني المجلات والروايات الرومانسية. تخيَّلتهما ينامان في أسِرَّةٍ مختلفة، في غُرَفٍ منفصلة، كُلُّ واحدٍ منهما يحلم بشريكٍ مختلف، بل ربما بحياةٍ مختلفة.

بدأت حياتي وتراقيس تشبه هذا الوضع. ليس إلى ذاك الحد، ولكنه كان يعود من العمل ويأكل الطعام الذي أُعِدُّه، ثم يجلس على الأريكة أمام التلفاز أربع

ساعات قبل أن يذهب إلى سريره ليُشاهِدُ التلفاز أيضًا. ولكن الثاني صغير، وذو موقت يضبطه عادةً على ستين دقيقة.

حين انتقلتُ للعيش مع ترافيس، كان لديه تلفازٌ ضخم -بحجم مرتبة سرير- مثل مسرحٍ مُجَهَّزٍ منزليًّا.

كان يميل بالشاشة إلى الأمام لتكون بزاويةٍ مستقيمة، ويثبِّتُها على الحائط بسلاسل كبيرة. حَدَّقتُ إليها ببلاهة حين زُرتُ منزله أول مرة. استبدل به واحدًا أحدث فيما بعد، وأتى بشاشةٍ مسطحة عادية مع بقية أجهزة المسرح التي تُباع في المتاجر. ولكن الشاشات كانت بالحجم نفسه تقريبًا، وكرهتها بالقدر نفسه.

أهداني ترافيس في عيد ميلادي الحادي والثلاثين حاسوبًا محمولًا. بعد أن نامت ميا تلك الليلة، جَلَستُ على طاولة المطبخ أكتبُ يومياتي على الإنترنت؛ شَرَعتُ فيها بسبب أن يدي اليُمنى صارت ضعيفةً للغاية، فعَجَزتُ عن الإمساك بالقلم. أحيانًا كنتُ أؤدي واجباتي الدراسية أو أدردش مع أصدقائي على الإنترنت، وأوجه ظهري إلى ترافيس في أثناء مشاهدته التلفاز.

9

تنظيف الإخلاء

كان معنى الأمومة أغلب الوقت تدريبًا على الوداع على أمل بناء الثقة في أنني سأعود. تعلَّمتُ أمورًا كثيرةً من المعالجين النفسيين خلال معركة جايمي التي خُضتُها أنا وميا، قالوا إنه لكي يطور الطفل ذكاءه العاطفي وقدرةً على التحمُّل والتكيف، فمن المهم، بل من الأساسي أن يتلقَّى رعاية شخصٍ واحدٍ ثابت في حياته، شخص راشد لا يتوانى عن الوجود في حياته حين يَعِدُ بوجوده. لا يهم عدد الأشخاص الذين يدخلون حياته لرعايته مؤقتًا ويخرجون منها، يظهرون ويختفون، ما دام الشخص السَّنَدُ سيظل موجودًا في حياته. خلال سنوات ميا الأولى، حين بدأت التبديل بين الحضانة ومنزل أبيها في نهاية الأسبوع، أصبَحتُ شديدة الصرامة في الحفاظ على سير جدولنا، أي حياتنا في المنزل، لتمضي بنسقٍ ثابتٍ تألَفُه. تبدأ نهاية كل استحمام بسلسلةٍ من التحركات: منشفة على المرحاض، رَفْع ميا لتقف عليها، تجفيف جسدها ورأسها بمنشفةٍ أخرى، دغدغتها بالطريقة نفسها. ثم تأتي حكاية قبل النوم وقُبلَة، ثم أقول لها: «تُصبِحين على خير، أحبكِ، أراكِ في الصباح». كلها حركات تقع أسفل مظلة الألفة نفسها. صارت تلك الوتيرة هديتي لها كأم لأن الأمر تطلَّب الكثير مني لأكون دائمًا موجودةً حين أعِدُها، ولم ولن أخلف الوعد أبدًا. كانت

آمالي قائمةً على أنه إن عمَّت الفوضى حياتها كلها، فعلى الأقل ستعرفُ أن أيَّ مكانٍ نسميه بيتنا ستجدُ فيه فطائرها المُحَلَّاة مُقَطَّعةً بالشكل نفسه دومًا.

لم يزدد الوداعُ -مثل تعلُّم مشاركة ابنتي مع رجلٍ عاملنا بقسوة- سوى صعوبة مع الوقت. كانت تبدأ جلبة توصيل ميا إلى الحضانة كلَّ صباح من نقطة ركن السيارة في موقف المبنى. بمجرد أن ندخل فصلها، تضطر إحدى العاملات أن تنزع ميا عني بينما تصرخُ وتركل وتستغيثُ بي، وأنا أعودُ أدراجي بسرعة بعد أن أقول: «وداعًا يا حلوة. أحبكِ. سأراكِ بعد الغداء». تمرُّ بعض الأيام بأن تأخذها إحدى العاملات مني بسلاسة وتمسكها برهةً من الوقت، ولكن في أغلب الأيام كانت تجتثُّها اجتثاثًا عن جسدي وتضعها على الأرض، فيكون عليَّ أن أرى ميا تبكي من النافذة وتضربُ الزجاج.

رأيتُ أن إلحاق ميا بحضانة مُدمَجَة في دار للمسنين فكرة لا بأس بها بما أنها لم تُقابل أجدادها كثيرًا. ولكن كنتُ أقطعُ مرتين يوميًّا المسافة عبر الحجرات، وأرى طاقم العمل يصفُّ المقيمين استعدادًا لتناول أدويتهم، ويتذمرون في وجوههم من رائحتهم. شعرتُ أنني شاهدةٌ -من كثب- على نهاية الحياة، ومقارنةً بالمنزل الحزين، ربما كانت تلك إحدى أشد طرق الموت بؤسًا.

لم يتسخ المنزل الحزين. أحيانًا كنتُ أزيل قطرات دماء متناثرةً على أرضية الحمام، والمرحاض كان مأساة. عدا ذلك، فلم يتسخ أي شيء سوى بغبار خفيف. جلس الرجل العجوز في المنزل معظم الوقت إلا في حالة كان في المستشفى، ولكن بدا أنه لا يشغل سوى مساحة محدودة من المنزل.

بالحكم من الصور، أظن أن زوجته تُوفيتْ في أواخر الثمانينيات. في البداية افترضتُ أنها تُوفيتْ في وقتٍ قريب، ولكن لم أجد أي صور لها التُقِطَت

خلال السنوات الأخيرة، ظلت التُّحَفُ التي كانت تجمعها متراصَّةً على حواف النوافذ. صفوف منمقة من دُمَى المواساة[1] وأعشاش الطيور. ثُبِّتَتْ كذلك على لوح الفلين أعلى المنضدة في المطبخ قوائم المهمات المتطايرة التي كتبتها بخط يدها. في الحمام حوضان؛ مجففُ الشعر الذي أنفضُ الغبار عنه كل مرة ما يزال موصلًا ومُعَلَّقًا على خُطَّاف عند حوضها. كان لديه كوبٌ يضع فيه مشطه وأدويته -التي كانت تتغير في كل مرةٍ أراها- تَفَحَّصتُ أدويته متسائلةً عن ماهية علته؛ شعرتُ أنها قلبه المكسور.

على أحد أرفف الحمام، مباشرةً خلف مكان وقوفه لينظر إلى المرآة، وضع رماد زوجته وابنهما. وقف الابن في إحدى الصور على قمة جبل رافعًا يده بعلامة السلام. كانت لحيته طويلة ويعقصُ رأسه بعصابةٍ خضراء. كُتِبَت داخل الإطار قصيدة مألوفة لديَّ:

لا تقفْ عند قبرى لتبكى.

أنا لَستُ هنا؛ أنا لَمْ أمُتْ.

وُضِعَ تحتها صندوقان صغيران جنبًا إلى جنب؛ أحدهما من الفخار الوردي وذو أزهارٍ بارزة، والآخر كان من البيوتر[2] الداكن. مالتْ صورة زوجته خلف الصندوق الوردي. فتحته لأرى ما بداخله. كان في الصندوقين رماد وعدة بطاقات وخطابات من دار الجنازات.

1- دُمَى المواساة (worry dolls)، هي تقليدٌ يرجع أصله إلى غواتيمالا، واسمها الإسباني الأصلي (muñeca quitapena). تشير الأسطورة إلى أن أميرةً من المايا أهداها إله الشمس هديةً تحلُّ أي مشكلةٍ تُقلِقُها. تُصنَع دمى المواساة حاليًا للأطفال الحزانى أو المضطربين كي يبثوا أحزانهم ليلًا فتتلاشي بحلول الصباح، وتلعبُ دور الوسيط في العلاج النفسي كذلك. (المترجمة)

2- مادة معدنية تتكون من القصدير والنحاس. (المترجمة)

كان يأكل المخبوزات والشطائر من محال الأطعمة المُعَلَّبَة، ويشرب قهوته بكثير من الكالوا[3]. تراوح عمره تقريبًا بين أواخر الستينيات إلى أوائل السبعينيات، وأحبَّ لعب الجولف والقمار في الكازينوهات الهندية. تعفن في المرأب قاربٌ جميل وسيارة من طراز جيب سي جيه. عُلِّقَت في الصالة صورةٌ لزوجته واقفةً أمام الجيب تبتسم وترتدي نظارةً شمسية. كان يدخِّنُ سجائر غير مفلترة من نوع كامل في غرفة نومه، أو في الشرفة حين يصفو الطقس. لم يزره كثيرًا ابنه الأصغر، الذي كان يقيم على بُعد ساعتين. كان وحيدًا، يحتضر ببطء في ضريحٍ لم يحرك فيه ساكنًا منذ رحيل زوجته.

لقد فعل كل شيءٍ ببراعة -كانت لديه وظيفةٌ محترمة، ومنزل رائع، وتزوج المرأة التي أحَبَّها وسافر بصحبتها- ورغم كل ذلك كان يحتضر وحيدًا.

حين عُدتُ إلى البيت بعد أول مرةٍ نظفتُ فيها المنزل الحزين، لم أستطع التوقف عن التفكير في عميلي. كانت مجرد وظيفة غبية لسداد الفواتير، ولكن شعرتُ وقتها أن العمل تركَ بصمةً غير متوقعة في حياتي. هَوَّنَت الهشاشة التي تَكَشَّفَت أمامي من عبء هشاشة ذاتي. رغم أنني لم أقابل أيًّا منهم ولم أتحدث معهم، رغم أن أكثرهم كانوا غافلين عن وجودي برمته، بدأتُ أشعر أن عملائي أصبحوا مثل أفراد عائلتي، أو أصدقائي الذين أعبأ بأمرهم وأفكِّر فيهم وأعتني بهم من مسافةٍ بعيدة. فَكَّرتُ فيما يفعله عملائي مساءً؛ أين جلسوا، ماذا أكلوا، وماذا شاهدوا على التلفاز البارحة، بماذا شعروا يومًا تلو اليوم. غَدَتْ حياتي هادئةً أيما هدوء؛ منحني أولئك الناس شيئًا أتطلع إليه، وأشخاصًا أتمنى لهم الخير أكثر من نفسي.

---

[3]- مشروب كحولي مكسيكي بنكهة القهوة. (المترجمة)

ظَلَّتْ ميا تتنقل بين فصلٍ وآخر في الحضانة بسبب التغيير المستمر في العاملين، وتزايد أعداد الملتحقين وانخفاضها. طوال أسبوعين كاملين، وقعتْ عيني على مُعَلِّمتها في الفترة الصباحية رأيتها تمسح دموعها على عجل قبل أن تأخذ طفلتي التي تتلوى وتصرخ وتستغيث بي. سمعتها مرةً، تتحدثُ مع أحد الآباء عن صعوبة العمل في مكانٍ يدفع لها أجرًا بخسًا. كانت تقول بغضبٍ جم: «لقد دَرَستُ في الجامعة لأجل العمل». كنتُ أكره ترك ميا تحت رعايتها، وكرهتُ عجزي عن تحمل تكاليف مكانٍ يدفع للعاملين فيه أجورًا ملائمةً لعيش حياةٍ كريمة.

ذات صباح، بعد وداعٍ عسير أكثر من المعتاد، ركبتُ سيارتي وبكيت لأمنح دقائق من الحزن والحب والاهتمام والعاطفة التي أستحقها. كان عليَّ أن أوصل ميا في وقتٍ أبكر من المعتاد، ولكن معاناة مغادرة المكان أخَّرَتنا. انبثقت مشاعر إحباطي وغادَرتُ دون أن أرسل إليها قبلة الوداع في الهواء. استنزفتني أفكارٌ كابوسية عن موتي، مثلًا: ماذا لو متُّ في حادث سيارة وآخر ذكرى لديها كانت أني ولَّيتُ ظهري إليها وتركتها تصرخُ وتبكي مع الغرباء؟

تسللتْ تلك الأفكار إلى رأسي ذاك الصباح وتوغلتْ أكثر وأكثر. كنتُ أعرفُ سابقًا أنني سأقضي اليومين القادمين أعملُ في منزلٍ يقعُ في مكانٍ ناءٍ من جزيرة كامانو، التي تضعفُ فيها شبكات الاتصال. لم أحبّ أن أكون بعيدةً عن ميا، لم أرتَحْ لتركها في حضانةٍ لم تَبدُ بيئةً دافئةً ومُحِبَّة، وكرهتُ على الأخص فكرة أنه لو وقع أي مكروهٍ لها خلال اليوم فلن يتمكَّن أحدٌ من الاتصال بي. ولكن كانت تلك المهمة مفيدةً لنا، فلم أستطع رفضها.

أخبرتني لوني على الهاتف: «إنه تنظيفٌ لإخلاء أحد المنازل، لم نعد نتولى هذا النوع من المهمات مؤخرًا».

في معظم خدمات التنظيف، كانت كلاسيك كلين تعطي العملاء المحتملين درجةً تقديرية. كانوا يقابلون صاحب المنزل ويتحققون من مقدار الأعمال المطلوبة ويقدِّرون الوقت المطلوب لتأديتها (وعدد العاملات أحيانًا). كان

للعملاء المنتظمين -الذين لديهم عدد محدد من مواعيد التنظيف الشهرية أو نصف الشهرية أو الأسبوعية- عدد ساعاتٍ معينة ومعدلات ثابتة، ولكن كان لأعمال نظافة ما بعد البناء والإخلاء ميزانية وخطة مختلفة للعمل عليها عادةً.

كان في جدولي خمسة أو ستة منازل أتناوب بينها، ولكن جميعها كانت لعملاء شهريين أو نصف شهريين؛ بمعنى أن الراتب الذي كنتُ أتلقَّاه كان لقاء عشرين ساعةً إجمالًا في أسبوعين. لم أستطع تلقي المزيد من المهمات لأن جدولي اختلف من أسبوع إلى أسبوع، لذا وقعتُ في مأزق انتظار أن تُتاح لي مهماتٌ أخرى أيًّا كان نوعها. حين اتصلتْ بي لوني لتسألني إن كنتُ مهتمةً بتنظيف منزلٍ لإخلائه، وافقتُ موافقةً حماسية، بل حتى شكرتها لأنها طلبتْ مني دونًا عن العاملات الأخريات.

كانت المهمة في مقصورةٍ مزدوجة تقع في آخر شارع منزل عميلٍ آخر سميته منزل الطاهي بسبب موقده العملاق. كان صاحبه -في الأوقات النادرة التي ظل فيها في المنزل- يقفُ في مطبخه جوار الموقد، ويشغلُ كامل المساحة بينه وبين المنضدة التي تتوسَّط المطبخ. قال مرةً وهو يمرِّرُ يده برفق على الحافة الخارجية: «أخَذتُ قرضًا لأتمكَّنَ من شرائه. أظن ثمنه ضعف ثمن سيارتكِ».

رغم أنني لم أشكك في صحة قوله هذا، حاولتُ ألَّا أقطب وجهي وأشير إلى أنني أقودُ طرازًا عتيقًا من سيارة سوبور واجين، وسألته بدلًا من ذلك إن كانت هناك أي تعليمات خاصة لتنظيف الموقد. في غضون الأسبوعين الفاصلين بين كل تنظيف، كنتُ أجد منطقة الموقد بأكملها مغطاةً بالزيوت، والفضل يعود إلى افتتانه باستخدام مقلاة القلي العميق على المنضدة، وعدد لا حصر له من زجاجات زيت الزيتون. من المؤكد أنه كان يستخدم المقلاة عدة مراتٍ في الأسبوع؛ لأن المنزل بأكمله كان غارقًا في رائحة زيتها. أجابني مشيرًا بيده للتأكيد: «نعم، لا تستخدمي الجزء الخشن من الإسفنجة!»، كان عليَّ تنظيفه بأن أفركه بلين خمس أو ست مرات كي لا أخدشه.

كنتُ متأخرةً عشر دقائق حين وصلتُ إلى المقطورة لتنظيفها. بام كانت هناك مع الزميلة التي سأعملُ معها طوال اليوم. اندَفَعتُ بسرعةٍ لأنضم إليهما. قلتُ وحاولتُ أن أبدو صادقة: «آسفة على التأخير. لم تُرِد ميا أن تتركني أرحل هذا الصباح».

امتعضتْ بام بعض الشيء، وتمتمتْ بأهمية أن يتفهَّم الأطفال حاجة آباءهم إلى العمل واحترامها. لم أطلب منها تكرار ما قالت أو توضيح مقصدها، وتخيلتُ أنها كانت في مكاني ذات يوم، شعرتُ أنها تقريبًا لم تكن ترى أطفالها بسبب العمل، ومَرَّ الموقف بسلام. أشارَتْ بام إلى العاملة الأخرى؛ كانت امرأةً شقراء خشنة المظهر ومليئة الجسم وتربطُ شعرها، بَدَتْ مستاءةً من الملل أكثر من تأخري عن الموعد. قالت بام: «هذه شيلا، ستُغادرنا هذا الأسبوع». تبادلنا أنا وشيلا النظرات وشبه الابتسامات. كنَّا نفرِّغُ الشاحنة من مستلزمات النظافة التي تميزت بتشكيلةٍ واسعة من البخاخات غير المألوفة وغير المستخدمة في مهمات التنظيف الأسبوعية. كانت وظيفة العاملات المتجلدات هي إزالة العفن والشحوم والبقع. ناولتني صندوق الأدوات وأكياس المناشف وانتظرتني بصبرٍ فارغ أن أمسك بهم جميعًا مع قهوتي، التي أبقيتُها في قنينةٍ أعيدُ تدويرها.

قالت بام ونحن واقفاتٌ أمام المقطورة: «أريد أن أوضح عدة نقاط عن المنزل قبل أن نبدأ العمل فيه». طَلَبَتْ مني وشيلا أن نقترب منها أكثر. نظرتْ شيلا إلى بام، ولكني ثَبَّتُّ نظري على شيلا متسائلةً عن سبب استقالتها من العمل وأنا أزدردُ حقدي المشتعل.

رَمَتْ بام نظرها ناحية حقلٍ عشبيٍّ فسيح. أشارت إليه وقالت: «يقعُ هناك منزل والدة اللص الحافي».

كان اللص الحافي اسمًا شهيرًا آنذاك. لم يُستخدم اسمه الحقيقي -كولتون هاريس مور- إلا نادرًا، ولكن كنت أعرف أن مسقط رأسنا واحد؛ في مقاطعة سكاجيت. كان اللصُّ الحافي في التاسعة عشرة من عمره فحسب، وكان يعيش

في المنطقة فسادًا تلك الأيام، ويقتحم بيوت الأثرياء وهم نيام. وذات مرة ترك من خلفه آثار قدميه حافيتين في غبار المرأب. اقتحم منزل الطاهي من أسبوع ليستخدم الحاسوب ويخترق بطاقة عميلي الائتمانية، وطلب بخاخَ مقاومة الدببة ونظارات الرؤية الليلية، وظل يبحثُ عن طائرةٍ صغيرة غير مراقبة. كنتُ أتخيله جالسًا على المكتب الذي أمسحه كل أسبوعين، مدركةً مدى سهولة العثور على أرقام البطاقة البنكية وسط كومة الأوراق المبعثرة هناك. وصفته وسائل الإعلام المحلية بأنه خطير ومُسَلَّح، وأشارت إلى احتمالية اختبائه في منزل والدته.

رغم شَكِّي حيال كونه هناك، شعرتُ أن المشهد بأكمله سيشكل قصة رعبٍ مثالية. كُنَّا في نهاية المطاف في مقطورةٍ مهجورة تقع في نهاية طريقٍ ترابي طويل وسط الغابة. يحوم حول مهمات نظافة الإخلاء شعورٌ شبحيٌّ، كأننا ننظف مسرح جريمة ونمحو أي آثارٍ بشرية.

بينما كنا نسير إلى الباب الأمامي، استمرت بام في تهيئتنا لما في الداخل. شرحتْ أن المنزل يعود لزوجين تطلَّقا مؤخرًا. رحلت الزوجة، بينما ظل الزوج مع شخصين آخرين. أكملتْ بام وهي تلتفتُ إلينا وجهًا لوجه قبل أن تفتح الباب: «ميزانية العميل محدودة، لذا علينا أن نعمل بكفاءةٍ عالية. سأكون معكما اليوم عدة ساعات ونبدأ معًا. وأنتِ يا ستِيفَني ستعودين غدًا لتُنهي كل شيء».

لم أفهم بالضبط معنى «الكفاءة العالية». لم يكن مسموحًا لنا بالفعل باستراحات الغداء، لأنه كان مفترضًا أننا نأخذ «استراحةً» ونحن نقود سياراتنا لننتقل من منزلٍ إلى آخر ونحشو أفواهنا بشطائر زبدة الفول السوداني. ولكننا لم نكن سنسافر ذاك اليوم. خلال اليومين القادمين، سأقضي من ست إلى ثماني ساعات في هذه المقطورة، في قلب الغابة، في منزلٍ ليس به شبكة استقبال، لذا لا أستطيع الاتصال بأي أحد أو أن أتلقى اتصالًا من أي أحد في حالة وقع طارئٌ مع ميا.

قالت بام وهي تحاول فتح القفل: «لا تنسيا شرب كثيرٍ من الماء». وضعتْ دلو الممسحة الذي ملأته بمنظفاتٍ إضافية ومناشف ورقية على الأرض. «ولا تنسيا أن تستريحا استراحةً قصيرةً متى ما احتجتُما إلى ذلك».

ارتفع حاجباي أمام هذا التعليق؛ كانت تلك أول مرة أسمع أنَّ وقتَ المهمات يشمل وقتًا مستقطعًا للراحة. ربما مدفوعات نظافة الإخلاء تشملُ استراحاتٍ قصيرة لا تغطيها المهمات المعتادة. ظَنَنتُ -حتى تلك اللحظة- أنه ليس مسموحًا لي الجلوس.

كانت معظم المنازل التي نَظَّفتها حتى ذلك الحين يملكها أناسٌ في مقدورهم تحمُّل تكاليف استمرار طلب خدمات التنظيف، وكان يندر أن أكون أول خادمةٍ تنظف هذا المنزل أو ذاك. التنظيف بغرض الإخلاء مضلل؛ المنزل فارغ، وما من غبار حول المصابيح أو على المناضد، ما من كتبٍ أو تُحَف على الأرفف، لذا للوهلة الأولى بَدَتْ مهمةً سهلةً. ولكنها كانت على العكس تمامًا؛ كانت الأطول والأشق والأقذر. جرت العادة أن يقرر صاحب المنزل بيعه بعد أن أجَّره وظل سنواتٍ دون تنظيفٍ دوري عميق. في منازل كهذه، غَطَّت طبقة من الدهون الممزوجة بالتراب أسطح المطبخ مثل أسمنتٍ مطاطي. مالت الأرضية المحيطة بالمرحاض إلى الاصفرار، وانغرس الشعر داخل الشقوق. يظهر اللون الأصلي كلما مَسَحتُ سطحًا، فتبدو بقية الأسطح المتغير لونها طبقة أقذر حالًا.

حينما دَخَلتُ المقطورة لاحظتُ بدايةَ البلاط الأسود عند المدخل. تركت السجادة خطًّا داكنًا يؤدي إلى الصالة. حين وقفنا في غرفة الطعام، رفعنا أنظارنا إلى الثريا التي تكاد تلمسُ رؤوسنا وتكسوها شباك العناكب الترابية.

قالت بام: «سأنظفُ حمام الضيوف». أُعجِبتُ بها أكثر. «حاله شنيعة للغاية». وَضَعَتْ يديها على ردفيها وهي تُحَدِّقُ إلى شباك العنكبوت، ثم وَجَّهَت حديثها إلى المرأة التي كانت تتفحصُ ستائر الصالة المائلة والمسودة من القذارة: «شيلا، أنتِ انفضي المكان من الغبار. تأكدي من تنظيف هذه

الستائر أيضًا». نَظَرَتْ بام إليَّ ثم أخذتْ نفسًا عميقًا: «أريدكِ أن تتولي أمر المطبخ».

تَبِعتُ بام حين دخلت الغرفة المجاورة، تنظر بإمعانٍ إلى الثلاجة التي فصلتها عن الكهرباء وتركتها مفتوحة. ظهر تعبيرٌ على وجهها أشبه بالتكشير. كانت تلك المرة الوحيدة التي أراها تمتعضُ لرؤية الأوساخ؛ كان يعلو وجهها عادةً تعبير مَرِحٌ لطيف، حتى وهي تلومنا على خطأ ما. قالتْ و تلتفتُ إليَّ ولكن عينيها مصوبتان إلى داخل الثلاجة: «عليكِ نزع الأدراج ونقعها». اقتَرَبتُ منها لأنظر من فوق كتفها. «أخْرِجي كل هذه الأرفف الزجاجية وانقعيها أطول وقتٍ ممكن». توقفتْ لتشدَّ المطاط الملتصق بالباب. «لو كنت مكانكِ كُنتُ سأستخدم فرشاة الأسنان لأنظف المطاط حول الباب. تأكدي من أن تنظفي الشقوق من الطعام العالق بها. أخبريني إن احتَجتِ إلى أي مساعدة». ثم رَبَّتَتْ على كتفي وابتَسَمَتْ. «قد تجدين صعوبةً في إزالة السوائل الجافة من أكياس اللحم».

ظللنا ندور في ارجاء المطبخ، وتُشير بام إلى طبقات الدهون السميكة التي استحال لونها برتقاليًّا بُنيًّا أسفل غطاء الموقد. وقفنا أسفل الأوساخ وأفواهنا شاغرةٌ في بله. انتشر رذاذ شيءٍ أشبه بالفلفل الحار على السقف. كانت مقابض التحكُّم في الموقد مُغَطَّاةً بفتات أطعمةٍ بُنِّيَّة اللون. سيتطلبُّ كل جزءٍ من ذاك المطبخ -حتى داخل الخزانات- الحك والفرك والمسح.

حين وقفتُ عند الحوض، كان بوسعي أن أرى بصعوبة زاوية المنزل الذي قضى فيه اللص الحافي طفولته. لم أستطع أن أحرك عيني عنه، كُنتُ في انتظار أن يبزغ رأسه من بين العشب. شَعرتُ بالرغبة في حماية سيارتي العزيزة التي اعتَمَدتُ عليها لتوصلني من العمل. تخيَّلتُه يطالبني بمفاتيحها تحت تهديد السلاح، ثم يقودها ويرحل بها بعيدًا.

وقفتُ على منضدة المطبخ لأنظف السقف. أتَتْ بام لتتحقق من سير العمل، وراقَبَتني بعينين متخوفتين. طَلَبَتْ مني أن أخبرها حين أنتهي لتُريني

المطلوب عمله في الحمام الرئيسي. كانت ما تزال تعمل في حمام الضيوف؛ كنتُ أسمعها تسعلُ من أدخنة المبيضات، رغم أنها كانت ترتدى كمامة طبيةً بيضاء. لم تمنحنا تلك الكمامات حمايةً بالغة من الأبخرة السامة، ولكن بام كانت ترتديها لتكون قدوةً لنا وتذكِّرَنا بأن نحذو حذوها. أول سؤال سيُطرَحُ علينا إن وَقَعَتْ إصابة في العمل هو إن كُنَّا نرتدي معدات السلامة التي توفرها الشركة لنا أم لا.

ضبطتني بام وأنا أريح ذراعي حين دخلتِ المطبخ؛ كُنتُ واقفةً على المنضدة أكثر من ثلاثين دقيقة في محاولةٍ لإزالة البقع من السقف، وكنتُ أفشل.

أشارتْ إليَّ لأتبعها، وسرنا نحو الناحية الأخرى التي لم أكن قد رأيتها بعد. كان أثاث غرفة النوم الرئيسية ما زال موجودًا فيها، والخزانات نصف ممتلئة. غَطَّتْ بطانيةٌ صوفية رُسِمَ عليها بضعة ذئاب ما بدا لنا أنه سريرٌ مائي، لم أستطع كبح امتعاضي وأنا أتخيَّلُ مشاهد للرجل -الذي قَضَيتُ ساعتين أفرك الطعام الملتصق في مطبخه- وهو يُسَلِّي نساءه في هذه الغرفة. تساءلتُ عن ماهية النساء اللواتي قد ينضممن إليه على أمواج بطانيته الذئبية الوَبِرة.

تلك التصورات، أو الفرضيات التي أصنعها في عقلي عن عملائي هي ما نَجَّاني في أيام الفزع والإنهاك والوحدة. كان سُكَّان تلك المنازل المُتَخَيَّلون يسيرون من حولي. كنتُ أراهم جالسين على حافة السرير فجر أيام العمل، يستخدمون منشفةً رطبةً في الحمام، المنشفة التي أجدها متكورةً على الأرض، والتي أتعامل معها بحذرٍ شديد حتى وأنا أرتدي القفازات. كانوا يتركون آثار شخصياتهم وأفعالهم. يمكنني رؤيتهم يقفون أمام نافذة المطبخ يشربون قهوتهم الصباحية بينما أمسح أثر الكوب المستدير الذي تركوه خلفهم.

حين كنتُ في السادسة عشرة من عمري، عملتُ في محل حيواناتٍ أليفة، وكانت مهمتي هي تنظيف أقفاص الجرذان، والفئران، والجرابيع، والقنافذ، وبنات مِقرَض، والطيور. كانت صاحبة المتجر تتحدث إليَّ بصوتٍ يضجُّ بالعدوان، وبنبرةٍ عاليةٍ بما يكفي لتجعلني أجفل. ذات يوم، وصلتُ إلى العمل

صباحًا وأنا منهكةٌ بالفعل من متطلباته، وعلى يقينٍ من أنني سأعجزُ عن خوض يومٍ آخر فيه أدخل يدي في أقفاص الطيور التي ترفرفُ بأجنحتها في اهتياجٍ محموم وتُثير في جسدي رغبة الهرب.

قلتُ بعدما اندفعتُ إلى مكتب المديرة: «هذه الوظيفة مجهدةٌ للغاية، سأستقيل».

أجابَتْ بنبرةٍ ساخرةٍ من خلف مكتبها: «طيب. عليَّ أن أطلِقَ سراحكِ قبل أن تُجهَدي أكثر من اللازم».

مَرَّتْ أسابيع قبل أن يصل إليَّ المرتب الأخير عبر البريد. لم أستَقِل من أي وظيفةٍ منذ ذاك الوقت، ولكن حمام المقطورة ذاك كاد أن يسحقني.

عُدتُ إلى المقطورة وحدي في اليوم التالي. رَكَنتُ سيارتي في الطريق وتوقفتُ لإقفال أبوابها بالقفل، ثم أقفلتُ على نفسي داخل المقطورة بالقفل أيضًا. تَجَنَّبتُ النظر من النوافذ في خوفٍ من احتمالية رؤية اللص الحافي قادمًا نحوي. تركتُ ميا ذاك الصباح في الحضانة بعد أن أعطيتها جرعةً من خافض الحرارة. ثَبُتَ البارحة أنه ما من أدنى شك أن شبكة استقبال الهاتف لا تصل إلى المقطورة. إن اشتدَّ مرضُ ميا فلن يتمكَّن أحدٌ من إبلاغي. تغلغل بداخلي القلق الناجم عن وحدتي في المقطورة المقفلة وبلا هاتف، ولم أستطع التخلص من قبضته، أتى مصحوبًا بالتوتر من الاختفاء في شيءٍ يُشبه الفراغ خلال يوم العمل. أردتُ -لأنني أمها- أن أكون دومًا متاحةً لأعرف على الأقل إن وقع أي حادث.

أنهينا معظم أعمال المنزل في اليوم السابق، ولكن كان عليَّ إعادة عمل شيلا. كانت أدراج الثلاجة ما تزال منقوعةً في الحوض، وما تزال الأرضية المُشَمَّعة في المطبخ -مفرش بُنِّيٌّ متهالك يوصل بين الحوض والموقد والثلاجة في شكل مستطيل- في حاجةٍ إلى أن تُدعَك. ولكن كان الجزء الأكبر من اليوم سيضيع في الحمام.

أخبرتني بام في اليوم السابق أن أتمَهَّل بين رش المنظف وفرك المكان. اقترحتْ عليَّ أن أنظِّف أجزاء صغيرة من الحمام ثم أتنقل إلى جزءٍ آخر من المنزل، ثم أعود ثانيةً إلى الحمام. لم تبدُ طريقتي المعتادة –من الشمال إلى اليمين ومن أعلى إلى أسفل- استراتيجية ناجحةً في مواجهة تلك الفوضى. اكتسى جزءٌ هائل من السقف وأعلى الجدران بعفنٍ أسود؛ استهلكتُ قارورتين من بخاخ إزالة العفن، أرشه وأفركه وأنا أرتدي نظارةً بلاستيكية وكمامة كي لا أستنشقه.

داخل كابينة الاستحمام، كانت الزوايا والشقوق وردية اللون من عفن الفطريات. تقطَّر المنظف في جداول عند قدمي، أنهارًا بنيةً وسوداء من التراب والعفن. نظفتُ أجزاء منها ثم ندمت على ذلك؛ لأنه يعني أن عليَّ دعك المكان بأكمله بوصةً بوصة بالطريقة نفسها. أبقيتُ أنفي مغطًى بياقة قميصي بدلًا من ارتداء كمامة، وكنتُ أخرج من حينٍ إلى آخر إلى غرفة النوم لأستنشق هواءً نقيًّا.

حين جثوتُ لأنظف المرحاض ورأيتُ من قربٍ حالته، نَهَضتُ فورًا واندفعتُ خارج المقطورة. لقد اكتفيت. جلستُ على الشرفة في المطر الخفيف نحو ربع ساعة. تمنيتُ لو معي سيجارة، أو حتى غداءٌ أتناوله، أو أي شيءٍ أشربه عدا الماء. كانت القهوة وشطائر زبدة الفول التي أحضرتها معي صباحًا قد نفدت.

على الشرفة خُضتُ في مستنقع من المشاعر. كنتُ غاضبةً بلا شك من أنني أتلقَّى الحدَّ الأدنى للأجور لقاء تنظيف الخراء من المراحيض. حتى ثلاثة أضعاف الأجر لن يكون ثمنًا كافيًا لأفعل ما فعلت. داخل حمام المقطورة الرئيسي، كان هناك بِرَكٌ من البول اليابس حول قاعدة المرحاض. انتشرت بقعٌ بنية اللون على الجانب السفلي من المقعد وإطاره، والحافة العلوية من تجويف المرحاض، أظنها كانت بقعًا من الخراء، مع بقعٍ بارزةٍ صفراء وبرتقالية بدت مثل القيء. ارتديتُ القفاز الأصفر الخاص بغسيل الأواني، وكان في حوزتي مسحوق كومت. ولكن صاحب هذا الحمام كان قد اشترى

تلك الأقراص الزرقاء -ربما سعيًا خلف مظهرٍ مزيف لمرحاضٍ نظيف- فتَرَكَتْ آثارًا زرقاء داكنة عند خط المياه، ومن أسفل الحافة الداخلية، حيث تملأ المياه النظيفة تجويف المرحاض. كان عليَّ أن أُدخِلَ يدي وأفرك تلك الخطوط الداكنة بحجر الخُرْفُشة مرةً تلو المرة حتى اختفت.

بدايةً، تَمتَمتُ قائلةً: «إنهم لا يدفعون لي كفايةً لقاء هذا». ثم صَرَختُ في الأشجار. جلستُ وحدي في الشرفة والمطر يقطر من السقف، أذهلني الغضب المتقد في صوتي. كان تجلُّدي قد تنامى وقتئذٍ، بعد هجمات جايمي المتواصلة التي أتت دون سابق إنذار. شعرتُ بركبتيَّ تتيبَّسان ورئتيَّ تنغلقان، وصدري يضيق، كأن عملاقًا يُقيدني بين ذراعيه الغليظتين. تهاوت الأرض من تحت قدمي عدة مراتٍ بالفعل، وما زلتُ أسير بحذرٍ عليها، مدركةً أن خللًا بسيطًا سيهبطُ بي ويعيدني إلى خط البداية؛ في ملجأ المشردين. عليَّ أن أظل متماسكة. رغم كل شيءٍ آخر، رغم شكوكي حيال الظروف التي لا أقدر على التحكم فيها، عليَّ أن أظل هادئةً، جديرةً بالثقة، عليَّ الذهاب للعمل وإنجاز المطلوب. كررتُ على مسامعي: «عليكِ ألَّا تتركي نفسكِ تتداعين». أصبحتْ تلك الجملة شعارًا أردده في رأسي، وأحيانًا أقوله بصوتٍ عالٍ.

لَمَعَتْ سيارتي الكستنائية تحت المطر. فجأةً انقشعت السُّحُب فوق السيارة وأشرقت الشمس عليها. لم أرغب في حياتي كلها أن أترك وظيفةً بشدةٍ إلى هذا الحد. شعرتُ أن المرحاض أذلني، بل أذلني الرجل الذي تركه على هذه الحال، أذلتني الشركة التي دفعتْ لي الحدَّ الأدنى. حَدَّقتُ إلى سيارتي السوبارو، أتخيل هروبي.

لم يكن بين يدي أي خيارٍ آخر؛ كنتُ وتراقيس بالكاد نتحدث مع بعضنا بعضًا. كان غاضبًا مني في الأيام التي تذهب ميا إلى منزل والدها وأنام بدلًا من أن أنهض في السابعة صباحًا لمساعدته في المزرعة. لم أكن ألقي بالًا لأي شيء، وأدرَكَ هذا. تعايشنا معًا وسط هذا الغضب شهورًا. لم يكن لدي أيُّ وسيلةٍ لأتحمل تكلفة العيش في مكانٍ آخر، لذلك عُدتُ إلى المرحاض. كان معنى الاستقالة من هذه الوظيفة شهورًا يائسةً بلا دخل. كانت إعانة رعاية

الطفل التي أتلقاها تُغطي تكاليف الوقود بصعوبة. ضاع مبلغ ٢٧٥ دولارًا شهريًّا على رحلات الذهاب والعودة كي ترى ميا والدها. تعني خسارة وظيفتي أن أكون مدينةً لتراقيس، يعني أن أفقد احترامي لذاتي.

كَوَّرتُ قبضتَي يدي. نَهَضتُ، وعدتُ إلى المنزل وأنا أصرُّ على أسناني. ليس هذا قدري، ليست هذه نهايتي، كنتُ عازمةً على إثبات صحة قولي.

راودتني الكوابيس بسبب تلك المقطورة. في تلك الأحلام، كُنتُ أقود سيارتي عائدةً إلى المنزل، فيبدأ هاتفي بالطنين بإشعارات الرسائل الصوتية، أو أن أحدًا يتصل بي من رقمٍ أجهله. حين أجيب، تتحدثُ المرأة على الناحية الأخرى من الخط باهتياجٍ محموم، فلا أفهم شيئًا حتى تقول: «مستشفى». تنبثق في عقلي صورة لميا، مستلقيةً على الفراش وجزءٌ من شعرها القصير البني المجعد مضرجٌ بالدماء، تومض تلك الصورة قبل أن تطالب المرأة بمعرفة مكاني، وسبب أنني لم أترك قائمة أرقامٍ للاتصال في حالات الطوارئ. كنتُ أكرر في الحلم: «إنني وحدي تمامًا! إنني وحدي تمامًا».

ولكن وجدتِ المقطورة طرقها الخاصة لتعود إليَّ. اتصلتْ بي لوني بعد عدة أيام، بعد أن قضيتُ اثنتي عشرة ساعةً في تنظيفها. كان صوتها خاليًا من قوته المعتادة. قالت إن العميل ليس راضيًا عن مستوى النظافة. ذكرتِ الغبار على المصابيح، أو الستائر، أو البقع على المرايا، أو كل شيء. قالت برقة: «أحتاجُ منكِ إلى أن تعودي وتُصلحي الأمر. وكما كُتِبَ في عقد عملكِ...» توقَّفَتْ لحظةً. «لا نَدفَعُ لقاء هذا».

تسارع قلبي ينبضُ بين جدران صدري في جلجلةٍ هائلة. قُلتُ والكلمات تخنقني: «مُحالٌ أن أقدر على فعل هذا». كان المنزل على بُعد أربعين دقيقة بالسيارة، مما يعني أنني سأدفعُ ثمن الوقود الذي لن يُرَد. كان رفض طلب لوني مُخَاطَرَةً بعملي، ولكنِّي سأخاطر بترك العمل برمته إن عُدت. «لا أظن أن في وسعي العودة إلى هناك، جعلني ذاك المرحاض أرغب في ترك العمل».

تَنَهَّدَتْ لوني. كانت تعرفُ أنني في أمسِّ الحاجة إلى العمل، وأنني فعلًا لن أقدر على تحمُّل مصاريف الوقود المهدر. قالت قبل أن تُغلق الخط: «سأحاول حَلَّ الأمر». لم أعرف قط إنْ كانت قد عثرت على شخصٍ آخر يحلُّ مكاني أم لا. ربما اتصلوا بشيلا، ولكن على الأرجح فإن بام أنهت العمل بنفسها. وإن كانت فعلت حقًّا، فلم تأتِ على ذكره قط.

10

منزل هنري

وَقَفتُ مع لوني على الشرفة الأسمنتية كي تُعَرِّفَني على منزل عميلٍ جديد. طرقنا الباب الخشبي الأحمر وانتظرنا قُرابة دقيقة، أنصتنا لصوت نباح الكلاب وحركة شخصٍ ما يحاول تهدئتها. ارتدى الرجل الذي فَتَحَ لنا الباب رداء الحمام، ومن تحته قميصًا قطنيًّا أبيض وبنطالًا كحليًّا وحذاءً خفيفًا.

قال بصوتٍ مُدَوٍّ: «لقد وصلتما!»، هَزَّ الكلبان الضخمان -من سلالة شيبرد الأسترالية- ذيليهما القصيرين المكتنزين ووثبا في حماس.

قالت لوني: «هنري. أودُّ أن أعَرِّفَكَ على أفضل عاملاتنا؛ ستِيفَني».

قال: «تَفَضَّلا». ثم أشار إليَّ ليُساعِدَني في حمل أدواتي. ابتَسَمَتْ لوني وشكرته، ثم أوصد رصد هنري الباب. وضع كيس المناشف البيضاء المطوية جانبًا وقال: «دعيني أريكِ كيف أحبُّ أن تنظفي المكان».

طلب هنري عاملةً جديدة. حدَّثتني لوني عن الأمر قليلًا، وأقنعته بأنني سأؤدي عملًا أفضل من سابقتي. طُلِبَ مني تنظيف المنزل حسب تعليماته بالضبط، وبالترتيب الذي يريده، وألَّا أتأخر أبدًا، وألا أستغرق وقتًا أطول من المطلوب، وأن أبذل قصارى جهدي دومًا دومًا. سيستغرق تنظيف المنزل أربع ساعاتٍ كل جمعة. قالت لي لوني: «استعدي للعمل!».

أخافَني هنري من البداية. انكَمَشتُ بلا قصدٍ مني حين رأيته بعدما أخبرتني لوني عن مدى انتقائيته. كان أطول مني بمقدار قدمٍ تقريبًا. كان منتصب الظهر، وواثقًا من نفسه، ولديه كرش ضخمة تتمدد أمامه.

بدأنا من غرفة الجلوس الرئيسية التي يستخدمها هنري وزوجته مكتبًا. كان لكل واحدٍ منهما مكتبٌ ضخمٌ ولامع من خشب الماهوجني. كان مكتب هنري أمام النافذة؛ حيثما يضع معظم الناس عادةً أريكةً فاخرة. امتلأت الأرفف على الجدران برواياتٍ غربية وكتب عن السفر والبرمجة. كان لديه شاشتا حاسوب على مكتبه، الذي كان يأخذ شكل حرف (L). انتقلا إلى هنا بعد تقاعده من وظيفةٍ ما في هاواي. اختفى سطح مكتبه أسفل أكوامٍ من الفواتير والكاميرات والكُتيِّبَات. على عكسه كان مكتب زوجته؛ كان أصغر حجمًا وأكثر ترتيبًا، علاه ماسحٌ ضوئي وآلة تغليف وأكوام من مقالات عن الطبخ ونصائح عن كتابة اليوميات مقصوصة من المجلات، وصور كلابهما وقططهما.

سيبقى هنري في المنزل وأنا أنظفه، وعليَّ تنظيفه بترتيبٍ يتماشى مع روتينه. سأنظفُ مكتبه وغرفة الطعام بينما ينتهي من إفطاره ومشاهدة الأخبار. حين يأتي موعد برنامج «ذا برايس إز رايت»، أنتقلُ إلى الجانب الثاني من المنزل، وأنظفُ حمام الضيوف في طريقي ثم الحمام الرئيسي.

في حمام الضيوف، كنت أضع الفوط الأربع أمام الحمام لأنظفها فيما بعد. أنظِّفُ المرحاض أولًا، الذي كان أمام كابينة الاستحمام المزدوجة والمبطنة بالأحجار النهرية. قال هنري إنه سينظفه بنفسه. بعد أن أطوى المناشف من

جديد، أمسح زاوية الجاكوزي، والذي —حسب ظني— لم يستخدم من قبل. أخبرني هنري مرةً أنهما يستخدمان الحوض الساخن الموجود في الشرفة، وأشار إلى ملابس السباحة المُعَلَّقة على الباب. بعد تنظيف الحوض أنظفُ المرآة، التي كانت هائلةً حدَّ أنني كنتُ أجثو على المنضدة كي أصل إلى قمتها، ثم أمسحُ الأغبرة عن المصابيح وأنظم الأشياء على المنضدة. كان في الجانب الخاص بزوجته عدة أدراج بلاستيكية شفافة وحوامل ذات ثقوب مختلفة الأشكال لحمل الفرش وأدوات تجميل أخرى لم أعرفها. أمَّا جانب هنري من الحوض، فامتلأ بعدة حوامل للأدوية؛ النوع المُقَسَّم إلى أقسام مع كتابة الحرف الأول من أيام الأسبوع أعلى كل قسم. كان لديه عددٌ من فُرَشِ الأسنان، وتناثر دومًا معجون الأسنان في كل مكان.

عليَّ —قبل كنس السجاد— تنظيف الجدران من أي بقع ومسح الأرضية. حين كنتُ أضع السجاد في مكانه بالحمام، كنتُ أحرص بشدة على ألَّا أمحو آثار المكنسة منه. ثم أمسح أرفف الخزانة الشاسعة قبل أن أنظف غرفة النوم وأخرج منها تدريجيًّا بينما أكنسها.

في ذاك اليوم الأول في منزل هنري، توقفنا في الردهة في انبهار أمام خزانةٍ زجاجية. اتخذ هنري نحت الخشب هواية، وكان يقطعُ جولتنا في المنزل ليقول إن معظم القطع صنعها فنانون أعظم موهبةً منه. قال بخجلٍ إن نصف مرأبه ورشة للخشب، ولكن لم يكن يصنع قطعًا من الأثاث آنذاك مثل سابق عهده.

حافَظتُ على صمتي خلال الجولة؛ في محاولةٍ لحفظ أكبر قدرٍ ممكنٍ من التعليمات، وأنا أتساءل إنْ كان هنري سيغضبُ إن لم أتَّبعها بدقة. كان في غرفة المعيشة تلفازٌ أكبر من سيارتي، امتلأت الخزانة من أسفله بصناديق إلكترونية مختلفة لتشغيل الأقراص والكابلات والكهرباء، والتحكم في مستوى صوت العديد من مكبِّرات الصوت المتناثرة في أنحاء الغرفة. لم أرَ أجهزةً كهذه إلا في المحلات. عند حائطٍ آخر كانت مدفأة ذات إطارٍ من القرميد، وجوارها أريكة طويلة. كان عليَّ أن أحرِّكَ المقعدين الجلديين

الثقيلين على عجلاتهما والمنضدة الفاصلة بينهما في حذر كي لا أحرك أجهزة التحكم الخمسة من فوقها. حين بدأتُ أمَرِّرُ المكنسة الكهربائية على السجادة الحمراء، أدرَكتُ أن لونها أحمر باهت مثل القرميد دون الطبقة الرقيقة من شعر الكلاب. بعد تنظيف غرفة المعيشة العائلية، نَظَّفتُ ركن الإفطار، والثلاجة المصنوعة من الفولاذ المقاوم للصدأ، وأسطح المناضد الرخامية، وأرضية المطبخ، ثم أخيرًا، الحمام الصغير في مدخل المنزل.

في المرات الأولى كان صوت هنري يجعلني انكمش خوفًا. عَمِلتُ دون توقف، سوى حين أضغطُ على جهاز الآي بود، أو أنظر إلى ساعتي لأتأكر أنني لم أتجاوز الوقت المجدول. تجاوزتُه في أول جمعتين، وهو ما أقلَقَ لوني قلقًا عظيمًا، دفعها إلى الاتصال ببام لمناقشة مخاوفها، ولتشجع بام على الاتصال بي وسؤالي عن سير الأمور. ولكن بعد فترة عَرَفتُ أين يتجمَّع الشعر، وأي بقعٍ في حاجة إلى مسحٍ سريع وأيها في حاجة إلى الفرك الشديد، وأيها لن تزول أبدًا. ذاب كل شيءٍ في حركاتٍ شاردةٍ روتينية، فقَضَيتُ الوقت قَلِقةً على أشياء أخرى تجري في حياتي.

كنتُ أتبادل مع هنري أحاديث قصيرة حين أصلُ إلى منزله صباحًا. ثم يبدأ في التجول في المطبخ ويُعِدُّ إفطاره، الذي كان عادةً قطعتين من الخبز مع ثمرتي طماطم وأفوكادو. بعدها أنَظِّفُ الطاولة الخشبية التي تناول عليها إفطاره، وأزيل فُتَاتَ الطعام الذي تركه من خلفه، وأحَرِّكُ الصينية الدوارة الممتلئة بمختلف أنواع الملح والتوابل والصلصات الحارة لأمسَحَ أسفلها. كنت أستمر في تنظيف المكان حتى أصل إلى الردهة، فيكون قد بدأ عمله على مكتبه، ويظل هناك حتى أغادر.

طلب مني ذات يوم جمعة أن أعمل يومًا إضافيًّا في الأسبوع المقبل.

أجبته: «لن أستطيع للأسف. عليَّ تنظيف منزلٍ آخر في أيام الجمعة المعاكسة لأيامك».

كان منزل المزرعة جديدًا أيضًا، وأدرَكتُ —لدهشتي— أنه يُشبه منزل هنري في أن العميل قد جَرَّبَ كل عاملةٍ في الشركة قبلي. كلا المنزلين كان مُجهِدًا؛ يتطلَّبان أربع ساعاتٍ سريعة من العمل، ويكثر فيهما السجاد الشنيع والحيوانات. كان جسدي يقشعرُّ لا إراديًّا حين أفكر في كنس السجادة الكحلية المفروشة على الدرج.

قال هنري وهو ينظر إلى أسفل: «هذا مؤسف».

قُلتُ: «ولكن في وسعي أن آتي في نهاية هذا الأسبوع، إن كان مُناسِبًا. ستذهبُ ابنتي إلى منزل والدها، وسأوصلها بعد أن أغادر من هنا».

نهض هنري وبدا مسرورًا. قال: «عظيم، لأنني سأقيم حفل عشاء»، أشار إليَّ لأتبعه. خرجنا من الباب الزجاجي إلى الباحة المغطاة خلف منزله. «أريد هذه الشَّوَّاية لامعة».

أومأتُ أمام أوساخها، ولاحظتُ الحوض الساخن وزجاجة الشمبانيا الفارغة جواره. آلمني جسدي في توقٍ إلى فرصةٍ واحدة —مجرد فرصة— لشُربِ الشمبانيا في حوضٍ ملآنٍ بالمياه الدافئة.

عُدتُ إلى داخل المنزل كي أكنس غرفة الطعام. تَرَكَ هنري فيها لعبة فيديو قديمة للبوكر ونصف زجاجة فارغة من الشمبانيا الفاخرة بجانب الحوض الصغير على البار. وجدتُ نفسي أفكر كيف ستكون حياة تقاعدي، إن تَقَاعَدتُ من الأساس. لن أمتلك منزلًا شاسعًا حَدَّ أن أعجز عن تنظيفه بمفردي، هذا مؤكد. أيُّ مضيعةٍ للوقت هذه أن توظف شخصًا يمرر المكنسة الكهربائية على آثارٍ خفية تركها من أسبوعين. كنتُ أسير على النمط نفسه —غارقةً في أفكاري والموسيقى تصدحُ في أذني— حين نقر هنري على كتفي. تَعَثَّرتُ في ارتباك لأُطفئ المكنسة وأنتزع سَمَّاعاتي.

سألني: «هل تُحبين الكركند؟»

رمشتْ عيناي من وقع السؤال.

قال: «أُعِدُّ عادةً أطباقًا تجمع البريَّ والبحري في عشاء الجمعة، وجَلَبتُ قليلًا منه من السوق».

أومأتُ وأنا أتساءل لِمَ أوقفني عن الكنس. حاولتُ أن أتذكر إن كنتُ قد رأيتُ أحدًا من قبل يشتري الكركند من تلك الشاحنات.

قال: «كم عدد الأشخاص الذين ستطبخين لهم الليلة؟»

قلتُ: «اثنان».

قال: «حسنًا. سأُبقي لكِ اثنين. إنني ممتنٌّ لعملكِ الإضافي من أجل حفلنا».

تَلَعثَمتُ في شكري؛ لم أقابل عميلًا يعاملني بلطفٍ بهذا القدر، يعاملني كإنسانة. لم أعرف كيف أستقبل هديته. كذلك لم أكل الكركند سوى مرة أو مرتين في حياتي كلها، وليس عندي أي فكرة كيف سأُعِدُّه. انتابني شعورٌ بالذنب من أنني على الأرجح سأُخَرِّبُ هذه الهدية الرائعة بمهاراتي المتردية في الطبخ.

غادر هنري بعد لحظات وأخذ الكلاب معه. كانت تلك أول مرةٍ يتركني بمفردي في المنزل، استَعجَبتُ من ثقته بي. كنت معتادةً الشعور بأنني لَستُ جديرةً بالثقة. فَكَّرتُ في سيدة منزل المزرعة، التي كانت موجودةً في المنزل حين نَظَّفته أول مرة، تتجول في أنحائه وتتفَحَّصُ الأماكن التي أنظفها. شعرتُ كأنها تحاول نصبَ الفِخاخ لي بترك قطعة مجوهرات على المنضدة بدلًا من وضعها في الدرج.

نظرتُ حولي حين أدخَلتُ يدي في جيبي لأخرج هاتفي، رغم أن المكان كان خاليًا، ومن المستحيل أن أحدًا يراقبني. اتصلتُ بتراقيس وأخبرته بحماس عن الكركند حين أجابني. طَلَبتُ منه أن يُخرِجَ قطعتي لحم من الثلاجة كنتُ

قد وجدتهما في قسم التصفيات. وجدتُ في مشاركة الأخبار السارة معه شيئًا مميزًا، هذا القدر الطيب، تجدد بداخلي الأمل في علاقتنا.

ولكنه لم يُلقِ بالًا لما قلته عن الكركند أو اللحم، بل قال بصوتٍ فاتر: «هل تحققتِ من زيت سيارتكِ؟»

أجبته بشعورٍ بالدونية: «نعم، إنه منخفض». رَفَعتُ نظري عن لوحة المنارة معدنية الطابع المُعَلَّقة في ردهة هنري ونظرتُ إلى جوربي أحكُّ به الأرضية الخشبية اللامعة.

ربما طريقة ترافيس ليُعَبِّر عن محبته لي هي سؤاله عن سيارتي، ولكن لم أقتنع بهذا. كان تواصلي مع عائلتي متقطعًا، وكنتُ في حاجة إليه. قلتُ قبل أن أنهي المكالمة: «أحبكَ». ولكنه لم يُجِبني.

أغلقتُ الخط وبدأتُ أنظف حمام هنري بخيبة أمل من حديثي مع ترافيس. عاد هنري إلى المنزل في اللحظة نفسها التي كنتُ أضع قطعة قماش في المرحاض لأدعكه.

قال: «هل تعرفين كيف تتعاملين مع تلك الأشياء؟».

رَنَّ صدى صوته على الجدران، فقَفَزتُ في مكاني. أشار إليَّ حين التفتُّ إليه بأن أتبعه إلى غرفة الغسيل. كان على الغسَّالة التي نظفتها قبل قليل أكبر جرادتي بحر رأيتهما في حياتي. كان لونهما أحمر، مائلًا إلى البُنِّيّ. كانتا على قيد الحياة، وملكي أنا.

منحني هنري كُتيِّبَ تعليماتٍ لطهوهما، وفَتَّاحةً لامعة لكسر القشر الصلب. قلتُ وأنا ألمس الأداة الفضية بإبهامي: «تعرف؟ يمكن بصنيعك هذا إنقاذ علاقتي».

سألني بنظرةٍ يختلطُ فيها الاهتمام والسرور: «فعلًا؟»

قلت: «نعم». ثم هززتُ كتفي كأنه ليس بالأمر الجلل. «كنا نتشاجر كثيرًا، بسبب المال وهذه التفاصيل».

قال وهو يعقدُ ذراعيه: «يُحزنني سماع هذا».

نظر بعينيه شبه المغمضتين مباشرةً إلى عيني، وأشار بالفتّاحة إلى أنفي: «ينتهي المرح فتنتهي العلاقة».

ظلتْ تلك الكلمات في رأسي طوال اليوم. أختلفُ مع تراڤيس في نوع المرح الذي يستمتع به كل واحد منا. كان يحبُ قيادة سيارات التخييم الضخمة في دوائر سريعة، بينما كنتُ أحبُّ أن أشرب البيرة على دفعاتٍ صغيرة خلال محادثاتٍ عن السياسة والكتب. حاولنا التوصل إلى حلٍّ وسطيّ. يجلس عادةً معي خارج المنزل ليلًا؛ نشربُ البيرة ونحدِّق إلى الحديقة الشاسعة التي بنيناها في زاوية الفناء. بين تناقُضاتنا كانت ميا تقفز حولنا في حيويةٍ وسعادة وتُحيطنا بذراعيها. شعرتُ في تلك اللحظات أننا عائلة، وناضلتُ لأشعر بالحب والسرور نفسه الذي شعرتْ ميا به. ولكنني كنت أدرك أنني لن أفهم أبدًا انعدام رغبة تراڤيس في التجول أو الاندهاش أو التعلُّم. وصلنا إلى مرحلة الاستياء، نلوم بعضنا بعضًا على اختلافاتنا.

حاولتُ —بسبب ميا— التشبث بالحلم، المزرعة، الخيول، أرجوحة الإطارات في الباحة الأمامية، الحقول الشاسعة المنبسطة كي نركض فيها. كنتُ أعتذر لها سِرًّا، أهمسُ لها باعتذاري وأنا أراها تحمل في قبضتها الجزر الذي اقتلعته من أرضنا في الصيف الماضي بينما ترتدي ملابسها الداخلية وحذاءً صغيرًا طويل الرقبة: «أنا آسفةٌ بشدة لأن هذا لا يكفيني».

حين انتهيتُ من تنظيف منزل هنري، ساعدني في حمل أدواتي إلى سيارتي. ضممتُ كيس الكركند إلى صدري، ولكنِّي أردتُ معانقة هنري على عطفه الغامر، لأنه لم يعاملني كخادمة، بل كإنسانةٍ تستحقُّ الحب والضحك، وعشاءً من الكركند بين حينٍ وآخر. ابتسم هنري بملء فمه ونفخَ صدره حين

شكرته. قال: «اذهبي إلى البيت». رغم أنني وقتها بدأت أدرك أن «البيت» شيءٌ عابر، قنبلةٌ موقوتة، انفجارٌ على وشك الاندلاع.

ركنتُ السيارة عند الرصيف، جوار علامة التوقف في نهاية الشارع. انحنيتُ إلى الأمام، وضغطت جبيني على مقود السيارة؛ جعلني الحديث مع هنري أفتقدُ أبي.

حدثَ ذلك كثيرًا العام المنصرم. كلما هجمت عليَّ آلام الخسارة —ينهار صدري في البقعة المجوفة في منتصفه— أفضِّلُ أن أتوقف وأنتظر، أن أمنح اللحظة وقتها كي تمر. الألم لا يحب التجاهل، بل يحتاج إلى الحب، تمامًا مثل حاجتي إليه. جلستُ في سيارتي، وكيس الكركند يجلس في المقعد المجاور لي، تنفستُ بعمق مع العَدِّ إلى خمسة مع كل نَفَس. همستُ لنفسي: «أحبكِ. أنا هنا أجلكِ أنتِ».

كانت طمأنينة محبتي لذاتي كل ما أملك.

كانت ميا نائمةً حين أخذتها من الحضانة لأوصلها إلى منزل جايمي. اقتربت الساعة من الثانية ظهرًا، وستزداد حركة المرور سوءًا إن تأخَّرنا عن ذلك. اعترضتْ وأنا أرفعها وأُلبسها معطفها وأثبِّتها بحزام الأمان في مقعدها في السيارة. توقفنا عند البيت وتركتُ محرّك السيارة يدور في الممر، بينما ركضتُ إلى الداخل وتركتُ الكركند وأحضرت حقيبة ميا لأيام نهاية الأسبوع. وضعتُ فيها بعض الملابس، وبطانية، وألبوم الصور الذي صنعناه، ودمية جورج الفضولي. سقطتْ ميا في النوم وأنا أقود السيارة، فمنحتني فرصة الاستماع إلى قرصٍ مضغوط حَضَّرته منذ فترة. بدأت تلك الأغنية الريفية السخيفة عن مزارع برسيم. كان تراڤيس دائمًا يسمعُ بدايتها بصوتٍ عالٍ حين تكون ميا معه في الشاحنة، لأنها تبدأ بصوت ضجيج المحرك الذي يجعل صدرك يتذبذب من نغمته العميقة.

ابتسمتُ وأنا أتذكَّر طلب ميا أن يكرره مرةً أخرى، يتقافز حذاؤها الوردي مع الخيول البنية وهي تضحك. حين ظهر المحيط أمامي، مددتُ يدي لأهزَّ ساقها وأوقظها.

كانت الساعة تقتربُ من السادسة مساءً حين عدتُ إلى المنزل. وقفتُ وحيدةً في المطبخ، مَلَّحتُ قدرًا من المياه ووضعته على الحوض. حين أخذ الماء في الغليان، استعنتُ بجسدي لأحجبه عن مرأى الكركند بينما أقرأ التعليمات للمرة الخامسة أو السادسة. قرر ترافيس أن يبقى في الشرفة مع الشوَّاية، ليحرق قطع اللحم على الأغلب. كانت مسؤوليتي إلقاء الكركند في المياه كي يلقى حتفه.

لم يتسع القدر لكليهما، فطهوتهما واحدًا تلو الآخر. اعتاد أبي إعداد كمياتٍ هائلة من صلصة الفلفل الحار في هذا القدر، ولسببٍ ما ورثتُ القدر بعد طلاق أبويّ. كان مطليًّا بالمينا مع بطانةٍ تعمل عمل المصفاة. في أوائل عشرينياتي، عِشتُ مع صاحبي آنذاك في مقطورة في ألاسكا. لم يكن في المقطورة ماءٌ جارٍ، وكانت تشغل مساحة خمسة أفدنةٍ من الأراضي المتجمدة. حين أتى أبي لزيارتنا، أحضر معه وصفةً مكتوبةً بخط اليد لإعداد صلصة الفلفل الحار. بل حتى كتب أعلاها «صلصة بابا». أدخلتُ الورقة في جيبي ثم أضفتها لاحقًا في ملفٍّ يحتوي على كل الوصفات التي جَمَّعتها.

لم تكن وصفةً معقدة؛ لحم برجر وبصل، وفاصوليا، والقليل من الكمون. إنني متأكدةٌ أنه نسخها من أحد كتب «بيتي كروكر» للطبخ. ولكن —حين كنتُ طفلة— كنتُ أحبُّ أن يحضرها بنفسه. كنا نجلسُ حول طاولة المطبخ مع قدورنا، ونطحن البسكويت المملَّح بأيدينا ثم نرش الفتات على الأرض لنثير غضب أمي. حين زُرتُ أنا وميا منزل والدي وشارلوت أول مرة، تقريبًا قبل شهر من حادثة كسر الباب وطردنا، ألَحَّتْ شارلوت على أبي حتى أعدَّ لي بعض الصلصة. أحببتها بعد إلحاحها هذا. غمرتني تلك الذكريات وأنا أحدِّق إلى الماء المغلي، والكركند في انتظار موته. فَكَّرتُ في شارلوت، في عجزي عن تذكُّر آخر مرةٍ رأيتها، أو حتى التحدث معها.

حين أنزلتُ جرادة البحر الأولى في الماء المغلي لم تصرخ، ولم تتحرك في هياجٍ كما ظننتُ أنه سيحدث. استحالَتْ قشرتها حمراء قانية على الفور، ثم تكونت رغوةٌ خضراء على السطح. أزَلتُ الرغوة حين انتهيتُ من الأولى قبل أن أبدأ في طهو الأخرى.

أعدَدتُ المائدة، كانت عبارة عن قطعتي لحم وجرادتي بحر وكأسي بيرة. فَكَّرتُ في الاختلاف بين مائدة عشائنا ومائدة هنري. ربما سيستخدم أطباقًا مخصصة لتلك المناسبة، مع مناديل كبيرة من الكتان تغطي ركب الضيوف. أكلتُ أنا وتراڤيس في صمتٍ مطبق. حاولتُ أن أبتسم له، أن أتجاهل امتعاضه أمام وجبةٍ إعدادها معقد. شَغَّل فيلمًا بينما كنتُ أنَظِّفُ المائدة وأملأ غَسَّالة الأطباق، وأنظفُ الأطباق الكبيرة، وأمسح الطاولة ومنضدة المطبخ. جلسنا جوار بعضنا بعضًا على الأريكة ذات الجلد البُنِّيِّ التي حصلَ عليها من أبويه، ولكننا لم نلمس بعضنا بعضًا. في منتصف الفيلم تقريبًا خَرَجتُ إلى الشرفة وأشعلتُ سيجارة. لم أكن أدخن إلا عندما تكون ميا خارج المنزل. اشتريتُ العلبة منذ عدة أسابيع، بعد تنظيف المقطورة. صار التدخين طَقسًا بمرور الوقت. أتى تراڤيس ليدخِّنَ نصف سيجارة قبل أن يخبرني أنه سينام.

سألته وأنا أنفضُ رماد سيجارتي: «هل ترغبُ أن آتي معك؟»

توقف برهةً وقال: «لا يَهمُّني». ثم دخل.

ظننتُ أنه ليس غاضبًا مني لأنني لم أنظف الإسطبلات معه ذاك الأسبوع لأنه كان لديَّ عملٌ أنجزه. بل حتى كنتُ آمل أننا سنمارسُ الحب، بدلًا من طريقته المعتادة في لمسي -في وقتٍ ما من الليل- ولا تتلامس وجوهنا أبدًا، وسط الصمت والظلام الذي تكسره مصابيح سيارةٍ عابرة.

صباح اليوم التالي قابلني هنري عند بابه الأحمر الكبير. سألني مبتسمًا وأنا أعيد إليه أدواته الفاخرة: «كيف سار العشاء؟»

قلتُ في سرور: «كان أفضل شيءٍ أكلتُه في حياتي». ثم توقَّفتُ وأدركتُ فجأةً مقصد سؤاله. «ولكنهما لم يُنقِذَا علاقتي».

قال ونظره يتجه إلى الآنية الفضية: «آه... ربما سيصبُّ هذا في مصلحة الجميع. لَستِ من نوع النساء اللواتي يحتجن إلى رجل لإنقاذهن. أنتِ واحدةٌ من العاملات المجتهدات».

كان هنري يمدحني، ولكني كنتُ أعرف أنني لن أقدر على العمل بجهدٍ كافٍ. ما بين المدرسة والمنزل وميا ومحاولة كسب ما يكفي للعيش، أصبح العمل قاسيًا وبلا نهاية. كانت إيصالات تسلُّم راتبي تُشعِرُني بأنني لم أكدّ في العمل على الإطلاق. ولكن هنري يحترمني، كان أول عميلٍ أعرفُ بلا شكٍّ أنه يحترمني.

انفصلنا أنا وتراڤيس عقب عشاء الكركند. عُدتُ في ذلك المساء من العمل إلى المنزل لأعِدَّ العشاء وأنظف المنزل وأحمم ميا وأنيّمها. جَهَّزتُ كتبي وحاسوبي على طاولة المطبخ، ووضعتُ السماعات في أذني لأغطي على صوت التلفاز، وبدأتُ أنجز واجباتي الدراسية. وقتها رأيتُ قمامة المطبخ ستطفح؛ نهضتُ عن الطاولة ووقفتُ أمام تراڤيس وحجبتُ التلفاز.

قلتُ ويداي على خصري: «هل يمكنك لو سمحتْ أن تُخرِجَ القمامة؟»

قال دون تردد: «أظنُّ أن عليكِ أن ترحلي». ثم نهض وأزاحني من الطريق وعاد إلى مجلسه. وقفتُ مصعوقةً أنظر إليه. اندَلَعَتْ ضحكاتٌ من التلفاز، فابتسم تراڤيس بوجهٍ تُنيره الشاشة. عُدتُ إلى طاولة المطبخ وغُصتُ في مقعدي. ثقيلةٌ وطأة تلك الكلمات، تدهسني نحو الأرض، نحو حفرةٍ لم أكن واثقةً أنني سأنجح في الخروج منها.

الجزء الثاني

11

شقة الاستوديو

أمهلنا ترافيس شهرًا لنرحل. لم أخبر ميا، لأنني من ناحيةٍ لم أودّ إزعاجها، ومن ناحيةٍ أخرى لم تكن لديَّ خطة. نشرتُ إعلاناتٍ على الإنترنت بحثًا عن شريك سكن، أو مقايضة للخدمات، أو غرفة للإيجار. لم تُسفِر المحاولات عن أي شيء. كَلَّف إيجار كل شقةٍ عَثرتُ عليها أكثر من راتبي كله. مع دخلي الذي يقل أو يزيد قليلًا على ثمانيمئة دولار شهريًّا، كان من المُحَال أن أدبر مبلغًا لإيجار أول الشهر ونهايته، ناهيك بمبلغ التأمين. كان شبه مستحيل أن أجني مالًا لأدفع ثمن الوقود والخدمات والإيجار، أو حتى مجرد غرفة. كان إيجار الشقق يُناهز سبعمئة دولارٍ على الأقل. فكرة الحصول على أكثر من غرفة نومٍ كانت ضربًا من الخيال. لم يكن لديَّ أي مدخرات، أو حساب أستندُ عليه، وحتى خيار أخذ قرض لم يكن متاحًا، لأنني سأعجز عن تسديده. إضافةً إلى ذلك، علي توصيل الكهرباء والإنترنت لأنجز عملي الدراسي، عليَّ أن أُحضِرَ راوتر، عليَّ أن أحضر الكثير من الأشياء.

بعد أن طلبتُ المساعدة من بعض الأصدقاء، شجعوني على إضافة أيقونة «تبرعات» عن طريق حساب باي بال في صفحة المدونة الرئيسية مع شرحٍ بسيط:

«سمحَ لي تراڤيس بالبقاء حتى آخر يونيو، وللأسف ليس معي أي مالٍ أدفعه لتأجير شقة. أعددتُ حساب باي بال، فإذا كان في وسعك التبرع حتى ولو بخمسة دولارات فستساعدني مساعدةً جمة. شكرًا لك».

ضايقني طلبُ المال من أي أحد. ضايقني الاعتراف بفشل علاقتي مرةً ثانية. لم يعرف معظم الناس أنني عِشتُ أنا وميا في ملجأ للمشردين، ولكن مع ذلك شعرتُ أن التاريخ يعيد نفسه. ثم بدأت تصل إليَّ رسائل من الأصدقاء عبر الفيسبوك، رسائل كلها تشجيع ومحبة. تبرَّع الناس بعشرة دولارات، أو حتى مئة. ومع كل تبرع —مهما كان صغيرًا— كانت عيناي تغرورقان بالدموع. أعددتُ قائمة أمنيات من وُلمارت وشاركتها في منشورٍ على فيسبوك. وسرعان ما بدأتْ تصل الصناديق إلى منزل تراڤيس، ملآنةً بالقدور والقلايات، وملابس لميا، والأواني الفضية. كنتُ قد هبطتُ إلى مستوًى جديدٍ من الانحطاط، ولكن لم أكن لأدعه يُغرقني معه. لن أعود إلى حياة التشرد. بعد أن أخبر والدي عائلتي أنني أؤلف القصص لأحظى باهتمامهم، كان طلب المساعدة أصعب شيءٍ عليَّ؛ جعلني عرضةً للانتقاد، وحَمَّلني مسؤولية أفعالي، تحديدًا لتوريط ميا فيما كان عليَّ أن أعي أنها علاقة ميؤوس منها. قَلِقتُ من ظنون الناس بي. ولكن كل صديقٍ مدَّ إليَّ يد المساعدة رفعني إلى قمةٍ أعلى. كنتُ سأحَلِّقُ فوق كل هذا.

حين انتقلتُ إلى ملجأ المشردين، اتصلتُ بميليسا، وهي واحدة من أقدم أصدقائي، استَمَعَتْ لي بينما أسرد عليها خطط ترميم حياتي. تضمَّنَت كل الخطط تقريبًا نوعًا من الإعانات الحكومية؛ قسائم الغذاء، وقسائم برنامج التغذية التكميلية الخاصة (ويك) لشراء الحليب، وقسائم الوقود، ومعونة إسكان ذوي الدخل المنخفض، ومنح استهلاك الطاقة المنزلية، ومعونة رعاية الطفل.

قالتْ ميليسا بحدة: «عفوًا!»

سألتها: «عَلامَ؟»، كنتُ أختلسُ النظر عبر ستارة الملجأ الزرقاء المهترئة إلى غزالٍ يتجول في الفناء. كانت ميا تأخذ قيلولتها في الغرفة المجاورة.

قالت: «أموال ضرائبي هي ما تدفع لكِ كل هذا». ثم كَرَّرَت: «ولأجل هذا، عفوًا».

لم أشكرها. لم أقل شكرًا. لم أعرف ما أقوله وقتها.

قلتُ في استعجالٍ كاذب: «ميا تبكي، عليَّ أن أذهب».

صَرَّ باب ميا حين فتحته. جلستُ على حافة سريرها ورُحتُ أراقب علو صدرها وهبوطه. بدتْ ميليسا مسرورةً في البداية لمساعدتي، ولكنِّي كنتُ أعرف أن شعورها ليس صادقًا. سمعتها تنتقدُ أناسًا استفادوا من الإعانات الحكومية. لم يُعجبها تذمُّر والدة ابنة زوجها من أنها تستغل النظام.

تمنيتُ لو أتحلى بالشجاعة كي أدافع عن نفسي، لأدافع عن ملايين مثلي يخوضون المشاق نفسها: العمَّال المنزليين الذين يعملون لقاء الحد الأدنى من الأجور، والمستقلين من الآباء والأمهات. ولكني اختبأتُ، حَظَرتُ ميليسا في صمتٍ على الفيسبوك، وتجاهلتُ كل التعليقات أو التغطيات الإعلامية التي تتحدثُ بالسلب عن الناس الذين يعيشون على الإعانات. أردتُ أن أقول: «إن المساعدات الحكومية شيءٌ وهمي». ما مِن مساعدات، ليست بالمعنى الذي تصوره الناس. محالٌ أن أدخل مكتبًا حكوميًّا وأخبرهم أنني في حاجة إلى المال تعويضًا عن الأجر التافه الذي أتلقاه وأحتاج إليه لأدفع لقاء العيش في منزل. إن كنتُ جائعة فسوف أحصل على مئتي دولار شهريًّا لأشتري طعامًا.

أو في وسعي الذهاب إلى أحد بنوك الطعام. ولكن لن يعطوني مالًا يوفر لي ما احتجت إليه فعلًا لأنجو بحياتي.

تراكم كل تبرعٍ صغير من الأصدقاء حتى وجدتُ بين يدي خمسمئة دولار، وعرضَ تراڤيس أن يُعطيني مثلها. تمكنتُ أخيرًا من تحمل تكلفة إيجار شقة استوديو في ماونت ڤيرنون في منزلٍ قديم مُقَسَّم إلى ثلاث شقق. كانت شقتنا ذات يوم صالةً ملحقة بها غرفة مشمسة. تمكَّنا —لقاء ٥٥٠ دولارًا شهريًّا— من الحصول على حوض استحمام ومطبخ صغير به ثلاجة كبيرة، وإطلالة على المدينة كلها عبر جدارٍ من النوافذ.

تبادلتُ أنا وچاي —صاحب المنزل— رسائل بريدية حول الشقة، وأخبرني أنه بإمكاني أن أمرَّ عليها لرؤيتها. ذهبتُ لمعاينتها بعد العمل في اليوم نفسه قبل أن أُقِلَّ ميا من الحضانة. كنتُ أعرف سلفًا أنها ضيقة؛ أشار اسمها «شقة استوديو» إلى ذلك ضمنيًّا. ولكن حين وقفتُ هناك —في تلك الغرفة التي تصغر الغرفة التي جلستُ فيها أشاهد التلفاز مع تراڤيس طوال السنة الماضية— لحظةً أردتُ أن أرفضها وأرحل. فَكَّرتُ في الشقة التي عشنا فيها في بورت تاونسِند، تلك التي أطلت على أرض المعارض، وكانت بها غرف نوم منفصلة، وغرفة طعام، وغسَّالة، ومجفف. يخلو هذا المكان من كل ذلك؛ كان غرفةً قذرةً جوار الطريق السريع، وكنتُ سأكافح لتسديد ثمنها.

كانت الأرضية قديمة، ربما لم يتغيَّر خشبها قط، كذلك فصلت شقوق واسعة بين ألواحها. أفضى الباب الفرنسي إلى الغرفة المشمسة التي أطلت على المدينة. كان أسفل النوافذ مقعد مجوف أستطيع تخزين الأشياء داخله، ولكنَّ شخصًا ما ترك فيه عددًا من الستائر وقضبانها، وفُرِشَت على الأرض سجادةٌ خضراء داكنة. حاولتُ تخيُّل مكان سرير ميا وألعابها، وتساءلتُ إن كان المكان سيكفي خزانتي. في قسمٍ آخر، وُضِعَتْ خزانات على شكل حرف (L) مع موقد كهربائي وثلاجة وحوض، فكان الركن بمكانة مطبخ. سِرتُ من حائطٍ إلى آخر ثلاثين خطوةً تقريبًا.

أخبرتُ چاي في الهاتف: «إنها رائعة. أنا فيها الآن، أظنها ستناسبنا».

سألني: «ابنتكِ في الثالثة من عمرها؟»، تمنيتُ ألَّا يعيد التفكير في عرض التأجير لنا.

أجبته: «تقريبًا. ولكنني أعمل كثيرًا، وتذهب إلى منزل والدها في نهايات الأسبوع». سِرتُ إلى نوافذ المطبخ ونظرتُ إلى السيارات المارة السريعة. «لن نكون في المنزل وقتًا طويلًا». كَتَمتُ أنفاسي طوعًا؛ كانت تلك نصف الحقيقة.

قال: «تمام، لا مشكلة. هل تريدين تسلُّم المفاتيح هذا الأسبوع؟ يمكنكِ دفع الإيجار والتأمين وقتها».

سألتُه: «هل يمكنني دفع التأمين على دفعات؟» أذهلتني شجاعتي. ربما وقوفي وسط المكان سَلَّحَني بشعور أنه ما من شيءٍ أخسره. «يمكنني أن أدفع خمسين دولارًا أو مئة كل شهر. الفكرة... إنه... أتى هذا الانتقال فجأة، وليس عندي مدخراتٌ حاليًا».

حَلَّتْ فترة صمت. عَضَضتُ على شفتي السفلى، ثم قال: «أكيد، لا بأس. ستناسبني مئة دولار إضافية على إيجار الشهور الخمسة القادمة».

تنفستُ الصعداء وكِدتُ أضحك: «شكرًا جزيلًا لك. إنني في غاية الامتنان».

حين قابلتُ چاي في الشقة لأسلمه شيك إيجار أول شهر وأتسلَّم المفاتيح كان وزوجته يطليان سقف الصالة والمطبخ. كان شاحب الوجه، بُنِّيَّ الشعر، وفي نفس سني تقريبًا. كانت زوجته ماندي —التي عَرَّفتني على نفسها— أكثر ضآلة مني من كل النواحي تقريبًا. بدا أنهم أناسٌ طيبون، لطفاء، وجديرون بالثقة، وربما مجتهدون وصادقون، أو هكذا تمنيتُ.

قلتُ وأنا أراهما يثبتان عمودين معًا: «يبدو أنكما بدأتما العمل بالفعل».

قالت ماندي وهي تقلِّبُ عينيها: «صحيح، على الأقل وافق الجَدَّان على أخذ الأطفال بقية اليوم».

أكمل چاي: «هذا تحديدًا ما نودُّ فعله في يوم سبتٍ مشرق». نظرا إلى بعضهما بعضًا وتنهد چاي.

ابتسمتُ ولَوَّحتُ لهما، ثم شكرتهما على تفهم مسألة التأمين. تخيَّلتُ نفسي أقضي يوم إجازتي بجانب زوجي، نطلي جدران وسقف منزلٍ قديم نمتلكه ونؤجره، بينما يرعى أبواي أطفالي. فَكَّرتُ في قوله وأنا في طريقي إلى منزل تراڤيس: «هذا تحديدًا ما نودُّ فعله في يوم سبتٍ مشرق». عليَّ أن أحزم أغراضنا، وأن أعرف الأساسيات التي تنقصنا بالضبط؛ مثل مفارش النوم، والأوعية، والأكواب، وشيءٍ أنام عليه. ستُجَهَّز الشقة خلال يومين كي ننتقل إليها. ولكنهما أخبراني أنني بوسعي أن آتي مساءً لأنظِّفَها إن أردت. كان تنظيف خزانات وأرضية منزلنا الجديد وفركُ أوساخه هو نسختي الخاصة من طقس إشعال بخور الميرمية لمباركته.

حين رأتْ صديقتي سارة منشوراتي لطلب المساعدة، أرسَلَتْ إليَّ رسالةً تسألني إن كُنتُ في حاجة إلى أي شيء. كتبتُ بصراحةٍ عدة أشياء وأنا مرتبكةٌ حيال ما سأفعله دونها. عَرَضَتْ عليَّ أن آخذ سرير ابنتها الكبير. أتى معي تراڤيس حين ذهبتُ إليها، وظل وجهه جامدًا بلا إحساس طوال الوقت. كان يختفي في الحظيرة إن عاد إلى المنزل ورآني أبكي، اعاني لأتصالح مع مصيري.

لم نتحدث سوى وقت الضرورة القصوى، ولكنني كنتُ أعرف أن أي طريقٍ سيساعدنا في مغادرة منزله سيشارك فيه برحابة صدر. ذهبتُ إلى منزل سارة عدة مرات، تناولنا مقبلات خفيفة وشربنا النبيذ على طاولة مطبخها في نهايات الأسبوع حين ذهبت ميا إلى جايمي. ولكن وقتها، حين وقفتُ على شرفة المدخل، لم أقوَ على منع رأسي من الطأطأة.

قالت سارة متفحصةً تراڤيس: «إنه في الداخل». تبِعناها في ردهةٍ أفضتْ إلى غرفة ابنتها. «سنُحضِرُ لها سريرًا أوسع، لقد كبرتْ نوعًا ما».

ربما ظَنَّت أن السرير لميا وليس لي، ولكنِّي لم أصحح المعلومة.

عانقتني قبل أن أغادر. ثم قالت فجأة: «لحظة! لديَّ شيءٌ لكِ». اختَفَتْ في غرفة الغسيل وعادتْ تحملُ صندوقًا ووضعته على مقعدٍ عند المدخل. كان طقم أطباقٍ جديدة، لونها فاقع وأزرق مثل بيض طائر أبو الحِنَّاء الذي وجدناه منتشرًا في المزرعة في الربيع. اتجهتْ يدي إلى فمي من وقع الصدمة وأنا أستوعبُ الصندوق الذي به أربعة أطباقٍ كبيرة وأطباق سلطة وفناجين قهوة وزبدِيَّات كلها جديدة لأجل بدايتنا الجديدة. ألقيتُ ذراعي حولها شكرًا، ثم أخذتُ نفسًا عميقًا وحملتُ صندوق الصحون إلى السيارة.

تلك كانت مجرد بداية، وبين يديَّ أعمال كثيرة أنجزها؛ ليس فقط مهمات الانتقال، بل العمل الذي سأؤديه كي أتحمَّل تكاليف دوام العيش في الشقة.

طوال أسبوعين، كنتُ أضع ميا في سريرها في منزل تراڤيس وأملأ سيارتي بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الأغراض التي أتمكَّن من حشرها فيها. في شقة الاستوديو الجديدة، فركتُ الخزانات والأحواض حتى نظفت. حتى الجدران مسحتها جيدًا قبل أن أعلِّق عدة لوحات من تلك التي منحتني إياها أمي. كانت لوحاتي المفضلة من رسم باربرا لاڤالي، من كتاب «هل تحبينني يا ماما؟» الذي أحتفظُ به منذ طفولتي. ذَكَّرتني رسومات ألاسكا الأيقونية بأيامٍ أكثر سعادة؛ حين كانت تقضي عائلتي الصيف كله في الصيد وملء الثلاجة في المرأب بأسماك السلمون والهلبوت. كانت شقة الاستوديو صغيرة، لا تتجاوز مساحتها ثلاثمئة قدمٍ مربع، مع عشر نوافذ هائلة —ثمانٍ منها في مكان نومنا، واثنتان في الجزء ذي الأرضية الخشبية— لذا عليَّ أن أكون انتقائيةً فيما سأعلِّقُ على الحائط. حاولتُ ألَّا أنظر إلى كل شيءٍ بعينٍ ناقدة كما فعلتُ في ملجأ المشردين. كانت هذه بدايةً صغيرةً لنا، خِفتُ ألَّا تراها ميا بالعين في نفسها.

كنتُ أعود إلى منزل ترافيس قرب منتصف الليل، يكون وقتها قد نام، فأتسللُ أسفل البطانية على الأريكة. قبل أسبوعٍ واحد من عيد ميلاد ميا الثالث، أوصلتُ الحمولة الأخيرة من الأثاث إلى الاستوديو وأعددتُ كل شيء. قررتُ الانتقال في إجازة نهاية الأسبوع التي ستقضيها ميا في منزل جايمي. ساعدني ترافيس وصديقه في نقل الأغراض الكبيرة، بل حتى فكك ترافيس السرير العالي الذي منحاه أبواه ميا وركبه أيضًا. قاما بكل شيء بينما كنتُ أنظف منزل المزرعة. أوصلتُ ميا إلى الحضانة ذاك الصباح وأنا أخطط لتوصيلها إلى منزل والدها، ثم لن أعود بها أبدًا إلى المنزل الذي لم تعرف غيره طوال عامٍ ونصف. أردتُ فِعل كل شيءٍ بنفسي دون طلب المساعدة من ترافيس، ولكنِّي أُصيبَ ظهري في العمل ذاك الأسبوع وأنا أحاول محاولةً بلهاء أن أحرِّك أحد الأسرة. اضطررتُ إلى أخذ ٨٠٠ مليجرام من مسكِّن إيبوبروفين مرتين أو ثلاث مرات يوميًّا لأتمكَّن من العمل. شتتني الألم الجسدي عن غصة القلب التي شعرت بها حيال ميا.

بحلول ليلة السبت كنتُ قد نقلتُ كل شيء. ظهر الأحد، كانت ألعابها في الصناديق، وملابسنا مطويةٌ بعناية ومركونةٌ على جنب. حين أخذتُ ميا وأوصلتها إلى شقتنا الصغيرة، تمنيتُ —مثلما ستتمنى أي أم— أن يُعجبها المكان الجديد. تمنيتُ أن تشعر بأنه بيتها، أن تنتمي إليه. ولكنها نظرتْ إلى ما حولها لحظةً وتفحصت الحمام، ثم طلبتْ أن تعود إلى البيت عند ترافيس.

قلتُ وأنا أربت على شعرها: «سنظلُّ هنا يا حلوة».

سألتني: «هل سيأتي ترافيس؟»، جَلَسَتْ في حضني على السرير الذي منحتنا إياه سارة.

قلتُ: «لا، سيظل ترافيس في منزله. سينام هو هناك وسننام نحنُ هنا. هذا منزلنا».

قالت: «لا يا ماما. أريدُ تراقيس. أين بابا تراقيس؟»، بدأتْ تبكي وتغوصُ في حضني، وتشهقُ أسفل ثقل قلبها الضئيل المُهَشَّم. تأسَّفتُ لها وبكيتُ معها. قَطَعتُ وعدًا على نفسي بأن أكون أشد حذرًا في المستقبل. لي أن أكون طائشةً مع قلبي كما يحلو لي، ولكن ليس مع قلبها.

12

التخَفُّف

أحد أعظم الأشياء في استعدادك لأن تجثو على يديك وركبتيك لفرك المراحيض هو أنك لن تعجز أبدًا عن العثور على وظيفة. بدأتُ البحث عن عملاء شخصيين بنفسي لملء الساعات الضائعة في كلاسيك كلين. نشرتُ إعلاناتٍ على الإنترنت وفيسبوك. وقع الاختيار على منزل دونا، كنتُ أنظفه مرةً كل أسبوعين مدة أربع ساعات في أمسية الجمعة حين تذهبُ ميا إلى جايمي. كان منزل دونا في أعماق تلال وادي سكاجيت ناحية جبال كاسكيد والمنطقة البرية الثلجية غير المأهولة التي عاشت فيها عائلتي طوال ستة أجيال.

كانتْ تُساهم في منظمة «هابيتات فور هيومانيتي» (مأوى للبشرية)، وذكرت عدة عائلات هيَّأتْ لها المنظمة طريق امتلاك منزلها الأول. يعتمدُ معظمه على ما يسميه البرنامج «المساهمة بالجهد والعمل»؛ إذ يساهم أفراد العائلة والأصدقاء بالأعمال البدنية، مثل دق المسامير، أو طلاء الجدران، أو أعمال تنسيق الحدائق مقابل دفعة المنزل الأولى. إن كان إيجاد الوقت لاستيفاء تلك المتطلبات بدا صعبًا عليَّ، فلا داعي لذكر أنني كمواطنة بالغة مع ابنتي التي أعولها كنتُ في حاجة إلى دخلٍ صافٍ قدره ١٦٠٠ دولار شهريًّا كي أتأهل للبرنامج.

قلتُ: «لا أظنُ أن بوسعي فعل هذا». ولكنها شجعتني على التواصل مع مسؤولي البرنامج على أي حال. حين فكرتُ في الأمر بجدية لم أكن متأكدةً من رغبتي في امتلاك منزل يقع في وادي سكاجيت. باستثناء منطقتي أناكورتس وديسبشن باس، اللتين أعجز عن تحمُّل أسعارهما بمرتبي. لم أشعر أن ذاك المكان سيكون مثل وطن لنا. ولم تُتِح المنظمة فرصة اختيار مكان العيش في المقاطعة.

قالت: «عائلتكِ كلها تعيش هناك؛ لن تجدي «وطنًا» أكثر من ذلك».

أجبتها وأنا أنفضُ الأتربة العالقة على الصور المعلَّقة في صالة منزلها؛ «أقصد... أريدُ أن أبحث في ميزولا بمونتانا. كنتُ أخطط للانتقال إليها لأدرس في الجامعة حين اكتشفتُ أنني حامل».

كانت دونا منهمكةً في تصميم كتابٍ من المقصوصات ونحنُ نتكلم. توقفتْ عن التقليب في أكوام الورق والصور والملصقات المتناثرة على طاولة المائدة ونظرتْ إليَّ قائلةً: «هل تعرفين كيف تجعلين ربكِ يضحك؟».

سألتها: «كيف؟»، كنتُ في حيرةٍ من أمري عن علاقة قولها برغبتي في الانتقال إلى ميزولا.

قالت: «احكي له عن خططكِ. إن أردتِ إضحاكه، فاحكي له عن خططك». ثم أطلقتْ ضحكةً صاخبة.

قلتُ: «صحيح». ثم عدتُ إلى تنظيف الإفريز الممتد على طول الردهة.

دَفَعَتْ لي دونا ٢٠ دولارًا في الساعة لأنظف منزلها، ونصحتني بألَّا أقبل أقل من ذلك أبدًا. كانت كلاسيك كلين تُحاسِب العملاء بمبلغ ٢٥ دولارًا، لكن تدفع لي تسعة دولاراتٍ في الساعة، وبعد خصم الضرائب والنفقات الأخرى، أعودُ إلى المنزل بستة دولارات في الساعة. استغرق إيجاد العملاء بنفسي وجدولة مواعيدهم وقتًا طويلًا؛ تحديدًا حين لم يثمر التجول على المنازل

عملاء جددًا. ولكن كان العمل غير المدفوع الذي قضيته في البحث عن عملاء يستحق الجهد، ويساعدني في زيادة راتبي بشكلٍ عام، إن نجحتُ في عدم تخريب أي شيء.

تسبب الانتقال من منزل ترافيس في أن يطول طريق السفر اليومي مقدار أربعين دقيقة. أقام كل عملائي من كلاسيك كلين -ما عدا اثنين- في منطقة ستانوود وجزيرة كامانو. ولكن كانت حضانة ميا ما تزال بالقرب من منزل ترافيس، فكان لا مهرب من المرور عليه. مرةً أبطأتُ من سرعة سيارتي طواعيةً حين مررتُ أمام منزله؛ تلكأتُ لرؤيته يدخل من الباب مرتديًا حذاءه الموحل. إضافةً إلى افتقاد دفء شريكٍ في حياتي، كان هناك شيءٌ واحدٌ عجزتُ عن التخلي عنه بعد أسبوعين من المرور على منزله عدة مراتٍ في اليوم، سألتُ ترافيس إن كان بوسعي أن آتي لأعتني بالحديقة. ضايقتني رؤيتها مكسوةً بالأعشاب وذابلة، كانت إضاعةً تامة لطعامٍ صالحٍ للأكل.

وافق عقب صمتٍ طويل.

قلتُ: «قد أحضر ميا لتلعب هنا قليلًا».

بدا موافقًا على هذا. أخبرني ترافيس أنه سيحاول المشاركة في حياة ميا قدر المستطاع، ولكن الصيف يعني موسم البرسيم، وهو يقضي معظم أيامه يعمل من مطلع الشمس حتى غروبها. كانت تُحب أن تجلس في حضنه بينما يجزُّ العشب. على الأقل ما يزال أمامها فرصٌ قليلة تقضيها جالسةً إلى جواره.

بدأت حياتنا الجديدة في السابعة صباحًا. أنهضُ من السرير وأنفضُ النوم عن جسدي، وأسخِّن المياه على الموقد لتحضير القهوة. أعدُّ كوبًا أشربه في الصباح، وأصبُّ البقية في قنينةٍ للطريق. تتناول ميا عادةً الشوفان أو الحبوب. وأحيانًا كنتُ أضيف الماء إلى خليط الفطائر المحلَّاة، وتجلسُ منتبهةً وأنا أضعُ القطع الصغيرة بحجم دولارٍ معدني في طبق والبخار يتصاعد منها، قبل أن أرشها بالزبدة أو الدبس. كنتُ أدبِّر أمري بقالب زبدة الفول

السوادني من كلف بار أضعه في جيب بنطالي، مع شطيرة محمَّصة من زبدة الفول السوداني والمربى، ألفها بالمناديل الورقية وورق القصدير الذي كنتُ أعيد استخدامه حتى يهترئ.

بلغتْ مصروفاتي بالإيجار والوقود وفاتورة الهاتف والإنترنت والمغسلة ومستلزمات النظافة مبلغًا قدره ألف دولار شهريًّا. حين كنا نحتاج إلى شراء حذاء جديد، أو حتى معجون أسنان، كنتُ أسجله في جدول الميزانية المُعَلَّق على الحائط، مع قائمة بالفواتير التي اقترب موعد سدادها وتاريخ سحبها من حسابي البنكي. كان معنى ذلك أن المتبقي عشرون دولارًا لمسايرة أي عقباتٍ مفاجئة، مثل أن تأتي فاتورة الكهرباء أعلى من المعتاد. ما كنتُ سأستطيع العمل مطلقًا لولا أنني تسلَّمتُ الإعانة الحكومية لرعاية الطفل. وبما أن دخلي ارتفع، ازداد المبلغ الذي أدفعه بمقدار خمسين دولارًا. ازدياد الأجر يعني انخفاض القسائم الغذائية -كانت بمبلغ ٢٠٠ دولار شهريًّا وقتئذ- وكانت هي كل ما في حوزتنا لنشتري الطعام. حتى مع زيادة ما أتقاضاه من المال كانت ترتفع الفواتير وتنخفضُ الإعانة الإضافية من الحكومة. لذا كل شهرٍ كان يفيض معنا قرابة الدولارات الخمسين يمكننا إنفاقها على أي أنشطة أو مستلزمات منزلية. ورغم الوقت والطاقة التي قضيتها في العمل بدنيًّا، كان ألم العجز عن تحمل مصاريف أغراض أساسية وضرورية أشدَّ وأقسى.

اتضح فيما بعد أن موقع شقتنا الجديدة وسط المدينة كان خيرًا لنا؛ جاورها منفذٌ لبيع الأغذية المخفضة، حصلتْ ميا على «بطاقة موزة» تصرفها منه، والتي تمنحها تفاحة أو برتقالة أو موزة مجانية في كل جولة تسوق. كنتُ أستخدم القسائم الغذائية لشراء شطائر جاهزة من قسم التصفيات، أو زبادي وحمص لميا، وحليب بالشوكولاتة، وثمرة فاكهة من اختيارها. ثم نجلس حول طاولةٍ أمام النوافذ الشاسعة المقابلة للرصيف، وأشتري فنجان قهوة بدولارٍ واحد. كنا نجلسُ مبتسمتين وممتنتين لأننا نستطيع تناول الطعام خارج المنزل.

وجدنا في نهاية الشارع متجرًا لبيع البضائع المستعملة وشرائها يدعى «سبروتس»، افتُتِح حديثًا. كانت سادي -الشابة الشقراء صاحبة المتجر- دومًا هناك، مع ابنتها إمَّا مربوطة على صدرها في حمَّالة أطفال، وإما تلعب في قفص الألعاب.

سألتها وهي تتفحصُ أكياس الملابس التي أحضرتها معي: «هل يمكنكِ أخذ سرير أطفالٍ آخر؟»، توقفتْ لحظةً لتفكر.

سألتني: «هل هو في حالةٍ جيدة؟»، كانت تتأرجحُ بخفةٍ لتُبقِيَ طفلتها نائمة بينما تتفحصُ باقي الأشياء.

كان عليَّ أن أخبرها عن ثقبٍ في نامُوسيَّته. قلتُ «ولكنه لم يستخدم كثيرًا». ثم قررتُ أن أضيف: «عندي عربة أطفالٍ كذلك».

قالت: «أستطيعُ منحكِ إيصال استلام». ثم لوت أنفها في إحباط: «لن أدفع نقدًا».

تمتمتُ: «لا بأس».

فتحتْ خزينة الحسابات وأعطتني عشرين دولارًا ثمن الملابس. قالتْ بابتسامة: «توجد أشياء جميلةٌ هنا».

قلتُ همسًا: «أعرف، لقد كنتُ أحافظ عليها لـ...» كَتَمتُ أنفاسي وأنا أنظر إلى ملابس حديثي الولادة التي حافَظتُ عليها بعنايةٍ في حالة أنجبتُ أنا وتراڤيس طفلًا. «كنتُ أحافظ عليها لسببٍ ما».

بطريقةٍ ما فهمتْ سادي مقصدي، أو ربما تصرَّفت وكأنها فهمت. تَعَرَّفنا على بعضنا بعضًا أكثر بعدما رأت منشوراتي على فيسبوك خلال بحثي عن عمل في إحدى مجموعات الأمهات. أوكَلَت إليَّ مهمة تنظيف منزلها بما أنها أهملته وقتًا طويلًا بعد أن بدأت مشروعها مع رعاية طفلتها. حين سألتها إن احتاجت

إلى أي مساعدة في متجرها رَفَضَتْ بدايةً، ثم سألتها إن كانت تود مقايضة أن أنظف حمام المتجر بأن تعطيني بعض الملابس. ابتَسَمَتْ سادي -أولًا لي ثم لميا، التي كانت تقبضُ على بيجامة رُسِمَ عليها توماس القطار عثرنا عليها في قسم ملابس الأولاد- ثم أومأت. بالمقايضة، كان في وسع ميا أن تدخل المتجر وتختار فستانًا أو أي شيء يخطفُ أنظارها متى ما دعت الحاجة. كنتُ سأخصص يومًا له؛ نذهبُ لتناول الغداء في بيع الأغذية، ثم نمر على سبروتس لتختار شيئًا. تكوَّنت خزانتها بأكملها من ملابس مستعملة وسراويل مطاطية من ولمارت اشتريناها في التصفيات. ولكنها كانت ترفع رأسها في زهو كلما اختارت فستانًا كأنها كانت تتسوق في متجرٍ راقٍ.

حين انتقلنا إلى مبنى السكن الانتقالي، أعطتني أمي صناديق ملأى بالتحف التي كانت توزعها في أرجاء منزل طفولتي. مع ضيق المساحة حاليًّا، شعرتُ أنها ألقَتْ عليَّ عبء أغراض لم ترغب في دفع ثمن تخزينها في مستودع. أخذتُ الأشياء الأكبر حجمًا إلى مراكز تبرعات أو متاجر البضائع المستعملة لأنه لا مجال لها في مساحة الاستوديو الضيقة، مثل مساحة ملجأ المشردين التي لم تتسع سوى لحقيبةٍ واحدة. دائمًا لم ترحب المساحة التي أعيش فيها إلا بالأشياء المفيدة فعلًا. خطرتْ ببالي المجلَّات التي كنتُ أتصفحها؛ قرأتُ فيها مقالاتٍ تحكي عن عائلاتٍ قررت التخفُّف من ممتلكاتها، أو الانتقال إلى منزلٍ صغير، وتحدثوا في مباهاةٍ عن وعيهم بالبيئة من حولهم. كان في وسعهم أن يقرروا ببساطةٍ الانتقال من جديد إلى منزلٍ عادي يتكون من غرفتي نوم وغرفة مكتب وحمامين. كان شعوري سيختلفُ حيال شقتنا وأنا أدفع إيجارها الشهري لو كنتُ على ثقةٍ بأنني أقدر على دفع إيجار مكانٍ يفوق حجمها ثلاثة أضعاف.

خلال الأسابيع التالية لانتقالنا من منزل ترافيس إلى الاستوديو، عرضتْ عليَّ بام جزءًا من الدور العلوي في متجرها لتخزين أغراضي حتى أقرر ما سأفعله بها. مررتُ على مكتب كلاسيك كلين لأعيد تعبئة مستلزمات النظافة وأتسلَّم راتبي وأغيِّرَ عنواني بصفةٍ رسمية.

سألتني بام بطريقتها المرحة المعتادة: «ما هي أحوال المنزل الجديد؟» حاولتُ أن أرد عليها بإجابةٍ إيجابية، أو حتى أن أجاري مرحها.

أجبتها: «كل شيءٍ على ما يُرام. ما زلتُ لا أعرف ماذا سأفعل بكل الأغراض التي لدي. لا يريد ترافيس أن أترك شيئًا عنده، ولا أستطيع استئجار مخزنٍ لها». قطعتُ حديثي عند تلك الجملة؛ في محاولةٍ لئلا أُلقي بكل الضغط الذي أمر به على مديرتي في العمل. كانت تسأل بصدقٍ عن أحوالي وتنصتُ إلى حديثي حدَّ أنها بدأتْ تملأ دور الأم الذي احتجت إليه بيأس في حياتي.

لم تكن عمليةً سهلة أن أقرر ما سأبقيه وما سأتبرع به وما سأحاول بيعه. كل ما خزنته تقريبًا كان بلا منفعة ولا ثمن؛ كانت كلها كتبًا للأطفال، وصورًا ورسائل قديمة، وكتبًا سنوية لا قيمة لها ولكنها احتلت مساحةً قَيِّمة. قللتُ ملابسي، وتخلَّصتُ من الملابس الشتوية ومعدات الصيد التي احتفظتُ بها من أيامي في تحديد ألاسكا، كذلك الفساتين والقمصان التي لم أعد أرتديها كثيرًا. كان الفصل في الأغراض المنزلية هو القرار الأصعب. لم يكن عليَّ تحديد ما لدينا متسعٌ له، بل كذلك ما سنقدر على استبداله. لم يعد لِقِدر والدي الخاص بصلصة الفلفل الحار استخدامٌ فعلي، ولكن له قيمة عاطفية هائلة هو والأطباق الخزفية التي اشتراها والداي عند زواجهما. أشياء، كلها كانت مجرد أشياء، ولم تكن عندي مساحة كافية، لذا تركتُ لي منشفتين وملاءتين ومثلها لميا. وضعتُ في خزانتي -التي بُنيَتْ في الأصل لتكون مخزنًا للمقشات والممسحات- ملابسي كلها: بنطالين من الجينز، وبنطالًا كاكيًّا وقميصًا جميلًا به زرٌّ واحد، وفستانًا «راقيًا» اشتريته بمالي الخاص. الباقي كان ملابس العمل في كلاسيك كلين. لم يطاوعني قلبي في التخلُّص من الكثير من حاجيات ميا، وعثرتُ على طرقٍ مبتكرة لأخزن دمى الحيوانات، وكتبها وألعابها حتى تبدو وكأنها جزءٌ من ديكور المنزل. كانت الأغراض التي فرزتها هائلة، ومزقت قلبي قرارات ما أُبقيه وما أرميه. خَزَّنتُ بعض الأشياء في القبو أسفل شقتنا، ولكن ليس كثيرًا، لأنني خِفتُ أن تتلفها الرطوبة والعفن

والفئران. ولكني عجزتُ عن رمي كل تلك الأشياء أيضًا؛ كانت تاريخنا الشخصي.

كان من المحال أن أقدر على البوح بكل هذا لبام في تلك اللحظة، ولكن شعرتُ أنها فهمتْ بغريزتها كل شيء وهي تُحَدِّقُ إلى وجهي. ربما مَرَّت بالمعضلة نفسها ذات يوم وهي أمٌّ مستقلة تعيش في مساحةٍ مقسمةٍ إلى أجزاء. فجأةً أشرق وجهها بإشراقة ماما نويل وأخبرتني أن أتبعها.

دخلنا من بابٍ أفضى إلى محل أصغر حجمًا يقع بين مكتبها ومنزلها، ثم أشارت إلى مساحةٍ صغيرةٍ خَفيَّةٍ في الأعلى. قالت وهي تهزُّ كتفيها: «توجد مساحةٌ شاسعةٌ هناك ولا أحد يستفيد منها».

كان هناك سلَّمٌ متهالك يوصل إلى المساحة العلوية، وعليَّ بطريقةٍ ما أن أصعد بأغراضي إلى هناك. توزعتْ على الأرضية مجموعات مختلفة من أشياء قديمة، مثل الأشياء التي تعثر عليها في معارض بيع الأشياء المخزَّنة في المرائب، والتي يكون مقررًا التخلص منها بالفعل.

ثم أضافت: «خذي ما تحتاجين إليه، أيًّا كان». أشارتْ إلى أوعيةٍ متنوعة وأرفف بلاستيكية حين رأتني أنظر إليها: «خُذي من أي كومة. ستُقيم كنيستنا معرضًا كبيرًا لأنهم في حاجة إلى التبرعات، ولكن بوسعكِ أخذ ما تُريدين».

نظرتُ إلى أرجاء المكان، ورأيتُ مسند قدمٍ قديمًا، فقلتُ: «في وسعي استخدام هذا كطاولةٍ للقهوة». ابتسمتْ بام وأومأت. «وربما هذا الإناء لأدوات المطبخ».

قالَتْ: «إن احتجتِ إلى أي شيء، حتى إن احتجتِ إلى أن أغسل لكِ مناشف العمل، فقط أخبريني». أردتُ أن أعانقها. أردتها أن تعانقني. كنتُ في حاجة ماسة إلى عناقٍ من أي أم حدَّ أنني رأيتُ نفسي أختنق بالدموع طلبًا لعناق. أردفتْ: «وأنا في حاجة إلى بعض المساعدة في الفناء، إن كُنتِ متفرغة».

أجَبتُها في حماس: «أنا متأكدةٌ أنه لدي وقتٌ الأسبوع القادم. سأتحقق من جدول العمل إن كُنتِ تريدين إنجازه في وقتٍ مبكر».

قالت: «لا بأس. لسنا في عجلةٍ من أمرنا». فتحت الباب إلى جزء يفصله جدار أسفل العليَّة التي تخزن فيها أدوات التنظيف. «ربما في وسعكِ تنظيم هذا المكان أيضًا؟».

رأيتُ حين أضاءت الأنوار ردهةً طويلةً ملآنةً بالمكانس الكهربائية الاحتياطية ومُلَمِّعات الأرضيات، وصفوفًا من الممسحات والقناني.

كنتُ بالفعل أحسبُ الراتب الإضافي في رأسي.

ابتَسَمَتْ لي بام وتلألأت عيناها أكثر. تساءلتُ وأنا أتفحص جسدها القصير المستدير وأفكر في روحها الوديعة إن كانت العاملات يشعرن بهذا القرب منها أيضًا.

في إجازات نهاية الأسبوع، كنتُ أفرز الأغراض التي تركتها في عليَّة بام. قَلَّلتُ حجم أوراقي وكتبي وتذكاراتي إلى صندوق واحد فحسب. ألقيت معظمها في سلة القمامة، أو ذهبتُ بها إلى متاجر البضائع المستعملة، وتَخَلَّصتُ من أشياء كنتُ أطويها بعنايةٍ حِفاظًا عليها ذات يوم. ذات مساء، وأنا أعرفُ أنني وحدي في المكان، تخلَّصتُ من آخر ما تبقى من ملابس الأطفال لدي، ملابس حديثي الولادة المميزة التي استبقيتُها على أمل أن يرتديها طفلٌ آخر أنجبه يومًا ما. ولكن على الأقل في وسعي استبدالها من متجر سبروتس، وسأحصل لقاءها على ملابس لائقة للطفلة التي أنجبتها بالفعل، والتي شعرتُ أنها في حاجة إلى بناطيل وأحذية جديدة طوال الوقت. ولكن ربما كان هذا هو الدرس، أن نُقَدِّرَ الأشياء التي في حوزتنا بالفعل، الحياة التي نعيشها، أن نستغل المساحة التي مُنِحنَاها. تمنيتُ لو أنها لم تكن رحلةً قسريةً عليَّ خوضها، ولكني اعتبرتها جزءًا مهمًّا من رحلتي الشخصية.

13

منزل ويندي

في زيارتي الثالثة إلى منزل عميلتي الجديدة ويندي، لاحظتُ أن صحتها بدأت تتدهور بشكلٍ سريعٍ وواضح. أنهَتْ حديثنا قائلةً: «لا يتركُ لي السرطان وقتًا طويلًا». كانت كتفاها متهدلتين على غير طبيعتهما. لم أشعر أن أي ردٍّ سيكون صائبًا، لذا أجبتها بإيماءةٍ حكيمة، أتفقُ مع قولها بطريقةٍ جنائزية. ولكن قمصان ويندي كانت ما تزال نظيفةً ومكوية. منزلها نظيفٌ للغاية، لدرجة أنني كنتُ في حيرةٍ من أمري؛ لِمَ تدفع لي أجرًا لقاء عملي هناك.

كانت تعدُّ لي الغداء أحيانًا بعد أن أنتهي من تنظيف المطبخ، وتصرُّ على أن أجلس معها على طاولة المائدة. كنا نتبادل قصصًا عن طفولتنا عبر مفرش الطاولة الأبيض المزركش، نأكل شطائر التونة بالخبز الأبيض، مقطعةً إلى أرباع مثلثة مع أعواد الجزر. كانت تقدِّمُ لي قهوةً سريعة التحضير، نحتسيها في نشاط من فناجين الشاي مع الكريمة والسكر، وملعقة فضية لتقليبها. كنتُ أشعر أنها مثل حفلات الشاي التي كنتُ أمثل إقامتها مع جدتي وأنا طفلة وأخبرتها عنها. ابتسمتْ ويندي ثم لوحتْ بيدها لتغيير الموضوع. قالت: «من اللطيف أن نستخدم الفناجين الفاخرة ما دمنا قادرين على ذلك». كانت يدها ترتعش حدَّ أن الفنجان اهتز فوق صحنه المزين بالأزهار الوردية.

امتلأ منزل ويندي بالخزانات الزجاجية، تستعرض فيها تحفًا صغيرة وصورًا لأطفالها وأحفادها، ولوحةً لها في يوم زفافها. رأتني ويندي أمعنُ النظر إليها ذات يوم. كنتُ أحدِّقُ إليها وأفكر في شبابها وزوجها في تلك النظر إليها ذات يوم. الأيام، وأتساءل كيف يشيخ الناس فجأةً، كيف يحافظون على الحب كل هذا الوقت؛ تشيخُ أجسامهم وقلوبهم معًا. ابتَسَمَتْ وأشارت إلى باقةٍ زجاجية من الورود الحمراء وُضِعتْ في الرف المجاور لصورة زفافها. قالت: «أراد زوجي أن يتأكد من أن الورد الأحمر يصل إليَّ طوال الوقت». انتابني شعورٌ غريب؛ خليطٌ من الحقد والبكاء.

كان منزل ويندي هو «منزل الجدات» التقليدي، الذي جعلني أفتقدُ فكرة العائلة، أو أفتقد جدتي شخصيًّا. امتلأت خزانات المطبخ بكتب تعليم الطبخ، وأكوام الورق الذي تنوَّعَ من قوائم البقالة ووصفات إعداد عصائر الخضراوات. كانت تشربُ قهوتها بإضافة أكياس بديل السكر، ووضعتْ سلةً صغيرة منه جوار إبريق القهوة، بدا لي أنها لا ترفعه عن النار أبدًا.

كان منزل ويندي سهلًا مقارنةً بالبقية. أمسحُ المناضد والخزانات والأرضية، وأنفضُ الأغبرة وأكنس، وأنظف الحمام الصغير في الطابق الأرضي، ولكن كانت تصرُّ على تنظيف حمام الطابق العلوي بنفسها.

كان في أرضية مطبخها بقعة، قُرب نهاية الخط، حيثُ اهترأ المشمَّع وتمزق. سألتها عنها ذات مرة بينما كنا نتناول الغداء معًا، فأجابتني بأنه المكان الذي اعتاد زوجها الجلوس فيه وتدخين سجائره. قَطَبَتْ وجهها من الذكرى، وقالت وهي ترتشفُ قهوتها: «كنتُ أكرهها». أومأتُ وأنا أفكر في آثار حذاء تراقيس المُوحِل على أرضية المطبخ. أردفتْ وهي تلمسُ الكارديجان الأبيض الذي ترتديه فوق قميصها المُقَلَّم: «ولكن من المهم ألا نسمح لمثل هذه التفاصيل بعرقلة علاقتنا».

قلتُ: «لقد عرقلتني». رفعتْ نظرها إليَّ وشعرها الأشيب يتوهج في ضياء الظهيرة مثل هالةٍ من النور. «انفصلتُ أنا وصاحبي حديثًا. عِشنا معًا أكثر من

سنة. ابنتي في الثالثة من عمرها فحسب و... وكانت علاقتهما وطيدة. نعيشُ الآن في استوديو صغير بالكاد أقدر على دفع إيجاره». تناولتُ فنجاني لأرتشف رشفة القهوة الأخيرة وأخفي وجنتيَّ الحمراوين. لم يتألم قلبي من الأسى فحسب عقب لفظ تلك الكلمات دفعةً واحدة، بل جعل كل شيءٍ حقيقيًّا؛ كل شيءٍ يحدثُ حقًّا، ولم يكن مجرد كابوسٍ وجدنا أنفسنا عالقين فيه.

صَمَتَتْ ويندي لحظات، ثم قالت وهي تنهضُ من مقعدها على الطاولة: «أحتاجُ إلى الكثير من المساعدة هنا». لَملَمَتْ أطباقها، ووثبتُ لأفعل مثلها.

- اتركيها هنا. تعالي معي.

تبعتها إلى الطابق العلوي، ومررنا على المقعد الميكانيكي الذي تستخدمه في التنقل خلال «أيامها السيئة»، كما تسميها. لم تكن تستقبل الكثير من الضيوف على ما يبدو؛ ما جعلني أتساءل إن كانت ترتدي ملابس جميلة وتهندم شعرها من أجلي فقط. لم أصعد الطابق العلوي من قبل، عدا مرة أو اثنتين لكنس السلم. كانت غرفة نومها تقع على اليمين، حيثُ كانت تنام مع كلبها الأبيض الضخم الذي يعرف كيف يرنُّ الجرس جوار الباب الزجاجي ليأتي أحدٌ لإخراجه. حين فتحتْ باب غرفة الضيوف، فاض النور منها إلى الردهة حيثُ كنا نقف.

اصطَفَّتْ عشراتٌ من صناديق الأحذية والأوعية البلاستيكية والسلال المطاطية على الجدران، وتكَوَّمَت عُلبٌ أكثر على السرير، تنهدتْ ويندي. قالت: «كنتُ أحاول فرز الأشياء في أكوام محددة، بسبب السرطان». أومأتُ ونظرتُ إلى كل ما كانت تفعله. «معظم الأشياء التي تخصُّ ابني موجودةٌ في المرأب، العدَّة وما إلى ذلك. ولكن سيرغبُ بنات وأبناء إخواني وأبناؤهم كذلك في كثيرٍ من هذه الأشياء».

أُعجِبتُ بها وهي تُشيرُ إلى الأكوام المتراصَّة، تُخبِرني مَنْ سيأخذ ماذا. رأيتُ طوال فترة عملي خادمةً مختلف أعمال التنظيم والفرز، الكثير من الأغراض

في المرائب التي توزع استعدادًا لإقامة معارض البيع، أو بغرض التخَفُّف من تراكم الأشياء. ولكن هذا لم يكن المخطط نفسه، بل كان مخططًا للحياة الآخرة؛ كانت ويندي تخزن الأشياء وتنظمها كي يحصل عليها أقاربها بعد موتها.

لستُ متأكدةً إن كانت ويندي تعرف الوقت المُتبقي من حياتها، ولكنها -في حالة كانت تعرف- لم تخبرني قط. وحده العمل الإضافي الذي كلفتني به خلال شهر يوليو كان ما مَكَّنَني من النجاة من النفقات غير المتوقعة التي نتجت عن الانتقال وإصلاح السيارة -الذي كَلَّفني ثلاثمئة دولار- وإلا كانت كانت الحياة ستطيح بي. اقتلعتُ الحشائش من فناء منزلها، ونَظَّمتُ الأكوام، ونظفتُ أنحاء من منزلها تنظيفًا دقيقًا حتى أزيح هذا العناء عن عائلتها. كانت ويندي في واقع الأمر ستطلبُ مني عمل كل تلك المهمات. أُعجِبتُ بها، وبقدر غرابة هذا، تمنيتُ أن أشعر بالسكينة نفسها في نهاية حياتي؛ أنظمُ أشيائي في أكوامٍ بهدوء بدلًا من السعي جاهدةً للتكفير عن ذنوبي، أو شطب أمنياتٍ أودُّ تحقيقها من القائمة.

قضيتُ معظم إجازة الرابع من يوليو[1] في باحة منزلها، أقتَلِعُ الحشائش من أحواض أزهارها وأسفل شُجَيراتها دائمة الخضرة. مَرَّتْ فترةٌ طويلة منذ أن قُمتُ بهذا النوع من الأعمال، ونسيتُ مدى محبتي للعمل في الهواء الطلق. كنتُ أقضي معظم الأيام أعملُ داخل منازل مكتظة وفارغة من سُكَّانها، والمدفأة أو مكيِّفُ الهواء مغلقان.

حارَبتُ في منزلي العفن الأسود حثيث الانتشار. أصبحت النواحي التي ننامُ فيها -بجدرانها المكونة من نوافذ شاسعة- مثل غرفة الساونا في شمس المساء، أما في حال أمطَرَتْ، فقد كانت تشبه دفيئات النباتات. كان نوم ميا

---

[1]- عطلة رسمية في الولايات المتحدة احتفالًا بيوم إعلان الاستقلال. (المترجمة)

شبه مستحيل، ميا التي تغرق في النوم في أي مكان، حتى وسط الألعاب النارية. مَرَّ ترافيس بنا لزيارة ميا ذات مساء. بعد أن تحدَّثنا عن درجة الحرارة المرتفعة، غادر فجأةً إلى شاحنته، وعاد بعد نصف ساعة ومعه مكيف هواء رَكَّبَه في نافذتنا. ضبطه على أعلى درجة تبريد، فحشرنا أنا وميا وجهينا في الهواء البارد. شعرتُ أنه باهظ الثمن، أنه من الكماليات. قررتُ أنني سأستخدمه حين نصل إلى المنزل فقط، أو قبل أن ننام مباشرةً حتى يبرِّد الغرفة قليلًا كي لا ترتفع فاتورة الكهرباء كثيرًا. أقلقني أنني شعرتُ بالهواء رطبًا. كل شيءٍ بدا كأنه يُفاقِمُ نمو العفن الأسود على حواف النوافذ أحاطتْ بنا خلال نومنا.

كنتُ أتنفسُ ملء رئتي خارج المنزل. أنصتُ -خلال عملي- لجلبة الحي بدلًا من الموسيقى الآي بود. خلال يوم الرابع من يوليو ذاك، أطلق الكثير من جيران ويندي المفرقعات، أو خرجوا لشيِّ اللحم في باحات منازلهم. كانت تصل إليَّ نفحات شرائح اللحم أو الهامبرجر بين حينٍ وآخر فيسيل لعابي في فمي. تخيَّلتُ الخس الطازج، وشرائح الطعام والجبن، والكاتشب، والمايونيز؛ كلها أُضيفَت بغزارة، ثمَّ أبتلعهم جميعًا مع زجاجة بيرة. تخيَّلتُ وأنا أسفل الشجرة أطفالًا يتجولون في الحي، يركضون في أنحائه مع الألعاب النارية التي يتطاير منها الشرر. في ذلك اليوم كانت ميا مع جايمي، تمنيتُ وقتها أنها وسط حفل شواءٍ مع أبيها، ويحيط بها الأطفال من سنها. تمنيتُ أن ترى الألعاب النارية تلك الليلة.

كانت ويندي تكتبُ لي الشيكات بيدٍ مرتجفة، وتصرُّ على أن أتقاضى أجري العادي حتى على استراحات الغداء. كانت تقول: «وقتكِ قيِّم». ثم تناولني الشيك المزين بأزهار وردية جوار اسمها وعنوانها.

بعد شهرين، ألغَتْ ويندي مواعيد النظافة. أخبَرَتني عبر الهاتف: «إنني لا أستطيعُ تحمُّل تكلفتها بعد الآن». سمعتُ ندمًا في صوتها الواهن.

لا أعرفُ متى تُوفيتْ، ولكن تساءلتُ إن كانت فارقت الحياة عقب انقطاع زياراتي بفترةٍ قصيرة. خطرتْ ببالي كثيرًا محادثاتنا خلال تناول الغداء والقهوة، حين تظل أعواد الجزر أمامها دون أن تلمسها، وعلى الأغلب كانت تضعُ طبقها من أجل العرض فقط، كي لا تأكل إحدانا بمفردها، حتى وإن لم تشتهِ الطعام. لم تُذَكِّرني ذكرى تلك الأمسية مع ويندي بأن وقتي ثمينٌ فحسب، بل -رغم أن وظيفتي كانت تنظيف المرحاض وجمع أغلفة الحلوى من بين أشجار العرعر في باحتها- فإنني شخصيًّا ثمينة.

ضَجَّتْ نهايات الأسبوع الخالية من العمل أو ميا بالصمت. ولأن منحة بيل جرانت كانت بالكاد تُغطي رسوم العام الدراسي العادي، لم أستطع أن أدفع الرسوم الصيفية بسبب الإيجار، لذا لم يكن لديَّ فروضٌ دراسية أنجزها، ولا باحة أتسكَّعُ فيها، ولا مال أنفقه على شرابٍ مع أحد الأصدقاء. حتى قيادة السيارة إلى سياتل أو بيلينجهام كانت ستكلفُ مالًا كثيرًا، لذا آثرتُ البقاء في المنزل.

حاولتُ أن أذهب إلى الحديقة كي أقرأ كتابًا بينما أجلسُ على مفرشٍ فوق العشب، ولكن كنتُ أغلي حقدًا على العائلات والأزواج الذين يتناولون غداءهم من صناديق التنزه، أو من الآباء الذين يلعبون مع اطفالهم بينما تجلسُ الأمهات في الظل مع الرُضَّع الصغار.

تحوَّل شراء الطعام وتحضيره وتناوله إلى عملٍ روتيني يخلو من أي متعة، إذ إن نظامي الغذائي افتقر إلى التنوع. كنت أعدُّ كميةً كبيرة من البطاطس المهروسة -حين أستطيعُ شراءها- أيام الأحد، وأشكلها في فطائر صغيرة لقليها دون زبدة، ثم أضع عليها بيضةً للإفطار، أو للوجبات الخفيفة بعد العمل. تناولتُ كمياتٍ هائلة من معكرونة توب رامين سريعة التحضير، بجانب ألواح البروتين وشطائر المربى وزبدة الفول السوداني. تعلَّمتُ كيف أعِدُّ صلصتي الخاصة من خل الأرز وصلصة سريراتشا وصلصة الصويا، وقليلٍ من السكر وزيت السمسم. كانت أسعار الصلصات المبدئية مكلفة، تقريبًا عشرين دولارًا، ولكنني لم أستطع أن أتحمل مذاق أكياس النكهات الجاهزة. كانت

تلك الأوعية الكبيرة من معكرونة توب رامين والصلصة هي طريقتي لإعداد عشاءٍ فاخر. كنت أعدُّ الملفوف أو البروكلي أو البصل -أو أي ما أجدُ عليه خصمًا- بطريقة السوتيه، وأضيفه أعلاها مع البيض المسلوق مع قطعٍ من اللحم المُعَلَّب الذي أجده في التصفيات. أصبح الطعام الطازج نوعًا من أطايب الطعام النادر. كنتُ أشتري الخضراوات التي بدولارٍ واحدٍ للباوند أو أقل في أول الشهر فقط.

أيًّا كان السبب -سواء أكان أن شهية ميا صارت مفتوحةً أكثر من أيام مرضها من الحضانة أو بسبب أنني أعدُّ لها فطورًا ووجبات خفيفة وغداء، أو أنها كانت تمرُّ بمرحلة طفرة النمو- كنا نتبضعُ في رحلة التسوق الثانية في الشهر أقل القليل من الطعام الذي يملأ بطنَينا ولا يرضيهما أبدًا. وقتها كنتُ أشتري الخبز والمقرمشات الأرخص ثمنًا، والمربى التي كنتُ أعرف أنها ملأى بالسكر والمكونات المُصَنَّعة وشراب الذرة عالي الفركتوز ولا شيء آخر، كنتُ أطعمه مضطرةً ابنتي التي تمر بمراحل النمو، كذلك وجبات العشاء المُعَلَّبة الرخيصة أو المُحَضَّرة سابقًا. مَرَّت عدة أسابيع عجزتُ فيها عن شراء القهوة. استبدلت بها الشاي الأسود وبَكَيتُ. رغم معرفتي بأن القهوة متاحة، لم أذهب مطلقًا إلى بنك الطعام أو مطاعم الفقراء. كانت اختياراتنا محدودة، ولكننا لم نتضور جوعًا؛ لذا لم أقوَ على إجبار نفسي كي أذهب إليها. شعرتُ دومًا أن هناك أناسًا أسوأ حظًّا مني، وفي حاجةٍ ماسة إلى تلك الأماكن.

لحسن الحظ لم تلاحظ ميا، لأنني كنتُ دومًا أقلل من الكميات التي أتناولها. ولكن ذات مساء، حين ذهبت لأقِلَّها من منزل والدها، قَضَتْ نحو عشرين دقيقة تتحدثُ عن حفل عيد ميلاد دُعِيَت إليه. ليس بسبب الأصدقاء أو الألعاب، بل بسبب الطعام. ظَلَّتْ تقول: «كان لديهم الكثير من التوت يا ماما! وفراولة، وعليق، وتوت كثير كثير، وتركوني آكل قدر ما أريد!». بَحَثتُ تلك الليلة -بعد أن نامَتْ- عن أي صور من الحفل نشرها أصدقاؤنا في بورت تاونسِند، ووجدتُ بعضًا منها. لم تظهر ميا في أيٍّ منها، ولكن رأيتُ التوت. كانت الطاولة مغطاةً بأوانٍ وأطباق ملآنة بها. فَهِمتُ حماس ميا الجم؛ كانت

عبوة صغيرة من التوت بخمسة دولارات بمكانة هديةٍ مميزةٍ للغاية من وجهة نظرها، وكانت تلتهمها عادةً في غضون لحظات.

عَرضَ عليَّ قلةٌ من العملاء أن أؤدي عملًا إضافيًّا خلال ذلك الشهر، ونِلتُ اهتمامًا مستمرًّا من إعلانٍ نشرته في موقع كريجزليست، كتبتُ فيه:

«أعملُ عاملة نظافة محترفة مدة خمس وعشرين ساعة أسبوعيًّا، ولكنها لا تكفي لسداد الفواتير».

بدت معظم الإعلانات المنافسة الأخرى كتبتها عائلاتٌ تمتلكُ شاحنة وتعرضُ خدمات التخلُّص من فوضى الفرز ونقلها إلى مكبِّ النفايات. قِلَّة قليلة كانت أعمالًا تُشبه ما تُديره جيني؛ شركة مُرَخَّصَة ومؤمَّنة مع عددٍ محدود من الموظفين لتولي المهمات الكبيرة. ظننتُ آنذاك أن إعلاني لن يصمد، ولن يدرَّ عليّ دخلًا إضافيًّا، ولكن كانت تصل إليَّ نحو خمسة اتصالات كلما نشرتُ صيغةً مختلفةً منه.

وظفتني امرأةٌ قصيرةٌ مشرقة العينين اسمها شارون كي أنظف شقةً تؤجرها قبل أن ينتقل إليها المستأجر الجديد. كانت قذرة، ولكنها ليست في حالة بشعة. وخلال معاينة المكان، أفصَحَتْ لي أنها لم توظف عاملة نظافة من قبل. أرادَتْ أن أنظف الفرن والثلاجة وأترك الستائر. حاولتُ تقدير مدة ساعات العمل، ولكني سِرتُ في الجولة وميا تتأرجحُ على خصري، لذا كان من الصعب أن أمعن النظر كما ينبغي.

خَمَّنتُ وميا تشتتني: «أربع أو خمس ساعات؟»، لم تنفك عن محاولة التقاط شيءٍ ما من المنضدة.

قالت شارون ونحن نقف في الردهة: «فِعلًا؟ حَسِبتُ أنني سأعطيكِ مئة دولار». ثم ناولتني رزمةً من المال. نظرتُ إليها لحظةً وتعبيرٌ جامد يكسو وجهي، مترددةً حيال ما عليَّ فعله. كان مبلغًا لا يُضاهي أي مبلغٍ أخذته في

مهمات النظافة الفردية. قالت: «لقد أعجبني إعلانكِ. إنني أتذكَّر هذا الوضع؛ معاناة أن تعتمد حياة شخصٍ آخر عليكِ». نَظَرَتْ إلى ميا، التي ارتَبَكَتْ من تلاقي العيون فدَسَّت رأسها في كتفي.

قلتُ: «شكرًا لكِ. لن أخيب ظنكِ». حاولتُ كبحَ شعور أنني أهربُ من جريمةٍ ارتكبتها.

بعدما ثَبَّتُّ ميا في مقعد السيارة بحزام الأمان، جلستُ خلف المقود أحَدِّقُ إلى لوحة العَدَّادات. قُلتُ لنفسي: «إنني أنجح! أنجَحُ بلا ذرة شك!» التَفَتُّ لأنظر إلى ميا، وشعرتُ بقلبي ينتفخ. لقد خضنا الكثير معًا، ومع ذلك ما زِلتُ متمكنةً من النجاة بحياتنا. سألتها: «هل تريدين هابي ميل؟»، كان في جيبي رزمة منتفخة من النقود وكبريائي متضخمة في صدري. تهلل وجه ميا ورَفَعَتْ ذراعيها. ثم صَرَخَتْ من المقعد الخلفي: «هييييييه!»، ضَحِكتُ، ورمشتُ بعيني لأمنع دموعي من الانهمار، ثم صرختُ مثلها من السرور.

14

منزل النباتات

رَنَّ المنبه للمرة الثالثة قبل موعدنا بثلاثين دقيقة لنكون في مكتب الاختصاصي الذي سيُجري عملية تركيب الأنابيب في أذن ميا. أشاروا عليَّ بأن أحممها ذاك الصباح وأُلبِسَها ملابس مريحة. ولكن بدلًا من ذلك، حاولتُ الاتصال بالمكتب لإلغاء الموعد. كان رأس ميا وصدرها مُغَطَّيين بمخاطٍ أخضر سميك. تقيأتِ البارحة أيضًا، ومرةً أخرى هذا الصباح على الأرض. مُحالٌ أن يُجروا العملية الجراحية وهي مريضةٌ إلى هذا الحد. رغم ذلك أعددتُ كل شيء؛ جَهَّزتها ووصلنا إلى المكتب في الموعد المحدد.

شَعرَتْ ميا نوعًا ما بما يجري. كنتُ قد أخبرتها بأن الطبيب في حاجة إلى فحص أذنها مرةً أخرى، ولكن لم أستطع الوجود معها في الغرفة تلك المرة. زرنا الطبيب عدة مرات بسبب أذنها، وقابلنا الاختصاصي مرةً واحدة ليقرر إن كانت مُرَشَّحَةً مناسبةً للعملية. تمركز هلعي حول التخدير أكثر من العملية ذاتها.

أخبرني الاختصاصي: «لقد رَكَّبتُ أنابيب في أذن ابني، وسأولي ابنتكِ العناية نفسها بالضبط».

حين وصلنا إلى المكتب في الثامنة صباحًا، أوصلونا إلى غرفة جهزوا فيها رداء العمليات وقبعة لتغطي شعرها وجوربين، وحقيبةً لملابس ميا. اضطربت معدتي أكثر وأكثر مع كل ممرضةٍ تأتي لطرح الأسئلة. ظَلَّتْ ميا جامدةً وصامتة لا تنظر إلى أحد مباشرة، بينما يزنونها ويقيسون درجة حرارتها ومستويات الأكسجين ويضعون السماعة على صدرها، حتى حين التقطوا صورتها بكاميرا فورية.

قلتُ لأول ممرضة: «إنها مريضةٌ للغاية». أومأتْ إيماءةً خفيفة. قلتُ للثانية: «تعاني زُكامًا حادًّا، وتسعل سعالًا مع بلغم أخضر. أظنه التهابًا. سيفحصها الاختصاصي ليرى إن كانت في حاجةٍ إلى عملية اللحمية، لن يُجريها. سيفحصها فحسب».

أَتَتْ ممرضة أكبر سِنًّا، كانت بيضاء البشرة وداكنة الشعر، ويدها باردةٌ حَدَّ أن ميا جفلتْ حين كانت تسمعُ نبض قلبها. سألَتْ إن كان لدينا جهاز لترطيب هواء المنزل.

هَزَزتُ رأسي وأنا أفكر في الماء المُتكاثِف على نوافذ منزلنا من الداخل، وطبقات العفن الأسود التي نظفتها حين انتقلنا إلى المنزل، والتي عادَتْ بعد المطر. بدأتُ أجيبها: «لا أستطيعُ...»

ولكنها قاطعتني وهي تكتبُ شيئًا ما في مخطط ميا: «حَسنًا، عليكِ أن تجلبي واحدًا اليوم».

- أنا... (نظرتُ إلى الأرض) ليس معي ثمنه.

انتَصَبَتْ الممرضة في وقفتها، ثم زَمَّت شفتيها وعَقَدَتْ ذراعيها موجهةً نظرها إلى ميا وليس إلي.

- أين أجدادها؟ أليس لها أجداد؟ إن كانت حفيدتي كُنتُ سأعرض شراء أجهزةٍ كهذه لها.

حاوَلتُ أن أشرح بسرعة: «لا تقدر عائلتي على المساعدة في هذه الأمور». شعرتُ أنني أفصح عن معلوماتٍ أكثر من اللازم لتلك المرأة الغريبة. «حتى والدي وزوجته لا يستطيعان أيضًا. تعيشُ أمي في أوروبا، وتقول إنها لا تستطيع المساعدة، ولكن أبي لا يملك نقودًا فعلًا».

قرقعتِ الممرضة بلسانها. ظَلَّتْ عينا ميا مصوبتين إلى يدها، التي ثنتها ووضعتها بين ساقيها. كانت تشعر بالبرد، أو تريد أن تتبول. هَزَّت رأسها رافضةً كلما سألتها. قالت المرأة: «لا أعرف كيف لجدةٍ أن تعيش بعيدًا عن حفيدتها». ثم نظرتْ مباشرةً إلى عيني بطريقةٍ جعلتني أشعر أن عليَّ أن أجيبها، ولكن هَمَسَتْ ميا في أذني.

قالت: «أريد الحَمَّام». فاحت رائحة الالتهاب المميزة في أنفاسها، كانت تختلفُ عن رائحتها المعتادة.

وجهتنا الممرضة بالإشارة إلى آخر الممر قبل أن تغادر الغرفة. حملتُ ميا وأجلستها على المرحاض. ثَنَتْ نفسها بالكامل. تَسَطَّح صدرها على ساقيها، وتقيَّأتْ كتلةً كبيرةً من المخاط الأخضر. كانت إحدى الممرضات تقفُ أمام غرفتنا تسألُ موظفة الاستقبال عن مكان ذهابنا. لَوَّحتُ إليها لأُريها ما حدث. أرَدتُ أن أقول لها: «ها هو ذا الدليل؛ ابنتي مريضة ولا ينبغي لها أن تُجري العملية».

قالت الممرضة: «سأتولى الأمر، عودي إلى الغرفة».

جلسنا هناك خمس دقائق لا أكثر، أو المدة التي استغرَقتُها حتى فاض بي الكيل وقررتُ أن أُلبِسَ ميا ملابسها.

سَمِعنا طرقًا على الباب، ثم دخل الاختصاصي. دخل دون أن يُلقي علينا التحية -لم يفعل هذا قط- وجلس على الكرسي في إنهاك. جلسنا ننظرُ إلى بعضنا بعضًا عدة لحظات وهو يتفحصنا. قال: «القلق هو ما يُفاقِمُ مرضها على الأرجح. إن كُنتِ قلقةً فهي قلقة أيضًا».

تمتمتُ: «لا أحظى برفاهية الوقت كي أقلق».

أسنَدَ ظهره إلى المقعد وعقد ذراعيه، ثم نهض.

- إن لم ترغبي في أن نجري العملية فلا بأس في هذا. ستوفرين وقتي بلا شك.

قُلتُ بحاجبين متغضِّنَين: «لا!»، تساءلتُ إن كان سيتحدث معي بتلك الطريقة لو كان زوجي يقف جواري، أو كان تأمين ميا الصحي ليس «ميدك آيد». «لم أقل هذا قط. لقد كانت متعبة. وهي متعبة الآن. وظننتُ أن مرضها سيعوق إجراء العملية. لا أعرفُ أساسًا لِمَ أتيتُ إلى هنا. إنني مرهقة ولا أستطيعُ التفكير في الأمر».

قال: «ستُساعدها العملية. إنني أحاول مساعدتها».

أومأتُ.

حاولتُ ألَّا أبكي رغم الإحباط الذي تملكني، تجاهلتُ رغبتي المُلِحَّة في الانهيار أرضًا والبكاء بين رُكبَتَيَّ، أن أستسلم وأخضع لصعوبة المناورة بين رعاية طفلةٍ مريضة والقتال في ساحة حرب كي أدفع الإيجار من وظيفةٍ لا عوائد منها على الإطلاق، وظيفة إنْ لم أحضر في موعدها المحدد بالثانية سأفقدها تمامًا. لَستُ أقصد أنني توقعت أيًّا من هذه الأشياء. أتت قلة العوائد ببساطة من منطقة الوظائف التي تدفع الحَدَّ الأدنى من الأجور تقريبًا. ينبغي أن يُستَثنى أولئك الذين يعملون لرعاية أشخاص آخرين. قُلتُ وأنا أنظرُ إلى ميا وذراعي ملتفة حول كتفيها، مُدرِكةً أن عليَّ إطلاق سراحها لتذهب معه: «إنني أثقُ بك».

أتَتْ ممرضةٌ جديدة لتأخذ ميا إلى غرفة العمليات. دَخَلَتْ أخرى الغرفة تحمل بعض أوراق التعليمات لرعاية ميا خلال الأسبوعين المُقبِلَين.

سألتني: «أنتِ ابنةُ دان وكارين، صحيح؟» أومأتُ. «هذا ما ظَنَنتُه حين رأيتكِ! يا إلهي، ميا صورةٌ طبق الأصل منكِ. تُشبهكِ بالضبط وأنتِ صغيرة». حَثَّتها الحيرة على وجهي أن تُعَرِّفَ نفسها. كانت زوجة المحامي الذي تولى الدعوى القضائية لحادث سيارة وقعَ حين كنتُ في السادسة عشرة من عمري. «ولكنني أعرفُ أبويكِ منذ بدآ ارتياد كنيسة بثاني گڤنْنت، وكنتِ ما تزالين في حفاضكِ».

ذَكَّرني «الحفاض» بقصةٍ حكتها لي أمي دومًا عن المرة التي هَرَعَا فيها إلى الكنسية صباح يوم أحد، ووصلا بعد بداية الوعظ. ناولني أبي إلى أمي، فلَمَسَتْ يدها مؤخرتي العارية. كُنتُ لم أبلغ السنتين من عمري بعد، وكانا في الحادية والعشرين من عمرهما. نسيا أن يُلبساني حفاضًا وسط عَجَلَتِهما لمغادرة المنزل، ولم يكن معهما واحدٌ احتياطي. تساءلتُ إن كانت الممرضة قد رأتهما. تساءلتُ كذلك إن كانت قد ساعدتهما.

أمضى حديثها الخفيف الوقتَ الذي قضته ميا في غرفة العمليات. قرأتُ مقالاتٍ كثيرة على الإنترنت عَمَّا نتوقعه حين يفيق الأطفال الصغار من التخدير، ولكن لم أكن مستعدةً لهذا نفسيًّا. كان التشتيت لطيفًا؛ أن يظل أحدهم بصحبتي، يذكِّرني بأن أتنفس. خطر ببالي احتمال فقدان طفلتي، أو ألا تفيق من التخدير، أو وقوع أي خطأ، كان عليَّ تشتيت تلك الأفكار لأظلَّ متماسكة، إن لم يكن من أجلي أنا فمن أجلها هي. لسنا في حاجة إلى توترٍ إضافي.

عادَتْ ميا إلى الغرفة في التاسعة صباحًا، نائمةً على نَقَّالةٍ بعجلات وفمها محشوٌّ بشاشٍ قطني. كان وجهها غارقًا في الدموع وأحمرَ من الغضب، عيناها تنظران إلى كل اتجاهٍ حولها، جاحظتين ومرتعبتين كأنهما عاجزتان عن الرؤية. دفعوا النقَّالة بجانب السرير في الغرفة حتى تتمكَّن من الانتقال بينهما.

انحنيتُ فوقها ووضعتُ يدي على ظهرها ثم هَمَستُ في أذنها. لم أعرف مقدار ما ستسمعه مما سأقول، تساءلتُ إن كانت أذنها ملتهبة، وما الذي فعلوه فيها، وأي خوفٍ انتابها وهي هناك وحدها ودون أن أمسك بيدها.

- لا بأس يا حلوتي، لا بأس.

لوتْ ميا جسدها بأكمله وهي مستلقيةٌ على جانبها ومتصلبة تمامًا، ثم بدأت تتلوَّى وتتبرَّم، وتسحبُ الشريط اللاصق الذي يثبتُ الإبر في ذراعيها. منعتها أنا والممرضة قدر استطاعتنا. نَهَضَتْ ميا وجثتْ على كفيها وركبتيها، تحاول بصق الضمادة من فمها، ثم وقفتْ على ركبتيها. مَدَّتْ ذراعيها نحوي، والأنابيب المتصلة بيدها ترتفعُ معها. أومأتُ إلى الممرضة فأومأت إلي، لتأذن لي بأن أحيط ابنتي بذراعي وأحملها كي أضعها في حضني وأتمكَّن من تهدئتها. أرجَحتُها من جانبٍ إلى آخر، وكَرَّرتُ وعدي لها بأن كل شيءٍ سيصبحُ بخير.

تَمتَمَتْ لي: «أريد عصيرًا». ثم تَهاوَتْ عليَّ من جهد الكلام، والألم الذي تَطَلَّبَه تشكيل تلك الكلمات ولفظها. سمعتها تئن. ناولتني الممرضة كوبًا، وجَلَسَتْ ميا فشربت نصفه، ثمَّ كَوَّرَتْ جسدها بين ذراعي من جديد.

في غضون ساعة كنتُ أقف في موقف السيارات مع ميا، التي ارتَدَتْ ملابسها لكن ما تزال متشبثةً بي، وليستْ متأهبةً للجلوس في مقعد السيارة كي نقطع مسافة عدة أحياء سكنية ونصل إلى منزلنا. هرعوا لإخراجنا من المستشفى، وأقرضونا جهاز ترطيب الهواء على شكل ميكي ماوس. قالت الممرضة بعد أن وضعته على غطاء السيارة: «نعم، نحنُ ننجز الأشياء هنا بسرعة». وقفتُ على حالي تلك في موقف السيارات خمس عشرة دقيقةً أخرى، أحمل ابنتي وأحدِّقُ إلى المبنى وأشعر بوحدةٍ غامرةٍ لم أشعر بها من قبل. لقد اجتزنا ذاك الصباح بنجاح، ونَجَتْ ميا من العملية، ولكن في تلك اللحظة بالتحديد، شعرتُ أن السواد شملني. لم تكن تلك لحظة قوةٍ أو احتفالٍ بما أنجزنا؛ كانت أشبه بالغرق في عمقٍ جديدٍ من الوحدة، وعليَّ الآن أن أتعلم كيف أتنفسُ داخله. كان عالمًا جديدًا، فيه سأصحو وفيه سأنام.

كانت صاحبة منزل النباتات تُحَرِّكُ كل شيءٍ من مكانه قبل أن أبدأ تنظيف منزلها أيام الاثنين. لمَّتِ السجاد، ورفعتِ المجلات على المقاعد، وكَوَّمَت الكتب ومعدات التمرين والأحذية على السرير. كانت أكثر عميلةٍ صارمة ومحددة في تعليماتها أن أنظف تنظيفًا دقيقًا كل الأرضيات والحمام والمطبخ، وأفحص حواف النوافذ وإطارَاتِها بحثًا عن العفن الأسود.

كان ابن صاحبَي منزل النباتات قد غادر العش. بدا أن غرفة الابن لم تتغير منذ رحيله عن المنزل. تراصَّتْ جوائزه على رفٍّ خلف سريره. وضعوا فيها مكتبًا، وفوقه آلة أورج كهربائي ضخم، حيثُ تُعَلِّم الزوجة عزف البيانو. تساءلتُ إن كان استخدامه أسهل من البيانو القائم جوار الباب الرئيسي. كان الزوج قِسًّا تقريبًا، أو يشغل وظيفةً ما في الكنيسة. عُلِّقَت على جدرانهم الصلوات في إطارات بدلًا من الصور.

كانت السيدة ترعى نباتاتٍ ضخمة محمولةً على عجلات، كنتُ أجُرُّها وأكنسُ وأمسح من تحتها. وضعتْ عند كل نافذة في الصالة خمسًا من نباتات العنكبوت، إمَّا تستَنِدُ على الحافة وإما تتدلى من السقف. قبعت الصبارات في أُصُص قُرب نباتات العنكبوت، وعلَّقتِ النبات المتسلِّق حول أحبال الستائر. تسللتُ وقصصتُ برعمين صغيرين من نبات العنكبوت وأخذتهما إلى منزلي لأضعهما في أصيص. أردتُ أن يحيطني اخضرار النباتات، والحياة أيضًا، ولكن لم أقدر على شراء الشتلات من المتجر.

خلا الحمام من النباتات، ولكن حَلَّ محلها العفن. وقفتُ على حافة حوض الاستحمام لأنظف زاوية التقاء الجدار السقف. كانت الزوجة تطوي ستائر الحمام وترفعها على العمود، وتزيل السجاد والمناشف وتضعها في الغَسَّالة. وحين أصل أنا، أجدُ الحمام عاريًا ومقفرًا وأبيضَ. كنتُ أغلقُ مرطب الهواء الذي تستخدمه لتنقية الهواء، فأسمع صدى حركاتي. كنتُ أحبُّ أن أغني في الحمام بصوتي فيترددُ صداه على الجدران.

حين كنتُ طفلة، شاركتُ في المدرسة في الكورال الاستعراضي والمسرحيات التمثيلية في الخريف، والغنائية في الربيع. لم أغَنِّ وحدي مطلقًا، ولكن كنتُ أحب المسرح. كنتُ أنسجمُ أنا وأصدقائي في الغناء ونحنُ نسير في الشارع. منحتني المنازل الفارغة تلك المساحة لأعاود الغناء دون الخوف من أن يسمعني أحد. كنتُ أصدح بأغنيات آديل، وفرقة تيجان وسارا، وفرقة وايد سبريد بانيك.

يوم الاثنين ذاك، بعد عملية ميا، وقفتُ في حمام منزل النباتات وغنيتُ بصخب. صوتي جهورٌ ومدوٍّ، غنيتُ حتى بكيت، وعجزتُ عن التوقف.

مَسَحتُ جدران الحمام مرةً أخيرة كي أجففها، وملأت الدموع عيني، فوضعتُ يدي على وجهي لأمنعها من الانهمار. ضَغَطتُ بكفَّيَّ على عيني وأنا أصدر نحيبًا مهتزًّا. طأطأتُ رأسي إلى ركبتي وتذكرتُ كيف سارعوا في طردنا من غرفة الإفاقة. فور أن شَرِبَتْ ميا قليلًا من العصير وذَهَبَتْ إلى الحمام لتقضي حاجتها، كان علينا أن نرحل على الفور. لم أستطع حتى أن أجلس معها في غرفة الانتظار. ولكني لم أكن مستعدةً لتركها من بين ذراعي؛ كنتُ عاجزةً عن قيادة السيارة وتثبيت عيني على الطريق. استندتُ على السيارة، كانت دافئةً من شمس الصباح، وتركتُ جسدها ينحني على جسدي كيفما تشاء. شعرتُ بصندلها الوردي عليَّ، حَرَّكتُ يدي وضَغَطتُ على بطن ساقها، ثم وركها، ثم أحطتها بكلتا ذراعي ودفنتُ وجهي في رقبتها. كنتُ موجودةً جسدًا وروحًا من أجل ميا، ولكنني كنتُ في حاجة إلى شخصٍ يمسك بيدي، إلى أن يكون معي. أحيانًا تحتاج الأمهات إلى حنو الأمهات.

لم ترني ميا أبكي إلا فيما ندر. البكاء اعترافٌ بالهزيمة، يُشعِرُني بأن جسدي وعقلي استسلما. كنتُ أخاف أن أعجز عن التوقف عن البكاء، أن ألهث كي ألتقط أنفاسي. كنتُ أخاف من الطريقة التي يخدعني بها عقلي ليدفعني نحو التفكير في أنني قد أموت. كان البكاء على هذا النحو في ذاك الحمام شعورًا مماثلًا، كأنني فقدتُ نفسي بطريقةٍ عصيَّةٍ على السيطرة لكن ضرورية لتحرير جسدي. ومع كل تلك الأحداث التي تدور حولي وأعجز عن السيطرة عليها،

كان بإمكاني -في أسوأ الظروف- أن أتحَكَّم في رد فعلي حيالها. إن بَكَيتُ في كل مرةٍ حدث شيءٌ قاسٍ أو مروع فلن تكون لي حيلة سوى البكاء طوال الوقت.

تغيَّر شيءٌ وأنا على حافة الاستسلام يأسًا. ضَمَّتني جدران منزل النباتات؛ شعرتُ بالأمان. تحدَّث ذلك المنزل إليَّ. لقد رآني أفتشُ في سجل هاتفه بحثًا عن كنائس قد تُساعدني في تسديد الإيجار بعد أن عرفتُ أن قوائم الانتظار لبرنامج القطاع الثامن تصل إلى خمس سنوات. عرفني هذا المنزل وعرفته. عَرَفتُ أن صاحبته كانت تعاني من التهابات الجيوب الأنفية بشكلٍ متواصل، وأنها تُخَزِّنُ وصفات علاجية منزلية، وأنها تتمرنُ في غرفتها على تمارين رياضية قديمة مُسَجَّلَة من الثمانينيات. كان المنزل شاهدًا على اتصالاتي اليائسة بالموظفين الاجتماعيين، أسألهم إن كنتُ قد أتأهل بأي طريقةٍ للحصول على الإعانة المالية. تشاجرتُ مع جايمي بضراوة بينما كنت أنظفُ مطبخ هذا المنزل. نظفتُ صالته بأكملها ومكالمتي مُعَلَّقة، في انتظار تجديد القسائم الغذائية. دقائق معدودات كنتُ في حماية جدران منزل النباتات وأنا جاثيةٌ في حوض الاستحمام، وطمأنَتني بصَمتِها الرواقي.

15

منزل الطاهي

حين عِشنا في ملجأ المشردين، جلستُ ذات ليلةٍ أتناول الطعام بعد وقتٍ طويل من نوم ميا. وبينما الليل يمتدُّ أمامي، بنيتُ في خيالي صورةً لحياتنا السعيدة. سيكون فيها فناء شاسع من العشب الريان المشذب، وشجرة تتدلى من أغصانها أرجوحة. لن يكون منزلنا كبيرًا للغاية، بل سيكون كبيرًا بما يكفي لتركض ميا في أرجائه، مع كلبٍ ربما، وستبني قِلَاعًا أسفل الأثاث. لن تحظى ميا بغرفتها الخاصة فحسب، بل بحمامٍ خاص أيضًا. وربما سيكون فيه غرفة محترمة للضيوف، أو غرفة أخصصها للكتابة. سيكون به أريكة حقيقية، ومقاعد توائمها في الألوان، ومرأب. ظننتُ أننا سنعيش في سعادةٍ إن امتلكنا تلك الأشياء.

امتلك معظم عملائي تلك الأشياء -الأشياء التي تَلَهَّفتُ لأحظى بها في تلك الليالي المعتمة التي جلستُ فيها وحدي- ولم يبدُ لي أنهم يستمتعون بحياتهم أكثر مني. عَمِلَ معظمهم ساعاتٍ طويلة، بعيدًا عن البيوت التي ذاقوا الأمرَّين لدفع ثمنها، وكانوا يسافرون مسافاتٍ أطول مما أسافر. بدأتُ أُولِي الأشياء المكتظَّة في خزانات مطابخهم اهتمامًا: إيصالات شراء سجاد بنفس سعر

سيارتي، فاتورة المغسلة التي قد تساعدني في استبدال نصف ملابسي. على النقيض من هذا، كنتُ أقَسِّم راتب عملي بالساعة إلى زياداتٍ مدتها خمس عشرة دقيقة لأحسب مقدار الجهد البدني المبذول لدفع ثمن الوقود. قضيتُ معظم الأيام ساعةً كاملةً على الأقل لجني مال الوقود الذي يوصلني إلى العمل من الأساس. ولكن عملائي كانوا يعملون ساعاتٍ طويلة لدفع ثمن سياراتٍ فارهة وقوارب، وأرائك يغطونها بالمفارش.

كانوا يعملون ليدفعوا لقاء خدمات كلاسيك كلين -التي تدفعُ لي ما يزيد على الحد الأدنى بأقل القليل- ليحافظوا على كل أغراضهم لامعةً ومُرَتَّبةً ومقبولة. وبينما دفعوا لقاء عملي وكأنني جنيةٌ سحريةٌ، لم أكن على تلك الشاكلة قط، بل كنتُ أجوب منازلهم مثل شبح؛ وجهي شاحبٌ من قلة التعرض للشمس، وتُحيط عيني هالاتٌ سوداء من قلة النوم. كان شعري متشابكًا عادةً من قلة غسيله، أربطه على هيئة ذيل حصان، أو أجمعه وأغطيه أسفل وشاحٍ أو قبعة. كنتُ أرتدي بناطيل كارهارت متعددة الجيوب حتى تتضح الشقوق على ركبتي بما يكفي لتطلب مني المديرة استبدالها. وفَّرَتْ لي وظيفتي مالًا قليلًا لأنفقه على الملابس، حتى إنْ كانت ملابس العمل. كنتُ أعمل في مرضي، وتركتُ ابنتي في الحضانة بينما كان الأجدر أن تكون في بيتها. لم يوفر لي العمل أي إجازات مرضية، ولا عطلات، ولا علاوات، ورغم كل هذا كنتُ أتوسل لأحصل على المزيد منه. كان من النادر أن أنجح في تعويض ما أخسره من النقود في الأعمال الضائعة، وإنْ ضَيَّعتُ الكثير كُنتُ سأُطرَدُ منه. كان اعتمادي على سيارتي مسألة حياةٍ أو موت؛ بوسع الخرطوم المقطوع أو منظم الحرارة المختل أو حتى الإطار المثقوب أن يُلقي بنا إلى التشرد، يجرنا جَرًّا إليه، يهوي بنا ويرسلنا إليه مترنحين. ولكننا عِشنَا، ونَجَونا، في تَقَلقُلٍ حَذِر. كان هذا وجودي الخفي عن كل عين بينما كنتُ أُلَمِّع حيوات الآخرين لتكون مثالية.

كان في منزل الطاهي جناحان: غرفة نوم للضيوف ومكتب في أحد الأطراف، وحمامٌ كبير ذو ردهةٍ تؤدي إلى مرأب حَوَّله إلى مخزن ترك فيه الكلبان -من

سلالة ويستمنستر تيرير- بِرَكًا من البول. كانا يذهبان مع السيد لوند أو زوجته إلى العمل في الأيام التي أنَظِّفُ فيها. ذات مرة لم ألحظ أن أحدهما تغوط جوار طاولة المائدة، ودُستُ عليه خطأً. صَرَختُ، السجادة كريمية اللون، فاتحة، شبه بيضاء. مستحيلٌ أن أنجح في إزالة بُقَعِ الغائط.

قابَلتُ صاحب منزل الطاهي مرةً واحدةً خلال الأشهر الستة التي قضيتها أعمل في تنظيفه مدة ثلاث ساعاتٍ كل خميس. كان منزل الطاهي واحدًا من عملاء بام الأساسيين. اعتادَتْ تنظيفه أسبوعيًّا مدة ساعتين، مهارة فشلتُ فيها نظرًا إلى ضخامة المنزل. كنتُ أعمل بأقصى جهد في ذاك المنزل، وأنهَمِكُ في العمل انهماكًا يمنعني حتى من مراسلة شخصٍ ما أو استقبال مكالمة؛ خوفًا من ألاَّ أنتهي من تنظيفه في الموعد المقرر. وطبعًا لم أستطع أن أبطئ من وتيرة العمل بفرك لطخات الغائط بُنيَّة اللون.

كان لديَّ موعدٌ لتنظيف منزلٍ آخر في اليوم نفسه -منزل السيدة المدخنة- وكان هذا يستغرق ثلاث ساعاتٍ أيضًا، وعشرين دقيقة كي أصل إليه. كان جدول العمل المزدحم عادةً مَهرَبًا بشكلٍ ما. أكون ثلاث ساعات أو أربعًا -أو ستًّا أحيانًا- في حركةٍ لا تنقطع؛ من أيسر سطح المنضدة حتى الأيمن، تلميع الحوض، مسح الأرضية، نفض الغبار، تنظيف البقع التي يُخَلِّفها الكلاب على الأبواب الزجاجية، كنس الردهات والصالات، دعك المراحيض، مسح المرايا دون التوقف لحظةً لأرى انعكاسي فيها، تجاهل العضلات المتألمة التي يزداد ألمها شيئًا فشيئًا خلال اليوم وتنبض وجعًا أحيانًا أو أشعر بوخزٍ في أطرافي.

بعد أسابيع من تكرار الحركات نفسها -من بدايتها إلى نهايتها، في المدة نفسها وبالطريقة نفسها كل أسبوع- توقف عقلي عن التفكير فيما سيفعله تاليًا. تحولت الحركة إلى روتين ثابت، تلقائي. أصبحت عضلاتي قويةً ومُدَرَّبة. كانت الحركة وروتين المنزل بمكانة راحةٍ ضرورية يشردُ فيها ذهني حين كانت حياتي تتكون من قرارٍ صعب تلو آخر أصعب منه. أظن أنني في مهربي كنتُ شاردة العقل أكثر من اللازم حَدَّ أن المطاف انتهى بي واقفةً في الخراء.

حَسَدتُ منزل الطاهي، إطلالته، وفناءه، وأشجاره التي طرحتْ تفاحًا تَعَفَّن بين العشب قبل أن يقصَّه البستاني. أردتُ شرفته الخلفية بأثاثها الخشبي اللامع ووسائدها الكستنائية. تخيَّلتُ الأَمسية الكسولة التي يقضيانها في إجازات نهاية الأسبوع، الجمبري على الشواية والنبيذ الوردي في أكواب فارعة، يرتشفانه أسفل المظلة المُقَلَّمة المنصوبة بجانب المنزل. بدا حلمًا، وهذا الشخصان -برَدهاتهما المصفوفة بلوحات باريسية المشاهد- يتسنى لهما أن يعيشاه كل يوم.

كانت خزانات مطبخهما تكتظُّ بالطعام، وعُلب الكعك الفاخر المصطفة بانتظام تُسيلُ لعابي. كان لا مثيل للزينة التي يضعانها في الكريسماس، حَدَّ أنني توقفتُ عن العمل لأتفحص زينة شجرتهما. كانا يملكان بطاقة كل سنة من سلسلة بطاقات هولمارك المُسَمَّاة «فروستي فريندز»، كنتُ أجمعها أنا وأمي خلال السنوات التي عِشنَاها في ألاسكا. منحتني إياها أمي جميعًا بعد الطلاق، ولكن ضاع نصفها تقريبًا بين كل تلك التنقلات. حين رأيتُ بطاقة عام ١٩٨٥ –أول كريسماس أقضيه في ألاسكا- أمسكتها بحذرٍ بالغ وأنا أتذكَّر أمي وهي تفكُّ غلاف الزورق الأحمر الذي حمل على متنه طفلًا من قبائل الإسكيمو وكلبًا ثم جعلتني أعَلِّقه على الشجرة. لم يكن الكريسماس سيحلُّ قبل نصف عام من ذاك الوقت، فأدرَكتُ أنني لَستُ واثقةً إن كنتُ سأستطيع شراء شجرة بهذا الحجم أعَلِّقُ عليها الزينة، أو أن أجد لها متسعًا في الاستوديو الصغير. قَضَتْ ميا الكريسماس عادةً في منزل جايمي، بما أنها تقضي معي عيد الشكر دومًا. تمنيتُ لها من كل قلبي أن تعيش حياةً تُعَلَّقُ فيها الزينة نفسها عامًا تلو عام. كانت تقاليد عائلتي على قدرٍ كبيرٍ من التفاهة، لم ألحظها وأنا طفلة، والآن غَدَتْ هي جُلَّ ما أريدُ في حياتي.

ضاع ثلثُ الوقت الذي قضيته في منزل الطاهي على الأرضيات. أحيانًا كنتُ أسير إلى سيارتي وأنا محدودبة الظهر وأضع يدي على العضلات السفلية

قُربَ عمودي الفقري. لم يكن الألم غريبًا عليَّ، ولكن خلَّف الانحناء ساعاتٍ خلال التنظيف ضررًا لا يمكن إصلاحه. انحنى عمودي الفقري مثل علامة استفهام؛ أطاح بي في غرفة الطوارئ عدة مرات. كان عليَّ توخي الحذر كي لا أثير استياءه، وكنتُ أتناول جرعات من ٨٠٠ مليجرام من الإيبوبروفين على مدار الساعة كلما أثَرتُ غضبه. كان أحدث أخطائي التي ارتكبتها في العمل هو الانحناء قليلًا لأمسك بحافة الأريكة كي أدفعها قرب الحائط. شعرتُ أنها في ثقل سيارتي. فرقعت عضلات ظهري التي كانت متأهبةً لرفع شيءٍ خفيف كأنها ربطةٌ مطاطية حَرَّرَها أحدٌ وعلقت. قَضَيتُ أيامًا أكزُّ على أسناني خلال تشنجاته، ويطير النوم من عيني من شدة الألم. لم أُطِق مُسَكِّنات الألم، لأنها تُثير غثياني وتصيبني بالدوار كأنني شبه ثملة.

حين رأيتُ خزانات الأدوية في منزل الطاهي ملآنةً بالكثير من علب كبيرة من الهيدروكودون[١]، كنتُ على شفا الاستسلام لإغراء أخذ القليل منها. تناثَرَتْ علب الأدوية على مناضد الحمام وفي خزانات الأدوية في معظم البيوت التي نظفتها، ولكن انتشرت في ذاك المنزل بالتحديد علبٌ عملاقة في كل غرفة تقريبًا، أراها تنفد في غضون الأسبوعين الفاصلين بين مواعيد التنظيف.

لم أتناقش مع لوني قط حول الأسرار التي تكشفها المنازل الفارغة. يتناول معظم عملائي المنوِّمات، وأدوية الاكتئاب والقلق، أو مُسَكِّنات الألم. ربما لأن العملاء يصلون بسهولةٍ إلى الأطباء أو برامج التأمين الصحي التي توفر الأدوية والوصفات الطبية بسخاءٍ كبير؛ ربما خلقت سهولة الوصول إلى الرعاية الطبية شعورًا بأن الأدوية الحَلُّ الطبيعي. رغم أنني تَمَكَّنتُ من توفير تأمين صحي لميا، كنتُ أجني مالًا كثيرًا لا يؤهلني لتلقي تأمين «ميدك آيد»، لذا لم أتمكَّن من استشارة أي طبيب عن آلام ظهري المزمنة، أو التهابات الجيوب الأنفية المتفاقمة والسعال. لحسن الحظ ميا كانت مؤمَّنَة دومًا، لذا

1- مُسَكِّن للألم يحتوي على الأفيون. (المترجمة)

لم أقلق حيالها قط، وكانت عملية التقديم بسيطة، لأنني كنتُ أملأ المستندات نفسها التي أقَدِّمها للحصول على القسائم الغذائية. كان مُحالًا أن أتمكَّن من دفع ثمن الفحص الدوري والتطعيمات، ناهيك بالعملية التي أجْرَتها، ولكن تساءلتُ كثيرًا إن كانت ستتغير معاملة الأطباء والممرضين لنا -بعد الاطلاع على تأميني الصحي- لأن تأمينها من «ميدك آيد».

رغم أنني كنتُ سأستفيدُ استفادةً بالغة من العناية الدورية أو العلاج الطبيعي، أو حتى التواصل مع طبيب أمراض النساء، لم أكن لأقدر قط على تَحَمُّل تكلفتهم بنفسي. عِشتُ في حذرٍ من إيذاء نفسي، أو السقوط فريسةً للمرض، وحَاوَلتُ مُسايَرَة آلامي بنفسي. ولكن الفيتامينات وأدوية البرد والأنفلونزا التي لا يستلزم صرفها

وصفةً طبية، وحتى أدوية تايلينول أو الإيبوبروفين كانت تكلفُ مبالغ باهظة، أو لا تتناسب مع ميزانيتي التي كنتُ أحاول الاقتصاد فيها بالفعل. كان العيش مع المرض والألم جزءًا من حياتي اليومية، جزءًا من الاستنزاف. ولكن لِمَ عانى عملائي من تلك المشكلات؟ تصوَّرتُ أن الطعام الصحي واشتراكات الصالات الرياضية والأطباء وكل ما شابه سيُبقي الإنسان مُعافًى سليمًا. ربما نال التعب من حياتهم بسبب إجهاد مواكبة منزل من طابقين مع زيجةٍ سيئة، والحفاظ على وهم العظمة بطرقٍ تشابه إنهاك الفقر في حياتي.

فَتَحتُ نوافذ السيارة كلها وأنا في طريقي إلى منزل السيدة المُدَخِّنة. كانت درجة الحرارة تصل تقريبًا إلى ٨٠ درجة فهرنهايت، يعني أن الجوَّ في غرفة نومنا سيصل إلى ٩٠ درجة حين نصل إلى المنزل. تفصد جسدي عرقًا. اتَّجَهَتْ معظم نوافذ المنزل شمالًا، لذا سيكون الجو ألطف هناك، ولكنها تغلقها جميعًا فيثير غثياني اختناقه الممتزج بدخان السجائر العالق والشموع المعطرة. حين دخلتُ المنزل، ذهبتُ لأضع الملف على المنضدة التي تضعُ عليها هاتفها اللاسلكي بجانب دفتر مواعيدها، الذي احتوى على مواعيد جلسات العناية بالبشرة والتدليك في منتجعٍ صحيّ، ولاحَظتُ أنها تَرَكَتْ لي ملاحظة، كُتِبَ فيها: «شعرتُ أنكِ ستحبين شمعةً جميلة الرائحة تُشعِلِينها

في منزلك!». أمسَكتُ العلبة الفضية الصغيرة وفتحتها، فرأيتُ شمعًا برتقالي اللون له رائحة الخوخ الناضج -رائحتي المفضلة-. ابتَسَمتْ وشَمَمتُ الشمعة مرةً ثانية، ثم وضعتُها في حقيبتي قبل أن أتصل لتسجيل حضوري.

كانت السيدة المُدَخِّنة لُغزًا. حدث لقاؤنا الوجيز الأول حين دخلتُ مطبخها فجأةً قبل موعد وصولي بساعتين. هَرَعَتْ من المكان فورًا قبل أن نتمكن حتى من تبادل أي شكلٍ من أشكال التحية، ولكن حَظيتُ بوقتٍ كافٍ لألمح أن شعرها ومكياجها كانا مثاليين، فأرضَيتُ أحد مواطن فضولي. كنتُ دائمًا أرى أكياسًا جديدة من أدوات التجميل، أو الكريمات المضادة لتجاعيد البشرة، أو علبةً صغيرةً مجهولة في حمامها. كانت تصل فاتورة كل منتج إلى خمسين دولارًا على الأقل، ولكن لم أرَ قط أثرًا لعُلبٍ فارغة أو حتى مستخدمة. كانت تحظى بين أسبوعٍ وآخر بجلسة تدليك وجلسة تجميل، ومانيكير وباديكير، وتساءلتُ إنْ كانت تلك منتجات أقنعها أحدهم بشرائها ولكنها لم تكن بالضرورة المنتجات المهتمة باستخدامها. أثبَتَ مظهرها أن العكس صحيح؛ لم تَشُبها شائبة حتى في ظهيرة يوم خميسٍ عادي.

جاوَرَ منزلها ملعبَ جولف، وبدا أن الجولف هوايةٌ كَرَّسَتْ لها وقتًا طويلًا. في خزانة الطابق السُفلي، فوق الغَسَّالة والمجفف، وُضِعَتْ سِجِلَّات الأداء والنتائج في إطارات، كذلك صورةٌ للسيدة المُدَخِّنة تقفُ جوار تايجر وودز. كانت ترتدي قميصًا أبيض يتماشى مع سروالها القصير الأبيض المكوي، وتجمع شعرها فوق رأسها، وتفصل بينه وبين وجهها قبعة الجولف. كنتُ أشعر أن الطابق السُفلي عالقٌ في الزمن. شعرتُ وأنا أكنسه بالمكنسة الكهربائية كأنني عُدتُ إلى حقبة أواخر الثمانينيات أو أوائل التسعينيات؛ بأثاثها القديم وسجادها السميك الأبيض. كان ديكور غرفة نوم الضيوف مُستوحًى من الإوز الكندي، وأقسمُ إنه كان شبيهًا بالغرفة التي كبرتُ فيها. في غرفة المكتب طاولةٌ عريضةٌ من الخشب الحُبَيبي، وجهاز رَكضٍ عتيق في مواجهة تلفاز ومسجل فيديو قديم مثل الذي في منزلي.

أجرَتْ بعض التعديلات في الطابق العلوي؛ أضافت أرضية خشبية ومناضد سيراميكية جديدة وثلاجة من الحديد المقاوم للصدأ، والتي امتلأت حسب ظني بالمياه المعدنية والخس.

كان الأثاث عصريًّا ورقيقًا، وأدرَكتُ من كمِّ الغبار المتراكم عليه أنه لم يُمَس، طمعتُ في كارديجان بلون الكشمير يقبع في خزانتها؛ كل مرةٍ كنستُ المكان هناك كنتُ أتوقف أمامها وأفتحُها وأرتديه وأضع قلنسوته على رأسي. يغطي كُمَّاه كفيَّ فأتلمَّسُ وجهي بنعومته.

كان صَعبًا أن أحدد إنْ كان المنزل بأكمله يُستَخدَم من الأساس، عدا الحمام الصغير المُلحَق بغرفة النوم الرئيسية وحمام الضيوف المجاور للمطبخ. كنتُ دائمًا أمتَعِضُ وأنا أرفع مقاعد المراحيض لأنظف الوعاء، لأنني أجد أسفل الحافة مُلَطَّخًا بالقيء دومًا.

بعد عدة زياراتٍ لمنزلها بدأتُ أُكَوِّن تصورًا عن الوقت الذي تقضيه في منزلها. امتَلَكَ زوجها شركة مقاولات وأدارها، ووقع مقرها خارج المدينة على مسافة ساعة على الأقل. كنا في عام ٢٠١٠ آنذاك وأعمال البناء ما تزال متعطِّلة. مُحتَمَلٌ أنهما شعرا بالقلق حيال أمان حياتهما، مُتَسائلَين عَمَّا سيحدث مستقبلًا. كان منزلهما يبدو دومًا في حالة تأهب لإقامة حفل عشاء بسبب الشموع المزيفة المُضاءة ومفارش المائدة، ولكن كنتُ أعرفُ من طبقة الغبار التي تغطي الطاولات والمقاعد أن الأمسيات مع الأصدقاء والطعام الفاخر لا تحدثُ إلا فيما ندر. كانت تُزجي معظم وقتها في منزلها بالجلوس على مقعد البار المقابل للموقد.

احتوى الموقد على منفذ لهواء المروحة من الخلف، على مقربةٍ منها، وكان عادةً مُغطًّى برماد السجائر. بجانبها كان تلفازٌ صغير وسجل المواعيد والهاتف اللاسلكي وقليلٌ من فُتَات الطعام على الأرض.

وضعت أعلى الرف -جوار طاولة المائدة- فَوَّاحات شمعية ومعطرات للجو أصابتني رائحتها بالصداع. تركتْ مرةً ولاعة داخل دفتر مواعيدها، ولكن عدا منفضة السجائر النظيفة التي عثرتُ عليها أسفل الحوض، لم يكن هناك أي دليلٍ آخر على أنها تدخن السجائر. ثم حدث ذات يوم وأنا في طريقي إلى مغادرة المنزل عبر المرأب أنْ لاحَظتُ ثلاجةً هناك. فَتَحتُها، فرأيتُ كراتين مُكَدَّسَة من سجائر فيرجينيا سليمز. حَدَّقتُ إليها ثم ابتَسَمتُ في رضا؛ حَلَلتُ اللغز.

كان بوسعي تَخيُّلُها؛ ذقنها يستريحُ على يدها، وتدهسُ السيجارة وتنفخُ نفسًا دخانيًّا بعناية داخل مروحة الموقد، ثم تنهضُ وتنفشُ شعرها قليلًا. تُفَرِّغُ المنفضة في المرأب قبل أن تغمرها بالمياه وتمسحها حتى تنظف. تساءلتُ إنْ كانت تحمل السجائر معها دومًا في حقيبتها أم أنها تدخنها في منزلها، في تلك البقعة بالضبط من المطبخ فحسب. كُنتُ أدخن، ولكن على نحوٍ متقطع، فلم أُلقِ بالًا إنْ كانت بدورها تُدَخِّن. كان تَكَتُّمُها هو ما أذهَلَني؛ مقدار الجهد الذي بَذَلَته لتظهر مثاليةً ونقية.

16

منزل دونا

خلال الصيف، لاقت فكرة إجراء تحاليل تعاطي المخدرات لمتلقي الإعانات الحكومية رواجًا هائلًا، إذ إن الملايين لجؤوا إليها بعد الركود الاقتصادي. تسبَّبَت زيادة أعداد دافعي الضرائب المكافحين من الطبقة الوسطى الذين عَبَّروا عن غضبهم حيال ظلم تلقي البعض المساعدات الحكومية في إشعال التوترات بين أولئك الذين يتلقّون الإعانات قبل الركود ويشترون طعامهم بالقسائم الغذائية، وأولئك الذين لم يتأهلوا للقبول في تلك البرامج. وصمَت المطالبة بإجراء تحليل مخدرات لمتلقِّي المعونة منَّا بوصمٍ جديد، وحاكَتْ قصةً جديدة لأولئك الذين نستغلهم ونسلبُ أموالهم من الحكومة بسبب كسلنا واحتمالية إدماننا. قارنتِ «الميمز» على الإنترنت متلقي القسائم الغذائية بالحيوانات الضارية. كان في إحدى الصور دبٌّ يجلسُ على طاولةٍ في متنزه، وكُتِبَ جواره:

«دَرسُنا اليوم عن السخرية. من دواعي سرور برنامج القسائم الغذائية -جزء من وزارة الزراعة- أن يوزِّعَ أكبر عددٍ من قسائم الغذاء على الإطلاق. بينما

تطلبُ منا إدارة المتنزهات -التي هي أيضًا تابعةٌ لوزارة الزراعة- أن نمتنع عن إطعام الحيوانات لأنها ستصبحُ متواكلةً ولن تتعلم رعاية نفسها بنفسها!».

انتشر «ميمٌ» آخر رُسِمَ فيه حذاء العُمَّال، وكُتِبَ عليه: «إنْ كان عليَّ إجراء تحليل مخدرات لأعمل، فعليكَ أن تجري واحدًا لتتلقى الصدقة!». كُتِبَ على آخر: «إنْ كان معك المال لشراء المخدرات والكحول والسجائر، إذن فلا حاجة لك بقسائم الغذاء». كانت إحدى صديقاتي تعمل في متجر بقالة، وبدأت تنشر منشوراتٍ تحكي فيها ما يشتريه الناس بالقسائم سخريةً منهم: «فنيانز؟ بالقسائم الغذائية؟ مع الصودا؟»، شَجَّعَتْ أصدقاءها على السخرية مما يملك الفقراء ثمنه بشق الأنفس.

سَجَّلَتْ نحو سبعة وأربعين مليون عائلة في برامج المعونات الحكومية معي تلك السنة. كان استخدام بطاقات إي. بي. تي التي توزِّعها وزارة الصحة والخدمات البشرية -المستخدمة كقسائم غذائية أو إعانة مالية- منظرًا شائعًا أمام المحاسبين في المتاجر. كانت مطاعم البيتزا تقبل بطاقات إي. بي. تي، ولكن نَدُرَ أن أنفَقتُ حصتي عليها. أصبحت ماونت ڤيرنون -أكبر مدينة في مقاطعة سكاجيت بسكانها الآلاف الثلاثة والثلاثين- موطنًا للكثير من العمال المهاجرين خلال موسم الزراعة، وقرر عددٌ كبير من العائلات أن يقيم فيها طوال السنة. ولكن انكشف تَعَصُّب السكان مع زيادة أعداد المهاجرين.

بدا أن ذلك أثار استياء دونا. كنتُ اعتمدتُ اعتمادًا هائلًا على الدولارات العشرين في الساعة مع عشرة الإكرامية التي تتركها لي دومًا، ولكن مسافة الذهاب والعودة من منزلها تُضيعُ عليَّ ساعةً كاملة من يوم عملي. كنتُ أجدها في المنزل عند وصولي أحيانًا. ذات يوم كانت في طريقها إلى المتجر لتشتري مكونات العصير بما أنها كانت قد ابتاعَتْ خلاطًا مميزًا منذ فترة. قالت في حماسٍ بالغ: «سأتحول إلى امرأةٍ جديدة. ولكن سأشتري الأغراض من الجمعية التعاونية، سَئمتُ المحال الكبيرة».

سألتُها باهتمامٍ مزيف: «حقًّا؟».

كانت دونا تحبُّ استخدام زيوت ماري كاي التي تتركُ طبقةً خفيفةً بجانب حوض الاستحمام مثل شريطٍ لاصق، فتتجمع عليها كل شعرةٍ وكل قطعة جلدٍ ميتة تسقطُ من جسدها. كان تبادل الحديث معها صعبًا دون أن تومض ببالي صور منه. لم أعرف قط إنْ كانت تنتظر مني أن أتوقف عن العمل وأتحدث معها أم أستمر في التنظيف وأتحدث مع المرأة التي عليَّ إزالة شعر جسدها من حوض استحمامها البيضاوي.

قالت: «آخر مرةٍ ذهبتُ فيها إلى المتجر وَقَفتُ في الصف خلف عائلةٍ مكسيكية! كانوا يدفعون ثمن مشترياتهم بالقسائم الغذائية، وكانت ملابس أولئك الأطفال أحسن مني!».

واصَلتُ مسح حافة النافذة في غرفة الجلوس الملآنة بتماثيل صغيرة من الملائكة تضُمُّ أيديها في وضعية الدعاء. كان كلامها حادًّا. عَضَضتُ طرف لساني؛ خطر ببالي مقدار الحب الذي تكنُّه ميا لفساتينها الجميلة وأحذيتها اللامعة التي اشتريتُها لها من متجرٍ يبيع البضائع المستعملة. ربما لم تعرف دونا أنني أعيشُ على القسائم الغذائية كذلك.

أردتُ أن أخبر دونا أن مشتريات تلك العائلة أو ملابسها ليست من شأنها في شيء، وأنني أكره اللحظة التي يسألني فيها المحاسب بصوتٍ عالٍ: «ستدفعين ببطاقة إي. بي. تي؟»»، فيسمعُ من يقف خلفي في الصف. أردتُ أن أقول لها إن الأشخاص الذي لا يحملون وثائق الإقامة لا يتلقون المعونات الغذائية ولا المستردات الضريبية رغم أنهم يدفعون الضرائب مثلهم مثل غيرهم، ولكن ليس في وسعهم تلقِّي أي فوائد حكومية تمامًا. تُتَاح تلك لمن وُلِدوا هنا، أو من حصلوا على وثائق تسمح لهم بالبقاء. لذا فإن أولئك الأطفال -الذين خاطر آباؤهم أيَّما مخاطرة لمنحهم حياةً كريمة- كانوا مواطنين مُستَحِقِّين كل مساعدةٍ حكومية نفس استحقاق ابنتي. أعرفُ هذا لأني جلستُ جوارهم مراتٍ لا تُحصى في المكاتب الحكومية.

سَمِعتُ أحاديثهم مع الموظفين الجالسين خلف الزجاج، عاجزين عن التواصل عبر حاجز اللغة الفاصل بينهم. ولكن تلك العقليات التي تقول إن المهاجرين أتوا إلى بلادنا لسرقة مواردها كانت تنتشر؛ كانت وصمًا مشابهًا لما يواجهه أي شخص يعتمد على المساعدة الحكومية لينجو بحياته. أي شخص يستخدم القسائم الغذائية لم يبذل قصارى جهده في عمله، أو اتخذ قراراتٍ سيئة أودتْ بحياته إلى ذلك المستوى من الحضيض. ظن الناس فعلًا أننا نتعمدُ خداع النظام، نَسرِقُ المال الذي دفعوه ضرائبَ لننهبَ أموال الحكومة. بدا أن دافعي الضرائب -بمن فيهم عميلتي- يؤمنون إيمانًا راسخًا أن مالهم يُطعِمُ الفقراء الكَسالى.

غادَرَتْ دونا إلى متجر البقالة دون وعيٍ بما سَبَّبَتْه كلماتها من انفعالٍ بداخلي. أشعرني التسوق لشراء أغراض البقالة بضآلةٍ مُضاعَفَة بعد تلك المحادثة. وإضافةً إلى ما يُنشَرُ على مواقع التواصل الاجتماعي، كنتُ متأكدةً أن الناس يترصدون كل حركاتي. قَلِقتُ من شراء أشياء تبدو لطيفةً أكثر من اللازم أو تافهة. وفي حالة احتَجتُ إلى أن أشتري بالقسائم الغذائية حلوى عيد الفصح أو شوكولاتة لأملأ بها جورب ميا في الكريسماس، كنتُ أذهبُ في وقتٍ متأخر من الليل، وأستخدم آلة الدفع الذاتي. توقفتُ -رغم حاجتي الماسة- عن شراء الحليب والجبن والبيض وزبدة الفول السوداني بواسطة قسائم ويك؛ كنتُ دومًا أفشل في اختيار الحجم، أو الشركة المطلوبة، أو نوع العصير الصحيح، أو الوزن المضبوط من الحبوب. كان لكل قسيمةٍ متطلباتٌ محددة لاستخداماتها، وكنتُ أكتمُ أنفاسي حين يسجل المحاسب القسيمة على آلة الدفع. كنتُ أخطئ بطريقةٍ أو بأخرى وأعوقُ الصَفَّ عن تقدمه. ربما حدثت مواقف مشابهة مع الآخرين؛ بما أن المحاسبين كانوا يُظهِرون انزعاجهم كلما رأوا شخصًا يضع قسيمةً من قسائم ويك كبيرة الحجم على سير البضائع المتحرِّك. حدث مرةً أن وقعتُ في موقفٍ بسبب سوء التفاهم مع المحاسب حَدَّ أن الزوجين العجوزين الواقفين خلفي استمَرَّا في التذمُّر والتأفُّف.

بل حتى الموظفة الاجتماعية المسؤولة عن حالتي في مكتب برنامج ويك أعَدَّتني نفسيًّا لهذا. كان البرنامج قد غيَّر حالة الحليب الصالح شراؤه بالقسائم من الحليب العضوي إلى غير العضوي، مُخَلِّفين فجوةً في ميزانيتي المخصصة للطعام لم أقدر على سدها. حاولتُ قدر المُستَطاع أن أجعل ميا تشرب حليبًا عضويًّا كامل الدسم فحسب. كان الحليب غير العضوي بنسبة دسم ٢٪ فقط ماءً ملونًا بالأبيض لا أكثر، ملآن بالسكر، والملح، والمضادات الحيوية، والهرمونات. تلك القسائم كانت فرصتي الأخيرة فترةً ما كي أوفر لها الطعام العضوي الوحيد الذي يدخل معدتها (بجانب علب المعكرونة بالجبن من شركة آني).

حين سَخِرتُ من خسارة الدعم لشراء حليب عضوي كامل الدسم، أومأت الموظفة وتنهدتْ. قالت: «لم يعد لدينا تمويل يكفي حاليًّا». فَهِمتُ نوعًا ما؛ سعر نصف جالون الحليب كان بأربعة دولاراتٍ تقريبًا. أردَفَتْ: «حتى إن معدلات السمنة ارتَفَعَتْ بين الأطفال، ويركز هذا البرنامج على توفير أفضل تغذيةٍ لهم».

سألتها: «ألا يدركون أن الحليب منزوع الدسم ملآن بالسكر؟» سَمَحتُ لميا بالتسلل من حضني كي تلعب بالألعاب في الزاوية.

أجابَتني بنبرةٍ متفائلة تتجاهل بها غضبي: «ولكنهم سيضيفون عشرة دولاراتٍ للمنتجات الزراعية! بإمكانكِ شراء أي خضارٍ أو فاكهة ترغبين فيها، عدا البطاطس».

- ولِمَ البطاطس بالتحديد؟

خَطَرتْ ببالي كميات البطاطس المهروسة الهائلة التي كنتُ أعدُّها لتكملة نظامي الغذائي.

قالت في حيرةٍ من أمرها مثلي: «يحبُّ الناس قَليَها، أو إضافة الكثير من الزبدة إليها. ولكن بإمكانك شراء البطاطا!»، قالت إنه عليَّ أن أشتري بقيمة عشرة دولارات بالضبط أو أقل، لا أتخطاها أبدًا، وإلا لن تُصرَف القسيمة. لن أحصل على باقي المال إن كانت مشترياتي أقل من عشرة دولارات، إذ لم يكن للقسائم قيمة نقدية فعلية.

ذهبتُ إلى المتجر ذاك اليوم، وكان آخر شهرٍ سيُصرَفُ فيه الحليب العضوي. أرَدتُ أن أشتري كل قطرةٍ أجدها.

قالت المُحاسِبَة: «لا ينطبق نوع الحليب هذا على قسائم ويك. وهكذا لن تسَجِّلَه الآلة». التَفَتَتْ إلى الشاب الذي يضع بقية مشترياتنا في الأكياس، كنتُ أعرف أنها ستطلبُ منه أن يجلب نوع الحليب الصحيح. يحدثُ معي هذا طوال الوقت وأنا أشتري البيض.

لم تكن القسائم منتهية الصلاحية، بل كان المتجر قد حَدَّثَ نظامه بالفعل. لو كان الوضع عاديًّا كنتُ سأنكمشُ خوفًا وأتسلَّم الحليب غير العضوي وأهرع للمغادرة، خاصةً أنه وقف خلفي زوجان عجوزان يهزَّان رأسيهما استياءً مني. ألقيتُ عليهما نظرةً خاطفةً مرةً ثانية؛ رأيتُ الرجل يقف بذراعين معقودتين ورأسٍ منحنٍ، يتفحص بنطالي مثقوب الركبتين. وكان في حذائي ثقبٌ على وشك الظهور عند الأصابع. تنَهَّدَ بصوتٍ عالٍ مرةً ثانية.

طَلَبتُ أن أتحدث مع المدير. عَلَا حاجبا المحاسبة وهي ترفعُ كتفيها بلا اكتراث، ثم رَفَعَتْ ذراعيها أمامي كأنني أصوب إلى وجهها سلاحًا كي تمنحني كل أموالها.

قالَتْ بهدوءٍ وبرود: «طبعًا». إنه صوت ممثل خدمة العملاء في مواجهة المتسوق العنيد. «سأحضِرُ لكِ المدير».

كنتُ أرى الموظفة المرتبكة تسير في ذيل المدير وهو قادمٌ نحوي، وجهها محمرٌّ وتلوِّحُ بغلظةٍ وتشير إليَّ لتشرح جانبها من القصة. اعتَذَرَ من فوره وألغى تسجيل القسيمة على آلة الدفع، ثم سَجَّلَ عبوة الحليب كاملة الدسم تحت بند حساب ويك ووضعها في كيس ثم تمنى لي يومًا طيبًا.

ارتَعَشَت يداي وأنا أدفعُ العربة. أومأ العجوز نحو مشترياتي وقال: «لا شكر على واجب!».

ثار غضبي. أردتُ أن أصرخ في وجهه: «شكرًا على ماذا؟»، على أنه انتظر بصبرٍ نافد يتذمَّر ويتبرم لزوجته؟ مُحالٌ أن يكون هذا السبب. بل كان بسبب أنني فقيرةٌ فقرًا مُدقِعًا وأتسوقُ في وضح النهار ولَستُ أكدح في العمل. لم يعرف أنني أخذتُ تلك الظهيرة إجازةً من أجل موعدي مع الموظفة في مكتب برنامج ويك، وضَيَّعتُ أجرًا قدره أربعون دولارًا لأنهم أرادوا قياس وزني أنا وميا. غادَرنَا المكتب وفي يدنا كُتَيِّبٌ من القسائم التي تعوضنا بنفس مبلغ الراتب الضائع، ولكن لن تعوضني عن العميل الساخط الذي عليَّ تحديد موعدٍ آخر معه، الذي على الأرجح سيستعين بعاملةٍ أخرى إن احتَجتُ إلى تغيير موعده مرةً أخرى، لأن عملي كان يَسْهُل استبداله إلى هذه الدرجة. ولكن كل ما فهمه أن أموال الحكومة هي التي دفعتْ ثمن تلك القسائم، الأموال التي يُساهم فيها شخصيًّا بالضرائب التي يدفعها. من وجهة نظره، يحقُّ له أن يشتري الحليب الفاخر الذي أصرَرتُ عليه، ولكنني كنتُ فقيرةً بوضوحٍ لا غبار عليه، لذا لا أستحقه.

هل عملائي أمثال دونا، أولئك الذين وضعوا ثقتهم فيَّ وائتَمَنوني على أسرارهم كأنني صديقتهم المقربة، أولئك الذي أهدوني كتب التلوين والألوان الشمعية من أجل ميا، سيفعلون مثل ذاك العجوز إن رأوني في المتجر؟ كيف سينظرون إلى خادمةٍ تعيشُ على القسائم الغذائية؟ هل سينظرون إليَّ على أنني عاملةٌ مُجِدَّة أم فاشلة؟ أصبَحتُ متيقظةً ومنتبهةً حيال تلك التفاصيل لدرجة أنني حاولتُ إخفاءها قدر الإمكان. كنتُ أتساءل فجأةً في وسط

أحاديثنا إن كانت صورتي ستهتز في عين الشخص الذي أمامي إن عَرَفَ أنني أعيشُ على القسائم الغذائية. هل سيفترضُ أن إمكاناتي أقل منه؟

وجدتُ نفسي أفكر في شعور أن يكون في حوزتي ما يكفي من المال لأوظفَ خادمةً تنظفُ منزلي. لم أتعرض لهذا الموقف من قبل قط، وفي الحقيقة راودتني الشكوك حيال إن كان سيمرُّ عليَّ يومٌ وأتعرضُ له. فَكَّرتُ أنه لو اضطررتُ إلى هذا يومًا ما فسأُكرِمُها بسخاء، وربما سأدعوها لتناول الطعام، أو أُهديها شمعًا طيبَ الرائحة كذلك. سأعاملها مثل ضيفة، وليس مثل شبح، كإنسانة. سأعاملها مثلما عاملتني ويندي، وهنري، ودونا، والسيدة المُدَخِّنة.

17

خلال ثلاث سنوات

على حدِّ علمي، استعانت واحدةٌ فقط من عميلاتي -صاحبة منزل المزرعة- بالكاميرات السرية. أخبَرَتني بذلك بطريقةٍ عادية غير مكترثةٍ تمامًا، فاجأتني. حاولتُ أن أومئ بجهدٍ جهيد، وكأن الكاميرات السرية شيء عادي. كان منزل المزرعة يتكوَّن من طابقين مفروشين بسجادٍ كُحلي يغطِّيه شَعرٌ أبيض يسقط من قططها وكلابها. وبالمثل كان سجاد السلم؛ كان الشعر يتكوَّم في زوايا وثنايا كل درجةٍ منه. أخبَرَتني لوني قبل أن أبدأ العمل بأنها جَرَّبَتْ كل عاملةٍ في الشركة في محاولةٍ لتَعثُرَ على عاملةٍ مناسبة لمنزل المزرعة؛ كنتُ فرصتهم الأخيرة لإبقاء تلك العميلة في الشركة.

لم يكن واضحًا ما تميَّزتُ فيه عن العاملات الأخريات، ولكن بما أنني لم أنَظِّف معهن إلا فيما نَدر، فلم أستطع عَقدَ مقارنةٍ بين مهاراتنا أو أخلاقيات عملنا. كنتُ خائفةً من أن يُقبَضَ عليَّ وأنا لا أعمل. علاوةً على ذلك، لم أنسَ قط حين قال لي جايمي في إحدى جدالاتنا الكثيرة: «إنكِ تتلكَّئين هنا طوال اليوم، لا تحركين ساكنًا سوى رعاية ميا، وحتى فواصل بلاط الحمام قذرة». لم أنسَ هذا الشعور قط. رغم أنني شعرتُ أنني فعلتُ كلَّ ما بوسعي، فإنني لم أفعل ما يكفي قط.

حملتُ معي بلا وعي الوصمة الاجتماعية لكوني أعيش معتمدةً على الإعانة الحكومية، تَضَخَّمَت بعد موقف الزوجين العجوزين في المتجر. شعرتُ أنني أرتدي درعًا حديديًّا أعجز عن خلعه، أو كأن أحدًا زرعَ بداخلي كاميراتٍ خَفيَّةً تراقبني طوال الوقت. لم يفترض الناس الذين أتحدَّثُ إليهم أنني أحتاج إلى القسائم الغذائية كي أظل على قيد الحياة إلا فيما ندر. كانوا دومًا يشيرون إليهم بـ «أولئك الناس» خلال حديثنا. ولكن «أولئك الناس» ليسوا أناسًا مثلي أبدًا. كانوا مهاجرين أو ملونين، أو البِيضَ الذين يُشارُ إليهم عادةً بالقمامة.

حين يفكر الناس في القسائم الغذائية لا يتخيلون شخصًا مثلي؛ امرأةً شاحبة الوجه وبيضاء. امرأةً تُشبِه الفتاة التي تَعَرَّفوا عليها في المدرسة الثانوية، تلك التي كانت هادئةً لكن لطيفة، امرأةً قد تكون جارتهم، امرأةً تُشبههم. ربما أربَكَهم هذا كثيرًا فيما يخص حياتهم. ربما رأوا فيَّ مدى هشاشة ظروفهم، أنهم -بخسارة وظيفةٍ واحدة أو بطلاقهم- قد ينتهي بهم المطاف إلى المستوى الذي أعيش فيه.

بدا أن بعض أفراد المجتمع يبحثون عن فرصٍ لانتقاد الفقراء وتوبيخهم على ما ظنوا أننا لا نستحقه. يرون شخصًا واحدًا يشتري لحومًا باهظة الثمن ببطائق إي. بي. تي فيستخدمونه دليلًا على نظريتهم بأن كل مستخدمي القسائم الغذائية يفعلون مثله. كان شخصٌ ما يتتَبَّعُ تحركاتي بلا شك. انتابني هذا الشعور أحيانًا حتى وأنا تحت سقف منزلي؛ مأمني المفترض. في حالة لم أكن أعمل أو أرعى ميا، كان لِزامًا عليَّ رعاية شيءٍ ما، أي شيء. شعرتُ أن جلوسي بلا عمل شيء يعني أنني لم أعمل كفاية، كأنني كنتُ الكسولة المتواكلة على الحكومة التي ظنَّها الناس. شعرتُ أن الوقت الذي أقضيه مُضَّطجعةً على الأريكة وأقرأ كتابًا هو تَرَفٌ مفرط؛ كأن تلك الراحة كانت مخصصةً حصرًا لطبقةٍ أخرى من الناس. كان عليَّ العمل دائمًا وأبدًا، عليَّ إثبات جدارتي لتلقِّي الإعانات الحكومية.

ولكن كنتُ من حينٍ إلى آخر أخرُجُ في مواعيد غرامية لأهرب. كنتُ أتصل بصاحبٍ قديم، أو أقابل شخصًا عرفته عبر الإنترنت، أو عَرَّفَتني عليه قريبتي جِين. خلال عدة ساعاتٍ مُربِكَة، أتمكَّن من العودة إلى المرأة التي كُنتُها خارج إطار الأمومة، خارج إطار الخدمة. شعرتُ كأنني أمَثِّل، بل كنتُ أمَثِّل على نفسي أكثر مما أمَثِّلُ على رفيق موعدي. كنتُ أدرك أن أيًّا من ذاك ليس حقيقيًّا. أتحدثُ عن الكتب والأفلام بطريقةٍ بَدَتْ غريبةً على أذني. أحيانًا، كانت تلك الحياة الأخرى الموازية هي ما أحتاج إليه بالضبط لأنفصل عن ذاتي نفسيًّا من حياتي الواقعية. ولكن سرعان ما فقدتِ المواعدةُ بريقَها وروحَ اللعب فيها، وفاقَمَتْ شعور وحدتي وعزلتي. كانت الرسائل والاتصالات المُتجاهَلَة تعني الرفض؛ إثباتًا أن أحدًا لن يحبني أبدًا. كَرِهتُ ذلك الاحتياج، وكنتُ أشعر أن الرجال يلحظونه، كأنَّه رائحةٌ نفاذة عالقة بجسدي. فَتَحَ الاختلاط بالآخرين كذلك بابَ التذكير المؤلم بأن معظم الناس يعيشون حياةً طبيعية. كان بوسعهم شراء تذاكر الحفلات وتناول الطعام في المطاعم والسفر دون أن يقضَّ النوم مضاجعهم. على الرغم من لمسات ميا وسحبها المستمر لي وتسلل يدها اللزجة لتُمسِكَ بيدي، كنتُ أتألَّمُ توقًا إلى الحنان، إلى اللمسات، إلى الحب. أردتُ أن أتحلَّى بالقوة وألا أحتاج إليه، ولكني كنتُ في حاجةٍ دائمةٍ إليه.

سِرتُ على حافة هوة اليأس العميقة. حَلَّ كل صباحٍ وأحضَرَ معه تَوَتُّرًا غزيرًا لا ينضب حيال النجاح في العمل والعودة إلى المنزل دون أن تتعطل السيارة. آلمني ظهري ألمًا مستمرًّا، كنتُ أُسْكِتُ تَقَلُّصات جوعي بالقهوة. شعرتُ أنه من المستحيل الخروج من تلك الحفرة. كان أملي الوحيد في الدراسة؛ التعليم هو رمز الحرية. عليه أن يكون كذلك، وإلا فقد كان استثمار الوقت الثمين الطويل فيه بلا فائدة. مثل السجين، أحصيتُ ما تبقى من الزمن كي أُكمِلَ ما يكفي من الساعات لأحصل على درجةٍ علمية، ثلاث سنواتٍ أخريات. كانت منحة «بيل جرانت» تُغَطِّي المصاريف الدراسية فقط دون الكتب إن طُلِبَت. كنتُ أحيانًا أدبر أموري بشراء نُسَخٍ مستعملة أو قديمة من أمازون. ستمُرُّ ثلاث سنواتٍ تملؤها الليالي المظلمة وإجازات نهاية الأسبوع تنقضي على

الكُتُب وكتابة التقارير وحَلِّ الامتحانات. كانت حياة العمل خادمةً -حياة الخنوع تلك- مؤقتة. كنتُ أبكي حتى أسقط في النوم في بعض الليالي، وعزائي الوحيد كان معرفة أن ما يحدث لن يكون نهاية قصتي.

لذا عزفتُ عن محاولة عيش حياةٍ اجتماعية، وملأتُ نهايات الأسابيع الشاغرة بالعمل. تسلَّمتُ عميلًا جديدًا؛ مهمة تستغرقُ أربع ساعات، ومسافة تبعدُ خمسًا وأربعين دقيقة في أيام السبت التي تقضيها ميا مع جايمي في بورت تاونسِند. ذاك المنزل أسمَيتُه «منزل نهاية الأسبوع». كان ساكنوه لا يغادرونه أبدًا، ولكن لم نعرف بعضنا بعضًا. عاش فيه زوجان شابَّان مع طفلهما البالغ من العمر أسابيع. كانت الجدة تسكن معهما لمساعدتهما، وكانت هدية رحيلها عاملة نظافة تنظفُ المنزل مرتين شهريًّا.

لم يرغبا في وجود عاملة النظافة في غيابهما عن المنزل، ولم أمانع هذا، ولكن كان صعبًا أن أنَظِّفَ حولهما وهما يُعِدَّان شطيرةً على منضدة المطبخ التي مَسَحتُها قبل ثوانٍ معدودة، أو أن يمشيا على الأرض قبل أن تجف. كانا يتحدَّثان مع أصدقائهما الذين أتوا لزيارتهما ليلعب أطفالهم معًا، ويقدمون لهم الطعام كأنني لَستُ موجودةً في المكان.

في المرة الثانية، تَرَجَّلتُ من السيارة ووجدتُ باب المنزل مغلقًا. طَرَقتُه عدة مرات، ثم نظرتُ عبر نافذة المرأب، كَوَّرتُ يدي على الزجاج النظيف على غير العادة، فرأيتُ المنزل فارغًا. رغم أنه كان صباح يوم السبت، هاتفتُ لوني.

قلتُ لها بنبرةٍ تشبه الصراخ: «إنهما ليسا في المنزل يا لوني». أظهرتُ غضبي من مدى سوء الموقف، وهو شيءٌ ندر أن فعلته. «ألَمْ يبلغاكِ بمكان المفتاح؟»

أجابت: «لا. أخبرتني الأم فقط أنهما سيكونان في المنزل دائمًا. سأتصل بهما وأرى. ربما يقضيان بعض المهمات وفي طريق عودتهما إلى المنزل».

حاولتُ ألاَّ أحسب تكاليف المسافة التي قطعتها إلى منزلهما لأنني أعرفُ أنني لن أتلقى تعويضًا، ولكن كنتُ أعرف دون الإسهاب في التفكير أن المبلغ سيكون نحو عشرة دولارات؛ أكثر مما أجنيه في الساعة دون خصم الضرائب وتكاليف غسل المناشف. حين اتَّصَلَتْ بي لوني وأخبَرَتني أنهما نسيا الموعد عَضَضتُ على شفتي في خيبة أمل وحاولتُ ألا أستَسلِمَ للبكاء.

سألتُها: «هل يُريدان أن آتي غدًا؟ في وسعي القدوم إن حَدَّدَا موعدًا مبكرًا».

قالَتْ لوني: «لا». سَمِعتُها تتنهد. «لقد ألغيا الحجز».

سَكَتُّ لحظة، فسألتني لوني إنْ كنتُ ما أزال معها على الخط. أجَبتُ: «نعم». سألتني إن كنتُ بخير، فقلتُ: «لا، لَستُ بخير. هل يمكنكِ أن تسألي بام لو يمكنني أن أحصل على ثمن الوقود فقط؟ لقد أضَعتُ ساعةً كاملة وثمن الوقود كي أصل إلى هنا. ليس لدي الكثير من هذا لأستغني عنه، أنتِ تعرفين». مَسَحتُ الدموع التي فَرَّت من عيني ورَكَضَتْ على وجهي وحاوَلتُ أن أكبح الرجفة في صوتي. قالت لوني إنها سترى ما في وسعها عمله، ولكن كنتُ بالفعل أسمعُ صوت بام تخبرني أن الركود الاقتصادي أدى إلى إبطاء سير العمل، وأنهم حذرون للغاية في التعامل مع أي نفقاتٍ إضافية. بدأتُ أندم على طلبي.

عُدتُ بعد أسبوعين لأنظف منزلهما ثانيةً. اقتَرَبَ الزوج مني وأنا أفَرِّغ أدواتي وأضعها أمام المنزل. قال: «إنني آسفٌ للغاية». أومأتُ وأنا أمسكُ بمنشفةٍ وأضعها في جيبي الخلفي. «لم نَعتَد قدوم أحدٍ ليُنَظِّفَ منزلنا».

قلتُ بينما أتناول البخاخ: «لا بأس».

مدَّ يده إلى جيبه الخلفي وسحب تذكرتين إلى مباراة بيسبول لفريق سياتل مارينرز: «تفضلي، هاتان تذكرتان المباراة التي ستُقَام مساء الغد». حاول أن يُعطيني إياهما. «عليكِ أخذهما».

رُسِمَ على التذاكر صور للاعبٍ يلقي برمياته، أو آخر ينزلقُ إلى القاعدة الثالثة. تذكرتان مميزتان، تذكرتان لمقعدين رائعَين. حضرتُ عدة مبارياتٍ وأنا طفلة خلال نهائيات عام ١٩٩٥، حين كان كين جريفي جونيور وإدجار مارتينيز وراندي جونسون ما يزالون في الفريق، ولكن لم أحضر مباراةً من وقتها.

وقفنا على البلاط الحجري في المدخل الذي طلبتْ والدته أن نلَمِّعه. أطلَعَتني بام سابقًا على كيفية تنظيفه، أضع ماكينة الصقل والتلميع في صندوق سيارتي.

ظَلَّتْ مكانها ثلاثة أسابيع، تحتلُّ نصف مساحة التخزين الخلفية في سيارتي السوبارو. كان واضحًا أنه لم يُرِدْ أن أفعل هذا ذاك اليوم أيضًا، بسبب الرجال الداخلين والخارجين لإعادة تبليط حمام المنزل. كنتُ متأكدةً من أنه لا يُدرِكُ مدى الضيق الذي يُسبِّبُه.

نَظَرتُ إلى التذكرتين مرةً ثانيةً. كان من المستحيل أن أتمكَّن من دفع ثمن الوقود وموقف السيارات الذي سيتطلبه الذهاب إلى المباراة وحضورها. رَفَعتُ نظري إلى وجهه المنهك المبتسم، وبطانية الرضيع الزرقاء مُلقاةٌ على كتفه كأنه لتوه انتهى من مساعدة طفله البالغ من العمر شهرًا على التجشؤ بعد الرضاعة. رأيتُ الإنهاك المألوف في عينيه. ربما يعيشُ تجربةً مختلفةً تمام الاختلاف عن تجربتي مع طفلٍ حديث الولادة -مع منزله الكبير والسيارات اللطيفة، وعددٍ كبير من الأراجيح والكراسي المهتزة، وحضور أقربائه جالبين معهم الطعام والأيدي المُساعِدَة- ولكن مهمات رعاية الأطفال عالمية؛ حاله كحالي تمامًا.

قلتُ: «لا بأس». حاولتُ أن أصدِّق قولي، حاولتُ ألَّا أغضب منه بعدها. «عليكَ أن تستخدم التذكرتين بنفسك، أو أن تعطيهما شخصًا في وسعه استخدامهما». أردتُ أن أخبره أنني لن أستطيع شراء الوقود لأذهب، ولكن قَلِقتُ أن يعرض عليَّ مالًا كذلك.

قال وهو يدفعُ التذكرتين نحوي مرةً ثانية: «بإمكانكِ بيعهما. أنا متأكدٌ أنهما ستباعان في غمضة عين على كريجزليست. إنهما لمقعدين في الصف الأمامي».

جَفَلتُ: «حقًّا؟»، مقعدان في الصفوف الأمامية لمباراة مارينرز؛ إنها فرصةٌ لأحقق حلمًا راودني منذُ كنت في عمر ميا. نظرتُ إليه من جديد. تساءلتُ إن كان من نوع الآباء الذين يستيقظون في منتصف الليل لتبديل حفاض طفلهم. النوع الذي يهزُّ الطفل في سريره في المطبخ بينما يُدفئ له رَضَّاعَتَه ثم يسقطُ نائمًا على الأريكة مع طفلٍ صغيرٍ ينامُ على صدره. قررتُ أنه من ذاك النوع.

قلتُ وأنا أنظر إلى التذكرتين: «حسنًا». مَدَّ يده وناولني إياهما من جديد. حين أخذتهما، وضعَ يده على كتفي وضغطَ عليها، كأنه أراد معانقتي.

كان على حق؛ بيعها سهل. وضعتُ إعلانًا على الموقع مساءً. قابلني الُمشتري في مغسلة الملابس وأعطاني ستين دولارًا بسعادة.

قال: «إنهما لعيد ميلاد ابني؛ سيُكمِلُ الرابعة. ستكون هذه أول مباراة بيسبول يحضرها!».

ابتسمتُ وتمنيتُ له أن يقضي وقتًا ممتعًا.

18

المنزل الحزين

أيام السبت والأحد كنتُ أستيقظُ أنا وميا في موعدنا المعتاد رغم أنه ما من شيءٍ نفعله. كنتُ أعدُّ لها الفطائر المُحَلَّاة وأزينها بالتوت الأزرق الذي اشتريته وجمدته من الصيف الماضي، ثم أجلسُ أمامها على المائدة أحملُ كوب قهوتي قُربَ وجهي، وأراقبها تلتهم طعامها لقمةً لقمة. ابتسمتْ لي ابتسامةً رحبة والتوت يلطخ شفتيها، فابتَسَمتُ لها وأنا أحاول إخفاء الدموع من عيني. أحاول أن أحفر تلك اللحظة في ذاكرتي كي أتأملها حين أحتاج إليها. سارَتْ حياتنا بوتيرةٍ سريعة في الروتين الفوضوي للعمل والعشاء والنوم. كنتُ أعرفُ أنها ستكبر على أن تقصَّ شعرها قصة رومانا كويمبي، وأنه لن يمر وقتٌ طويل حتى تعزف عن اللعب بدُمَى «ماي ليتل بونيز» التي كانت تصفُّها في نصف دائرةٍ تقابل وجوهها طبقها. كلما افتقدتها، سواء في العمل أو حين تكون مع جايمي، أعيدُ تلك اللحظات في رأسي، اللحظات التي كَتَبتُ عنها.

بدأتُ تمرينًا على الكتابة كلما أخَذَتْ ميا حمامًا أو كانت مشغولةً بطريقةٍ ما، عشر دقائق من الكتابة المتواصلة عن أي شيءٍ يخطر ببالي. كتبتُ في الصباح أحيانًا في نهايات الأسبوع، كتبتُ فقراتٍ طويلة عن حالة الطقس اللطيف،

عن خططٍ للاستماع به، أو عن مكانٍ سري تحمَّستُ لمشاركته مع ابنتي. كنتُ أكتب أحيانًا بعد أن تخلد ميا إلى النوم، بعد يومٍ متعب من شقاوتها في كل خطواتها وأفعالها. كنتُ أحاول البحث في ذاكرتي عن حدثٍ سعيد، أنقبُ عن ترابطٍ عابرٍ بدائي لن يربط سوى بين الأم وفلذة كبدها، ثم أكتبه. كان يتحوَّل إلى كتابٍ عن طفولة ميا أكثر من يوميات حياتي. أهمُّ شيءٍ أدركته أنني -بعد مرور سنوات- سأعود لأنظر إلى تلك الفترة باعتبارها فترةً ملآنةً بالقرارات والمهمات التي لا يقدر على تحمُّلِها شخص واحد. كنتُ في حاجةٍ إلى أن أفكر في تلك الفترات بمحبةٍ أيضًا، بما أنها كانت تكبر بسرعةٍ شديدة. رغم عيشنا في ذلك المكان وعملي في تلك الوظيفة المروِّعة وعجزنا المالي، فلن أحظى بفرصة قضاء هذا الوقت معها مرةً ثانية. كانت الكتابة عنه طريقتي للتعبير عن الامتنان، لخلق صورةٍ جميلةٍ عن حياتنا ومغامراتنا. شعرتُ أنه -على الأقل- ربما بوسعي طباعة ما أكتبُ في كتابٍ تقرؤه ميا يومًا ما.

وجدنا مكاننا المفضل على الشاطئ، يقع في واشنطن بارك على الجانب الغربي من أناكورتس. نجلسُ على الصخور وننتظر أن يهدأ الموج، ثم نبحث عن مخلوقاتٍ في البرك الصغيرة التي يتركها خلفه.

كانت ميا تقول: «انظري إلى السلطعون يا ماما!»، ثم أقَرفِصُ وأسحب المجرفة الصفراء من الدلو الأحمر البلاستيكي وأحاول رفعه لأراه من قرب. «احذري أن يلدغكِ! سيلدغكِ يا ماما!».

كانت العَبَّارات تمرُّ من بعيد، ونرى من حينٍ إلى آخر فقمةً أو نسرًا. أحضرتُ دراجةَ ميا الصغيرة في السيارة، وأنزلتها لها كي تقودها على الطريق الدائري المُعَبَّد بطول ميلين. كنتُ أنسى طوله دومًا، فينتهي المطاف بأن أحملها ودرَّاجتها في نصف الميل الأخير. كنا نتوقف في طريق عودتنا إلى المنزل عند محل المثلجات الذي لم يتغير مكانه منذ كنتُ طفلة. كنتُ أسميه: «عشاء المثلجات». لا تطلبُ ميا سوى الشوكولاتة، فيصير وجهها لزجًا منها.

كنتُ أقضي الإجازات الأخرى في البحث على الإنترنت عن شلالاتٍ غير مشهورة، أو جداول يمكن السباحة فيها. ثم أحَضِّرُ سلةً من الجلد ومفرشًا، وملابس، ومنشفة، ووجباتٍ خفيفة، وفي غضون لحظات نكون خارج المنزل، ولا ندفع مالًا سوى للوقود المُستَهلَك في طريق الذهاب والعودة.

كانت تلك أسعد الأوقات، ربما بسبب بساطتها. كنتُ أشجعها على قيادة درَّاجتها وسط المدينة -وأهرولُ من خلفها- لتشتري تفاحةً. لا نغادر المنزل حين تمطر، ونقضي وقتنا في حل أحاجي الصور أو بناء القلاع. أحيانًا كنا نفردُ الأريكة وأدع ميا تشاهد التلفاز قدر ما تريد، كأننا نقيم حفلة مبيت طوال أيام الإجازة.

لم أدرك هذا آنذاك، ولكن تلك الإجازات، تلك الحياة الهادئة مع ميا، كانت ما أتذكَّره بحنينٍ غامر. رغم أن بعض الرحلات فشلتْ فشلًا ذريعًا، وانتَهَتْ بنوبات من الغضب وتنافُسٍ في الصراخ أنهك قوانا، كانت تلك الساعات بصحبة ابنتي ذات الأعوام الثلاثة لا تُقَدَّر بثمن. كانت تتسلقُ السرير لتوقظني، تلفُّ ذراعيها الصغيرتين حول عنقي، وتحيط خصلات شعرها الناعم بوجهها، تهمسُ في أذني وتسألني إن كان بوسعنا أن نكون دُبَّي باندا ذاك اليوم. تتلاشى فجأة آلام الأسبوع العصيبة، فنطفو وحدنا أنا وتلك الطفلة المذهلة في فقاعة.

يهدأ عقلي في تلك الأوقات فحسب، حين لا أكون قَلِقةً إن كان عليَّ أن أعمل بدلًا من تزجية وقتي هكذا، أو إن كنتُ لا أبذل قصارى جهدي. لم أفكر إن كان أحد سينظر إلينا ويظننا «عائلة تعيش على الإعانة»، ونستغلُّ النظام بينما نحنُ جالستان على ملاءة في الحديقة ونأكل شرائح الجبن. لم أعبأ قط بأيٍّ من هذا في الأيام التي أقضيها بصحبتها. في تلك الأمسية تكون كل واحدةٍ منا شمس الأخرى وقمرها في عالمنا الصغير.

بانتصاف الصيف كان قد مضى على عملي في شركة كلاسيك كلين ستة أشهر، ولديَّ جدولٌ ثابت يتكون من خمسٍ وعشرين ساعةً أسبوعيًّا. إضافةً لذلك

كنتُ أتعامل مع بضعة عملاء شخصيين، أنظفُ منازلهم أو باحاتها مرةً أو مرتين في الشهر. بدأ بعضهم يتركون لي أشياء على مناضد المطبخ، مثل عطايا السيدة المُدَخِّنة الدورية. كذلك هنري أهداني الكثير من الأشياء دائمًا. كان يعرفُ أنني أذهبُ لأُقِلَّ ميا وأوصلها إلى منزل والدها بعد مغادرة منزله، فأعطاني مرةً علبة دونات، ومرةً قارورةً كبيرة من عصير تفاحٍ لذيذ.

بدا أن صحة هنري تتدهور؛ تضاعف عدد الأدوية على حوض حَمَّامِه، كذلك -نظرًا إلى حالة مرحاضه- اضطربت معدته بسببها قليلًا. رأيتُ زوجته في المنزل أكثر من مرة في تلك الفترة أيضًا، ولكنها قَضَتْ معظم الوقت تتحدثُ في الهاتف مع شركات التأمين، أو مع والدته، التي خَمَّنتُ أنها انتَقَلَتْ من إحدى دور رعاية المسنين إلى آخر. كنتُ أحبُّ رؤيتهما معًا. تبَدَّلَتْ طِباعُ هنري الصاخبة إلى نعومةٍ كنتُ أتوق لأن أشعر بها من شريك حياتي. كان يعدُّ لها الشاي، ويتناقشان فيما يحتاجان إلى شرائه من المتجر لإعداد العشاء. قال لها هنري إنه سيُعِدُّ «وجبتها المفضلة»، فعانَقَته بقوة قبل أن تغادر مندفعة. كانت لا تغادر أبدًا قبل أن تودِّعَني. تنطق اسمي بطريقة من شدة صدقها تُشعرني أنها ستُعانقني أيضًا.

حاولتُ استحضار تلك اللحظات في الأيام التي أنظفُ فيها المنزل الإباحي؛ حَلَّقتْ في ذاك المنزل روحٌ غاضبة أو مستاءة. لم أحبّ أن أبقى فيه. وجدتُ ملاحظةً على الطاولة كُتِبَ فيها: «بَدِّلي الملاءات من فضلك». على الأقل قالت من فضلك.

قرُب عيد الأب، خُضتُ شِجارًا حادًّا مع جايمي، وكنتُ أنظفُ المنزل الإباحي وقتها. ذَكَّرَني المنزل بعدها به، ولم تُثمِر محاولاتي لتغيير هذا الرابط.

دار الشجار حول اسم ميا الأخير؛ أردتُ تغييره ليكون اسمي. كانت ستلتحقُ بالمدرسة عاجلًا أو آجلًا، وكلما أخذتُها إلى الطبيب كان يسألني إن كُنتُ والدتها. لم يكن منطقيًّا أن تُسَجَّلَ باسمه الأخير وهي تعيش معي معظم الوقت تقريبًا.

رَفَضَ جايمي الفكرة رفضًا عنيفًا. كانت حجته أنني لم أقضِ معها سوى القليل من الوقت، وأنها تقضي أكثر الأيام في «تلك الحضانة المقززة». نَدِمتُ أنني سَمَحتُ لوالدته بأن تُقِلَّ ميا منها في يومٍ اضطررتُ فيه إلى العمل حتى وقتٍ متأخر، لأن جايمي استخدم انتقادها للحضانة ضدي منذ ذلك الحين.

ولكني لا أفعل أي شيءٍ صحيح أبدًا من الأساس. لامَني على قلة العمل إن بَقيتُ في المنزل أو قَلَّلتُ عدد ساعاته، ويقول إن النَّفَقَة التي يدفعها تذهبُ إليَّ وأنا جالسة على مقعدتي. كانت الدراسة مضيعةً لوقتي كذلك من وجهة نظره. طبعًا آنذاك كانت كثرة العمل على القدر نفسه من السوء.

أخبرني في ذاك اليوم عبر الهاتف: «لَم تُهنِّئيني قط في عيد الأب». كنتُ على وشك الانتهاء من المطبخ؛ أمسَحُ مزيل الدهون عن سطح الموقد الأحمر.

قلتُ بنبرةٍ لا توحي بالاستفهام: «ماذا؟»، لم يهَنِّئني جايمي قط -ولا مرةً واحدة- في عيد الأم. لم يخبرني قط أنني أمٌّ جيدة. كان أقرب شيء قاله يشبه المديح أن أخبرني أنني ذكيةٌ بما يكفي لاستفزازه والتلاعب به كي أحصل على ما أريد. حتى حين كنا نتواعد في الصيف، لا أتذكَّر أنه امتدحَ شكلي أبدًا. قال لي إنني بشعة أكثر من مرة حين صِرتُ حاملًا، وخصوصًا بعد أن أنجبتُ ميا.

قال: «لَمْ تخبريني أنني أبٌ جيدٌ قط».

قُلتُ: «جايمي، هذا لأنك لَستَ أبًا جيدًا فعلًا. أنت تُلقي باللوم على كل من حولك على كل شيء، ولا تتحمل المسؤولية أبدًا. دائمًا كل شيء هو خطأ شخصٍ آخر سواك. ماذا ستتعلَّم ميا من هذا السلوك؟ ماذا ستُعَلِّمها؟». رَفَعتُ ذراعي لأنفض الغبار عن الثريا فوق طاولة غرفة الطعام.

قال: «سأعَلِّم إيميليا الكثير من الأشياء». تساءلتُ مرةً ثانية إن كان كلُّ مَنْ في بورت تاونسند ما يزالون ينادونها إيميليا. رَفَضَ أن يناديها ميا لأنها الكُنيَة التي اخترتها أنا. حاولتُ أن أشرح له أنها هي من أطلقتها على نفسها، وأنها

تغضبُ حين تُنادى باسمها كاملًا. حاول فترةً إقناعها بكُنيةٍ تُنطَق «ميلاه»، ولكنها لم تستجب له. تساءلتُ -في كل مرةٍ ينطقه- إنْ كانَت تستبدل بهويتها أخرى بلا وعي حين تكون بصحبته.

قلتُ: «أنت لا تتقن السباحة حتى يا جايمي». كان غريبًا عليَّ أن أتحدث إليه بتلك الطريقة، ولكن شجعني العمل بدوامٍ كامل وفعل كل شيءٍ بنفسي. لم أعد أسمح له بالتقليل من شأني. «ماذا سيحدثُ حين تعود إلى المنزل ومعها واجب الرياضيات؟ أو كتابة تقرير؟ كيف ستُساعِدُها في هذا؟».

لم أقصد ذكر تلك الأمور لمُضايَقَتِه؛ كانت مخاوف حقيقية. كان جايمي يتحدَّثُ كثيرًا عن نيته للدراسة كي يحصل على شهادة تطوير التعليم العام[1]، أو حين قَطَعَ وعدًا أن الصيف لن ينقضي إلا وهو يتقن السباحة، ولكنه لم يُقدِمْ على فعل أيٍّ مما قال. بل كان يجدُ عذرًا أو حكايةً مُفَكَّكةً عن أن الخطأ خطأ والدته، لأن عليه مساعدتها في رعاية أخيه الأصغر. وقتها كان الخطأ خطئي لأنني أجبَرتُه على الأبوة، على حياةٍ لم يرغب فيها قط.

قال: «أعرفُ أنني أبٌ جيد». كان بوسعي تخيُّل وقفته؛ ينفخُ صدره، وربما يُشير إليه بإصبعه، أو ربما ينظرُ إلى مرآة. «أعرفُ هذا لأنها تحتاج إلي». سَمِعتُه يأخذُ نفسًا سريعًا. آها! إنه في الخارج، يدَخِّن سيجارة ويذرع المكان ذهابًا وإيابًا.

حان دوري لأشير إلى الهواء. أسير ما بين الصالة وغرفة النوم وأحمل منفضة الغبار في يدي. رأيته كثيرًا يتظاهر بالعبوس والبكاء حتى تَلتَفت ميا إليه وتعانقه عناقًا أخيرًا كلما أتيتُ لأخذها.

---

[1]- اختبار يقيس مدى التحصيل العلمي في خمس مواد، وشهادته تُعادل الحصول على شهادة الثانوية العامة الأمريكية. (المترجمة)

- لقد تلاعَبتَ بمشاعرها حتى تحتاج إليك.

أفقَدَ هذا جايمي سيطرته على أعصابه. إنني أحفظُ صياحه وصراخه عن ظهر قلب. قال: «يتحدثُ كل أهل المدينة عن أنكِ امرأة فاشلة ومثيرة للشفقة. لا تفعلين شيئًا سوى الشكوى على الإنترنت، على فيسبوك أو أيًّا كان اسم الموقع الأبله الذي تكتبين يومياتكِ عليه. ليس لديكِ أصدقاء حقيقيون. لن يحبكِ أحد بصدرك المترهل».

أغلَقتُ الخط مع قوله هذا. كان الأمر يزداد سوءًا حين يتَّبِعُ هذه الطريقة. كان دائمًا يُشير إلى أنني بدينة للغاية، أو شديدة البشاعة، أو مفرطة النحافة، أو طويلة أكثر مما ينبغي. الإشارة إلى «الصدر المترهل» جديدة. كانت «لن يحبكِ أحد» جملته المفضلة.

كنتُ أعرفُ أن شفتيه مضمومتان في شبه ابتسامة حين تفوه بهذا الكلام، أراهما حتى ونحنُ نتحدث عبر الهاتف.

كان يقول لي حين عِشتُ معه في المقطورة إنني «بلهاء غبية» أو «عاهرة مجنونة»، ولكن آنذاك لم يلجأ إلى تلك الكلمات سوى حين يرغبُ فعلًا جرح مشاعري.

انتهيتُ من تنظيف الحمام في المنزل الإباحي في الوقت المحدد ذاك اليوم بفضل الغضب. بعد أن مسحتُ الأرض بيدي وانتظرتُ جفافها، وقفتُ في الردهة كي ألتقط أنفاسي قبل أن أُعيد السجاد أمام المرحاض والحوض. عُلِّقَت على الحائط يمين الباب صور للزوجين التُقِطَت في استوديو؛ كلاهما ينظر في الاتجاه نفسه مع لمعةٍ متشابهةٍ في عينيهما.

دخلتُ غرفة النوم. في بعض النواحي كانت تلك الحياة تشبه الحياة التي أردتُ أن أعيشها؛ منزل جميل ذو باحةٍ واسعة. ليس بالضرورة أن يقع في منطقةٍ راقية ويطلَّ على المحيط، ولكن سيكون من اللطيف أن تُحيطه باحةٌ وبعض

الأشجار الباسقة. حَدَّقتُ إلى المزلّق على المنضدة بجانب المنبه ولم أستطع كَبحَ تساؤلي عن وتيرة ممارستهما الحب معًا.

ربما تلك هي الحياة التي ظننتُ أنني أريدها، ولكن الحياة التي حلمتُ بها فعلًا كانت حياة جيرانهما في المنزل الحزين. بعد شجاري مع جايمي ذاك اليوم، نَظَّفتُ المنزل الحزين لأول مرة منذ أشهر. كان مريضًا، أو محجوزًا في المستشفى، أو كليهما. لقد تزوَّج هذا الرجل حبَّ حياته حسب ما رأيت. ثم توفيتْ قبل أوانها وعاش وحيدًا في السنوات التي كان في أمسِّ الحاجة إلى أن يرعاه شخصٌ آخر. أفصَحَ كلٌّ من المنزل الإباحي والمنزل الحزين عن دروس متناقضة في الحياة، تُثبِتُ أنه مهما كانت الظروف سينتهي المطاف بنا وحدنا في منازلنا بطريقةٍ أو بأخرى؛ مثل الزوج في المنزل الإباحي، الذي كان يُمتِّع نفسه بينما تعمل زوجته ليلًا أو تقرأ رواياتٍ رومانسية في الغرفة المجاورة له، والأرمل كذلك.

بالنسبة إلي، لم تضايقني الوحدة إلى هذا الحد. صِرتُ أنا وميا فريقًا واحدًا. أحببتُ أنني تخلصتُ من القلق حيال استمتاع شخصٍ ثالث يُصاحِبُنا، أو أن أتوتر حين أسمع تنهيداته الضجرة؛ علامات واضحة لرغبة الشخص في الرحيل. لم يكن لديَّ شخصٌ أسأله ماذا يريد أن يأكل على العشاء. في وسعنا تناول المثلجات بدل العشاء دون أن نقلق حيال شخصٍ آخر في المنزل سيشعر أننا أقصيناه، أو سينتقدني لكوني أمًّا سيئة.

لشقتنا سلبياتها، ولكنها مساحتنا المنشودة. بإمكاني أن أعيد ترتيب الأثاث بالطريقة التي أريدها، وفي أي وقتٍ أريد. قد أتركها فوضى، أو أنظفها بهَوَس. كانت ميا ترقصُ وتقفز من الأريكة إلى الأرض دون أن يزجرها أحد ويأمرها بالهدوء. ظننتُ -حين بدأتُ أعمل خادمةً- أنني سأقضي أيامي مع شعورٍ بالحنين أو الحقد. ولكنني في نهاية اليوم كنتُ أعودُ إلى مكان ليس اسمه بيتي فحسب، بل شعرتُ بالفعل أنه بيتي. كان عُشَّنا الصغير الذي سنطيرُ منه يومًا ما.

حين انتهيتُ من المنزل الإباحي، حاولتُ أن أحمل كل أدواتي إلى المنزل الحزين دفعةً واحدة. كان الجو رطبًا وغائمًا، الجوُّ المناسب لنمو العفن، الجو الذي يُغطي جلدي بالطحالب والفطريات.

فتحتُ الباب الزجاجي بإصبعي الصغيرة لأنني أحمل بيدي الصندوق. كان البابُ يُفتح على المطبخ، وفور دخولي شممتُ رائحتَي الخشب وكولونيا الحلاقة المألوفتين في البيت الحزين. كنتُ على وشك أن أضع الصندوق حين التَفتُّ خلفي وصَرَخت.

كان وجهه مُغَطًّى بقروحٍ مفتوحة. نَدِمتُ فورًا على صراخي، أردتُ أن أبكي. لم يكن موجودًا في المنزل قط وأنا أنظفه، لم أقابله من قبل، والآن صَرَختُ حين رأيتُ وجهه الذي نضح بعلامات صراعه مع المرض.

قُلتُ: «آسفة. آسفةٌ للغاية». كنتُ سأُسقِطُ صندوقي والمناشف والكيس المملوء بالمناشف المستخدمة.

قال: «لا، لا. أعتذر لأنني أفزعتكِ. تباطأتُ في الاستيقاظ هذا الصباح. ولكن لن أعوق عملكِ؛ كنتُ سأغادر حالًا».

ابتَعَدتُ عن الباب الزجاجي كي أُفسِحَ له الطريق. لم يُعَرِّف أحدنا نفسه أو يبادر بالمصافحة. رأيته يخرج من باب المرآب الجانبي. ومن الشباك شاهدتُ سيارته الأولدزموبيل تغادر الممر وتبتعد. تساءلتُ إلى أين هو ذاهب يا ترى، إلى أي مكانٍ شعر بأن عليه التوجه إليه خلال تلك الساعات.

بدا المطبخ كحاله دومًا، باستثناء عدة أطباق في الحوض وعلى المنضدة. ازدحم البار في طرف المطبخ بالأدوية الطبية وتعليمات تناولها ووثائق مغادرة المستشفى. أخبرتني لوني حين اتَّصَلتْ كي تُعلِمَني بمهمة تنظيف المنزل الحزين ذاك الأسبوع أن المرأة التي تعيش في المنزل الإباحي كانت ترعاه، ربما لأنها ممرضة، أو لأنه لا يعرفُ أحدًا سواها.

كانت أغطية السرير مطويةً كما تركها حين استيقظ صباحًا. أما الناحية الأخرى من السرير، فكانت مرتبةً كما هي، تمامًا مثلما رتبتها آخر مرةٍ نظفتُ المنزل، ووسادات الزينة في المكان نفسه. تناثرت بقع الدم على الأغطية. سحبتها عن السرير، وبحرص حللتُ زوايا الملاءة لأجَمِّعَها في الوسط، ثم أزَلتُ أغطية الوسائد ووضعتها كلها في كيسٍ واحد. دخلتُ الحمام كي أتركها الغسَّالة. رأيتُ بقع الدم على الأرض، ورأيتُ قضيبًا معدنيًّا جديدًا رُكِّبَ حديثًا جوار المرحاض وفي كابينة الاستحمام، وكذلك مقعدًا صغيرًا في حوض الاستحمام.

كانت الزوجة قبل موتها تجمِّع الأحجار ومنازل الطيور والأعشاش، وتصفُّها على حافة النوافذ في الصالة. سافرا كثيرًا في أمريكا الجنوبية، أو الوسطى. كانت الزوجة تعمل معلِّمة. تخيلتها تُحضِر الدمى الصغيرة والأعمال الفنية من أسفارها وتزين بها غرفة الصف أو تُريها طلابَها. هل كانت تعلِّمهم الإسبانية؟

بدا المنزل الحزين وكأنه كان منزل الإجازات، أو عشًّا خاويًا يُحاول مُشيِّده ألا يُعلِنَ الحداد على الغرف الشاغرة الراكدة التي لم تعد ملآنةً بالأطفال. أنجبا ابنين، أحدهما تُوفي والآخر يعيش في المنطقة، ولكنه لم يَزُرْ أباه قط. تساءلتُ كثيرًا إن كان فَقَدَهما في الوقت نفسه؛ ربما توفيت زوجته وابنه في حادثٍ مروع ومَزَّقَت الفجيعة ابنه الثاني. ألَّفتُ الحكايات بناءً على الآثار التي أراها في المنزل؛ الصور والملاحظات المخربشة سريعًا على الورق، والبطاقة المؤطرة المرسوم عليها صورة رجلٍ وامرأةٍ عاريين ويُمسِكَان بأيدي بعضهما بعضًا وكُتِبَ عليها: «قواعد الكابينة: ترشيد المياه. الاستحمام معًا». شعرتُ أن المنزل الحزين عالقٌ في الزمن؛ مشاريع نصف مكتملة، وأعمال فنية مركونةٌ في الخزانة في انتظار أن يُعَلِّقَها أحدٌ على الجدار. كانت قائمة أعمال زوجته ما تزال مُعَلَّقةً على لوحة الفلين في المطبخ، استحالَ ورقها أصفر اللون. «نشتري خرطومًا جديدًا. نُصلِحُ قفل البوابة». تخيَّلتها تزيل الحشائش من أُصُصِ الورد في الخارج ثم تعود لتشرب شيئًا من المطبخ

وتكتب شيئًا في القائمة بسرعة قبل أن تكمل عملها. عُلِّقَ أسفل القائمة إيصالٌ وقَّعَته لإعادة تنسيق الحديقة. لم يُذكَر عليه تاريخ.

بانتصاف يوم عملي الذي امتد ستَّ ساعات، تنَهَّدتُ تنهيدةً عميقةً وعَلَّقتُ البخاخ في جيب بنطالي. رَشَشتُ منشفةً بقليلٍ من مياه الخل ووضعتها في جيبي الآخر كي أستخدمها في نفض الأتربة. ثم تناولتُ منشفةً أخرى لأمسح بها أي شيءٍ سأرشُّه. ولكن المنزل الحزين لم يتسخ قط.

شعرتُ أن عُلبَ الأدوية المختلفة في الحمام تزداد في كل مرة. حَرَّكتها لأمسح المنضدة من أسفلها قبل أن أبدأ تنظيف حوض الاستحمام. رأيتُ هناك خزانة مصنوعة من الخيزران. فتحتُ صناديق الرماد بفضولٍ مُطلَق أول مرة. من وقتها لم أستطع منع نفسي من زيارتها بين الحين والآخر لأرى إنْ كانت ما تزال في مكانها. هل نَثَرَ بعضًا منه وأبقى البقية لنفسه؟ هل وجد سلواه في وجودهما هناك خلفه بينما يُمَشِّطُ شعره؟

غَطَّت وثائق المستشفى صورًا كثيرة على المنضدة المجاورة للمطبخ. بَحَثتُ عن مفاتيح اللغز في الصور ظَنًّا مني أنني سأعثر على تفاصيل مختلفة. ولكنها كانت كما هي دومًا؛ أناسًا يقفون حول شَوَّاية ملآنةٍ باللحوم والأسماك، ووقف هناك صاحب المنزل الحزين بفخرٍ مع أطفالٍ يرتدون ملابس تختلط ألوانها بين الأحمر والأبيض والأزرق، ويحملون المفرقعات النارية عاليًا. ابتسم جميعهم لالتقاط الصور، ولكن توهجت ابتسامة الرجل في صورته كأنه طفل يحمل أول سمكةٍ يصطادها. لقد قام بكل شيءٍ كما يجب. أشارت كل التذكارات والصور إلى أنه شخصٌ نَجَحَ في تحقيق الحلم الأمريكي. ولكن ها هو ذا، وحيد.

لم يترك لي ملاحظات ولا بطاقات على المنضدة. لم أنتظرها منه، ولم أرَ أنه من الضروري أن يُنفِقَ المزيد من النقود على الإكراميات أو علاوات الإجازة. كان من الغريب التفكير في الأمر من هذا المنطلق، ولكن منحني الرجل هديةً أخرى. دفعني المنزل الحزين إلى إمعان النظر في المساحة الضيقة التي

شاركتها ميا، في الغرفة التي عشنا فيها ورأيتها بيتًا ملآن بالحب لأننا ملأناه به. رغم أنني لم أمتلك سيارةً فاخرة أو منزلًا فوق جرف يطل على الشاطئ، كانت تعيش إحدانا من أجل الأخرى. كان بوسعي الاستمتاع بصحبتها بدلًا من العيش وحيدةً في مكان يضجُّ بذكرياتها. استمرت معاناتي مع الوحدة، مع البحث عن صُحبَة الآخرين، ولكنني لم أكن وحيدةً. أنقذتني ميا من هذا.

19

منزل لوري

استعدَّ الصيف للرحيل، وغربت الشمس ببطءٍ فملأتْ أمسِيَة شقتنا بنورٍ وردي وبرتقالي وأرجواني بدل الحرارة التي تركتْ أغطية الأسِرَّة رطبةً من العرق. بدأت ميا تنام قبل التاسعة من جديد وتمنحني الوقت لأجلس على منضدة المطبخ بمفردي. كنتُ أسمع في تلك الليالي صوت السيارات المتسارعة على الطريق السريع، وأحاديث أولاد الحي الجالسين على الرصيف أسفل الشقة، وفاحَ دخان سجائر الحشيش عبر النوافذ. كنتُ أجلس في حالةٍ من التعب فلا أقوى على قراءة كتاب فأستبدل به جدول المواعيد، أحاول استذكار عملائي العشرين الذين أتناوب بينهم كل أسبوع أو أسبوعين، أو مرةً في الشهر. كان تنظيف معظم المنازل يستغرق ثلاث ساعات، وكنتُ أنظفُ عادةً منزلين يوميًّا.

لم أشعر قط أنني وميا نتماشى مع نمط الحياة المحافظ الذي يبثُّه محيطنا، كوني أمًّا مستقلةً تبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا وعلى جسدها عدة وشوم. كانت ميا ترتدي زي القرد أيامًا، ويكون شعرها أشبه بمكنسة شعثاء فوق رأسها. شعرتُ أننا نختلف اختلافًا متطرفًا عن ربَّات المنازل شديدات النظام حين أسير في المتجر. كنتُ أمرُّ جوارهن في ممر الحبوب، أرمقُ خواتم

زواجهن الضخمة والبرَّاقة، أحدِّقُ إلى أطفالهن السائرين في أذيالهن في طاعة ، ملابسهم مهندمة وشعورهم مُشَّطَتْ بأناقة من الصباح .

ولكنَّ إحداهن نَظَرَتْ إلى اتجاهي ورسمتْ تعابير وجهها ابتسامةً دافئة.

تذكَّرتُ أنها والدة إحدى صديقاتي القدامى، ولكن لم أتذكَّر اسمها. سألتني عن أحوالي ومكان منزلي. أخبرتها، فسألتْ إن كانت ميا ما تزال تذهب إلى الحضانة خلف متحف ماديسون في المدرسة الابتدائية التي التحقتُ بها شهورًا وجيزة في الصف الثاني قبل أن تنتقل عائلتي إلى ألاسكا. هززتُ رأسي نفيًا.

قلتُ: «اختياراتي محدودةٌ بعض الشيء». انتظرتُ حتى تظهر الحيرة على وجهها ثم شرحتُ: «تحتاج الحضانة إلى منحة من الدولة أتلقَّاها من إعانة رعاية الطفل، والمدارس الخاصة لا تقبلها».

تواصلتُ سَلَفًا مع حضانات مونتيسوري ومدارس خاصة أخرى في المدينة وعرضتُ عليهم مقايضة المصاريف بخدمات التنظيف، ولكن لم يقبلوا جميعًا العرض. ستستفيد ميا استفادةً مضاعفةً إن قضت وقتها في بيئةٍ ثرية وحضانةٍ حقيقية بدلاً من تلك التي ألحَقتُها بها. حاولتُ تعويضها بالقراءة لها مدة نصف ساعة على الأقل يوميًّا.

قالت السيدة: «حضانة الجدة جودي تابعةٌ لجمعية الشُبَّان المسيحيين، وأنا متأكدة أنها تقبل الدعم الحكومي».

سألتها وأنا أرفعُ ميا بعد محاولتها الثالثة للاختباء أسفل تنورتي: «الجدة جودي؟»، مدت السيدة ذراعها ولمستْ خَدَّ ميا برقة، ولكنَّ ميا أشاحت بوجهها وارتبكت.

أخبرتني السيدة: «إنها تُديرُ الحضانة، وهي فعلاً بمكانة جدةٍ للأطفال. يزورها أبنائي حتى الآن من وقتٍ إلى آخر. يقع المركز في إحدى البنايات خلف

المدرسة، ولكن جودي رائعةٌ للغاية، يذهب الأطفال إليها وكأنهم في زيارةٍ إلى منزل جدتهم.

بعد أسبوع، رَحَّبَت جودي بنا برحابة صدر. اصطحبتني في لقائنا الأول إلى مكتبها لنجلس معًا ونعرف بعضنا بعضًا. ربما ضبطتني في يومٍ سيئ، أو في وقتٍ شعرتُ فيه باليأس والهزيمة، ولكن حين جلستُ في مكتبها وتحدثتُ معها عن حياتنا بدأتُ أبكي. ناولتني جودي منديلاً وقالت: «أنتِ أمٌّ مذهلة. هذا واضح. إنني أعرفُ الأمهات البارعات فور أن أراهن». نظرتُ إليها وأنا أشهق، وأدركتُ أن أحدًا لم يخبرني هذا من قبل. كانت تلك الكلمات هي كل ما كنتُ في حاجة إليه لتصير الجدة جودي في منزلة فردٍ من العائلة.

تحسَّن شعوري حيال ابتعادي عن ميا في العمل بمعرفة أنها تقضي يومها في محيطٍ داعم. توليتُ أكبر قدرٍ من المنازل في استطاعتي، وملأتُ الفجوات في جدول الشركة بعملائي الشخصيين. كنتُ أتقاضى ضعف المبلغ الذي أجنيه من كلاسيك كلين. دفعتُ كل الفواتير شهرًا كاملاً ذاك الصيف. شَكَّلتُ أنا وميا ثنائيًّا لا يُمكن فصله؛ نغني معا مع أغنية سُفيان ستيفنز, « The Perpetual Self»، أو كما تُسَمِّيها ميا: «أغنية أوه أوه». «سيضيع كل شيء! أوه أوه». كنا نسميها أغنية صباحنا السعيد، ولا نفوت سماعها قط قبل الذهاب إلى مواعيدنا، فتبثُّ فينا شعورًا جميلاً. عشنا في روتينٍ معين. مع بداية الخريف، حَضَّرتُ نفسي للالتحاق بدروسٍ مكثَّفة عن بُعد؛ حَضَّرتُ نفسي لقلة النوم. حين أخذت الدراسةُ حيِّزًا من الجدول، كنتُ أشرب كأس قهوةٍ كبيرة في المساء لأتمكَّنَ من إنهاء الفروض الدراسية. وكنتُ أدرس في نهايةِ الأسبوع. كنتُ أعرف حين بدأت المحاضرات أنني سأكون مُستَنزَفَةً، ولكن آمنتُ في قرارة نفسي أن الدراسة أهم من العمل؛ إنها العمل الذي سيُحَسِّن من وضعنا.

قَدَّرَتْ بام ولوني الوقت المخصص للتنظيف بناءً على سرعة عملهما هما. ولكنهما كانتا امرأتين في منتصف العمر وليستا بكامل عافيتهما؛ بهذا أصبَحتُ نينجا الشركة. بعد مرور عدة أشهرٍ من العمل بدوامٍ كامل، كان عليَّ البحثُ

عن حزامٍ أضيِّقُ به البناطيل. فشلتُ في الحِفاظ على وزني رغم محاولاتي. إن أنهيتُ تنظيف منزلٍ أسرع من الوقت المقرر له، كانتا تخبراني بأن أبطئ من وتيرة العمل. حين يستقبل العملاء فجأة فواتير أقل من التسعيرة الأصلية بسبب قضائي مدةً زمنيةً أقصر، كانوا يتوقعون المبلغ

نفسه كل مرة. كان عليَّ أن ألتزم الوقت المحدد من باب العدل مع مَن ستحلُّ محلي لاحقاً.

كان معنى هذا - في بعض المنازل - أن أحظى بوقتٍ كافٍ لأقف وأتصفَّح الكتب في غرف النوم، أو على مناضد المطبخ. بدأتُ أتفحصُ الكحول المُخَزَّن سِرًّا والشوكولاتة المخبأة، وأكياس مراكز التسوق التي لم يلمسها أحدٌ شهورًا. فَتَنَني فَهمُ محاولات الناس لمُسايرة الحياة. كنتُ أتطفل عليهم لأنني ضجرة، وبطريقةٍ ما كان ذاك التطفل وسيلتي لمسايرة حياتي.

بدأتُ أحبُّ المنازل التي تضجُّ بالحياة. كنتُ ممتنةً لصباحات أيام الجمعة بصحبة هنري. لم أتطفل قط على المنازل التي كنتُ مرئيةً فيها، التي كان اسمي في مفكِّراتهم «ستِيفَني» وليس «عاملة النظافة» أو حتى «الخادمة». ولم أفتش قط أغراض العملاء الذين كنتُ أقابلهم خارج كلاسيك كلين. كنا نحترم بعضنا بعضًا احترامًا متبادلاً، ومع الوقت صار بعضهم أصدقائي. كان التطفل غرضه الكشف عن المفاتيح، العثور على أدلة الحيوات السرية لأناسٍ بدا أنهم نجحوا في كل شيء. بغض النظر عن الثراء أو العيش في منازل أحلامنا الأمريكية - ذات الحمامات الرخامية والمكاتب التي تطلُّ نوافذها على مياه البحر - افتَقَرَتْ حياتهم إلى شيءٍ ما. أصبحتُ مسحورةً بالأشياء المخبأة في الأركان المظلمة، وكتب المساعدة الذاتية لتجديد الأمل. ربما لم يكن لديهم سوى أروقة أطول أو خزانات أكبر لإخفاء الأشياء التي كانت تُرعِبُهم.

بُني منزل لوري خصيصى لها وللمُدَرَّبين على رعاية مرضى هَنتنغتُون. كانت تقضي معظم يومها على مقعدٍ مُبَطَّن وموجَّه إلى التلفاز مباشرةً. تكلمت بصعوبةٍ بالغة، ولكن يبدو أن القائمين على رعايتها قادرون على فهمها. كانت لأطرافها حياتها الخاصة؛ قد ترتفعُ ساقها فجأةً في الهواء من حينٍ إلى آخر. أطعمَ لوري القائمون على رعايتها وحَمَّموها، وساعدوها في قضاء حاجتها. كانت لوري تُراقِبُني بعينين داكنتين ويقظتين بينما أنفض الغبار عن التلفاز والأرفف المكتظة بالصور.

قَضَيتُ في منزلها . ست ساعات كل يَوْمٍ من أيام الثلاثاء. كان شاسعاً، وصممه زوجها الذي خصص لنفسه شقة الطابق العلوي، حَيْثُ كان ينام معظم أيام نهاية الأسبوع. تناوب طاقمٌ من الموظفين على رعاية لوري ولكن بدا دومًا أن بيث موجودة في الأيام نفسها التي آتي فيها. كانت تعرضُ عَلَيَّ القهوة، ورغم أنني نادرًا ما قَبِلتها، فكنا نتبادل الحديث بينما أنَظِّف.

في صباح يوم زيارتي الثانية أو الثالثة لتنظيف منزل لوري تعَطَّل مُشَغِّل الأقراص الذي أهداه ترافيس إلى ميا في عيد ميلادها. بَكَتْ ميا وضربته وهي في مقعدها في السيارة. كنا نعتمدُ اعتمادًا كبيرًا عليه خلال رحلاتنا الطويلة. استمعتُ إلى إلمو يغني عن الآذان والأنوف مئة مرة. حين وصلتُ إلى منزل لوري ذاك الصباح كانت أعصابي ثائرة، واندفعتُ لأجلب كل أدواتي إلى الحمام الرئيسي الذي يحتلُّ مساحةً أكبر من شقتي كلها.

اختبأتُ من بيث في الحمام حتى أسترد هدوئي. كانت المساحة الوحيدة في الطابق الرئيسي التي يغلقها باب .أحاطت النوافذ حوض الاستحمام، فتسلَّقْتُه كي أُنظفّ حوافها. تكررتْ جملةٌ في رأسي، كانت قوِّيَّةً وعنيفة:« لن تقدري حتى على شراء واحدٍ جديد». انطوى جسدي على ذاته، فجلستُ ألهث، احتضنتُ ركبتي وأرجحتُ جسدي. لا يُكَلِّفُ الجهاز أكثر من مئة دولار ولكن أعجزُ عن شراء واحدٍ جديد لها. أثارت تلك الفكرة زوبعة كل الأشياء الأخرى التي لم أستطع توفيرها لابنتي : منزل لائق، وعائلة، وغرفة لها وحدها، وخزانات يملؤها الطعام. احتضنتُ ركبتي بقوةٍ أكبر ولم أمسح الدموع عن

وجهي، وبدأتُ أهمسُ تَرنِيمتي لأشَتِّتَ دوامةَ المخاوف المُقلِقَة التي جرفتني فتسلَّقْتُه أنظُفَ لأواسي نفسي، ولأمنع الزوبعة من التحول إلى هلعٍ حقيقي: «أحبكِ أنا هنا من أجلكِ. أحبكِ. أنا هنا من أجلكِ».

عرَّفَتني اختصاصيةٌ نفسية حين كنتُ مشردة على فكرة الترنيمات ولكنها كانت تَسْتَخْدِمُ جملاً مثل: «لا أحدَ يموت من نوبات الهلع»، أو أن أتخيَّل ابنتي تتأرجح وأجعل أنفاسي تتماشى مع سرعة حركاتها. ولكنها لم تنجح. كان عقلي في حاجةٍ إلى إدراك أن هناك شخصًا في مقدرته تحسين كل شيء. قررتُ في ذاك الصيف- وأنا أصرُّ على أسناني حنقًا- أن ذلك الشخص سيكون أنا، ليس رجلا ولا عائلة، بل أنا فحسب.

كان لِزَامًا عَلَيَّ أن أوقف آمالي بأن أحدًا سيأتي ويحبني عَلَيَّ فعل هذا بنفسي، أن أتملص من أي شيءٍ ترميه الحياة عَلَيَّ وأنفذ من خلاله.

بعد صباح مُشَغِّل الأقراص، صِرتُ أنظف حمام لوري أسفل ظلي من ذاك الصباح، أتأرجحُ وأهمس، أنتظر أنفاسي أن تخرج وتدخل بسلاسةٍ أكبر. وقفتُ هناك أحيانًا أتأمل الشبح -النسخة السابقة مني- بإشفاقٍ كأنني نُسْخَةٌ أكبر سِنًّا وأعظم حكمةً، وأومئ إليها إيماءةً حنونًا من السلوى. تعلَّمتُ أن أتطلع إلى ذاتي الأكثر الحكمة في لحظات الهلع كذلك. نفسي تلك، خلال عشر سنوات من ذلك الوقت، ستنجو من الجحيم. كان عَلَيَّ أن أحافظ على إيماني بأنها موجودة.

هاتفتُ أحد أيام الثلاثاء بام لأسألها إن كان بوسعي تقسيم عمل منزل لوري على يومين، أو أن أنهيه . في ثلاث ساعات فحسب تلك المرة. التهَبَتْ جيوب ميا الأنفية أيامًا، وفوق هذا التَهَبَتْ عيناها. لم أستطع تركها في الحضانة، وكذلك لم أستطع أن أفوت العمل. اتصلتُ بجايمي ذاك الصباح لأطلب منه أن يأخذها عدة أيام. خططتُ للتوجه إلى مركز الرعاية العاجلة أول شيء، ثم نذهبُ إلى محل لقائنا عند رصيف العَبَّارات، كي أعود بعدها إلى منزل لوري وأعمل إلى وقتٍ متأخر حتى أنتهي من تنظيفه.

نِمتُ أنا وميا على سريرٍ واحد معظم الوقت، ولم تكن فكرةً حكيمة، حتى وإن تمتعت بكامل صحتها. كانت تضربني وتركلني في نومها، تطيِّرُ ذراعيها وتُلقي قبضة يدها في عيني. ظلت تستيقظ لَيْلًا عدة أيام وتبكي من أنفها المسدود، ومن الحمى، واستيائها العام، فأحاول تهدئتها؛ لم أنم جيدًا خلال تلك الأيام.

مُنْذُ أن اَصْبَحْتُ أُمًّا مستقلة كنتُ أشير إلى تقدمنا بأنها «مستويات جديدة من الاستنزاف». كانت معظم أيامي تنجرف عبر ضبابٍ كثيف، مثل قاربٍ تعطَّلَ محركه. كان ينقشع أحيانًا فأتمكن من الرؤية والتفكير، وأمزحُ وأبتسم، وأشعرُ أنني عدتُ إلى طبيعتي مساءً كاملًا. لم تمرَّ لحظات كثيرة كهذه منذُ أصبحنا وحدنا، منذ أن تشردنا، منذُ أن خُضْتُ حربًا يوميةً كي لا أعود إلى الملجأ. رغم ذلك هيَّأتُ نفسي نفسيًّا لمستوًى جديد؛ المزيد من الفروض الدراسية، علاوةً على الجدول الذي ناضلتُ كي أملأه بالعمل. نادرًا ما تساءلتُ عن كيفية إنجاز الأشياء. كنتُ أعرف ما أنا في حاجةٍ إلى إنجازه، ما ولذا أنجَزتُه.

اتصلتُ بمديرتي وجايمي كي أخبرهما بمكاني وأنا في موقف السيارات أمام الصيدلية. أخبرتُ رئيستي أنني سأكون في منزل لوري خلال ساعات؛ يستغرق الطريق سَاعَةً كاملةً حتى أقابل جايمي وأترك ميا معه. سمعتُ في صوته غضبًا واستياءً عميقًا عبر الهاتف، لكن تجاهلته.

لم تَرُق له فكرة الأدوية، ولم يثق في الأطباء، وألقى باللوم على الحضانة لأنها تتسببُ في مرضها طوال الوقت. لم يكن لدي وقت لأتجادل معه ذاك الصباح، فغَضِبَ أكثر. قاطعتُه وأخبرته أنني سأوصلها مع أدويتها وكل تعليمات الطبيب، وعليه أن يتَّبعها بالضبط.

أجاب بنبرةٍ منتقدة: «تُتعِبُها أكثر تلك المضادات الحيوية». كان يكرر الجملة نفسها كلما تناوَلَتْها لالتهاب جيوبها الأنفية أو أذنها. لم أكن اُحِبُّ أن أعطيها المضادات الحيوية أيضًا، وأعرفُ أنها تسكِّن المشكلة الفعلية ولا تعالجها،

والتي كانت أن نمط حياتنا -مكان عيشنا- هو مُسبب مرضها، ولكن ما من خيارٍ آخر.

قلتُ: «جايمي، التزم التعليمات فحسب».

أغلقتُ الْخَطَّ وأدرتُ عينيَّ في محجريهما، ثم التفتُّ لأطمئن على ميا في مقعدها خلفي. كانت ترتدي كنزة حمراء رُسِمَ عليها حصانٌ يرتدي قبَّعَة راعي البقر ، وبنطالًا ضيقًا أسودَ اللون وممزقًا عند الركبة . جلستْ في حضنها دميةٌ جديدة اشتريتها بخمسة دولارات من ولمارت، دمية حورية البحر التي كان ذيلها يُغَيِّرُ لونه من الأزرق إلى الأرجواني في مياه حوض الاستحمام الدافئة. نَظَرَتْ إِلَيَّ دائخةً من أنفها المسدود الملتهب وعيناها ورديتان وغمصاوان . ربَّتُّ على ركبتها ومسَّدتُ ساقها قَلِيلًا ، ثم استدرتُ إلى الأمام وأخذتُ نفسًا عميقًا وأدرتُ السيارة.

اتجهنا غربًا على الطريق السريع ٢٠ إلى الساحل. إنني أسافر على هذا الطريق بين ماونت ڤيرنون وأناكورتس منذ كنتُ طفلةً صغيرة. ذَكَّرَتني منطقةٌ بعينها بليلةٍ كنتُ فيها في عمر ميا تَقْريبًا، سهرتُ أراقب النجوم في طريق عودتنا من منزل جدي إلى منزلنا. كانت عشية الكريسماس، وأنهكتُ عينيَّ بحثًا عن النور الأحمر لأنف رودولف. تنتمي ميا إلى الجيل السابع من أسرتنا الذي وُلِدَ في تلك المنطقة. تمنيتُ أن تُثَبِّتَنا تلك الجذور العميقة ، ولكنها لم تفعل، وَلَّتْ منذ زمنٍ بعيد، دُفِنَتْ في عمقٍ سحيق. ظل تاريخ عائلتنا يتملصُ منا؛ تعبتُ من أن أسأل أفراد عائلتي إنْ كانت لديهم رغبةٌ في رؤية ميا، كنتُ أفتقدُ أن يكون لي أجدادٌ وأعمامٌ وعَمَّات وأخوال وخالات يشبهون عملائي؛ منازلهم ملآنةٌ بالصور، وأرقام أبنائهم مُسَجَّلةٌ على الاتصال التلقائي، وسِلالٌ ملآنةٌ بالألعاب في زاوية المنزل لتكون في متناول الأحفاد.

عوضًا عن ذلك حظيتُ بلحظاتٍ عابرة من الأُلفة على الطريق السريع، ذكرياتٍ مغروسة بعمقٍ داخلي حَدَّ أنها تُشْعِرُني بأنها ما أنتمي إليه.

كنت أفكِّر في تلك الأشياء حين أهوي فيها إلى قاع اليأس وقتًا طويلًا. رغم امتناني أن جايمي أخذ ميا لتمكث معه ذاك الأسبوع، كنتُ أعرف أن لكل شيءٍ ثمنه. سيستخدمه ضدي، سيذكره حين يرغبُ في توبيخي على الإفراط في العمل، يستشهدُ به سببًا لأنْ تعيشَ ميا معه.

قالَتْ من المقعد الخلفي: «ماما... ماما».

قلتُ: «نعم يا ميا؟»، كنتُ أضغطُ بمرفقي على النافذة وأعلى الباب، وكفي تسند جبيني وأنا أقود السيارة.

سألَتْ بصوتٍ حادٍّ من التعب: «هل يمكن أن تفتحي نافذتي؟ أريد أن يطير شعر آريل كما في الفيلم». فَتَحتُ النافذة غير عابئةٍ بسُخف الموقف. كنتُ في حاجةٍ إلى أن أصل إلى العمل فحسب، أن أنهي العمل، أن أنام.

قُدتُ السيارة فوق القناة التي تفصلُ البر عن جزيرة ويدبي. نظرتُ إلى يميني فرأيتُ سيارةً قديمة بُنيةَ اللون من طراز فورد برونكو تمرُّ جوارنا. التقتْ عيناي عينَيْ السائق، ابتَسَمَ لي وأشار إلى نافذة ميا، فرأيتُ وميض الشعر الأحمر في الزجاج الخلفي وراء مقعد ميا.

صَرَخَتْ ميا: «آرييييل!»، راحتْ تركل بقدميها المقعد أمامها، كانت قد أبعدتْ آريل عن النافذة وأفلتتها من قبضتها.

ضغطتُ على فكِّي ووجهتُ نظري إلى الأمام. صاحتْ ميا وصرختْ كأنني دهستُ جروًا صغيرًا. كانت في المنعطف التالي إشارةٌ مرورية حيثُ يمكن أن أستدير وأعود إلى الوراء. قلتُ لنفسي إن هناك متسعًا من الوقت. يمكنني أن أنعطف وأتوقف عند الجانب الشرقي من الطريق السريع وأخرج بسرعة، أحضر آريل ثم أسلك المخرج التالي، وأمرُّ أسفل الجسر وأنعطفُ من جديد فنعود إلى طريقنا. بدت خطةً منطقيةً وأنا أقود بسرعة ستين ميلاً في الساعة

عبر إنهاك الضباب الكثيف الذي غطى رأسي، وسط صيحات ميا في المقعد من خلفي.

صَرَختُ كي تتوقف عن إصدار تلك الأصوات المروعة: «سأعودُ وأحضرها، سأعود». آلمني رأسي من قلَّة النوم وكوبَي القهوة الكبيرين اللذين شربتهما صباحًا لأسَكِّن الألم. مَرَّت أيام وأنا أرعى ابنتي المريضة، وكنتُ في حاجةٍ إلى قسطٍ من الراحة. أردتُ أن يتوقف الصراخ فحسب.

بعد أن انعطفت، قُدتُ السيارة في الجزء الأيسر من الطريق، أزيد سرعتها وأبَطِّئها، وأحاول الدخول في حافة الطريق اليسرى. كان يومًا دافئًا على غير عادة أيام سبتمبر. حين تَرَجَّلتُ من سيارتي على الأسفلت كانت الرياح التي تهبُّ من السيارات المسرعة حارةً، تخترقُ قميصي الأخضر المفضل، الذي رَقَّ بمرور السنين.

مَشَّطتُ العشب الفاصل بين الطريق الفرعي الشرقي والغربي، كان شعري يضربُ وجهي لدرجة أنني اضطررتُ إلى تثبيته على رأسي بيدي. كان منظري غريبًا بلا شك؛ أبحثُ عن دميةٍ بين أغلفة الحلوى وعلب الصودا الملآنة بالبول التي رُمِيَت وسط الطريق.

ثُمَّ رأيتُ أخيرًا خصلةً من شعر أحمر. اقتربتُ منها فرأيتُ آريل، ولكن كان رأسها فحسب، لعنتُ ما يجري وأنا أصرُّ على أسناني، ثم نظرتُ إلى السيارة من جديد. جفلتُ وشعرتُ بثقلٍ مفاجئٍ في معدتي ، كانت فكرةً سيئة. ستبكي ميا طوال الطريق إلى بورت تاونسند على دميةٍ أصبحت الآن مكسورة وليست ضائعة، ربما يُصلحها والدها، ربما يتمكَّن من لَصقِها بطريقةٍ ما. ثم رأيت الذيل مُنقَسِمًا إلى قسمين، ولكن لم أرَ أثرًا لجسمها العلوي المُغطى بالبيكيني. لَعَنتُ في سري مرةً أخرى. انحنيتُ لأمسكه، ثم سمعتُه.

سَمِعَتُ صوت انسحاق المعدن وانفجار الزجاج. كان صوتًا أعرفه من حوادث شَهِدتُها في مراهقتي، ولكن لم أسمعه على تلك الشاكلة قط من قبل.

سيارة تصطدمُ بسيارةٍ أخرى، بسيارتي وميا داخلها تجلسُ في مقعدها الخلفي.

كان ذاك الصوت صوت النافذة المجاورة لرأس طفلتي الصغيرة، تنفجر، تفرقع مثل بالونٍ زجاجي.

أسقَطتُ رأس آريل وصَرَخْتُ وركضتُ . فَكَّرتُ وأنا أركض أن ما سمعته ليس حقيقيًّا. ليس حقيقيًّا. تَحوَّل صراخي حين وصلتُ إلى السيارة إلى «لا» متكررة. لا . لا . لا . لا .

حين فَتَحتُ الباب الجانبي خلف مقعد القيادة - كان مقعد ميا في اتجاهي - رأيته مُنخَلِعًا من مكانه. اختفى الزجاج الخلفي بالكامل. تَعَلَّقَتْ عيناها الجاحظتان بعينيَّ، فمها مفتوح وثابتٌ على صرخةٍ صامتة. تنَفَّستُ وهي تمدُّ ذراعيها نحوي. حَرَّكتُ مقعدها كانت أرضية السيارة من أسفلها منبعجة، منسحقةً إلى أعلى وأسفل حتى قدميها. كانت قد رفعتْ قدميها اللتين لم يحمِهِما شيءٌ سوى صندل خفيف.

فَكَكتُ حزامها وشعرتُ بذراعيها حول عنقي في لحظتها، شعرتُ بساقيها تدفعان المقعد بقوةٍ كافية لتُبعِدَ كلتينا عن السيارة. التفَّتْ ساقاها حولي، وعانقتها بقوةٍ وبدأتُ أنتحب وأنا أديرها كي لا تواجه حُطَام السيارة.

أبطأت السيارات المارة في كلا الاتجاهين من سرعتها، وأعناق تشرئب من النوافذ حتى يروا الضرر الواقع. وقفتُ على الفاصل العشبي، بعيدًا بعشرة أقدامٍ تقريبًا عن السيارة التي كنا نعتمدُ عليها. تشَبَّثتُ بطفلتي ذات السنوات الثلاث وشعرتُ أن كل شيءٍ يدور من حولي مثل إعصار.

سار نحونا السائق الآخر - فتًى مراهق نحيف ذو شعرٍ مدبب الخصلات- وأوقف سيارته على بُعد مئة قدمٍ تقريبًا. رأيتُ جرحًا عميقًا أعلى عينه

اليُسرى. رفرف قميصه الأبيض المُزَرَّر قصير الكُمين في النسيم، كاشفًا عن فانلةٍ قطنيةٍ أسفله.

سألَنا: «هل أنتما بخير؟» ثم ثُبِّتَت عيناه على ميا. «أوه، يا إلهي! هل كانت في السيارة ؟».

صَرَخْتُ بنبرة صوتٍ جديدة لم أسمعها تصدر مني من قبل: «طبعًا كانت في السيارة يا غبي»، لم يبدُ كصوتي قط. «كيف لك أن تصدَم سيارتي؟»، لم يجب. كررتُ: «كيف لك أن تصدَم سيارتي؟»، كَرَّرتُ السؤال مَرَّةً تلو المرة، لم أكن أوجهه إلى أَحَدٍ في الواقع، ودفنتُ كلماته في عِناق ميا. كيف لهذا أن يحدث لنا؟ كيف نقفُ وسط الطريق السريع وحدنا مع سيارةٍ محطمة ما زلتُ مَدينةً بثمنها ؟ سيارة أحتاج إليها في العمل؟ أحتاج إليها لننجو بحياتنا؟ كانت تلك سيارتنا، لها نفس أهمية ذراعي أو ساقي في مسيرة تقدمنا.

تراجَعَ الفتى، وضغطتُ جبيني على جبين ميا وسألتُها مرةً ثانية إن كانت بخير. قالت بصوتٍ هادئٍ وثابت على غير العادة: «أنا بخير يا ماما. نحن بخير».

قلتُ بأنفاسٍ متسارعةٍ لاهثة: «نحن بخير؟ نحن بخير؟».

قالت مُجَدَّدًا «نعم، نحن بخير». أحكَمتُ عناقي عليها وأنا أشعر بجسدي ينتقل من الهلع إلى الحزن. لَمَسَتْ يدٌ باردة كتفي، فالتَفتُّ وأنا متأهبةٌ لأصبَّ جام غضبي على ذاك الفتى، قبل أن أرى أن اليدَ كانت يد امرأة شقراء ضئيلة الحجم. كان صوتها خجولًا خجلًا حال بيني وبين سماعها أو فهم ما تقوله، ولكن كان القلق باديًا على وجهها.

سألتني: «هل أنتِ بخير؟»، لم أُجب، حدَّقتُ إلى المرأة هنيهةً، كانت شفافةً الدرجة أنها بدت ملائكية. أَيُّ سؤالٍ هذا؟ هل كُنتُ بخير ؟ ليس لدي أي فكرة، كنتُ على بعد شعرةٍ من فقدان طفلتي، الطفلة التي أحتضنها بين ذراعي، الطفلة التي وَضَعَتْ كف يدها على خدي ذاك الصباح وهَمَسَتْ:

«أحبكِ». الطفلة التي شاركتني سريري وأحَبَّت الفطائر المُحَلَّاة. كان ممكناً أن تفارق هذه الطفلة الحياة.

قلتُ: «ابنتي». كانت تلك الكلمة هي كل ما استطعتُ التفكير فيه ولفظه ، ثم دفنتُ وجهي في شعر ميا من جديد.

توقفتْ سيارةٌ أخرى، تَحَرَّكَتْ على مهلٍ خلف سيارتها السوبربان السوداء. كان السائق يتحدَّثُ في الهاتف. لم أستطع فعل أي شيءٍ سوى التشبُّث بميا.لم أستطع التوقف عن البكاء. سيارتي. سيارتي معطَّلة على جانب الطريق ، سيارتي التي لا يُمكنني استبدالها، سيارتي التي لا يمكنني تحمُّل ثمن خسارتها، سيارتي التي كنت أحتاجُ إليها أن تعمل، لأُحافظ على وظيفتي، لأنجو.

وصلت الشرطة أولًا لتحريك المرور ومعاينة الموقف. سألوني عَمَّا حدث، أنصَتوا إِلَيَّ بصبر بين شهقاتي. بدأ رجال الشرطة في فحص آثار الاحتكاك على إطارات سيارتي التي نَتَجَتْ إثر الارتطام والتحرك يسارًا مسافة قدم على الأقل. خُلِعَ الإطار الخلفي الأيمن من مكانه، وانبعج المعدن من تحته. اختلَّ كل شيءٍ داخل السيارة عن موضعه بعد الارتطام. تدلى شريط الكاسيت من المسجل متأهِّبًا ليسقط في أي لحظة. ولكن لم أستطع أن أتوقف عن التحديق إلى مكان جلوس ميا في الخلف، في مقعدها الذي كان قريبًا بشكلٍ لا يُصَدَّق من النافذة المُهَشَّمَة، إلى الأرض التي ارتفعتْ لتلمس أصابع قدميها. تَحَرَّك مقعدها كذلك إلى الجنب بعيدًا عن النافذة، وبطريقةٍ ما، لم تُصَبْ بأيِّ أذى.

أخرَجَ أحدُ رجال الشرطة شريطَ قياسٍ صغيرًا.

سألته وموجةٌ جديدة من الهلع تسحقُ صدري: «ماذا تفعل؟»

قال: «علينا أن نحدِّدَ المتسبِّبَ في الخطأ. تنحِّي جانبا من فضلك».

الخطأ خطئي. طبعًا كان خطئي أنا ؛ كنتُ أنا من أوقفتُ سيارتي على الطريق السريع، وترجلتُ منها بحثًا عن دمية غبية وتركتُ ابنتي في السيارة في مرمى الأذى.

قَفَزَ المسعفان من سيارة الإسعاف، اندفع أحدهما إلى السائق الآخر واتجه الثاني إلينا. وصلتْ سيارة إسعافٍ أخرى، ثُمَّ سيارة الإطفاء. تراختْ حركة السير على الطريق، وحاولتُ أن أتجاهل تحديقات السائقين البلهاء والفضولية، أن أتجاهل شعوري بأننا كنا فرجة المتفرجين.

حين جلستُ مع ميا في مقعد سيارة الإسعاف، أرخَتْ ذراعيها حول عنقي لأول مرة منذُ أن فككتُ حزامها. طَرَح عليها المسعفُ أسئلة، وطَلَبَ فحص صدرها المكشوف أعطاها دبدوبًا قطنيًّا يرتدي بيجامةً وغطاءً لرأسه، عيناه مُغمَضَتان ويداه مضمومتان فيما يُشبه وضعيةً للدعاء.

قال المسعف: «راقبي حالتها الليلة». ذَكَّرَني شعره البني وعيناه وبشرته الزيتونية بأخي لسببٍ ما. «إنْ لاحظتِ أي كدمات أو تألَّمَتْ لأي سبب، خذيها إلى أقرب مستشفى فورًا». نظرَ إلى ميا من جديد. «أو ربما عليكِ أخذها إلى الطوارئ الآن إنْ أردتِ الاطمئنان عليها بالأشعة».

نظرتُ إلى ميا في محاولةٍ لاستيعاب ما قاله، كان المشهد وقتها قد ازداد سوءًا على سوء ،أُصِيبَت وجُرِحَت ونَزَفَت، وعليَّ الإسراع بها إلى المستشفى، في سيارة الإسعاف تلك. هَزَزْتُ رأسي. كانت التفاصيل مُربِكةً للغاية. لم يكن لديَّ فكرة إن كان تأمين ميدك آيد سيُغَطِّي تكاليف الإسعاف، تَخيَّلتُ فاتورةً بآلاف الدولارات أعجزُ عن تسديدها. ولا يُمكنني ترك سيارتي، السيارة التي بمكانة عائلتي. كانت في صندوقها أدوات التنظيف التي وَفَّرَتْ لنا لقمة عيشنا.

عَلَيَّ أن أدفع بنفسي لاستبدالها إن حدث شيءٌ لها، ولكن لن أقدر على دفع ثمنها. لم أستطع أن أغادر دون معرفة ما سيحدثُ في اللحظة التالية.

احتضنتْ ميا دبدوبها وهي تحدِّقُ إلى معدات سيارة الإسعاف. ومَضَت في رأسي مرةً ثانية صورٌ لعينيها محدقتين في جحوظٍ وهي تتنفسُ عبر قناع الأكسجين، شعرها مُضرجٌ بالدماء وتُحيط عنقها دُعامةٌ. رفعتْ ذراعيها نحوي لأحملها مجددًا. حَمَلتُها وعُدتُ بها إلى سيارتنا. تناولتُ الكاميرا من حقيبتي والتقطتُ عدة صور في انتظار أن تحدد الشرطة مصيرنا.

اقتربَ شرطيٌ نحوي، كان أقصرهم، أصلعَ وذا كرشٍ تتدلى فوق حزامه. سألني الأسئلة ذاتها التي أجبت عنها سلفًا؛ لِمَ أوقفتُ السيارة، وكيف أوقفتها، وأوقفتها على بُعد كم قدم، وهل أنَرتُ مصابيحها على الفور.

قال: «سنواصل التحقيق يا سيدتي ونُبَلِّغ شركة تأمين سيارتك بما سنصلُ إليه، لا نعرفُ إنْ كان السائق الذي صدم سيارتكِ لديه تأمين أم لا».

شعرتُ لحظتها أن ركبتي ستخور قواها. هل لديَّ تأمين يشمل الأضرار الواقعة من سائقين غير مؤمنٍ عليهم؟ حَتمًا لدي. كُنتُ ما زلتُ أسدد قَرضَ سيارتي، وأظنُّ أن هذا يعني أن تأميني شامل، وليس تأمينًا على المسؤولية الشخصية فحسب. صحيح ؟ لقد طلبته، صحيح ؟ لم أستطع أن أتذكَّر.

أخرجَ رزمةً ورقية وقَطَعَ منها تذكرة مخالفة. ناولني إياها وعليها رخصتي ووثيقة السيارة وبطاقة التأمين.

نَظَرتُ إلى مبلغ الدولارات السبعين المكتوب على المخالفة دون أن أقبله. أحاول فَهمَ كيف أستحقُّ ذلك. حَدَّقتُ إلى عينيه الزرقاوين الضيقتين وقلتُ: «سيدي، ما معنى هذا بالنسبة إِلَيَّ من الناحية المالية؟»

نَظَرَ إِلَيَّ ثم إلى ميا، التي كانت قد أدارتْ رأسها لتُحدِّق إليه. قالَ منزعجا: «لا أعرفُ يا سيدتي». ثم مَدَّ المخالفة نحوي أكثر وأردف: «بإمكانكِ أن ترفعي دعوى قضائية». ولكن كنتُ أعرف أن معنى هذا أن أرفعَ قضيةً عليه؛ شُرطي،

رجل متحجر القلب، يضع مخالفةً بين يدي امرأةٍ منتحبة كانت على وشك أن تفقد ابنتها، امرأة عاجزة عن استبدال سيارتها، فما بالك بدفع المخالفة؟

حَدَّقتُ إلى مخالفة الركن غير القانوني، ثم رَفَعتُ بصري إلى شاحنة السحب بينما تقترب.

سألني الشرطي: «سيدتي! هل سيأتي أحد لتوصيلك؟». كان قد طرحَ سؤاله أكثر من مرة بالحكم من نبرة صوته.

قلتُ: «لا أعرف». كل مَنْ فكرتُ فيهم كانوا إمَّا في أعمالهم وإما على بُعد أميال. اقتَرَحَ الشرطي أن توصلني شاحنة السحب، ولكن سألته إن كانت ستُكَلِّفُني مالًا ، فأجاب بأنه لا يعرف. قُلتُ وأنا أبكي من جديد: «لِمَ لا يعرفُ أي أحدٍ تكلفة الأشياء؟» ، رَفَعَ كتفيه ورحل كان رجل الإطفاء قد أخرجَ أدوات النظافة من صندوق سيارتي، مع مقعد ميا وحقيبتها المرسوم عليها صورة هيلو كيتي التي كانت تأخذها حين تقضي نهاية الأسبوع مع أبيها.

وقفنا على جانب الطريق نُراقبُ السيارة تُسحَبُ على مزلاق الشاحنة وإطارها الخلفي مائلٌ ومجرور مثل ساقٍ مكسورة. تركوا على العشب عند قدمي صندوق أدوات النظافة، وكيس المناشف، وعصيي مكنسة مكسورتين. كانت ميا ما تزال تلفُّ ذراعيها حول عنقي. بدأ المشهد يتضح ؛ سيتركنا الجميع. سيولينا العالم ظهره.

20

«لستُ أعرفُ كيف تفعلينها»

صَرخَ جايمي عبر الهاتف:« لِمَ فعلتِ هذا ؟»، عَلَتْ نبرته أكثر وأكثر وإلحاحها يزيد: «لماذا أوقفتِ السيارة على الطريق السريع؟ كيف يمكن أن تكوني بهذا الغباء؟»، الكلمات نفسها التي كررتها في رأسي سلفًا. كانت بصوته هو.

قلتُ قبل أن أغلق الخط: «تمام، سأحدثكَ لاحقًا».

بدأت ميا تبكي. أرادَتْ أن تتحدث معه، أرادَتْ أن يأتي ويأخذها. شعرتُ بتقلصات معدتي المألوفة، خِفْتُ أن يستخدم الحادث ضدي ليفوز بحضانتها، ربما هذه الواقعة هي ما سَتُربِحُهُ القضية التي هددني بها كلما أقدَمتُ على فعل شيءٍ لا يعجبه، أرادني أن أدفعَ أنا نفقة الطفلة، أرادني أن أعاني.

تسلل نور مصابيح سيارة جدي الأولدزموبيل الزرقاء عبر السيارات التي ما تزال متزاحمةً من الحادث. لَوَّحَ له رجال الشرطة. رغم أنه كان أقصرَ من أقصرِ

شرطي -الذي سَلَّمني المخالفة - انشغل جدي من لحظة ترجله من السيارة، وراح يومئ إلى عددٍ من الذين لم يرحلوا بعد. ولكن حين سارَ نحونا على جانب الطريق كان وجهه محمرًّا محتَقِنًا ظننته بدايةً غاضبًا مني. سأل مشيرًا إلى كومة الأشياء المُلقاة بشكلٍ غريب على حافة الطريق السريع: «هل ستأتي هذه الأشياء معنا؟» فأومأتُ.

بعدَ أن رَكَّبتُ مقعد ميا في مكانه، ركبنا السيارة الضخمة، وقال جدي إنه في حاجةٍ إلى تعبئة خَزَّانها بالوقود. توقفنا عند محطة الوقود، وركنَ السيارة جوار المضخة. نَظَرَ إِلَيَّ لحظة ثم نظرَ إلى ميا. بدأتْ عيناه تدمعان.

قال ووجه يحمَرُّ من جديد: «ليس معي نقودٌ كافية».

قُلتُ وأنا أضعُ يدي على مقبض الباب: «سأُحاسِبُ أنا».

قال: «هل يمكنكِ أن تحضري معكِ قهوة؟ مؤكدٌ أنك في حاجةٍ إليها. إنني أشربُ الشاي الأخضر هذه الأيام. هل تريدين شايًا أخضر ؟»

أردتُ أن أمزحَ حيال حاجتي إلى عدة كؤوسٍ من الويسكي، ولكن أدركتُ أنني سأكون جادةً في طلبي. قلتُ وأنا أجبر وجهي على الابتسام: «طبعًا يا جدي، فكرةٌ عظيمة».

اعتنى جَدِّي بجدتي طوال فترة زواجهما تقريبًا بسبب تفاقم حالة الفِصام الارتيابي عندها، وخَلَّفه موتها منذ عامٍ ونصف مع وفرةٍ من وقت الفراغ بأشد الطرق يأسًا ووحدةً. كانا يعرفان بعضهما بعضًا منذ أن التحقا بالحضانة. عاشا زوجًا وزوجة، كانت أطول منه -تحديدًا مع البوصات التي يُضيفها شعرها المنفوش - لأنه لم يزدد طوله عن خمسة أقدامٍ تقريبًا. حين كنتُ في سِنِّ ميا وأعيش معهما، لم يُفَوِّتْ جدي فرصةً كي يتباهى بي أمام أصدقائه؛ كان يحكي للناس عن الشرائط التسجيلية التي أغني فيها «باباي رجل البحار» ويعرضُ أن يُسمِعُهم إياها.

انتقل من منزله بعد وفاة جدتي. كان المنزل الوحيد الذي عاش فيه حسب ما أعرف، إضافةً إلى مقطورتها، كان فقدان المنزل حدثاً غريبًا. بعد فترة، استأجر غرفةً من سيدةٍ في المدينة. أتذكَّر زيارته ورؤية التحف الصغيرة التي كنتُ العبُ بها، وشعرتُ بمدى غرابة أن أراه هناك، بالكاد يقدر على تأجير غرفةٍ واحدة. كان ما يزال يعمل وكيلَ عقارات، ولكن الركود ضربَ العمل بشكلٍ كارثي، ولم يعد إلى سابق عهده. بدأ ينام في مخزن مكتبه. ترك عجزي عن مساعدته شعورًا عميقًا بالذنب في نفسي، خَاصَّةً بعد أن آوانا فترةً خلال شجارٍ مع ترافيس. تمنيتُ لو كان بوسعي مساعدته بطريقةٍ ما.

كلما قابلته كان يحاول أن يُعطيني شيئًا من إرث العائلة، أو كتاب تلوين خُطَّ اسم والدتي على غلافه. كنتُ أوافق وآخذ شيئًا أحيانًا لأسترضيه، ثم أتركه في سيارتي لأتبرعَ به. لم يكن لديَّ مكانٌ لأيٍّ من تلك الأشياء. كان جدي يصرُّ عَلَيَّ حتى أقبلها، ويخبرني حكاياتها، كان يقول: «باعَتْ جدة جدة جدة جدتكِ خاتم زواجها لتشتري آلة الخياطة تلك». لم أستطع أن أُبقيَ أيًّا من ذكريات العائلة، أو أن أمنحها المساحة التي تستحق لتعيش فيها. لم يكن في حياتي متسعٌ للاعتزاز بها.

عاودَ ترافيس الاتصال بي بينما أضخُّ الوقود في السيارة. لم يرغب في معرفة أية تفاصيل سوى مكاني ليأتي ويُقلّنا. كنتُ شبه نسيت أنني أرسلتُ إليه رسالةً صوتية. ربما حَثَّتني رغبةٌ في أن يعرف ما حدث لنا. بدا صوته مندفعًا، وسمعتُ صوتَ محركٍ في الخلفية.

سألتُه: «ماذا تفعل ؟»، حَدَّقَتْ ميا إليَّ عبر النافذة. جَعَّدتُ أنفي لها في محاولةٍ لرسم الابتسامة على وجهها وضغطتُ الزجاج بإصبعي، فلمست الزجاج بإصبعها من الناحية الأخرى.

أجاب بنَفَسٍ مقطوع: «إنني أربط شاحنة والديَّ بالمقطورة». تساءلتُ إنْ ظَنَّ أنه عليه أن يأتي لسحب سيارتي المحطمة.

قلتُ: «لا يا ترافيس، نحنُ بخير. توَلَّيتُ أمر كل شيء».

أقفَلتُ الخط قبل أن يفطن لكذبتي. كنتُ أعرف - رغم رجفة جسدي من الصدمة - أنه لو أتى ترافيس لإغاثتنا، لمساعدتي في ترتيب كل شيء، فسوف أخاطر برغبتي في العودة إليه مرةً ثانية.

لقد قَضَيتُ كل الوقت الذي مضى في محاولةٍ لتدبير شؤون حياتي بنفسي، رغم أنني اتصلتُ به بنفسي، لم أرد ان اهرع وأرتمي بين ذراعيه من جديد.

بدأ المطر ينهمر بغزارة في طريق عودتنا إلى المنزل. طَلَبتُ من جدي أن يتوقف عند ولمارت، فظل مع ميا في السيارة في انتظاري، ودخلتُ المتجر. اندَفَعتُ مطأطئةً رأسي، أتجنب النظر إلى أي أحد. تخيَّلتُ أن أي شخصٍ سينظرُ إلى اتجاهي سيتعَرَّفُ عليَّ: المرأة التي كادت أن تقتل ابنتها على الطريق السريع ٢٠ .أرَدتُ - بشدةٍ أكثر من المعتاد - أن أصرخ وسط ولمارت، لدرجة لم أستطع السيطرة عليها وأخافتني. لم أستطع أن أُخرِسَ صوت انفجار النوافذ. رَدَّدَ الصوت نفسه صاخبًا صخبًا دفعني إلى إغماض عيني والشد على أسناني كي أوقفه.

- أين دُمَى الحوريات الغبية ؟

أدركتُ أنني سألتُ بصوتٍ عالٍ حين نَظَرَتْ إليَّ فتاةٌ صغيرة وأمها. كانت الدُمى قد نفدت؛ رأيتُ مكانها خاويًا. ولكن أسفله كان الإصدار الأحدث، دمية أكبر بشعرٍ أكثف وزِرٍّ تضغطُ عليه لتسمعها تتكلم، كان سعرها ١٩,٩٩ دولارًا. تناولتُها. سأتصرفُ في الفواتير لاحِقًا. كان مُحالًا ألَّا أسترد دمية ابنتي في ذاك المساء.

حين صعدنا إلى شقتنا الاستوديو، كان المطر يواصل انهماره بينما أُدخِلُ أدوات النظافة والأكياس مع جدي. سَقَطَتْ شظية زجاج من أحد الأكياس على أرضية الشقة وانغَرَسَتْ في كعب ميا، ولكنها لم تؤلمها بشدة، بل لم تلحظها في أول الأمر. كان جرحها الوحيد جرحًا جسديًّا على أي حال، وبوسعي إصلاحه.

وقف جدي في الشقة في المساحة الضيقة جوار الباب ودار بنظره في المكان. لم يزرنا فيها من قبل. لم يزرني أي أحدٍ من عائلتي. هل أدرَكَ أنني تخلَّصتُ من كل الأشياء التي أهداني إياها ؟

قال: «ليس عندكِ ميكروويف؟»، صَوَّبَ نظره إلى ركن المطبخ.

نَظَرتُ إلى المنضدة. كانت خاليةً إلا من لوحِ التقطيع ورَفِّ الأطباق، وأصغر من أن تتسع لشيءٍ آخر. قُلتُ: «ليس لديَّ متسع لميكروويف».

قال: «يُمكن أن تضعيه فوق الثلاجة». أشار إلى مكان إحدى النبتات. «عندي واحدٌ في المكتب لا أستخدمه، سأحضره لكِ».

قُلتُ وأنا أمدُّ ذراعي لأرفعَ ميا: «أرجوك يا جدي، ليس لديَّ مكانٌ له».

اغرَوْرَقَتْ عيناه بالدمع مجددًا، طَنَّ هاتفي في جيبي. أدركتُ من تراصِّ الأرقام الطويلة أنه كان رقم أمي الدولي.

سألتُه عاجزةً عن إخفاء ضيقي: «هل اتَّصَلتَ بأمي؟»

أجاب: «طبعًا اتصلت؛ ينبغي أن تعرف أن حفيدتها تعرضتْ لحادث».

شعرتُ بفكِّي يتصلَّب. كنتُ أعرف أنه بعد رحيل جدتي كانت أمي لا تنسى الاتصال بجدي كل ظهيرة يوم أحد . كنتُ أعرف أنها تسأله إن كان قد رآنا، أو تسأله عن أحوالنا أو خططنا في تلك اللحظة شعرتُ أكثر من ذي قبل أنها

لم تكتسب حقها في معرفة أي شيء عن حادثتنا. كنتُ في حاجة إليها ذاك الصيف، حين تفاقم مرض ميا واحتاجت إلى تركيب الأنابيب في أذنها. احتجتُ إليها بجانبي مراتٍ كثيرة منذ أن انتَقَلَتْ لتعيش في أوروبا. احتَجتُ إليها وعجزتُ عن الاتصال لأخبرها بذلك. لم يَدُر بيننا إلا القليل من الحديث، كان الصدى يتردَّدُ في مكالمتنا مع تشويشٍ فظيع بينما يجلسُ ويليام على مقربةٍ منها مُنصِتًا لكل كلمة. كنتُ شبه أسمع أنفاسه، ويقهقه كلما ألقَتْ أمي نكتة. لم أستطع تَحَمُّل هذا الوضع، وفاض بي الكيل، لذا انقَطَعتُ عن الحديث معها كُليًّا، وقررتُ مجددًا أن إقصاءها من حياتي كان أقلَّ إيلامًا من وجودها فيها. كان أسهل ألا أنتظر منها أي شيء على الإطلاق. كنتُ غاضبةً منها لأنها هجرت حياتها هنا، لأنها رحلت بعيدًا عجزتُ عن فهم كيف تَمَكَّنت من فعلها، ولم أرغب حتى في أن أحاول فهم مبرراتها.

غادر جدي، ووضعتُ ميا في حوض الاستحمام مع فُقَّاعات الصابون ودميتها الجديدة. اتَّصَلَتْ أمي مرةً ثانية. جَلَستُ على المرحاض جوارها ورأيتُ هاتفي يومض بين يديّ. ورُحتُ أشاهد ميا تلعبُ بحوريتها الجديدة. جلست ميا في الحوض. بشرتها ناعمة أسفل الفقاقيع وشعرها ملتصقٌ بخديها. أردتُ أن أزحفَ نحوها وأحيطها بذراعيَّ وأضع أذني على صدرها وأنصت لنبض قلبها.

هل شَعرتْ أمي بتلك المشاعر نحوي ؟ لِمَ لَمْ تقترب مني وتعانقني لتتمنى لي نومًا هنيئًا ؟ لِمَ لَمْ تُطَمئِنِّي بأنها ستظل موجودة؟ بأنها أحَبَّتني بشدة؟ أردتُ أن أعرف، ولكن ليس بقوةٍ كافية تدفعني لسؤالها. كنتُ أتخيَّلُ أحيانًا أنني أطرح عليها تساؤلاتي، أطالب بمعرفة مبرراتها عبر الهاتف، ولكني كنتُ أعرف أنني لن أصلَ إلى أي شيء. سافَرَت بعيدًا، وكان هذا يكفيها. ربما كان ذاك كلَّ ما أرادت أن تكونه.

ظَلَّتْ ميا مستيقظةً تلك الليلة، ليس بسبب احتقان أنفها أو حكَّة عينيها وألمها، لكن بسبب أنني لم أرد لها أن تنام. حَالَتْ زقزقة صوتها السعيد بيني

وبين البكاء. كنتُ أتحلَّى بالقوة وهي تنظر إليَّ. استلقينا على سريرنا المزدوج على وسادةٍ واحدة وفي مواجهة بعضنا بعضًا.

أغمَضَتْ عينيها وانسَلَّ جسدها إلى النوم، ثم تنهَّدَتْ وانضبط إيقاع أنفاسها. راقبتها، وأنصَتُّ إليها.

نامَتْ ميا ساعةً واحدة قبل أن توقظها نوبة سُعال. كنتُ قد أعطيتها كل الأدوية التي أقدر عليها سلفًا. تحوَّل سعالها الحاد إلى زمجرة؛ كانت غاضبةً من أنها استيقظت ومنهكةً في الوقت نفسه. حاولتُ تهدئتها، غَنَّيتُ لها «Wagon Wheel»، الأغنية التي كانت تُحبُّها آنذاك، ولكنها لم تنجح. ثم أخيرًا، شَرَعتُ -من مكانٍ سحيق في ذاكرتي- في غناء « Goodnight Moon» :

تُصبِحين على خير يا غرفتي. تُصبِحُ على خير ياقمري.

تُصبِحين على خير أيتها البقرة الواثبة على القمر.

تُصبِحُ على خير يا نو رويا بالون أحمر

تُصبِحين على خير يا مقاعد، وتُصبِحين على خير يا دِببَة.

هدأتْ ميا فورًا لتسمعني، وعادت إلى النوم. داعَبتُ الفراغ الفاصل بين حاجبيها بإصبعي، وبكيتُ في صمتٍ قدر استطاعتي وأنا عاجزة عن تصديق أنها نَجَتْ.

في الصباح التالي بقيتُ أنظر إلى ميا وهي تتناول إفطارها، جَلَستُ في حالةٍ من الذهول، كنتُ ما أزال أشعر برهبة معجزة أنها لم تُصَبْ بأذى، طَغَى عَلَيَّ هذا الشعور حَدَّ أنني شعرتُ أنها ليست حقيقية. هاتَفتُ لوني البارحة وأخبرتها

بما حدث، ثم طلبتُ يومًا إجازة لأرَتِّبَ أموري ولَستُ أعرف كيف سأفعل هذا. كان جسدي وعقلي يسيران كيفما اتَّفق. سيأتي تود - رجلٌ خَرَجتُ بصحبته عدة مرات -ليُقِلَّنَا بعد الإفطار. كان مفترضًا أن أخرج بصحبة تود في موعدٍ في نهاية ذاك الأسبوع، وبطريقةٍ ما تذكَّرتُ أن أتَّصِلَ به وأؤجله الليلة الماضية، لكن عجزتُ عن إيجاد عُذرٍ آخر سوى الحقيقة. لم أُرِدْ أن أقِرَّ بأنني في مأزق، وأنه حتى عائلتي ليس في مقدورها مساعدتي. أصَرَّ تود على أن أستعير سيارةً لم يكن يقودها آنذاك، وأخافتني تلك الفكرة. لم أكن أعرفُ موقفي من تود بالضبط، أو حتى إن كُنتُ معجبةً به بطريقةٍ جادة أم لا . اكتَشَفتُ أن بعض الرجال يُصابون بمتلازمة البطولة حين يواعدونني؛ كانوا دومًا يريدون الهرع وإنقاذ الفتاة الواقعة في محنة. لم يَرُقْ لي لَعِبُ هذا الدور، ولكن لم يكن بيدي خيار وأنا في موقفي ذاك. إنني مضطرةٌ اضطرارًا لا مناص منه إلى أن يكون معي سيارة.

أخبَرتُ ميا أن تود «صديقي»، وشَرَحتُ لها أنه سيوصلنا إلى سيارةٍ احتياطية سَمَحَ لنا باستخدامها فترةً من الزمن.

أردَفتُ وأنا أغسلُ أطباق الإفطار: «ثم سأوصلكِ إلى منزل والدكِ».

أَخَذْتُ نَفسًا عميقًا وكَتَمتُه، عَكسَ ما يُفترض بي فعله في لحظاتٍ كهذه؛ حين يرتَجُّ قلبي ويتسارع. سيكونُ عليَّ أن أسير على خطى البارحة؛ أن أقطعَ الطريق نفسه، وأن أركب سيارةً مع ميا. وبغض النظر عن قوة رغبتي في أَلَّا ، أبرح السرير، وأن أظل . ملتصقةً بميا، كان عليَّ أن أعمل. عندي موعدٌ غدًا لتنظيف أحد أكبر المنازل، ويستغرقُ معظم وقتي أيام الخميس. علاوةً على هذا، ستبدأ المحاضرات الأسبوع القادم، وكنتُ في حاجةٍ إلى تنظيم كُتُبي وأرقامي السرية للوصول إلى موادها. وأظنُّ أن عَلَيَّ الاحتفال بعيد ميلادي، بطريقةٍ ما.

جَلَسَتْ ميا في المقعد الخلفي بينما قادَ تود السيارة على طريق آي فايف إلى السيارة التي سيُعيرُنا إياها. بدا مقعدها ثابتًا وعلى ما يُرام، ولكني كنتُ أعرف

أنه عَلَيَّ التخلص منه فور أن أتمكَّنَ من شراء واحدٍ جديد بسبب الحادث، كنتُ أتذكَّر كلما وقعتْ عيني عليه أنني كنتُ على مسافة خطوة من فقدان ابنتي.

فجأةً قالت ميا: «ماتَتْ روبي يا ماما» روبي هو الاسم الذي أطلَقَتْهُ على سيارتنا السوبارو بسبب لونها الكستنائي، وبسبب أنها سمعتني أسميها «سوباروبي» ذات مرة حين نجحتُ في وضع كل مستلزمات التنظيف فيها على دفعةٍ واحدة.

(عزيزي القارئ.. ما دمت تقرأ هذه الرواية فكن على يقين بأن قناة ضَاد هي من قامت بتوفير هذه النسخة! لذا تأكد من أنك تقرأها من قناتنا الرسمية على تطبيق تيليجرام. نعتذر على مقاطعتك، نتمنى لك قراءة ممتعة).

التفتُّ لأنظر إلى ميا ووضعتُ يدي على ساقها. كانت هَشَّةً وضامرة. شعرتُ بالدموع تتجمَّعُ في عيني ثانيةً. كنتُ قد عثرتُ على روبي سيارةً مستعملةً، ولكن في حالةٍ ممتازة، وعَدَّادها يُشير إلى أنها لم تقطع سوى مسافة مئة ألف ميل. قَضَيتُ أنا وميا نِصفَ يومنا في تلك السيارة. تَخَطَّتْ روبي عامها العشرين من العمر، ولكنها كانت من ألطف السيارات التي امتلكتها منذ سنواتٍ طويلة. كانت خسارتنا فادحة، لا تُصَدَّق. عجزتُ عن استيعابها.

قالت ميا وهي تنظرُ من النافذة: «ماتت روبي بسببي يا ماما». كان صوتها واهِنًا. «لأن أريل قَفَزَتْ من الشباك».

التَفَتُّ بجسدي كله لأواجهها من المقعد الأمامي، وقلتُ: «لا يا عزيزتي، لا. كان حادثا. لم يكن خطأكِ ، بل كان خطئي أنا».

قالَتْ ووجهها آخذٌ في الاحمرار، وانحنت شفتها السُّفلى وبدأ الدمعُ يتكوَّر في جفنيها: «ولكنكِ تبكين. كُنتِ تريدين إنقاذ آريل فقط».

لم أقوَ على النظر إليها، لكن أبقيتُ يدي على ساقها. أَرَدتُ بشدة أن أغطي وجهي بيديَّ، أن تستسلم عيناي وفمي في نحيبٍ صامت. ولكن بدلًا عن ذلك، تبادلتُ وتود النظر، وابتَسَمتُ له ابتسامةً شاحبة، عَلَيَّ أن أكون بخير؛ ما مِنْ خيار آخر.

هَدَّأ تود سرعة السيارة على جانب الطريق السريع بعد عدة شوارع، وركن جوار هوندا أكورد ذات بابين، ذَكَّرتني بالسيارات التي قادها الأولاد في المدرسة الثانوية كانت نسخةً بالحجم الطبيعي من سيارات السباق الصغيرة التي كنتُ ألعبُ بها مع أخي. تحقق من مستويات الزيت والمياه، وأضواء إشارات الانعطاف، والمكابح والكشَّافات بخبرةٍ ذكية أثارت إعجابي. تَحَلَّى تود بالكثير من الخصال الجذابة - كان يعمل في مجال المقاولات بينما يُشَيِّدُ مقصورته الشخصية في ارضٍ ملآنةٍ بالشجر بالقرب من بورت تاونسند- لم أعرِفْ لِمَ لَمْ ينبض قلبي له.

قال: «كنتُ سأعرضها للبيع؛ لذا في وسعكِ استخدامها قدر ما تشائين». ثم ناولني المفاتيح.

نجحتُ في أن أتلفظَ بشكرٍ سريع، ثم عانقته. تمنيتُ لو يدرك أنه انتشلني من يأسٍ مُطبِق وتَشَرُّدٍ مُحتَمَل. ولكن كيف كان له أن يفهم هذا آنذاك؟ لم أكن قد أخبرته عن مدى سوء وضعي. أردتُ أن أظهر أمامه امرأةً مساويةً له، أكثر مما أنا عليه فعلًا. كنتُ أشعر بأن مواعدة أي شخصٍ على ذلك النحو تُشبه نكتةً مضحكة.

ارتَجَفتْ يداي بينما عدتُ بالسيارة إلى الخلف لأخرجها من موقفها. شعرتُ بجسدي ينتفض كأنني شَرِبتُ عشرة أكوابٍ من القهوة. دار بخلدي: «لا يجدرُ بي أن أقود سيارة. لَستُ مستعدة». كنتُ متأكدةً أنني سأتسببُ في حادثٍ آخر، رغم ذلك كنتُ الوحيدة التي ستوصل كلينا إلى الأماكن التي ينبغي أن نكون فيها.

تمنيتُ وأنا عند الإشارة - وأنا أعرفُ أننا نقتربُ من مدخل الطريق السريـع - لو أني أعرفُ أحدًا بوسعي مهاتفته كي أستغيث به، أو حتى أتحدث معه. ولكن لم يخطر ببالي أي أحدٍ سيفهمُ ما أمرُّ به، إلا إن كان يعرفُ معنى الأمومة المستقلة؛ أن يكون الشخص البالغ الوحيد المُلزَم بتدبير شؤون عائلته بشق الأنفس مثلما كانت حالي.

حين كنتُ أتحدث مع أصدقائي عن حياتي وأشاركهم غَيضًا من فيضِ التفاصيل والمصاريف والجهد، ومحاولات الموازنة التي لا تنتهي. كنتُ أسمع الجملة نفسها مرارًا وتكرارًا: «لَستُ أعرفُ كيف تفعلينها». يهزون رؤوسهم ودائمًا يحاولون كبت صدمتهم. أردتُ أن أقول لهم إن تلك الساعات القليلة التي يغيبُ أزواجكن فيها لا تُشبه ولا أدنى شَبَهٍ حياة الأمهات المستقلات، ولكنني تركتهن يصدِّقْنَ أن الاثنتين سِيَّان. عَرَّى النقاش معهن الكثير عن نفسي، ولم أكن أتحدثُ سعيًا إلى نيل شفقة أي أحد. إضافةً إلى أنهن لن يفهمن ما أقاسيه إلا إذا جَرَّبن شَظَفَ العيش بأنفسهن؛ يأس الاستمرار في المحاولة لأنها الخيار الوحيد. لم يكُنَّ ليعرفن ماهية شعور أن يكُنَّ محلي -صباح اليوم التالي للحادث-وأنا أقود سيارةً على الطريق نفسه وذاته الذي ما تزال شظايا زجاج نافذتي متناثرةً عليه، أمضي في حياتي كأن شيئًا لم يكن، لأنه الخيار الوحيد المتاح بين يديَّ.

رغم أنني كنتُ على ثقةٍ أن عملائي سيتفهمون ما حدث، فإن شركة الكهرباء لن تتفهم. لم أرغب في أي شيء سوى أن أجلس على الأريكة مع طفلتي المريضة وأملأ لها كأسها بالعصير بينما نُشاهد مسلسل «جورج الفضولي» ثلاث مراتٍ متتالية. ولكن عَلَيَّ العودة إلى العمل، وعليَّ قيادة السيارة. لم أستطع تحديد أيهما كان مستحيلًا أكثر من الآخر.

لم تكن المسألةُ مسألةَ «كيف» سأنجزُ الأشياء قط. إنني واثقةٌ أن كل أمٍّ وأبٍ سيفعلان الأمر نفسه. لا تدور الاستقلالية في تربية الأطفال حول أن الأم أو الأب هو الشخص الوحيد الذي يرعى أبناءه. إنها لا تدور حول إنجاز مهمات الحياة اليومية؛ كانت تلك أبسط الصعوبات التي واجهتها. بل يقعُ

على عاتقي كَمٌّ هائل من المسؤوليات. كنتُ أُخرِجُ القمامة، وأحضر طلبات البقالة التي ذَهَبتُ إلى المتجر لانتقائها وشرائها. كنتُ أنظف، وأبدل مناديل المرحاض، وأرتب السرير، وأنفض الأتربة، وأتفَحَّص زيت السيارة، وأوصلُ ميا إلى الطبيب وإلى منزل والدها، وأوصلها إلى دروس تَعَلُّم الباليه إنْ وَجَدتُ مكانًا يُقَدِّمُ مِنَحًا، ثم أعود بها إلى المنزل من جديد. راقَبتُ كل دوران، وكل وثبة، وكل انزلاق. كنتُ أنا مَنْ يدفع أرجوحتها، وأُرْقِدُها في سريرها كل ليلة وأُقبِّلها حين تسقط. كان القلق يتمَلَّكُني . حين أجلس. أشعر بالتوتر يقضمُ معدتي قلقًا. قَلِقتُ أَلَّا يكفي راتبي فواتير الشهر، قَلِقتُ من الكريسماس الذي لن يحلَّ إلا بعد أربعة أشهر. قَلِقتُ أن يتحوَّل سُعال ميا إلى التهاب في الجيوب الأنفية يمنعها من الذهاب إلى الحضانة. قَلِقتُ أن يُصَعِّدَ جايمي تصرفاته، أن نتشاجر، أن ينقضَ وعده بأن يُوصِلَ ميا من الحضانة ذاك الأسبوع فقط ليُصَعِّبَ حياتي عليَّ. قَلِقتُ من الاضطرار إلى جدولة العمل مرةً ثانية أو إلغائه كُلِّيًا.

مَرَّ كل الآباء المستقلين المترنِّحين على أعتاب الفقر بتلك الظروف. كنَّا نعمل ونُحِبُّ ونعمل. يتركنا التوتر والإنهاك اللذان يتملَّكاننا مجوفين، خاوين، كأشباح لذواتنا القديمة. هكذا شعرتُ خلال الأيام التالية للحادث، كأنني لستُ ثابتةً تمامًا على الأرض التي أسير عليها . أدرَكتُ أنه في أية لحظة قد تَهُبُّ نسمة هواء وترميني بعيدًا.

21

منزل المُهرِّجين

سَمَّيتُه منزل المُهَرِّجين. كانت الزوجة مفتونةً بلوحات توماس كينكيد الطبيعية، وملأتْ بها جدران الطابق الأرضي من منزلها. ولكن تراصَّتْ على السلَّم الطويل المؤدي إلى الطابق العلوي لوحات المُهرِّجين، مهرِّجين حزانى. كانت تصويرًا مُقَرَّبًا لأوجه المهرِّجين بأعينٍ تتعقبني طوال اليوم. كذلك كان لديها تماثيل مُصغَّرة من المهرجين، ولكنَّ اللوحات كانت أسوأ، أشعَرَتني بأنني بلا حول ولا قوة. كنتُ أحدق إليها بمزيجٍ من الهلع والقرف والفضول؛ لِمَ قد يرغبُ أي أحد في تعليق هذه المناظر على جدران منزله؟ ماذا لو انقطعت الكهرباء ووقعَ شعاع الكَشَّاف على أحد هذه الأوجه؟ ألم تكن لتفزعه حَدَّ الموت ؟

كنتُ أنَظِّفُ الطابق الأرضي مرةً في الشهر، كان فيه غرفتان وحمامٌ مجهزٌ لابنيهما الكبيرين. بدا لي أن الولدين لم يعيشا في غرفتيهما قط، ولكن كانت معظم ذكريات طفولتهما مُرَتَّبَةً فيهما بعناية. نفضتُ الأغبرة عن شرائط فرقة

بيل بيف ديڤو، والكتب السنوية من مدرستهما، وساعة ميكي ماوس، نفختُ المساعدات ووضعتُ الدبابيب القطنية عليها. ولكن ذاك اليوم – أول يوم عملٍ عقب الحادثة - اتجهتُ مباشرةً صوب الحمام قبل كل شيء.

شعرتُ أن إغلاق الباب على نفسي في المساحة الضيقة مع المرحاض ردُّ فعلٍ طبيعي أمام الخواء المدوي الذي يَجُرُّني في كل اتجاه. الحمَّامات أمكنة مناسبة للاختباء. أردتُ أن أجثو أرضًا على بطني وأعقد أصابعي خلف رأسي كأنني في حالة تأهبٍ لإعصارٍ قادم، كأن كل شيء سينهار فوق رأسي. بعد الحادث، شعرتُ أن منزل المهرِّجين الضخم ذا الطوابق الثلاثة المطل على المدينة التي عِشْتُ فيها مع ترافيس ضَخَّمَ حالة انعدام سيطرتي على حياتي وانعدام ثقتي في مستقبلنا، احتمالية أَلَّا ننجو ماليًّا.

تكوَّرتُ على ركبتي أمام المرحاض وأخذتُ نفسًا عميقًا. عددتُ حتى خمسة قبل أن أزفر الهواء، ثم توقفتُ لأطوي مناديل الحمام في مثلثات من الأسفل، وأطوي زاويةً في الناحية الأخرى حتى يتشكل رأسٌ مدبب. أرخيتُ يدي إلى صندوق أدوات التنظيف كي أتناول قفازي الأصفر. تناثرت شظايا زجاج الحادث على الأرض.

أعمَتني الدموع. بَدَتْ خزانة الحمام التي هَدَّأت من روعي منذُ لحظات كأنها عانقتني - مثل سَلَّة قمامة. مَددتُ يدي إلى مقبض الباب وهرعتُ بحثًا عن منفذٍ للهواء. خَرَجَ من حلقي صوت صيحةٍ عميقة انتهتْ بالنحيب. البارحة، حَملَقَ إِلَيَّ جايمي غضبًا ونحن على رصيف العَبَّارة قبل أن يندفع لأخذ ميا مني كأنه بطلٌ مغوار أتى لإنقاذ ابنته من أنياب الساحرة الشريرة التي خاطرت بحياتها. بَدَأَتْ ميا تبكي وتستغيثُ بي. قال لها: «لا يا حُبِّي ستأتين معي». ثم رماني بنظرته المعتادة.

جلستُ أمام الحوض. أسنَدتُ جبيني على ركبتي، وحَرَّكتُ خيوط المنشفة البُنِّيَّة بين أطراف أصابعي. دوى صوت انفجار نوافذ السيارة في أذني واختنق صدري. قلتُ لنفسي: «إنني أعمل. إنني أمرُّ بانهيارٍ عصبي وأنا في العمل».

وجدتُ شظايا الزجاج داخل أصابع القفاز نفضتها وارتديته، ولكن ظلت الدموع تُعمي عينيَّ، لذا خلعته وغَطَّيتُ وجهي بيديَّ في محاولةٍ للاختباء.

تناولتُ هاتفي وهاتَفتُ بام على هاتف منزلها.

- لا أستطيع التوقف عن البكاء يا بام. لا أعرفُ ماذا أفعل، لا أستطيع التوقف عن البكاء.

ثم شَهَقتُ.

ستِيفَني ؟ هل أنتِ بخير؟ أين أنتِ؟

كان صوتها قَلِقًا حنونًا، فاشتدَّ بكائي.

قلتُ: «أنا... آه... » ثم وضعتُ كفي على فمي لأمنع انفلات سيلٍ من الأصوات المُحرِجة. لم أتذَكَّر اسم صاحبة المنزل.« المنزل الكبير الملآن بلوحات المهَرِّجين».

سألتني: «منزل آل جاريسون؟».

قلتُ: «نعم». شعرتُ أن الاسم صحيح. «إنني أنظفُ الطابق الأرضي اليوم». كانت الكلمات تخرجُ مني كأنني أركض. «وجدتُ الزجاج في قفازي. انتشر الزجاج كله على ميا. كان ممكنًا أن تموت».

قالت: «طيب...» ثم صمتت كأنها تبحثُ عن الكلمات. «كان مستحيلًا أن تعرفي ما سيحدث... يقولون إن الناس ينجرفون نحو أشياء ينظرون إليها مباشرةً في أثناء قيادة السيارة... ولكنكِ لم تركني هناك وأنتِ تفكرين في أن هذا كان سيحدث، صحيح؟».

خطرَ ببالي السائق - الذي افترضتُ أنه كان يرسل رسالةً بهاتفه أو يشعلُ سيجارة، أو تَشَتَّتَ بطريقةٍ أو بأخرى-. لم يكن يفعل أيًّا من هذا، بل كان ينظرُ

إلى ناحيتي وأنا واقفةٌ في منتصف الطريق بالضبط. أكنتُ أنا المُشَتِّت الذي جعله يحيد عن طريقه؟!

كانت بام مُطَّلِعةً على وضعي المالي؛ تعرف أنني في حاجةٍ ماسة إلى تلك الأعمال، ولَستُ أقدر على تحمل ثمن إلغائها أو أَلَّا أقبض أجرها، أنصَتَتْ إليَّ ذاك الصباح وأنا أحكي لها عن اضطراري إلى قيادة السيارة، عن رجفة يديَّ، عن مروري بموقع الحادث من جديد، عن محاولتي غض بصري عن علامات الاحتكاك السوداء والزجاج المهشم على جانب الطريق، ولكني رأيتُ كل شيءٍ رغمًا عني.

كان عندي منزلٌ واحد أنظفه في ذلك اليوم، ولكنِّي عجزتُ عن ذلك.

اقْتَرَحَتْ عليَّ بلُطفٍ بعد أن أنصَتَتْ لكل ما قلتُ: «لِمَ لا تأخذين اليوم إجازة؟ وغدًا أيضًا؟»

اعتَرَضتُ: «سأستطيعُ العمل غدًا». كان عندي منزل المزرعة فحسب، سيكون تحديًا. «سأكون بخير». حاوَلتُ طمأنة نفسي. ثم أردفتُ: «ربما إنْ أخَذتُ اليوم إجازةً واتَّصَلتُ بشركة التأمين ووضعتُ خطة، فسأشعر وقتها بأنني مسيطرةٌ على كل شيء». بدأتُ أصدق ما أقول.

قالت، وربما كانت تبتسم: «تمام. أحتاجُ منكِ إلى أن تعودي إلى عملك. عليكِ العودة إلى عملكِ. لن يُفيدَكِ بأي شيء الانهيار بهذا الشكل». توقَّفَتْ. سَمِعتُ صوت التلفاز في الخلفية. استأنَفَتْ: «ثِقي في قوتكِ». كان من الصعب أن أثق في وجودها من الأساس.

تَنَهَّدتُ حين أنهيتُ المكالمة، غير مدركةٍ كم كنتُ في حاجةٍ إلى لمسةٍ حنون. صَرَخَ والدي فيَّ البارحة عبر الهاتف لأني كَتَبتُ عن الحادثة على فيسبوك. قال إن أي أحدٍ في وسعه رؤية صور سيارتي المنبعجة واستخدامها ضدي.

قُلتُ: «لن يراها سوى أصدقائي. أحتاجُ إلى أن أحكي للآخرين يا أبي». كنتُ مستاءةً من وسوسته ومتألمةً أن هذا كان همَّه الوحيد.

صرخَ بنفاد صبرٍ قائلًا: «أظنُّ أنه عليكِ أَلَّا تتحدثي عنها مطلقًا. هل أنتِ مدركة أن شركة التأمين قد تقرر أن الحادثة كانت غلطتكِ ؟ هل فَكَّرتِ في هذا أصلًا؟»، ولكنه لم يفهم، لم يكن في وسعه أن يفهم مقدار حاجتي إلى الدعم آنذاك، حتى إنْ كان من تعليقات شخصٍ أسفل صورةٍ عابرة، حتى إنْ كان يَبعُدُ عني آلاف الأميال.

قلتُ بهدوء: «نعم يا أبي، فكرتُ في هذا». صَمَتُّ وأنا أسمعُه يَأْخَذُ نَفَسًا من سيجارته ويزفره. تَمَنَّيتُ لو دعاني إلى منزله، لو اقترح أن يطلب لي البيتزا، أي شيءٍ عدا محاضرة من التوبيخ. «إنني... مم... عليَّ أن أذهب يا أبي» . لاحَظتُ أنه لم يقل إنه يحبني قبل أن يودعني. ولم أقلها أنا كذلك.

يومها لم أعد إلى المنزل، وذهبتُ إلى باحة خردة لأُنَظِّف سيارتي. كان عقدُ الخرز والزجاج الأصفر متدليًا من المرآة الخلفية. تناولتُ فنجان قهوتي الذي صَنَعَتهُ لي صديقتي، كان يكفي جرعتين من الإسبريسو بالضبط. نَزَعتُ مُلصَقَ «بنت ألاسكا القوية» عن النافذة الخلفية. التقطتُ عدة صورٍ لمؤخرة روبي المحطَّمة مشوهة الملامح. انبَعَجَ ركنها الخلفي إلى الداخل، قُربَ غطاء الوقود الذي كان مائلًا إلى الأمام ومُجَعَّدًا مثل ورق القصدير المستعمل.

وضعتُ يدي على الكوة الخلفية، حيثُ تلتقي النافذة الحافة، على الزاوية، أبعد مما تصلُ إليه الممسحة. أغمَضتُ عيني، ودار رأسي. أُقسِمُ إنني شعرتُ بألمها. حَمَى صندوقُ هذه السيارة ابنتي، والآن سيُبَاع خردة أو سيُدهَس. قلتُ لها: «شكرًا لكِ».

جلستُ في بداية المساء على أريكتي أنظرُ إلى السماء الرمادية التي تبدو وكأنها تحبسُ مطرًا غزيرًا. كان يوم الثلاثاء حارًّا ومُشمِسًا، ولكن عادَ الطقس إلى رطوبته الباردة المعتادة التي تأتي مع خريف واشنطن. حاولتُ أن أشعر

بالامتنان أننا لم نقف ذاك اليوم تحت المطر، لم أصدق أنه لم يمر سوى يومين.

ذرعتُ المربع الفارغ في شقتي والهاتفُ يضغطُ على أذني، سَمِعتُ موسيقى الانتظار الكلاسيكية المتحشرجة. اتصل شرطيٌّ ليُبلِغَنِي أن السائق الآخر لا يملكُ سوى الحد الأدنى من التأمين، لذا هاتفتهم على الفور. أجابتني ممثلة شركة التأمين بعد انتظار طال عدة دقائق، قالت: «أكيد. أرسلي إلينا رقم طراز مقعد السيارة وسنرسل إليكِ شيكًا بثمنه. يمكننا تعويضكِ عَمَّا فاتَكِ من العمل أيضًا. سأدَبِّر لكِ سيارةً مستأجرة وننقل سيارتكِ إلى مكانٍ آخر. ستُتَاحُ التعويضات المالية عن الإصلاحات أو تكلفة السيارة لدينا في...»

قلتُ: «انتظري، يعني هذا أنه لم يكن خطئي؟ ستتحملون مسؤوليته؟»

قالت: «نعم، سنتحملُ مسؤولية هذا الحادث بالكامل. لقد تَوَقَّفْتِ على جانب الطريق وكانت مصابيح سيارتك مُضَاءة ورَكَنتِها. لَستِ مُخطِئةً تمامًا في هذا الحادث».

كان صوتها يفيض صدقًا.

- ليسَ خطئي. ليس خطئي.

حتى أنا بدأتُ أصَدِّق الأمر.

قَضَيتُ معظم حياتي منذ أصبحتُ أمًّا في السير بارتباك على أطراف أصابعي على الأرض، حقيقةً ومجازًا، بل أصبحتُ أترددُ في الثقة بسطحها. كلما بنيتُ عليها أساسًا أو أرضًا أو جدرانًا، أو حتى سَقفًا فوق رؤوسنا، يتملكني شعورٌ عميق بأنه سينهار من جديد. كان دوري أن أنجو من الارتطام وأنفضَ غباره وأنهض لأبني من جديد، لذا قَرَّرتُ أن أثق بحدسي، وحين عُدتُ إلى العمل أخبَرتُ بام أنني سأستطيع تنظيف منزلٍ واحد يوميًّا. حين كُنتُ أُوصِلُ ميا إلى

الحضانة وأقطع الطريق إلى أحد المنازل وأنَظِّفُه، بَدَا لي وقتها أن فكرة التوجه إلى منزلٍ آخر وإعادة الكَرَّة مُجَدَّدًا أَمرٌ لا يُحتَمَل. فاضَ بي الكيل.

عُدتُ إلى منزل المهرِّجين بعد أسبوعين. أنزَلتُ أغراضي ووضعتها على السلَّم، ومررتُ جوار الأعين المتحركة لأصل إلى الحمام الكبير. كان في الحمام حوضان مزدوجان، وكابينة استحمام بحجم طاولة مائدة، وحوض استحمام يحتلُّ إحدى الزوايا. أوقفني الأخير مرةً ثانية. كان يبثُّ شعورًا يشبه العِنَاق أو الاحتضان. جَلَستُ داخله حين اتَّصَلتُ بالمحامي. كنتُ ما زلتُ في حاجةٍ إلى معرفة كيف سأنجو من الأزمة المالية التي سببها الحادث.

أخبَرتُ المحامي كل شيءٍ عن الحادث، وما صَرَّحَت شركة التأمين بأنها ستُغطي تكاليفه، ولكن المبلغ المعروض كان بالكاد كافيًا لسداد القرض. كنتُ في حاجةٍ إلى سيارة في التَوِّ واللحظة. أملى عَلَيَّ بضع جُمَلٍ أستخدمها في المرة المقبلة التي أتحدَّثُ فيها مع السيدة المسؤولة عن حالتي. حين هاتفتها بعد ساعات كان صوتي يرتجفُ وأنا أكرر العِبارات التي تَمَرَّنتُ عليها.

قلتُ وأنا أحاول إخفاء أنني أقرأ من ملاحظاتٍ مكتوبة: «أصابني وابنتي ضررٌ بالغ من تلك الحادثة، نومها متقطع، وتجفل بسهولة من أي صوتٍ عالٍ». أخبرتها عن أصوات الفرقعة التي تصدرها سيارة جارنا، كيف تقفز وتفزع بسببها لدرجة أنها تدفعني إلى حافة البكاء أحيانًا. أشَرتُ إلى مستوى التوتر الذي وصَلتُ إليه، وإلى عجزي عن أداء وإكمال مهمات بسيطة كنتُ أنجزها بسهولةٍ وسلاسة في السابق. «يعرضني التوتر العصبي الذي أعيش فيه وشعوري المستمر بتفاصيل الحادث مع العجز المالي عن شراء سيارةٍ بديلة إلى مشقةٍ بالغة». تَنَفَّستُ واستأنفتُ حديثي: «إننا في حاجةٍ إلى العلاج من هذا. أحتاجُ إلى التحدث مع طبيبٍ نفسي، وربما أحتاج إلى الأدوية أيضًا. تحتاج ميا إلى المساعدة كذلك. من المستحيل أن أستطيع تَحَمُّلَ نفقات كل هذا مع تكاليف السيارة الجديدة». تَوَقَّفتُ لأتنفس بعمقٍ مجددًا. «إن كانَتْ شركتكِ ليست مستعدةً لتغطية كل نفقات التعافي من الصدمة النفسية، فسأسعى لطلب مشورةٍ قانونية لأحصل على التعويض المناسب». كنتُ

أسابق الكلمات على الورقة بإصبعي وأنا ألفظها، ولكن تجمدتْ أصابعي عند السطر الأخير. جَلَستُ أرتعشُ وأنتظر.

قالت: «سأرى ما بوسعي فعله». اتَّصَلتْ بي بعد ساعة مع عرضٍ مالي سيُغَطِّي القرض كاملًا، مع ألف دولار إضافية للسيارة الجديدة، إضافةً إلى تعويض عن الأجور الضائعة. حاولتُ أن أظَلَّ رسميةً في شكري لها، ولكن تمنيتُ لو ترى ابتسامتي بعد أن أغلَقتُ الهاتف. لم أبتسم هكذا منذ وقتٍ طويلٍ للغاية.

كنتُ أبحثُ في الإعلانات المُبَوَّبَة على الإنترنت أيامًا، ولكن كان من الصعب العثور على سيارةٍ جيدة بألف ومئتي دولار فقط. ثم وجدتها؛ سيارة هوندا سيڤيك صغيرة ١٩٨٣ لونها سماوي. أتى معي تراڤيس وميا لتَفَقُّدِها. أنفق عليها زوجان كبيران بعض الشيء - يمتلكان ورشة سيارات - ألفَي دولار لاصلاحها وإهدائها إلى فَتًى قريبٍ لهما. كانا قد جَدَّدَا المحرك، وبَدَّلا المكابح وغَيَّرَا الإطارات. قرر الفتى أنه لا يريدُ السيارة، لذا عمليًّا كان هو من سيبيعها لنا كانت تصدر صوتًا كالهدير، ولها ناقل حركةٍ يدوي. كانت مِلكَ الزوجين اللذين احتفظا بأوراقها الأصلية من وقت شرائها جديدةً من معرض السيارات. عَرَضتُ ألفًا ومئة دولار، فوافقوا. سَمَّيتُها أنا وميا لؤلؤة؛ الشيء اللامع الذي يُولَدُ من قلب الظلمة.

بعد خصم ثمن الوقود الذي سيوصلني إلى العمل، كان صافي الأجر الذي أتقاضاه من كلاسيك كلين أكثر بقليل من نصف ما كنتُ أتقاضاه في الساعة. بعد أن ألغيتُ موعدًا في منزل نهاية الأسبوع، حاولتُ أن أُبقي طريق سفري أقل من خمس وأربعين دقيقة، وأن أرفض قبول أي عملاء جدد يقطنون خارج تلك الحدود. ولكن لوني أصَرَّتْ على أن أتولى منزل عميل جديد. قالت: «إنه منزلٌ سيستحقُّ عناءكِ؛ أصحابه غايةٌ في اللطف».

كان للعميل الجديد منزلٌ شاسع، بُنِيَ بناءً على طلبه، وزَيَّنَتهُ الأخشاب المحفورة والجدران الحجرية. نَظَّفتُه عِدَّة مراتٍ فحسب قبل أن أفَكِّر في

تسميته منزل المَحَبَّة. كنتُ أصل إليه عبر طريقٍ عاصف أحاديَّ الاتجاه، تُحيط به الأشجار الباسقة دائمة الخضرة. رأيتُ من أعلى التل - حيثُ كان المنزل- الأراضي الزراعية على مد البصر أسفل الوادي. لم يُغادر الزوج وزوجته المنزل بينما كنتُ أنظفه. غَطَّتْ صور ابنتهما الكبيرة وأطفالها باب الثلاجة والأرفف. بدت غرفة النوم الفارغة المجاورة للمطبخ في حالة استعدادٍ دائمٍ لعودتها.

حَيَّاني الزوج عند الباب، متلَهِّفًا لمساعدتي في حمل أغراضي. هَزَّ كلبٌ من فصيلة جولدن ريتريفر ذيله وحامَ حول قدمي يشمُّها. خَلَعتُ حذائي وابتسمتُ للزوجة، فأجابَتني بمثلها من مقعدها، الذي نَدُرَ أن رأيتها تغادره. أخبرتني لوني وهي تقصُّ عليَّ تاريخ منزل المحبَّة أن الزوج يرعى زوجته في مرضها المزمن على مدار اليوم. ظننتها مصابةً بالسرطان أو أي مرضٍ عضالٍ آخر، بل ظننته مرضًا ميؤوسًا من شفائه. كان التلفاز يعمل دومًا، يبثُّ برنامج د. أوز، أو أحد برامج تطوير المنازل. ولكن فور أن تفتح الزوجة فمها لتتكلم، كان زوجها يهرعُ ليخفضَ صوته. كنتُ أفهمها بصعوبة لأنها تحدثت بصوتٍ خافتٍ ومتلعثم. كان يُطعمها زوجها الغداء ثم يحملها إلى الحمام.

سَافَرَا معًا معظم سنوات زواجهما، وقررا تأجيل إنجاب الأطفال. صُفَّتْ على أرفف غرفة الجلوس طُبُول ومنحوتات خشبية وتماثيل فيلة حجرية، وكتب عن تسلُّق الجبال، كلما تحدَّث زوجها عن حياتهما كان يسأل زوجته بلطفٍ إن كانت تتذكر تلك الذكرى السعيدة. إن تَذَكَّرَتها، كان يبتسمُ بحنوٍّ ومحبةٍ غامرة تُثير فيَّ توقًا خفيفًا لأحظى بحياةٍ تُشبه حياتهما.

تَخَطَّيتُ عدد الساعات المقررة حين نظفتُ منزلها أول مرة؛ لم تكن الحمامات أو المطبخ قد نُظِّفَتْ تنظيفًا عميقًا منذ وقتٍ طويل، واستغرقتُ وقتًا أطول لفرك الأسطح. ارتديتُ معطفي حين انتهيتُ، ثم لوَّحتُ بيدي كي أودع المرأة الجالسة على مقعدها. أشارَتْ إليَّ لأقترب منها، ومَدَّتْ يدها لتُمسِكَ بيدي. وضَعَتْ بيدها الأخرى فاتورةً بعشرة دولارات.

قلتُ: «هذا يتجاوز ما أجنيه في الساعة». ثم تفاجأتُ أنني أفصَحتُ بتلك المعلومة. «هذا ضعف المبلغ المطلوب».

ابتَسَمَتْ، والتَفَتُّ لأمضي إلى الباب أُهَمْهِمُ بالشكر لها. قبل أن أصل إلى الباب واللحظة ما تزال تغمرني، استَدَرتُ إليهما وقلتُ: «يا إلهي، سأشتري هابي ميل لِميا الليلة!»، ابتَسَما ، ثم ضحكنا ضحكاتٍ خفيفة على ما قُلت.

حين انتهيتُ من جمع أغراضي، هَرَعَ الزوج نحوي وأصرَّ على أن أخرُجَ من المرأب لأن السماء بدأت تمطر بغزارة.

وضعنا صندوق الأدوات والمناشف النظيفة، وكيس المناشف التي عليَّ أن أغسلها في نهاية الأسبوع في صندوق سيارتي الصغيرة، ثم طلبَ مني أن أعود معه إلى المرأب. قال: «لم يعد يزورنا كثيرٌ من الناس حاليًّا». ثم ناولني قطعة بسكويت لأعطيها الكلب. حاولتُ أَلَّا أحمرَّ خجلًا بسبب أنه دعاني ضيفة، وعَلَّقْتُ على الدرَّاجة النارية الواقفة جوار الحائط. ابتسم وأخبرني أن ابنته أتت كي تقضي معهما أسبوعًا في الصيف حتى يتمكن من الانطلاق في رحلةٍ على الدرَّاجة النارية نحو الساحل للقاء أصدقائه.

وَقَفَ كلانا في صمت يسمعُ الكلمات التي لم تُنطَق. أردتُ أن أسأله عن زوجته، أردتُ أن أعرف كيفَ كانت حياتهما فيما مضى، كيف ظلَّ سعيدًا خليَّ البال بينما يخوض كل هذا. عوضًا عن ذلك، قلتُ إنني أودُّ الذهاب فى رحلةٍ كهذه واردَفتُ بشرود:« بل حتى لو حصلتُ على يوم إجازة أو يومين سيكون شيئًا لطيفًا». لم أتحدث قط إلى عملائي عن مشقة العمل في تنظيف منازلهم لقاء أجرٍ قليل أحتاج إليه.

قال باهتمامٍ صادق: «فعلاً ؟ إلى أين تودين الذهاب؟»

قلتُ: «ميزولا في مونتانا» كنتُ أربِّتُ على الكلب وأفكر في أن ميا سترغبُ بشدة أن تحظى بواحدٍ مثله ذات يوم. «أنا من ألاسكا. إنها ثاني أفضل مكان في رأيي».

قال مبتسمًا: «إنها كذلك فعلاً. منطقةٌ جميلة. رحبةٌ بشكلٍ غير معقول. الإشاعات صحيحة؛ السماء أكبر هناك».

ابتسمتُ وأنا أدع تصوُّري - حُلمي - يندفعُ عبر جسدي. قلتُ: «أتمنى أن تُتاح لي فرصة زيارتها».

أومأ لي ثم أخبرني أنْ أُسرِعَ كي لا أتأخر على ابنتي الصغيرة. لَوَّحتُ له وأنا أعود بالسيارة إلى الخلف لأخرج من الممر. شعرتُ وأنا في ذاك المنزل بأنني في حضرة أنقى أشكال الحب. لديهما منه ما يكفي ويفيض من باب مرأب المنزل.

كان هذا المنزل فريدًا من نوعه، وكنتُ أتنَهَّدُ لذكراه وأنا أقود سيارتي عائدةً إلى المنزل. ضَجَّتْ معظم أيام الأسبوع بوحدةٍ تخدِّر العقل. كنتُ وحدي طوال الوقت: خلال قيادة السيارة، والعمل، والسهر طوال الليل لأنهي الفروض الدراسية. الاستثناء كان قضاء ساعتين بصحبة ميا في المساء؛ نتناول العشاء وأحَمِّمُها وأقرأ لها قصصًا قبل نومها. نظرَ إليَّ المشرفُ في كلية وادي سكاجيت المجتمعية بعينين جاحِظَتَين حين أخبرته أنني أمٌّ مستقلة وأعمل بدوام كامل. أخبرني: «ما تحاولين فعله هنا مستحيلٌ تمامًا». كان يُشير إلى كَمِّ المواد التي سَجَّلتُ فيها، علاوةً على مسؤولياتي الأخرى. بعد اجتماعنا، تمَشَّيتُ إلى موقف السيارات وجلستُ في سيارتي ولم أُدِرْ المحرك إلا بعد وقتٍ طويلٍ.

ولكن الدراسة لم تكن صعبة، بل مزعجة فحسب. كان عَلَيَّ الالتحاق بمواد أساسية مثل الرياضيات والعلوم، مواد قَرَّرَتْ مؤسسات التعليم العالي فرض إكمالها ودفع ثمنها كي يتلقَّى الطالب الشهادة المرجوَّة. تَحوَّلتْ بعضُ ساعات المواد التي درستها وأنا في العشرينيات إلى سجلي الدراسي، ولكن كنتُ ما أزال

في حاجةٍ إلى دراسة التربية البدنية والتواصل، ودرستُ كليهما عن بُعد وأنا أجلسُ وحيدةً أمام شاشة الحاسوب في مفارقةٍ مثيرة للسخرية.

في حالة لم أنتهِ من الواجبات خلال الأسبوع، كنتُ أعوض ما فاتني في أيام نهاية الأسبوع التي تقضيها ميا في منزل جايمي. أحيانًا كنتُ أنجزُ المهمات مُقَدَّمًا. طَمَسَتْ كل مادةٍ الأخرى؛ كُنتُ أدرس مقررًا في الأنثروبولوجيا وآخر عن الطقس، وتتبخَّر المعلومات كلها من رأسي بعد اختبار الكتاب المفتوح فورًا. لم يكن منطقيًّا هدر الكثير من الوقت والمال والطاقة على الكُلِّيَّة. شعرتُ في البداية أن النهاية بعيدةٌ مني للغاية. وحتى لم أبنِ تصورًا لشكل تلك النهاية. كل ما عرفته أنني كي أصل إليها فعليَّ تسليمُ مقالٍ عن أسماء السُّحُبِ المختلفة. وكذلك أن أكذب في الكتابة عن التمارين الرياضية التي أمارسها.

خلال نهايات الأسبوع الطويلة التي أقضيها دون ميا وتحيطني واجباتي الدراسية، أجلسُ على طاولة المطبخ المستديرة وأُحَدِّقُ بلا هوادةٍ ولا مهرب إلى النوافذ. أحاطت كُلَّ نافذةٍ طبقةٌ خفيفة من الندى، كنتُ أمسحها عدة مراتٍ يوميًّا ونحنُ في المنزل، مع شعورٍ بأن الاختلاف الوحيد بين «داخل المنزل وخارجه» كان فارقًا طفيفًا في درجات الحرارة ولوحًا زجاجيًّا قديمًا.

مع ارتفاع رطوبة الجو، خُضتُ معركةً ضاريةً مع العفن الأسود، الذي تسبَّبَ في مرض ميا ومرضي. بدا أن أنف ميا كان يسيل دوماً بمخاطٍ أخضر. كنتُ أسعل كأنني أعمل في منجم فحم، وتقيَّأتُ ذات مرة. تملَّكني الهلع بعد أن حاولتُ تشخيص نفسي ببحث الأعراض على الإنترنت، فركبتُ سيارتي وهرعتُ إلى الطوارئ. كانت غُدَدي متورمة حَدَّ أنني عجزت عن تحريك رأسي، وظننتُ أنني أُصِبتُ بالتهاب السحايا. وصلت إِلَيَّ بعد أسبوعين فاتورةٌ بمئتي دولار لأنني تحدثتُ مع الطبيب عدة دقائق. اتَّصَلتُ بالقسم المالي في المستشفى في فورةٍ من الغضب، في تصميمٍ تام على أنني لن أدفع هذه الفاتورة من الأساس، وتجاهُلٍ لما قد يحدثُ لحسابي البنكي جَرَّاءَ هذا التصرف. مَلَأتُ عدة استمارات، وأقنعتهم في النهاية بتخفيض الفاتورة عبر برنامجٍ تقدمه

المستشفى لذوي الدخل المنخفض. كانت دائمًا تُذهِلُني حقيقة أن أحدًا لا يُشير أبدًا إلى تلك البرامج. تُكَرِّرُ المكاتب المالية أن التواصل معها مشروطٌ بمناقشة خيارات الدفع فحسب، وليس لأحصل على تخفيض ٨٠٪ على الفواتير.

الطقس الذي يمنعك من مغادرة منزلك يجبرك أيضًا على إمعان النظر في المساحة التي تُسميها بيتك. خطر ببالي عملائي الذين يعيشون وحدهم. تخيَّلتُهم يسيرون في الغرف الخاوية وآثار المكنسة الكهربائية ما تزال واضحةً على السجادة. لم أرغب أن يؤول بي المآل لأعيش مثلهم. لم تعد حيوات عملائي ولا المنازل التي عملوا بجدٍّ لشرائها حلمًا من وجهة نظري. ورغم أنني حلمتُ بهذا الحلم وقتًا طويلًا قبل أن أطلق سراحه، في أصدقِ اللحظات، بينما أنظفُ غرفًا ورديةً وملآنةً بالأزهار والدُّمَى كنتُ أعترفُ بأنني أرغبُ في مثلها لابنتي. لم أقدر على كبح تساؤلي إنْ كان أفراد العائلات التي تعيش في المنازل التي أنظفها يتوهون من بعضهم بعضًا في الغرف المكتظة بألعاب الفيديو وأجهزة الحاسوب والتلفاز.

كانت شقة الاستوديو التي عشنا فيها تلك -رغم كل عيوبها - بيتنا الصغير. لم أكن في حاجة إلى حمامين كبيرين وحمامٍ صغير ومرأب على أية حال، رأيتُ بعيني صعوبة إبقاء كل تلك المساحة نظيفةً طوال الوقت. رغم كل ما يُحيط بنا، كنتُ أستيقظُ صباحًا والحبُّ يشملني. كنتُ هناك، في تلك الغرفة الضيقة، كنتُ حاضرةً أرى رقصات ميا وتعابير وجهها البلهاء الظريفة، وأحبُّ كل ثانيةٍ بكل ما أوتيتُ من قوة. كانت تلك المساحة بيتنا لأننا أحببنا بعضنا بعضًا فيها.

22

هدوء الحياة مع ميا

انخفضتْ درجة الحرارة، وقضيتُ الليل مستلقيةً على السرير أحدِّقُ إلى السقف وأعضُّ شفتي قلقًا كلما سمعتُ صرير ألواح التدفئة. نِمتُ أنا وميا معًا في دفء سريري الضيق. عَلَّقتُ البطانيات والمفارش على النوافذ كي تمنع تسلل البرد. حين كسا الصقيع الأرض والنوافذ بِدَأبٍ، أغلقتُ الأبواب الفرنسية المؤدية إلى مكان نومنا، وعِشنا أيامنا في المساحة الضيقة التي كانت غرفة جلوسنا ومطبخنا، لم تتجاوز مساحتها معظم حجرات نوم الضيوف أو مكاتب المنازل التي كنتُ أنظفها. فردتُ الأريكة ليلًا لننام عليها. وثَبَتْ ميا عليها بحماسٍ وهي تظنُّ أننا سنقيم حفل مبيت مرةً أخرى. منحتنا الأريكة مساحةً أوسع ننامُ عليها، ولكنَّها ظلتْ تنام متكورةً خلف ظهري وتُحيطُ عنقي بذراعيها، فتُدفئ أنفاسها ما بين لوحي كتفيَّ. في الصباح، حين يطنُّ المنبه وبرن في الظُّلمة، أتقلَّب على ظهري كي أتمطَّى، فتحتضن ميا عُنقي ثم تضع يدها على خدي.

ذات ليلةٍ بعد الكريسماس، تحوَّل مطر الشتاء إلى رقاقاتٍ من الثلج في حجم عملةٍ معدنية. غطى الأرض، وتكوَّم في عمق بوصات. سهرتُ وميا حتى تجاوزت الساعة موعد نومها، رُحنا نُراقب الثلوج وأنا أعرفُ أنني لن أتمكَّن من قيادة السيارة صباح الغد على أية حال. ارتَدَتْ ميا بدلة التزلج، وبَدَتْ - تحت نور مصابيح الشارع - ملائكةً ثلجية في الفناء. حين قِستُ الثلج المتراكم

على غطاء لؤلؤة، كان عمقه أربع عشرة بوصة. لم أرَ عاصفةً ثلجيةً كهذه منذ أن عِشتُ في ألاسكا.

هاتَفَتني بام صباح اليوم التالي وأخبرتني أن أبقى في المنزل. لم تُرِد المُخَاطَرَة بأن أعلَقَ في الطريق بين منازل العملاء. أَغلق كل شيءٍ في المنطقة الشمالية الغربية أبوابه حين هطل الثلج. حتى الطريق المجاور لشقتنا حَلَّ عليه الصمت، وانتشرتْ على أطرافه قلةٌ من السيارات التي هجرها سائقوها.

سرعان ما اندمجتْ ميا في اللعب، ولم تتذمَّر بسبب أن بنطالها الحراري ما يزال رطبًا من الليلة الماضية، بل سألتني متى سنخرجُ إلى الثلج مجددًا. راسلني مُعَلِّمٌ درَّس لي فيما مضى وعاش في الحي نفسه على فيسبوك، وسألني إن كنتُ أريد زلَّاجة. قال إنه يمتلك واحدةً رائعة ذات حبل متين وسيتركها لنا أمام شرفته. تقافَزَتْ ميا من الحماس حين أخبرتها، وسألتني: «متى؟ نخرج الآن؟»، ترددتُ. رَغِبَتْ كل خليةٍ من خلايا جسدي في أن تغوص بداخل الأريكة مع فناجين لا تنتهي من الشاي والجوارب الصوفية، وإن انجرفتُ في أحلامي مع نارٍ متوقدة وكتبٍ أقرؤها وكلب متكور أسفل قدميَّ.

قلتُ وأنا أعرفُ أن لا شيء سيغيِّر رأيها: «الطريق طويل». حتى لو كنتُ قد أخبرتها أننا سنسير مسافة يومٍ كامل، فلم يكن لحماسها أن يخبو. ولكنها كانت رحلةً مضنيةً لطفلة في الثالثة من عمرها لتصعد تلاً يمتدُّ ميلاً كاملاً سيرًا على الأقدام وسط ثلوجٍ ستُغطي نصف جسدها. اضطررتُ إلى أن أحملها على ظهري معظم الوقت. توقفتُ في منتصف الطريق الذي سنجدُ في نهايته زلاجتنا في انتظارنا كأنها غنيمة. كنتُ أنظر إلى خلفنا، أعلى المدينة بوسعها، وأرى الثلج الكثيف والصمت يغلِّفانِها.

قضيتُ أنا وميا الصباح كله في الخارج، سحبتُها عبر الحي إلى منزلنا على الزلاجة التي استلقتْ على بطنها فوقها وراحت تأكل حفنات الثلج. رأيتُ آثار جَرَّافات الثلج على الشوارع الرئيسية، وتساءلتُ إن كانت قد وصلت إلى شارعنا. وَقعَ المنزل الذي عشنا فيه آنذاك في أدنى زاوية من الزقاق. وأفضى

الطريقان إلى أعلى التل، كان في سيارتنا الصغيرة - لؤلؤة - عجلات بنفس حجم عجلات عربة ريد رايدر الصغيرة التي اعتدتُ سحبَ ميا عليها. لم تكن فيها إطاراتٌ تناسبُ الثلج، أو حتى سلسلة، ولكن ما كنتُ لأقدر على شرائها من الأساس.

بعد أن أذابت الشمس الثلج بقية اليوم، انخفضتْ درجة الحرارة حتى وصلت إلى درجة التجمُّد تلك الليلة، ولم نشعر بالدفء في اليوم التالي. افترشَ مفرشٌ سميك من الثلج شارعنا. راقبنا جيراننا يحاولون الوصول إلى سيارتهم في نهاية الزقاق، ولكن باءت محاولاتهم بالفشل. ربما بوسعي تأجيل السداد من حسابي البنكي هذا الشهر، أو أخذ نقودٍ من الرصيد المتاح، ثم أودعها في حسابي البنكي وأسدد الفواتير. كنا في نصف الشهر، لذا معظم الفواتير كانت مسددة سلفًا، ولكن لن يصل الراتب الحالي إلا بعد أكثر من أسبوعين، حين يحلُّ موعد سدادها من جديد. ومع درجات الحرارة هذه، قد تقل بنحو مئة دولار.

قضينا معظم تلك الأيام الثلجية في غرفة الجلوس والمطبخ. كان مكان نومنا قارسَ البرودة لدرجة أن الجليد تجمَّع على حواف النوافذ، فكانت ميا ترتدي معطفها لتحضر ألعابها. لم يعرض تلفازنا سوى القنوات المحلية، لذا شاهدنا أفلامها المفضلة مرةً تلو المرة تلو المرة. آلم رأسي فيلم هيلو كيتي راقصة الباليه، كانت الأصوات فيه حادةً وصاخبة.

أغلقناه أخيرًا واستبدلنا به الألوان المائية.

رسمتْ ميا صورًا بينما أومئ لها في استحسانٍ وأقصُّ عليها القصص. لم أحظَ بفرصة قضاء الوقت مع ميا في الآونة الأخيرة، عادةً لا يتبقَّى لنا سوى أيام نهاية الأسبوع التي لا تقضيها في منزل أبيها. مع قلة المال، كان عليَّ ابتداع طرقٍ تسلي جسدها النَّشِط وذهنها المشتعل. كنا نعجز عن زيارة متحف الأطفال في الأيام الماطرة، أو حتى الذهاب إلى ساحة ألعاب ماكدونالدز حتى

تتمكن من حرق شيءٍ من طاقتها. كذلك لم نتمكن من الاستمتاع بالأيام المشمسة في حديقة الحيوانات أو الملاهى المائية.

أحيانًا كان مجرد السير على الرصيف خلف عائلةٍ مكونةٍ من أبٍ وأم يُثير في داخلي مشاعر الوحدة المُخزية. كنتُ أتفحصهم؛ يرتدون ملابس أعجزُ عن شرائها، مع حقيبةٍ لطفلهما مُعَدَّة بعناية في عربة باهظة الثمن.

يُمكن لأولئك الأمهات أن ينطِقْنَ بعباراتٍ مُحالٌ أن أقولها، مثل: «هل يمكنك أن تُمسِكَ الحقيبة يا عزيزي؟»، «فلتحمل الطفلة لحظةً من فضلك». كان يستمتعُ طفلهما بالتنقل من ذراعي أمه إلى ذراع أبيه. قلتُ لميا مراتٍ لا تُحصَى إن عليها أن تمشي لأن ذراعي متعبتان ولا أستطيعُ حملها.

خلال أول يومٍ من أيام الثلج، حاولتُ إخراس أصوات مشاعر الذنب والخجل التي ألَحَّت في سؤالي إن كانت ميا ستحظى بحياةٍ أفضل مع شخصٍ آخر، إن كان قراري بجلبها إلى هذا العالم كان قرارًا خاطئًا. أرَحتُ ذقني على يدي وراقبتها ترسم بحرصٍ وجهًا مبتسمًا. ارتدت كلتانا كنزة ثقيلة وجوارب، وعبق الهواء برائحة الصقيع.

آلمني قلبي على ابنتي أكثر من المعتاد خلال تلك الشهور التي رأيتها تعاني فيها من التنقُّل ما بين منزل أبيها ومنزلي. تحوَّل يوم الأحد - الذي أقود فيه السيارة مدة ثلاث ساعات كي أعود بها إلى المنزل- إلى مساءٍ محتشد بالامتعاض والتوتر والرعب لكلتينا. كانت تنام الطريق بطوله أغلب أيام العام الماضي، مُنهَكةً من اليومين اللذين يقضيهما والدها في استعراضها أمام أصدقائه ليُريهم أنه أبٌ عظيم. كانت تبكي في أحيان أخرى لتذهب إلى جايمي، وهو ما كان يُرهِقُني ويُغضِبُني في آنٍ واحد. لم أندم قط على قرار البقاء في واشنطن قدر ندمي خلال تلك الأُمسية. يُشبه الفقر بركة راكدةً من الوحل تجرُّ قدميك وتأبى إفلاتك.

في يوم الأحد ذاك - قبل العاصفة الثلجية - صرختْ ميا فيَّ طوال عودتنا إلى المنزل صراخًا طال تسعين دقيقة، من لحظة وقوفنا على رصيف العَبَّارة إلى أن وصلنا إلى الشقة. لم أفهم قط ما حدث، أو ما قاله لها ليُغضِبَها إلى هذا الحد. صَرَخَتْ في وجهي ذاك المساء بالصوت البربري الحيواني نفسه الذي صَرَخَتْ به خلال عمليتها الجراحية.

كَرَّرَتْ وهي تركلُ بقدمها: «أكرهكِ! أريد أن أقتلكِ! أتمنى لو تموتين!». استَغَلَّ والدها كل لحظةٍ ممكنة ليتلاعب بأفكارها ويقنعها بأنني كنتُ الحائل بينها وبينه، وأخبرها عن مدى حزنه لأنها لا تعيش في منزله، كان سيحاول إن أراد فعلًا أن يقضي معها وقتًا أطول. كان على الأقل سيُعِدُّ لها غرفةً خاصة. ولكنها لم تعرف كل هذا. كان يُحِبُّ فكرة أن تريد ميا هذا. يُحِبُّ أن يراها تبكي لتكون معه. في سنتها الأولى، كانت تعود مُغتَمَّةً بشدة، فكنتُ أحتضنها ساعاتٍ وجسدها جامدٌ من الغضب والألم. تكون في حالةٍ فوضوية من الدموع والصراخ حتى تخور قوى صوتها وجسدها. كل ما كان باستطاعتي فعله هو أن أحتضنها وأتمنى لها حياةً مطمئنةً أكثر من أي أحدٍ آخر.

مساء العاصفة، علقنا في كُرَتِنا الثلجيَّة، ولكن كنتُ مسرورةً بشرب الشاي والقهوة ومراقبة ابنتي وهي تدندنُ الأغاني لنفسها وتغمس فرشاتها في لونٍ جديد. كانت ميا أصغر من أن تتمكَّن من صياغة مشاعر الفقد في كلمات، مشاعر الارتباك والحزن والحنين، أو الغضب، ولكن إدراكي هذا لم يُخفِّف مشقة الأوقات التي تنفجر غضبًا فيها. أملَتْ عليَّ غريزتي دومًا أن أعانقها، ولكنها كانت تلكمني وتصرخُ بصوتٍ يعلو ويعلو. أحيانًا كنتُ أردُّ على صراخها بالصراخ، وكنتُ متأكدةً أن جيراني انتابهم القلق عبر جدران شقتنا الرفيعة. لم أعرف ما عليَّ فعله في تلك اللحظات. لم يكن لديَّ مصادر أستعين بها؛ لا أمٌّ أتصل بها، ولا مستشار تربوي أستشيره أو اختصاصي نفسي، ولا حتى مجموعة من الأمهات أتواصل معهن. كنتُ أطلب من ابنتي أن تتجَلَّدَ وتتكيفَ مع حياة القفز من شخصٍ إلى آخر لرعايتها، وكانت تصرخُ أسفل

هذا الثقل. كيفَ لربة منزل - طفلها يمرُّ بنوبات غضب توقًا إلى أشياء عادية - أن تفهم غَضَبَ ابنتي ؟

أقامَتْ حضانة ميا في ذلك الخريف يومًا للآباء، أو ما يشبه مأدبةً مفتوحة، وظلتُ هناك وقتًا طويلًا أحاول أن أندمج معهم وأتعرَّف عليهم. كان لمُعظَمِ الأطفال مِمَّن في سن ميا أباء وأمهات؛ الاثنان. تجمهروا حول الجدة جودي، التي أحاطتهم بطبيعتها المرحة. كانت ميا تركضُ داخل المكان وخارجه مع مجموعةٍ من الأطفال وتركتني أقفُ وحدي، فسَمِعتُ امرأتين جواري تشتكيان زوجيهما. لم أستطع منع نفسي من الالتفات والنظر إليهما، فلاحَظَتا أنني سمعتهما.

قالت تلك التي كانت تُنصِتُ لشكوى صديقتها: «مؤكدٌ أن الوضع أصعبُ وأنتِ وحدك!»، أومأتُ وأجبرتُ فمي على التمدد فيما يشبه الابتسامة.

قالت الأخرى: «إذن أنتِ أمٌّ مستقلة يا ستِيفَني ؟ مَرَّت صديقتي بطلاقٍ مروع من وقتٍ ليس ببعيد، وهي الآن تعيش وضعًا صعبًا. هل تعرفين أي منظماتٍ قد تُساعدها؟».

قُلتُ وعيناي ترمشان في ارتباك: «ممم.... طبعًا».

وقف عند الطاولة المجاورة لنا ثلاث نساءٍ يحملن أطباقًا صغيرة من أعواد الجزر وقطع البروكلي مع صلصة الرانش. كلهن صَوَّبن أنظارهن نحوي؛ الأم المستقلة المثالية. هَمهَمتُ بعدة أسماء لبرامج الغذاء ورعاية الأطفال.

عَلَت أنفاس إحدى الأمهات -كانت سيدةً قصيرة بشعرٍ منتفخ ووجه مستدير - ورَفَعَتْ رأسها عاليًا ثم قالت: «حين فُصِلَ جاك من عمله الشتاء الماضي، اضطُرَّ ثلاثتنا إلى الانتقال إلى منزل والدي. تتذكرين؟»، وَكَزَت المرأة الواقفة جوارها. «تلك الغرفة الضيقة التي حشرنا فيها سرير جيلي الصغير بجانب الجدار ؟ كان الوضع كما لو كنا مشردين، بل كنا فعلًا مشردين!»،

أومأت المرأة التي وكزتها بمرفقها وأظهرتْ تعبيرًا حزينًا على وجهها. «ولكن حمدًا لله أننا كنا ندخر المال الطوارئ كتلك».

أومأتْ أمٌّ أخرى. التَفَتْن جميعهن نحوي في انتظار سماع ردي. نظرتُ إلى طبق ميا الملآن برقائق البطاطس والهوت دوج الذي نَسِيَتْه فَحَمَلَتُه من أجلها. لم أشارك بأي طعام، لذا قرَّرتُ أَلَّا أتناول أيًّا منه. ماذا عَلَّهم يقولون عن الغرفة التي نعيش فيها ؟ لم أستطع تأمين منزلٍ لها أو طعام، وقبلتُ صدقات المساعدة في المساحة الضيقة التي نقيم فيها. كان الجزء المثبط لعزيمتي -أكثر من أن يَعلَقَ الواحد في النظام - هو العقوبات التي شعرتُ أنني أتلقَّاها لأنني أُحَسِّنُ حياتي. مرتين تخطى راتبي الحدَّ ببضعة دولارات، وكنتُ سأخسر مئات الدولارات من الإعانة بسبب هذا. بسبب عملي لحسابي الشخصي، كان عَلَيَّ أن أقدم تقريرًا عن دخلي كل عدة أشهر. إن جَنَيتُ خمسين دولارًا زيادة، فستزيد الحصَّة التي أدفعها للحضانة بالقدر نفسه. وفي أحايين أخرى كنتُ سأفقد دعم رعاية الطفل كله. لم أجد حافزًا ولا فرصةً لأدخر المال. حبسني النظام؛ أعاني شظف العيش دون خطةٍ كي أتملص من قبضته.

سألَتْ إحدى الأمهات عَمَّن انتهى زواجها بالطلاق، ثمَّ أرخين حبال حذرهن في دفء النميمة، فتَمَكَّنتُ من الانسحاب بهدوء.

ربما شعرن مثلي قليلًا. ربما خيبت زيجاتهن آمالهن وتركتهن في وحدةٍ تتجاوز حدود معرفتي. ربما أردنا جميعًا شيئًا يئِسنا من أننا سنحظى به يومًا.

فكرتُ في نوبات غضب ميا، في فقدانها الوشيك في حادث السيارة، في ارتدائنا معاطفنا داخل المنزل لأننا لا نقدر على دفع ثمن فاتورة المدفأة. فكرتُ في نهايات الأسبوع الطويلة التي قَضَيتُها كلها أفركُ المراحيض وأدعك الأرضيات دون ميا.

قررتُ ذاك الشتاء قرارًا جديدًا وكتبته في يومياتي على الإنترنت بعزمٍ متجدد. تمركزت المدونة التي كتبت فيها آنذاك حول كل الصراعات التي واجهتها ولم أستطع التنفيس عنها في أي مكانٍ آخر. كتبتُ من حينٍ إلى آخر عن لحظةٍ من الجمال، من الوضوح، من الاندهاش أمام الحياة التي أعيشها أنا وميا. قررتُ أن أصبَّ جمَّ تركيزي على هذا فحسب، أن أغيِّرَ تكوين حياتنا، وسَمَّيتها «هدوء الحياة مع ميا». أردتُ اقتناص تلك اللحظات، كتلك اللحظة التي عشتها وأنا أكتبُ هذا، أجلسُ إلى طاولتنا غارقةً في أفكاري بينما أراقبها ترسم، فقط لأُبقي تلك اللحظات حيةً في ذاكرتي.

غَدَتْ تلك اليوميات مثل حبلٍ منقذ كنتُ أنتظره، متنفسًا للكلمات والصور ، طريقةً للانفصال عن التوتر والخوف الذي أعيشه في حياتي، ولأرَكِّزَ على ما احبه أيَّما حب، ابنتي والكتابة. التقطتُ صورةً لميا وهي مدهوشة. جعلتني اشعر تلك الثواني التي عثرتُ عليها أنني كنتُ موجودةً بجانبها أكثر مما كنتُ في واقع الأمر.

لم تكن تلك الحياة التي تمنيتها لنا، ولكنها كانت الحياة التي بين أيدينا. كان عليَّ أن أكرر على مسامعي قولاً واحدًا: «لن تستمر الحياة على هذا النحو إلى الأبد». وإلا كان شعوري بالذنب حيال تسمية تلك الغرفة بيتًا، أو حيال أن أقول لابنتي إن هذا كل ما لدينا سواء كنتُ أقصد المساحة أو الطعام، كان هذا الشعور سيبتلعني. تمنيتُ الكثير والكثير من أجلها؛ أن تحظى بمنزلٍ يُطِلُّ على فناءٍ عشبيٍّ وآخر مرصوف، أو رصيف تلعبُ عليه الحجلة. قالتْ ميا كلما لعبنا لُعبة: «لنتخيَّل منزل أحلامنا»، إنها تريدُ صندوقًا رمليًّا، وأراجيح مثل التي في مدرستها. شعرتُ أن تصوُّرَ مستقبلنا وخططنا كان ذا أهميةٍ بالغة بالقدر نفسه لكلتينا.

كانت تلك انطلاقة رحلتنا ؛ بدايتها. شعرتُ وأنا جالسة على الطاولة أن الزمن توقف لحظةً، مدة ضربات فرشاتها. شملنا الدفء في تلك اللحظة. كنا لبعضنا بعضًا، ولنا بيتنا، ونعرفُ أصلب وأعمق أشكال الحب. قضينا وقتًا طويلا نقفز من حالٍ إلى حال، نخوضها ونصل إلى نهايتها، ونعيد الكَرَّة من

جديد؛ فلن أنسى أن أتنفس نفسًا عميقًا في تلك بِ◌ْ◌◌اللحظات العابرة من الجمال والسكينة.

هاتفتني بام مساءً، وتحدثتُ معها بينما أجلسُ في مكاني على طاولة المطبخ وأحَدِّق إلى الثلج. سألَتني وفي صوتها ما يشبه الفزع أو لمحةً من الأمل: «هل يمكنكِ الخروج من المنزل؟»

قلتُ: حاولتُ تحريك سيارتي قبل قليل». نهضتُ وسِرتُ إلى مساحة نومنا لأنظر من النافذة. «خَرَجتُ بها من ركنتها إلى الشارع، ولكن دارت الإطارات في مكانها، وتركتها هناك». هَزَزتُ رأسي، ابنة ألاسكا بكل معنى الكلمة. خَرَجَ جاري ليساعدني في إعادتها إلى مكانها، لكن فشلنا». نَفَضتُ الصقيع العالق على النافذة. تركتُ لؤلؤة مركونةً في مكانها، وبالكاد يبرز واقي صدماتها من الطريق. كان من المفترض أن لعنة الثلج هذه لن تغادرنا سوى بعد يومٍ أو اثنين. ورغم أن معظم الطرق الرئيسية كانت مستقرة، وقعتْ منازل معظم عملائي في الغابة أو أعلى التلال. لو عَلِقتُ في مكانٍ ما كُنتُ سأخاطر بألا أعود إلى ميا في الوقت المحدد، ولم يكن لديَّ أحدٌ أهاتفه عند الضرورة.

تساءلتُ لحظةً إن كانت بام ستفصلني من العمل لعجزي عن أدائه. لم أتغيب عن هذا القدر من المهمات من قبل، وكان تاريخي المُشَرِّفُ يقف في صفي. ولكن لثوانٍ معدودات لم أهتم. كنتُ أكره ذاك العمل بقدر ما أكره الاعتماد عليه. كرهتُ حاجتي إليه. كرهتُ أنني مضطرةٌ إلى أن أمتَنَّ لأنني أحظى به. أخبرتُ بام: «سأعَوِّضُ ما سيفوتني».

أجابَتْ: «أعرفُ هذا يا ستف». ثم انتهت المكالمة.

نفضتُ الثلج عن النافذة أكثر. أدارت ميا التلفاز مرةً ثانية. خَرَجَتْ أنفاسي في غيومٍ صغيرة. حين مَدَدتُ يدي لأسحب دُمَى ميا القطنية وأُبعدها عن النافذة، التَصَقَتْ قِطَعٌ من فروها المزيَّف متجمدةً على الزجاج.

امتَدَّ الغروب في الأفق خارج المنزل. قررتُ أن أُعِدَّ الفطائر المُحَلَّاة لميا على العشاء وأضعَ عليها المثلجات بنكهة الشوكولاتة بالنعناع. قَرَّرتُ أن أعدَّ لنفسي معكرونة رامين وبيضتين مسلوقتين مع ما تبقى من البروكلي المُجَمَّد تَحَمَّمَتْ ميا، ورُحتُ أكتبُ في يومياتي تحت اسمها الجديد، ونَشَرتُ صورًا من مسيرتنا وسط الثلج لنُحضِرَ الزَّلَّاجة. كانت وجنتا ميا مضرجتين بالحُمرَة، وانسَلَّتْ خصلاتٌ من شعرها من قبعتها والتَفَّتْ حول نفسها على جانبي وجهها وهي تَلعَقُ الثلج بحرصٍ على طرف قفازها الوردي. كانت الدنيا هادئة. صدر الصوت الوحيد المسموع من أقدامنا وهي تثقبُ الثلج.

على حافة الحوض، صَفَّتْ ميا دُمى «ماي ليتل بونيز» التي أهدتها إليها احدى صديقاتي. نادَتْ عليَّ: «أنهيتُ الاستحمام يا ماما». حملتها والفقاعات تغطيها، بشرتها متوردةٌ من المياه الدافئة، ولففتها بمنشفة كنتُ قد وضعتها على غطاء المرحاض. كانت تكبر. مَرَّ زمنٌ طويل منذُ كانت رضيعةً صغيرةً أحملها بين ذراعيَّ.

نِمنا ذاك المساء على الأريكة للأسبوع الثاني على التوالي. قفزتْ ميا في الأرجاء يملؤها الحماس لقضاء حفلة مبيتٍ أخرى معي، وشاهدنا معًا «البحث عن نيمو» مرةً أخرى.

غَرِقَتْ في النوم في منتصف الفيلم. قُمتُ وخَفَضتُ درجة الحرارة. ستمرُّ ثلاث ساعاتٍ على الأقل قبل أن أغفو. وجدتُ نفسي أتمنى كأس نبيذ أو فنجان قهوةٍ بلا كافيين؛ أي شيء يبثُّ الدفء في جسدي. ولكن تسللتُ إلى السرير عوضًا عن ذلك بجوار جسد ميا الدافئ، وشعرتُ بأنفاسها ترتجفُ في نومها، حتى جرفني النوم أخيرًا.

الجزء الثالث

23

ابذلِي جهدًا أكبر

نادت الممرضة: «إيميليااه؟». حَرَّكتُ كتفي أسفل رأس ميا كي أوقظها.

قلتُ وأنا أقفُ وأرفعُ ابنتي لأحملها بين ذراعيَّ: «نحن هنا! نناديها ميا».

لم تستجب المرأة لما قُلتُه، ولا لكوني أحمل طفلتي ذات الأعوام الثلاثة. أخبرتنا أن نتبعها فحسب. وقفنا لحظةً سريعةً حتى تقف ميا على الميزان ثم جلسنا على مقعدٍ آخر ننتظر.

سألت الممرضة: «مِمَّ تشتكين؟». لَمْ تنظر إلينا، بل أولت الملف الذي تحمله كل اهتمامها.

بدأتُ كلامي: «مَرَّت بنوبةٍ حادة من السعال كل ليلة من ليالي الأسبوع الماضي». حاولتُ أن أتذكَّر تاريخ مُعاناتها الطويلة، وكم مرة تركتها في الحضانة في حين كان ينبغي أن تظل في المنزل. «أظن أن جيوبها الأنفية ملتهبة، أو ربما هي الحساسية؟ تحمرُّ عيناها بشدة أحيانًا، وكذلك تشتكي ألمًا حادًا في أذنها».

تجاهلتني الممرضة نوعًا ما، كانت امرأةً جسيمةً وخشنة المنظر. ولكن حَلَّت نظرةٌ مُشفِقَةٌ على وجهها إلى ميا الجالسة في حضني. قالتْ بصوتٍ طفولي: «أذنكِ تؤلمكِ يا حلوة؟»

أومأت ميا، كانت منهكةَ القوى، فلم تخجل أو تشاغب. تَرَكتِ المرأة تقيس حرارتها وتعلِّق مشبكًا بلاستيكيًّا على إصبعها لقياس نبضها ومستوى الأكسجين في جسدها. ثم جلسنا ننتظر. أسنَدتُ رأسي على الحائط، وأغمضتُ عينيَّ وحاولتُ أَلَّا أفكر في العمل الذي يفوتني. كان عليَّ تنظيف منزل النباتات، استاءت صاحبته من تأجيل الموعد مرةً تلو المرة، لدرجة أن لوني قالت إنها شبه هَدَّدَتْ بأنها ستُلغي التعامل مع الشركة. سَعَلَتْ ميا سعالها المبحوح مرةً ثانية. كانت سنها صغيرة، فلم أتمكَّن من إعطائها شراب السعال، وكأنني سأقدر على شرائه على أية حال. استيقَظَتْ ميا مرتين ليلة البارحة، بَكَتْ بكاءً يشبه العويل بينما تقبض بيديها على جانب رأسها، وسَعَلتْ خلال نومها.

لم تكن طبيبة الأطفال التي فتحت الباب هي الطبيبة المعتادة، لأنني اتصلتُ صباح اليوم طلبًا لموعدٍ في اليوم نفسه. تلك المرأة كانت أصغر حجمًا وصبيانية الطابع ولها شعرٌ أسود يشبه شعر ميا في قصته.

-حسنًا، ماذا لدينا هنا ؟

نَظَرَتْ إلى المخطط وضيَّقَتْ عينيها.

- ميا.

قلتُ في نفسي: «يعني هذا أن الممرضة سمعتني. رَفَعَتْ ميا رأسها حين سَمِعَت اسمها».

قالت الطبيبة: «لِمَ لا تُجلسينها هنا ؟»، رَبَّتَتْ على كرسيٍّ مُجَهَّز عند طاولة الفحص. نظرتْ إلى وجه ميا حين رُحتُ أتحدث، ثم نَظَرَتْ إلى عينيها.

سألتني: «كيف هي ظروف معيشتكما ؟». قَطَبتُ وجهي أمام السؤال وأنا أكافح شعورًا غامرًا مُلِحًّا بالألم والإهانة. كان في وسعها أن تقول: «كيف الأحوال في منزلكما؟» أو «هل هناك شيءٌ معين يُمكن أن يتسبب في مرضها؟» أو «هل لديكما أي حيواناتٍ أليفة في المنزل؟» أو أي سؤالٍ آخر عدا السؤال مباشرةً عن ظروف معيشتنا، كأننا كنا نعيش في... ثم خطر ببالي ما نعيش فيه، وخَرَّت كتفاي.

قلتُ بهدوءٍ كأنني أعترفُ بسرٍّ خطير: «نعيش في استوديو». شعر جزء مني بالخوف من أن تتصل بخط نجدة الطفل إن تَحَدَّثْتُ بإسهابٍ عن ظروف معيشتنا. «يظهر الكثير من العفن الأسود على حواف النوافذ. أظنه يأتي من القبو. توجدُ فتحةٌ صغيرةٌ في غرفة نومنا، أنظر منها وأرى الأرضية المتَّسِخَة». توقفت الطبيبة عن فحص ميا، ووقفتْ بيدين معقودتين أمامها. كانت ترتدي ساعةً صغيرة الحجم ذات إطارٍ أسود. «توجد به نوافذ كثيرة». نظرتُ إلى الأرض. «إنني أواجه صعوبةً لأبقي المكان دافئًا وجافًا».

قالَتْ بينما تنظرُ إلى داخل أذن ميا: «مالِكُ العقار مُطَالَبٌ قانونيًّا بأن يتخلص من أي عفن». ثم أردَفَتْ وهي تهزُّ رأسها وكأن الخطأ خطئي: «أذنها ملتهبة».

قلتُ حين تَذَكَّرتُ فجأةً: «لقد نَظَّفَ السجاد وجَدَّدَ الطلاء قبل أن نسكن. لا أظن أنه سيفعل أي شيءٍ آخر».

- إذن عليكِ الرحيل من هذا المكان.

قلتُ ويدي على ساق ميا: «لا أستطيع. لا أستطيع دفع إيجار مكانٍ غيره».

قالت وهي تومئ إلى ميا: «حسنًا، إنها في حاجةٍ إلى أن تبذلي جهدًا أكبر».

لم أعرف بِمَ أجيبها، فأومأتُ.

نظرتُ إلى يَدَي ميا في حجرها بأصابع متشابكة. كانت ما تزال مكتنزةً وبها غمازات مكان المفاصل. كنتُ أغرق في شعوري بالفشل في لعب دور الأمومة كلما فتحتُ باب شقتنا، ولكنه لم يكن شيئًا مقارنةً بالخزي الذي انتابني في تلك اللحظة.

حين حملتُ ميا إلى السيارة، شعرتُ بالحاجة إلى ثقل رأسها على كتفي ودغدغة شعرها أسفل أنفي. صَرَفَتْ لنا الطبيبة وصفةً طبية كي تأخذ مجموعةً أخرى من المضادات الحيوية، وأحالتنا إلى الاختصاصي الذي رَكَّب أنابيب أذن ميا منذ ما يُقارِب السنة.

عندما ذهبنا إلى الاختصاصي بعد عدة أيام، أدخلونا غرفةً بها طاولةٌ طويلة ومبطَّنة وبنية اللون. جلسنا هناك عدة دقائق، ثم دخل الاختصاصي الغرفة مندفعًا، وكما حدث في المرة السابقة، لم يُشعرنَا بأننا موجودون وقال فورًا: «ضعيها على الطاولة هناك». وقفتُ وأنا أحملُ ميا التي كانت تجلسُ في حضني، ثم أجلستها على الطاولة. قال: «لا، اجعليها تستلقي». ثم استدار وراح يبحث عن شيءٍ ما في صناديق الأدوات. «أريد أن يكون رأسها أسفل الضوء».

جَحَظَتْ عينا ميا حين قلتُ لها: «لا تقلقي يا ميا، سيُلقي نظرةً على أذنيك».

كان من الصعب أن أكون صادقةً معها بينما كان الاختصاصي يفتشُ في أرجاء المكان وينادي على الممرضة لمساعدته. التفتَ فجأةً نحوي وتنَهَّد. جلس جوار الطاولة على مقعدٍ متحرك، وبسرعة حَشَرَ أداةً . من أدواته في أذن ميا ابنتي، التي كانت تعجز عن النوم دون تناول جرعاتٍ من المُسَكِّنات وتضعُ يدها على أذنها بحذرٍ شديد حين تخرجُ من المنزل. فَتَحَتْ فمها وأطلقت صرخة ألم صامتة. أدَّى الاختصاصي عمله وكأنه في عجلةٍ من أمره، ثم قطعَ قطعةً من القطن بحجم قناة أذن ميا وأدخلها فيها، ثم أضاف قطراتٍ من سائلٍ ما.

قال: «هاكِ. عليكِ أن تضعي قطرات المضاد الحيوي في أذنها تمامًا مثلما فعلتُ».

اعتَرَضتُ: «ولكنها تأخذ مضادًّا حيويًّا بالفعل».

-أتريدين أن تتحسن ابنتكِ أم لا ؟

لم أعرف كيف أجيبُ عن سؤالٍ كهذا.

كانت تُصابُ بالدوار وتفقد وعيها حين كنتُ أضع لها هذه القطرات من قبل. كنتُ أُقَيِّدُها كي أتمكَّن من وضعها لها.

قال: «أنتِ والدتها». كان يقفُ عند الباب ورأسه مُنحَنٍ كي ينظر إليَّ وأنا جالسة وميا في حضني. «عليكِ أن تفعلي كلَّ ما يتطلبه علاجها». ثم فتح الباب وخرج وأغلقه من خلفه بسرعةٍ شديدة جعلتْ نفحةً من الهواء تهبُّ علينا. أحرَقَتني كلماته مثل كلمات طبيبة الأطفال؛ لم أكن أمنح ميا ما تحتاج إليه.

يُسَمَّى الربيع في وادي سكاجيت موسم التوليب. يبدأ الفصل مع حقول النرجس الأصفر والسوسن البنفسجي والزعفران الموسمي. تُزهِرُ أزهار التوليب من كل لون بمرور الأسابيع وتفترشُ الأرض. يحبُّ أهل المكان قول إن في وادي سكاجيت أزهار توليب أكثر مما في هولندا. يتوافد عشرات الآلاف من السياح إلى المنطقة، فتتعطل الشوارع ومخارج الطرق السريعة، وتكتظُّ بهم المطاعم والحدائق. رغم أن حقول التوليب بخطوطها الحمراء والأرجوانية والبيضاء والبرتقالية كانت مذهلة، لم أكترث بأمر الأزهار قط.

صحيحٌ أن موسم التوليب كان يعني نهاية شتاءٍ طويل، إلا إنه يعني أيضًا مَطَرًا غزيرًا، ورطوبةً، وعَفَنًا. بحلول أبريل، كانت ماكينات التخلص من الرطوبة

تعمل طوال الوقت في منزل النباتات على أعلى درجة، وكان في غرفة النوم كذلك جهاز لتنقية الهواء. كنتُ أمسح طبقاتٍ من العفن تُشبِهُ العناكب، وأعرفُ أن مثلها ينمو في منزلي.

سعلتْ ميا ليلًا بلا هوادة. أحيانًا كانت تحمرُّ عيناها وتمتلئان بغَمصٍ لزج ونحن في طريق عودتنا إلى المنزل. كان من الواضح أن منزلنا مصدر مرضها؛ البيت الذي اخترتُه لنا، ذا الشقِّ الذي كان يسحبُ الهواء من قبوٍ عمره مئة عام.

إضافةً إلى كوني متعبةً دومًا، لم تُزعجني أعراضي تمامًا ما دام في وسعي تعبير ثمن أدوية الحساسية. أجريتُ فحصاً منذ ما يُقارب العام على مهيِّجات الحساسية عندي، حين كان دخلي منخفضًا بما يكفي كي أحصل على تأمين ميدك آيد الصحي. كَشَفَ الفحص أنني أتحسسُ من الكلاب والقطط، وبعض أنواع العشب والشجر، والغُبار، والعفن.

قال الطبيب إن كلها «حساسيات منبعها المنازل». كنتُ آنذاك قد بدأت العمل لدى جيني، ومنعتني نزلات البرد من العمل مدة أسابيع. منحوني أجهزةً لتسهيل الاستنشاق، وبخاخات الأنف بالمياه الملحية، اتضح لي أن مغادرة مقطورة تراڤيس -التي نما على جدرانها العفن الأسود وعاشت القطط أسفلها - كانت قرارًا صائبًا عادَ عليَّ بالكثير من النفع، ولكن كانت تُهاجِمُني الأعراض بسبب الساعات الطويلة التي قضيتها في نفض الأغبرة وجمع وبر القطط وشعر الكلاب وتنظيف العفن من منازل الوادي.

تنظيف منزل سيدة القطط كان يجعل عينيَّ تشتعلان وأنفي يسيل، وأسعل سعالًا لا يتوقف إلا حين أبدل ملابسي وأستحم. كنتُ أنظف الحمام الرئيسي أول شيءٍ في الصباح. فُرِشَت سجادة وردية في حجرة النوم، واحتَوَتْ على صندوقين من الرمل وثلاثة أعمدة مخصصة للقطط. كانت تُحَدِّقُ إِلَيَّ أربع قططٍ حبيسة في ناقلات بلاستيكية مُصطَفَّة على السرير وأنا أحرك الصناديق

الرملية وأكنس أسفلها. ضايقها حضوري لأنها ظلت محبوسة في صناديقها طوال اليوم. كانت تموء تَبَرُّمًا حين أقترب منها.

كنتُ أضاعفُ جرعات أدوية الحساسيةِ في أيام تنظيف منزلها، وأشعر حين تنفد مني كأنني أتنفسُ فلفلًا حارًا. كنتُ أفتح النوافذ في تلك الأيام في لهفةٍ يائسة إلى الراحة، ولكن لم أخبر لوني أو بام قط.

حين حَسَبتُ ضرائبي من خلال شركة «تيربوتاكس» ذاك الربيع كِدتُ أسقط من مقعدي من أثر الصدمة. اتضح أنه بحساب ائتمان ضريبة الدخل المكتسب والائتمان الضريبي للأطفال، بلغ المبلغ الذي سأعوضُ عنه أربعة آلاف دولار. هَمْهَمتُ بصوتٍ عالٍ أحَدِّثُ ظلام الشقة: «هذا أكثر مما أجنيه في ثلاثة أشهر!». شعرتُ باستحالة أن أحصل على هذا المبلغ. انتظرتُ في قلقٍ أن تقبل دائرة الإيرادات الداخلية استمارات طلبي وأنا أشعر بأنني هاربةٌ من جريمة ما. كتبتُ قائمةً من الأشياء التي سأفعلها بهذا المال: فحص شامل للسيارة، تغيير الزيت، إحضار كوبلن جديد للهوندا، سداد ديون بطاقة الائتمان، شراء إسفنج وصابون غسيل الصحون، وفرش أسنان وشامبو وبلسم، وفُقَّاعات استحمام وفيتامينات وأدوية للحساسية. أو ربما يمكننا أن نسافر في رحلة.

حالي حال كثيرين؛ جُلَّ ما أعرفه عن ميزولا عرفته عبر قراءة قصة نورمان ماكلين «نهرٌ يجري خلاها»[1]. قد يُصَدِّقُ زائرو ميزولا بغرض البحث عن أماكن لصيد السمك على فتنة تلك القصة بالأخص، أو الفيلم المقتبس عنها. ولكن بالنسبة إلي، كانت الطريقة التي كتب بها جون شتاينبك عن مونتانا في روايته «رحلات مع تشارلي» هي ما أقنعني بمغادرة ألاسكا والتوجه مباشرةً

---

[1]- (A River Runs Through It) قصة من مجموعة قصصية شبه ذاتية كتبها نورمان ماكلين، ونشرت عام ١٩٧٦، وصدر الفيلم المقتبس عنها بالاسم نفسه عام ١٩٩٢ من بطولة براد بيت وكريج شيفرِ (المترجمة)

نحو بلاد السماوات الشاسعة[2]. لم يقع اختياري على ميزولا بسبب ماكلين بل بسبب ديڤيد جيمس دانكن، مؤلِّف رواية «نهر التساؤل»[3]، الذي أشار خلال حفل توقيع أُقيمَ في سياتل إلى أنه يعيش هناك ويُدَرِّس في الجامعة أحيانًا؛ ما حَثَّني على الحلم بالاستيقاظ ذات يومٍ صيفي وقيادة السيارة شَرقًا تسع ساعات دون لَفٍّ أو دوران. كان مجرد إحساس دفين. إحساسٍ نما وصار طنينًا متواصلاً، طنينًا تردد داخلي أكثر من نصف عقد.

كانت أجور ميزولا متدنية، وتكاليف السكن فيها باهظة. عرفتُ هذا خلال مناقشات مع أناسٍ عاشوا فيها لكن لم يتمكَّنوا من مواكبة أسعارها. لم يكن سهلاً الحصول على الوظائف هناك، ولم تُدِرّ أجورًا معقولة في مدينة جامعية صغيرة يبلغ سكانها قرابة سبعين نسمة. استأجر آباء الطلبة الجامعين شققًا لهم، فارتفعت أسعار المناطق السكنية المطلوبة، حيثُ يصل إيجار شقة تتكون من غرفة نومٍ واحدة في قبو إلى ما لا يقل عن ثمانيمئة دولار.

ظَلَّتْ تلك المعضلة تحتل أفكاري حين كنتُ أدرس قرار الانتقال للعيش فيها.

ولكن حين تحدثتُ مع أشخاصٍ يقيمون بالفعل في ميزولا، أخبروني دومًا عن مدى محبتهم لمدينتهم. أمَّا مَن انتقلوا إليها، فقالوا إنهم تنازلوا عن الرواتب التنافسية والأجور العالية ولم يندموا لأنهم تمكَّنوا من العيش في ميزولا.

أردتُ أن أعرف لِمَ كتب شتاينبك عنها بتلك المحبة، ولِمَ زعم ماكلين أن أوغاد العالم يتضاعفون حين يبتعد الواحد عن ميزولا في مونتانا. تحدَّث الناس عن ذاك المكان كأنهم يصفون نكهة مثيرة من مثلجاتٍ ذاقوها في رحلةٍ

---

[2]- تُسَمَّى مونتانا بهذا الاسم بسبب طبيعتها الخلابة وكثرة المناطق الفسيحة، فكأنها تصل إلى حَدِّ السماء. (المترجمة)

[3]- (The River Why) نُشِرَتْ عام ١٩٨٢، وتحكي قصة فتًى يُحاول فهم حداثة العالم. تحولت إلى فيلم عام ٢٠١٠ من بطولة أمبر هيرد وزاك جيلفورد. (المترجمة)

صيفية، نكهةً لم يتمكنوا قط من العثور عليها ثانيةً ولم يعرفوا إن كانت حلماً أم حقيقة.

خرجنا لنأكل في مطعم ريد روبن ليلة وصول نقود التعويض الضريبي إلى حساب البنك. سَمَحتُ لميا بأن تطلب مخفوق الحليب بالشوكولاتة. ذهبنا إلى المتجر وملأنا عربتنا بأطعمةٍ كنا نعجز عن شرائها عادةً: الأفوكادو، والطماطم، والتوت المُجَمَّد لنضعه على الفطائر المُحَلَّاة. في الأسبوع التالي، اشتريتُ سريرًا ومرتبةً من المقاس الكبير، ووسادةً حرارية كي لا أضطر إلى تدفئة الغرفة كلها ليلاً. عثرتُ على ستائر عازلة وأعمدة زهيدة الثمن في قسم التصفيات. جَلَبْتُ لميا ترامبولينًا كي تقفز عليه بدلًا من الأريكة والسرير. اشتريتُ لنفسي شيئًا أردته سنواتٍ طوالًا؛ خاتم ألماس من التيتانيوم مقابل مئتي دولار. تَعِبتُ وأنا في انتظار أن يدخل رجلٌ حياتي ويشتريه لي. كَلَّفَني مالًا يفوق ما أنفقته على شيءٍ غير ضروري منذ سنوات. ولأنه كان قرارًا صعبًا، كُنتُ في حاجةٍ إلى قطع وعدٍ على نفسي، أن أثق في قوتي الداخلية. بوسعي النجاح - في كل ما سيحدث - وأنا وحدي. كان الخاتم الذي انزلق على إصبعي الوسطى من يدي اليسرى تذكيرًا دائمًا بهذا الوعد.

شعرتُ والمال في حوزتنا -وإن كان مؤقتًا- بأن الحياة جميلة. كنتُ أملأ خَزَّان الوقود دون أن أطرح المجموع من إجمالي المبلغ المتبقي في حسابي. لم أُجرِ عملياتٍ حسابية في ذهني وأنا في المتجر، لم أحسب أي فواتير سُدِّدَت وإن اقترب موعدها، وكم معي وكم سأدفع، أو أي بطاقةٍ ائتمانية تحتوي على رصيد متاح قبل أن أقرر شراء مناديل ورقية للحمام. نِمتُ دون أن أرتدي ملابس إضافية لأشعر بالدفء، دون أن أشعر بعقدةٍ في معدتي، نمتُ قريرة العين. ولكن استمرت حركة ميا وتقلُّبَاتُها وسعالها وعطسها، وظلت تستيقظ ليلًا شاكيةً ألمًا في حلقها وأذنيها. وحين كان بوسعي استقطاع وقتٍ من العمل لاستشارة الطبيب دون ضَرَرٍ مالي، عَجَزتُ عن منع التهاب جيوبها الأنفية وأذنيها من إنهاكها.

كنتُ أتصفح الإعلانات المبوبة حين أرغب في نيل قِسطٍ من الراحة من فروضي الدراسية ليلًا. أحَدِّقُ بلهفة إلى صور المنازل والشقق التي بها غرفتا نوم وكلها تتخطى ميزانيتي. كنتُ بالكاد أتمكَّنُ من دفع إيجار شقة الاستوديو، وهو ما كان تقريبًا نصف تكلفة الأماكن الأخرى. حتى حين كان معي دخلٌ إضافي آنذاك، فلن يطول أمده؛ كان مجرد غِطاءٍ نستندُ عليه إن سقطنا. وكما تَعَلَّمتُ، حين يتأرجح المرء على حافة إنجاز شيءٍ ما، فإن توازنه قد يختلُّ ويهوي أرضًا. هززتُ رأسي وأغلقتُ الإعلانات وعدتُ إلى الاستذكار. حتى الأحلام بدت لي أمرًا لا يمكنني تحمُّل ثمنه.

تردد صوتُ طبيبة الأطفال في رأسي أيامًا: «إنها تحتاج منكِ إلى أن تبذلي جهدًا أكبر». أنَّى لي أن أبذل جهدًا أكبر ؟ لم يكن أمرًا منطقيًّا؛ أنا أبذل قصارى جهدي أكثر مما كنتُ أبذله سلفًا وأنا أتجاوز العراقيل المنصوبة أمامي، والتي عرقلتني أحيانًا واحتجزتني في مكاني.

خلال ذاك الأسبوع، قَدَّمتُ نسخةً من إيصالٍ مُحَرَّرٍ بخط اليد من كلاسيك كلين كي أجَدِّدَ إعانة رعاية الطفل. اتَّصَلَت بي امرأةٌ من مكتب وزارة الصحة والخدمات البشرية وطَلَبَتْ مني أن أقَدِّمَ إيصالًا حقيقيًا. حين حاولتُ أن أشرَحَ لها أن الخط كان خطَّ يد مديرتي، وهو بالفعل إيصال رسمي، هدَّدَتني بسحب الموافقة على المنحة وأي إعانةٍ أخرى على الفور. بدأتُ أبكي. أخبَرَتني أن أتجه إلى المكتب المحلي وأحُلَّ المسألة في اليوم التالي.

اصطَفَّ الناس خارج المكتب قبل أن يفتتح أبوابه بوقتٍ طويل في الصباح. لم أكن أعرفُ هذا، فوَصَلتُ أول يوم بعد أن أغلق أبوابه بثلاثين دقيقة تقريباً. امتلأت مقاعد الانتظار كلها. سَحَبتُ رقمًا واستَنَدتُ على أحد الجدران أراقبُ التفاعلات بين الأمهات وأطفالهن، وبين الموظفين الاجتماعيين وعملاء لم يفهموا سبب وجودهم في ذاك المكان، وسبب رفض طلباتهم، وسبب اضطرارهم إلى العودة بمزيدٍ من الأوراق والوثائق.

فَرغَ أحد المقاعد، ولكن تركتُ سيدةً أكبر مني ترتدي تنورةً طويلة وتحمل بين ذراعيها طفلًا صغيرًا وديعًا تأخذه بدلًا مني. تحَقَّقتُ من الوقت؛ مَرَّت ساعة، ثم مَرَّت ساعةٌ أخرى حين نظرتُ إلى ساعتي مرةً ثانية. بدأتُ أتوتر حيال إن كان سيُنادى على رقمي قبل أن يحين وقتُ أخذ ميا من الحضانة. كانت ستتقافز حولي إن جَلَبتُها معي. لن تجلس مثل الأطفال من حولي، هؤلاء الجالسون في هدوء ويهمسون كي يستأذنوا في الذهاب إلى الحمام. لن ترى أغلب الصور النمطية المرسومة عن الفقراء هنا. كنتُ أرى في خطوط وجوههم خيبة الأمل، والرغبة المُلِحَّة في مغادرة المكتب الحكومي ليتمَكَّنوا من الذهاب إلى المتاجر وشراء الطعام، أو العودة إلى أعمالهم. كانوا مثلي؛ جَفَّتْ آخر قطرة أمل لديهم، يحَدِّقون إلى الأرض، وينتظرون، ويحتاجون فعلًا إلى ما طلبوه. كنا في حاجة إلى المساعدة. كنا هناك طلبًا للمساعدة كي نتمكَّن من النجاة.

اندفعتُ نحو الشباك حين لَمَعَ رقمي في اللوحة السوداء، كنتُ خائفةً أن ينادوا الرقم التالي إن لم أصل بسرعة. وضعتُ الملف الأرجواني على الطاولة، وسحبتُ منه كل نسخ الشيكات التي تسلَّمتها من عملائي وإيصالات الدفع المُحَرَّرَة بخط اليد. تناولت المرأة بعضًا منها، وأنصَتَتْ إليَّ بينما تفحَصُ إيصال الدفع.

قالتْ: «عليكِ طباعة إيصالٍ رسمي». ثم حَدَّقَتْ إِلَيَّ. رَمَشتُ. لم تتغير تعابير وجهها.

أخبرتُها أنني قضيتُ الصباح بطوله هنا، وأن مكتب مديرتي يبعدُ مسافة أربعين دقيقة. لا أستطيع قضاء يومٍ آخر هنا في الانتظار.

قالت: «هذا ما عليكِ فعله إن أرَدتِ تلقِّي مال الإعانة». ثم أمرَتني بالانصراف، كانت الساعة تقتربُ من الواحدة ظهرًا.

هَزَّت لوني رأسها وهي تطبعُ الإيصال، كان لقاء فترة دفعٍ مَضَتْ منذ أسابيع. كُلُّ الدخل الذي أكسبه من عملي الحر أتى من شيكاتٍ حَرَّرَها عملائي بخط يدهم. لم أفهم تمامًا كيف لهذا التناقض أن يكون منطقيًّا.

ولكن في اليوم التالي، انتظرتُ خارج المكتب ليفتح أبوابه، ثم انتظرتُ ساعاتٍ لأُقَدِّمَ إثبات دخل الأشهر الثلاثة الماضية، وجدول ساعات العمل، ورسائل من عددٍ من العملاء يثبتون فيها رسميًّا أنني أعملُ في منازلهم في الأوقات التي ذَكَرتُها.

كنا سنتردد على بنوك الطعام أو نَقتَاتُ على الوجبات المجانية التي تُقَدِّمُها الكنيسة في حال لم نحصل على القسائم الغذائية. سأعجز عن العمل دون معونة رعاية الطفل. لم يفهم مَنْ نالوا من الحظ ما يكفي ليظلوا خارج النظام، أو على حواشيه، مدى صعوبة الحصول على تلك الموارد. لم يفهموا يأس حاجتنا الماسة إليها، رغم كل العراقيل التي نصبوها لنا.

حين نَظَّفتُ منزل هنري يوم الجمعة ذاك، لاحَظَ خمود هِمَّتي. كان ما يزال معي ربع مال الضرائب المسترد. حافَظتُ عليه حتى تتعطل سيارتي أو تمرض ميا، أو يُلغي أحد العملاء موعدًا، أو كل ما سبق. رغم أنني كنتُ أنام وميزولا تحومُ في مخيلتي - شعور أن أسير على الجسر فوق نهر كلارك فورك، أو الاستلقاء في حَقلٍ والنظر إلى تلك السماوات الفسيحة- بدا لي التفكير في الانطلاق في تلك الرحلة مستحيلًا وقتها.

قلتُ لهنري بعد أن سألني ما خطبي: «أظنُّ أنني لن أستطيع السفر إلى مونتانا». لَوَّحَ في الهواء كأن كلماتي أصدَرَت رائحةً كريهة. سَمِعَني أحكي عن مونتانا عامًا كاملًا، ولكن دار الحديث دومًا عن أنني «أودُّ زيارتها يومًا ما». لا شك أن تعبيرًا مُحزِنًا كان مرتسمًا على وجهي لدرجة أنه رأى ثقل كلامي. شعرَ به بقوةٍ حَدَّ أنه نهضَ من مكتبه وسار نحو الرف. تَصَفَّحَ كتب المغامرات والخرائط، ثم ناولني كتابًا عن الحديقة الوطنية الجليدية وخريطةً كبيرةً مطويةً لمونتانا.

فرشَ الخريطة على مكتبه وأشار إلى أماكن عليَّ زيارتها. رَفَضَ تصديق أن مغامرة ميزولا حدثٌ مستحيل التحقق. ورغم امتناني لتصرفه وتشجيعه ودعمه، لم تكن ابتسامتي صادقة. جزءٌ كبيرٌ مني تملكه الخوف. ليس من الرحلة - رغم أنني كنتُ خائفةً فعلًا من أن تتعطل سيارتي- بل من أن أقع في حُبِّ ميزولا ثم يتحتم عليَّ العودة إلى وادي سكاجيت، إلى العفن في شقة الاستوديو أعلى الطريق السريع. سيكون الأمر أشبه بتوديع حياةٍ أفضل، حياة لن يتسنى لي عيشها.

وبسبب رغبة تلك الحياة، رغبة المضي قُدُمًا، لم يعد عملي في كلاسيك كلين منطقيًّا من وجهة نظري. صَرَفتُ أكثر من ثلث ما أكسبه على الوقود. عَرَضَتْ عليَّ بام مبلغًا صغيرًا بدلًا للتنقُّلات حين لَفَتُّ نظرها إلى هذا، ولكنه كان ربع ما أنفقه كي أتنَقَّلَ من منزلٍ إلى آخر. كذلك أثقل قلبي أن أحدًا لا يعرفني؛ مجهولة. بين العمل وحدي وحضور المحاضرات عن بُعد، أطبقت العزلة على حياتي.

افتقدتُ التواصل الإنساني، حتى إنْ أتى من موقفٍ مع شخصٍ وَظَّفَني للعمل لديه. كُنتُ في حاجةٍ إلى أن يكون لعملي غاية أو معنى، أو على الأقل أشعر أنني قَدَّمتُ يد المساعدة لأي أحد.

24

منزل الشاطئ

ذات مساء، دخلتُ مكتب المساعدات المالية في كلية وادي سكاجيت المجتمعية وأخبرتهم أنني أودُّ أخذ الحد الأقصى من القروض الطلابية المتاحة. لم يكن هذا قرارًا سهلًا، وبدأتُ أرتجفُ وأنا في انتظار أن يُساعدني السيد الجالس خلف الزجاج. معنى الحصول على تلك القروض أنني سأرفضُ تولي أعمالٍ متاحة، وألجأ إلى الاستدانة عوضًا عن أدائها. ولكن تخطى التعب حدود المعقول. لم يكن هناك تفسيرٌ آخر لهذا القرار المتسرع طال مرض ميا، وكنتُ أقضي معها يوميًّا ثلاث ساعات فحسب. كان ظهري يؤلمني نهارًا ويتصلَّبُ ليلًا خلال نومي، والألم يوقظني في الرابعة فجرًا. سيساعدني القرض في التركيز على العملاء الشخصيين وأعمال تنسيق الحدائق دون العمل في كلاسيك كلين. سيساعدني كي أقضي المزيد من الوقت بصحبة ميا.

كان كذلك سيساعدني في التطوع في مركز رعاية ضحايا العنف الأسري والاعتداء الجنسي بالعمل في الاستقبال. فَكَّرتُ فيه بأنه فترة تدريبية يُغَطِّي الفرض نفقاتها. سأكتَسِبُ خبرةً من التطوع وتنوعًا في سيرتي الذاتية و رسائل التوصية. كانت الدراسة في الكلية المجتمعية تؤهلني للحصول على شهادةٍ جامعية، ولأكون مساعدةً قانونية. كل الوظائف التي سَمَحتُ لنفسي بأن أحلم بها كانت وظائف عملية ستوفر لي تأميناً صحيًّا ومعاشًا.

قال محامي جايمي منذ ثلاث سنوات: «حضرة القاضي، يعمل والد الطفلة بدوامٍ كامل». قبل أن أفصح عن أنني بلا منزل ولا عمل. أحبَطَتني وقفتي أمام القاضي ورؤيتي جايمي ينال احترامه وإعجابه لأنه يعمل ويعيش في منزلٍ مستقر طَرَدَنا منه. غرستْ فيَّ تلك التجربة خوفًا عميقًا داخلي. ورغم أنني رغبتُ في الانتقال لأُحَسِّنَ من أوضاع معيشتنا، ستكون تلك المرة التاسعة التي أنتقل فيها مع ميا منذ ولادتها.

لم تَحظَ بغرفتها الخاصة في معظم الأماكن التي سَكنَّاها. بينما يشيع أن يقول القُضاة: «لا أهتم إن نام الطفل على البلاط! سيبيت الطفل مع أبيه مهما كان». كان على الأمهات اللواتي يحاربن للفوز بالحضانة الكاملة -تحديدًا أولئك الهاربات من التعنيف- أن يوفرن حياةً شبه مستحيلة لأطفالهن.

وصفني محامي جايمي في المحكمة بأنني امرأةٌ غير مستقرةٍ نفسيًّا، وتعجزُ عن رعاية ابنتها على مدار اليوم. كان عليَّ النضال لأتمَكَّن من إطعام رضيعتي، الرضيعة التي صرخ جايمي في وجهي لإجهاضها. حَطَّمَني هذا القاضي؛ كأنني المَلومَة على هجر رجلٍ كان يهدد سلامة حياتي. أعرفُ أن عددًا لا يُحصى من النساء كُنَّ في نفس موقفي بالضبط.

ربما ألتَحِقُ بكلية الحقوق وأصبح محاميةً في الحقوق المدنية؛ وقتها سيكون في وسعي مساعدة أناسٍ مَرُّوا بالعنف نفسه الذي عانيته مع جايمي والدفاع عنهم. ولكن كان صوتٌ آخر يزعجني، صوتٌ أعلى يرفض أن أتجاهله. ألَحَّ جزءٌ مني عليَّ في أن أكون كاتبة. ولكني كنتُ أُسكِتُ الصوت المُصِرَّ بأن أكرر على نفسي أنه وضعٌ مؤقت -إلى حين تكبر ميا- ثم وقتها سأصبحُ كاتبة. كان هذا الوعد بمكانة سَكبِ دِلاءٍ من المياه لإخماد شعلة النيران الأخيرة المتبقية بداخلي، الجزء الذي تحلَّى بشجاعة الحالمين.

خلال إحدى الليالي التي سَهِرتُ فيها أبحثُ عن مكانٍ أفضل، وجدتُ شقةً من غرفَتَيْ نوم تقع فوق مرأب. يطلُّ بابها الرئيسي على الجبال والمحيط، ولكن سعرها كان أعلى بكثير من ميزانيتي.

ذُكِرَ في الإعلان أن المُلَّاك يعيشون في المنزل مع فتياتهم الصغيرات الثلاث، وكلابهم الثلاثة، وقطة كانت تُقيم بشكلٍ أساسي في المرأب وتلاحق الفئران بِدَأَب. بدلًا من أن أغلق المتصفح وأشعر بالتوق المعتاد لعيش حياةٍ أخرى، أرسلتُ إليهم رسالةً أسأل فيها إن كانوا على استعدادٍ لمقايضة الإيجار بخدمات التنظيف وتنسيق حديقتهم.

في المساء التالي، قُدتُ السيارة في ممرٍّ طويلٍ، جوار مكانٍ فسيح خالٍ من كل شيءٍ عدا الأشجار الباسقة التي كشفت عن منظر الشاطئ والتلال من خلفها. كان الممر ملتويًا ناحية اليسار، وابتلعته الأشجار الشاهقة واصطَفَّتْ على جانبيه شُجَيرات التوت البَرِّيّ. وَقَعَ المنزل في مدينة مجاورة، بعيدًا عن معظم منازل عملائي تقريبًا. كنتُ أدرك أن العيش فيه يعني ترك العمل لدى كلاسيك كلين إلى الأبد. فَكَّرتُ وأنا أناور السيارة في الممر أنه ربما لو عثرتُ على مكانٍ أفضل نعيش فيه، مكانٍ بعيدٍ للغاية، وقتها سيكون من المنطقي أن أستقيل.

حين لاحَ المنزل في مرمى بصري أخيرًا، أغمَضتُ عينيَّ أمام جمال المنظر. كانت الشمس في طريق غروبها خلف الجبال، واصطبغت السماء بلونٍ ورديٍّ داكن. رَكَنتُ أمام حظيرة الماعز، بين الشقة ومنزلٍ كبير ازدانتْ واجهته بالنوافذ.

تأرجَحَتْ طفلة على عجلةٍ خشبية على الطريق الأسمنتي أمام المرأب. وَقَفَ رجلٌ طويل وهزيل يرتدي قميصًا رماديًّا وبنطالًا من الجينز يُراقِبُني اترَجَّلُ من سيارتي. عَرَفتُ من خلال مراسلة زوجته أليس أن اسمه كورت. تَصافَحنا وعَرَّفته بنفسي، ثم شَرَحتُ أن ابنتي في منزل والدها حاليًّا. ربَّتَ بيده على شعره البني الأشعث مُحاوِلاً تخفيف بعثرته. أمسك بالطفلة ثم حملها، وقال: «اتبعيني، سآخذكِ في جولة».

شعرتُ خلال سيرنا بانجذابٍ هائل ناحية المكان؛ كان مكانًا -في حالة كنتُ مؤمنةً بمثل هذه المعتقدات-يدفعني الكون في اتجاهٍ كان من المفترض أن أسلكه. كأن ما يحدث كان أمرًا مقضيًّا، وكلُّ ما عليَّ فعله هو أن أقطع الطريق.

سِرتُ خلف كورت بجانب المرأب، ووقفنا جوار حديقة أكبر من شقة الاستوديو. أشار إلى شجيرات العليق والتوت الأحمر، ثم إلى مساحةٍ عشبية بجانبها.

قال عاقدًا ذراعيه: «التزام المستأجر جَزَّ عشب هذه المنطقة هو شرطٌ من شروط عقد الإيجار. واجه المستأجر الأخير مشكلةً مع هذا». راقبتُ ابنته تلعبُ على العشب، وتخيَّلتُ ميا بصحبتها.

سألته: «وهذا بالإضافة إلى المُقَايَضة؟».

كرر قولي: «مقايضة؟» ثم نظر إلى السماء وكأن الكلمة بدت مألوفة لكن لم يدرك السبب.

أومأتُ وقلتُ: «لقد راسَلتُ أليس، وقالت إن هناك فرصة لأقايض جزءًا من الإيجار بالعمل في الفناء وتنظيف منزلكم؟».

تبدل تعبير وجهه عدة مرات من الحيرةِ إلى احتماليةِ تذكُّر أنها أخبرته بشيءٍ كهذا، ثم إلى الإيماءِ موافقةً على الفكرة. بدا منتشيًا، رغم أنه على الأرجح كان واعيًا، ولكنه كان يُشبه أصدقائي في فيربانكس خلال أي ساعةٍ من اليوم. كان نوعي المفضل من الناس، وأحببته على الفور.

نظَرَ إليَّ وابتسم: «على مهلكِ حتى تَرَي المكان». أشار برأسه إلى الشقة أعلى المرأب.

صعد كورت السلَّم من أمامي حاملًا الطفلة بين ذراعيه. أخبرني أن عائلته المتنامية عاشت في الشقة أعلى المرأب حين كانوا يبنون منزلهم. عندما انعطفنا عند أول طابق توقفتُ عن المشي. التَفَتَ إليَّ كورت وابتسم من الرهبة التي عَلَتْ وجهي.

صَبَغَتْ أشعة الشمس الغاربة كل شيءٍ بلونٍ ذهبي ضاربٍ إلى الحُمرَة.

في تلك اللحظة، لم أستطع أن أتذكر أنني رأيتُ غروبًا للشمس أجمل من هذا.

سألتُ بصوتٍ هامس: «هل يكون المنظر هكذا كل يوم؟»

ضَحِكَ كورت: «نعم، ولكن حين تُشرِقُ الشمس من الأساس». كان يمزح، لأن نورث ويست واشنطن عُرِفَت بالأشتية الطويلة، يطول شتاؤها نصف العام تقريباً، مع أقل من عشرة أيام بشمسٍ ساطعةٍ مشرقة. «الخبر السار أن الصيف على الأبواب».

كان في الشقة غرفتا نوم، يفصل بينهما حمام به حوض استحمام وخزانة أسفل الحوض وأرفف للمناشف. كان في المطبخ موقد، وغسالة أطباق، وثلاجة كبيرة، ونافذة مُطِلَّة على الفناء حيث تُرَبِّي الأسرة الدجاج.

كانت الأرضيات كلها من الخشب. في الغرفة الرئيسية والمطبخ كُوَّتَان في السقف، وكذلك في الحمام. أفضت الأبواب الفرنسية الزجاجية إلى شُرفةٍ مغطاة، واصطَفَّتْ نوافذ ذات عزلٍ حراري على الحائط الغربي من غرفة المعيشة.

قال كورت: «يوجد في التلفاز قنواتٌ مدفوعة أيضًا». وأشار إلى سلكٍ نافذٍ من الجدار. نظرتُ إليه ورمشتُ، فأردف: «إن كان هذا يهمكِ طبعًا، أنا مهووسٌ بكرة القدم».

قلتُ: «لم أدفع اشتراك التلفاز معظم حياتي». أرَدتُ أن أنفجر في ضحكٍ هستيري، أردتُ أن أقرص نفسي.

قال وهو يفتح خزانة غرفة النوم: «إنها صغيرة للغاية، لذا أضَفنا مساحةً كبيرة للتخزين. تلك الخزانات أعلى الجدار شاسعة وعريضة، أظنُّ أن أليس وضعت البطانيات فيها».

قلتُ: «رائع! هذا مذهل!»

قال: «ليس لهذه الدرجة».

قلتُ: «لا ، فعلًا . أعني ما أقول. خزانتي الحالية تقريبًا كانت خزانةً للمقشَّات لكن حَسَّنَتْ من نفسها. مساحة منزلنا الحالي تقريبًا نصف هذه الشقة».

قال ليملأ لحظة صمتٍ مُربِكَة: «آها». ثم بدا وكأنه تذكَّر شيئًا، وسار نحو المطبخ. قال مُشيرًا إلى الدجاجات: «في وسعكِ أخذُ البيض حين نسافر. أقصِدُ لو سَكَنتِ هنا». ابتسمتُ وسألته عن وجهة سفرهم. قال مُفَرقِعًا أصابعه كأنه نسي إخباري: «آه! نذهبُ إلى ميزولا عدة أسابيع كل صيف مع بعض الأصدقاء. إنها مكانٌ رائع للاستقرار. هل زُرتِها من قبل؟»

انقبضتْ أنفاسي في صدري. لم أعرف بِمَ أجيبه، كيف أخبره أنني أتلهفُ لزيارة تلك المدينة منذ ست سنوات، وأن الشيء الوحيد الذي أندم عليه هو أنني لم ألتحق بجامعتها كما خططتُ، أن أحظى بابنتي وحدي دون أن أخبر جايمي. اشتعلتْ بداخلي رغبةٌ مباغتة في أن أخبر كورت بكل هذا، لكن سَكَتُّ بالعضِّ على شفتي.

قلتُ وأنا أهزُّ رأسي أحاول الحِفَاظ على رباطة جأشي: «لا، لم أزرها. ولكن أتمنى ذلك».

تَبِعتُ كورت إلى المنزل الكبير لأقابل أليس، التي كانت مشغولةً في تحضير العشاء أمام الموقد. كانت أكبر فتاتين تلعبان على الأرض مع صندوقٍ كامل من دُمَى مسلسل «ليتليست بِت شوب». لم أرَ هذا العدد منها في مكانٍ واحد، وخَطَرَت ببالي ميا، التي حملتْ معها في كل مكان دمية ضفدعٍ من المسلسل. أستطيعُ أن أتصوَّرها تلعبُ معهن على الأرض، تمامًا مثلما تخيلتُ نفسي أضحكُ مع أليس بينما نحنُ جالستان على طاولة المطبخ ونشرب النبيذ معًا. ربما لم أكن أبحثُ عن مكانٍ جديد أعيش فيه فحسب، بل عن أصدقاء جدد أيضًا.

نادَتْ أليس على الفتيات كي يغسلن أيديهن استعدادًا لتناول العشاء. قالت: «تفضلي معنا». كانت أقصر مني بقليل، بالكاد يصلُ طولها إلى صدر كورت.

مَشَّطَتْ شعرها البني وضَمَّته في ذيل حصانٍ مشدود، ليكشف عن أذنيها البارزتين بعض الشيء. بَدَتْ وكأنها واحدة من أولئك الفتيات اللطيفات في المدرسة؛ فتاة كنتُ لأحسدها.

أجَبتُها بابتسامة، وحاولتُ أن أكبح انهمار الدمع من عينيَّ: «بالطبع. سعيدةٌ بلقائك». خِفْتُ من أليس، رغم أنني كنتُ سعيدةً فعلًا بلقائها. افترضتُ - دون حتى أن أعرفها - أنها تُشبه الأمهات في حضانة ميا؛ اللواتي يفرضن حدودًا لأطفالهن على مشاهدة التلفاز، وينظمن مشاريع فنية، ويمنعن السكريات، ويقدِّمن الخضراوات والفاكهة مع كل وجبة. افترضتُ أنها أمٌّ تتمتعُ برفاهياتٍ عدة؛ بالوقت، والطاقة لرعاية بناتها كما يجب، أمٌّ ستنتقدني لأنني لا أفعل مثلها.

وضَعَتْ أليس طبقي على المائدة. جَلَستُ أمام الفتاتين اللتين امتثلتا أمر والدتهما وبدأتا بأكل أعواد الجزر. عَرَضَ كورت عليَّ بيرة، وقَبِلتُها، كانت من نوع كوستكو، الذي اعتَدتُ شراءه أنا وتراڤيس، وأعادني مذاقها إلى منزله على الفور. حين سألاني عن عملي أجبتهما بأنني أنظفُ المنازل، لكن أريدُ أن أكون كاتبة. قال كورت إنه قرأ مقتطفات من مدونتي، فاحتَرتُ لحظةً، ثم تذكرتُ أن توقيع رسائلي البريدية يشملُ الرابط الإلكتروني للمدونة.

قال: «لا أعرفُ كيف تؤدين الدورين وحدكِ». ثم حَدَّقَ إليَّ أكثر مما ينبغي. أربَكَتني النظرة في عينيه، وسَمِعتُ احترامًا في نبرة صوته. رأيتُ أليس بطرف عيني تقطبُ حاجبيها وتنظر إلى طبقها.

شعرتُ ذاك المساء بأن قدميَّ لا تلمسان الأرض. قال كورت وأليس إن لديهما مسبحًا قابلًا للنفخ تلعبُ فيه الفتيات معظم أيام الصيف في الفناء. عَمِلَتْ أليس في بنك بدوامٍ كامل، ولكن كورت كان معلمًا وفي إجازة. قال إنهم

يرحبون بميا لتأتي معهم إلى الشاطئ، أو لتلعب في فناء دارهم. بل حتى كان لديهم حفرة يوقدون فيها النار لشيِّ المارشملو.

حين وصلتُ إلى المنزل وجَدتُ رسالةً من أليس تسألني فيها بصفةٍ رسمية إن كُنتُ أودُّ السكن في الشقة. أجبتها برسالةٍ حماسية أُبلِغُها موافقتي. ثم أجابَتْ على الفور وقالت إن بوسعي نقل أغراضي في أي وقت. ناقشنا اتفاق المقايضة على العشاء؛ ستكون أرخص من الإيجار الذي أدفعه للاستوديو بخمسين دولارًا.

كنا وقتها في منتصف مارس، وأمامي من الوقت أسبوعان لمغادرة الاستوديو تَجَنُّبًا لدفع إيجارين في مكانين في الوقت نفسه. وصلت إليَّ رسالة منحة المساعدة المالية قبل أيام ، شعرتُ بأن كل شيءٍ يسير في مساره الصحيح، بدقةٍ بالغة أثارت شكوكي. ربما كان هذا أفضل مما نستحق، ربما لم نكن نستحق شيئًا مثاليًّا إلى هذا الحد.

25

العاملة المُثابرة

فَهِمَتْ بام معنى كلامي بالضبط حين أخبرتها أنني سأنتقل من الشقة. لم تفصلني من العمل، ولم أقَدِّم استقالتي. اتفقنا نوعًا ما على أنني لن أتمكن من العمل عندها بعد الانتقال. أخبرتني هي ولوني - كل واحدةٍ على حدة - بأنهما حزينتان لأنني سأرحل. كنتُ العاملة الأساسية في الشركة؛ العاملة التي تثقان فيها. في تلك السنة، تلقيتُ أكبر مبلغٍ من علاوات الكريسماس على الإطلاق. هاتَفَ أحد العملاء بام وأخبرها أنني ليس لي بديل.

كنتُ أعرف أنني من العاملات المثابرات - مثلما قال لي هنري - لكن كنتُ أعرفُ كذلك أن أخرى قد تحلُّ محلي. عليَّ رعاية ابنتي. كانت رغبة العيش في مناخٍ أفضل قويةً للغاية، حتى وإن أتى معها رفض العمل. كان معنى البقاء في شقة الاستوديو استمرار معاناة ميا مع أمراضٍ أجرَتْ عملياتٍ جراحية بسببها. بدت لي الاستدانة أو خسارة الوظيفة مخاطرةً فادحة، ولكن مع الوقت فهمتُ شيئًا آخر؛ من الصعب أن أتصوَّرَ أي مستقبلٍ مختلف إن دارت كل أفكاري حول تسلُّم راتبٍ تلو الآخر.

بسبب الفقر ، لم أعتد النظر إلى أبعد من الشهر أو الأسبوع القادم، أو حتى الساعة القادمة. كنتُ أقَسِّمُ حياتي مثلما أقَسِّمُ كل غرفةٍ من كل منزل أنظفه؛ من اليسار إلى اليمين، ومن أعلى إلى أسفل. لم تشكل الطريقة فرقًا، سواء

سردتُ المشكلات على الورق أو في عقلي، احتلتْ تلك التي عليَّ حلها أولًا - إصلاح السيارة، وموعد المحكمة، وخزانات الطعام الفارغة- أيسر أفكاري وأعلاها. أمَّا المسألة المُلِحَّة التالية، فأخذتْ مكانًا جوارها، على اليمين. كنتُ أرَكِّزُ على المشكلات مشكلةً مشكلة، أحاول حلَّهَا من اليسار إلى اليمين، ومن أعلى إلى أسفل.

حماني قصر النظر هذا من الغرق في التفاصيل، وكذلك حال بيني وبين الأحلام. لم تصل قط «خطةٌ للسنوات الخمس القادمة» إلى المهمات العلوية. لم يقرأ راداري مشكلاتٍ مثل الادخار من أجل التقاعد، أو لنفقات تعليم ميا الجامعي. كان عليَّ أن أتشبث بإيمانٍ متجذر أن الظروف ستتحسنُ في النهاية، وأن الحياة لن تكون كفاحًا متواصلًا. بَنَتْ أمي - كانت أول من التحق بالجامعة في عائلتنا - حياتها كلها على تحطيم تلك الحلقة المفرغة. فتحت لها درجة الماجستير باب ملاحقة أحلامها، حتى وإن كَلَّفَتها قَطعَ علاقتها بي. ولكن كبرتْ أمي في منزلٍ متهالك، بينما ترعرعتُ أنا في ضواحي المدينة، وهي الميزة التي شَكَّلَتْ ثقتي في أن كل شيءٍ سيتحسَّن. فَكَّرتُ في الناس المنتظرين في الصفوف بجانبي كي يحصلوا على حصصهم من الإعانات؛ لم يعيشوا ماضيً حتى يتطلعوا إليه. هل كانوا يشاركونني في ثقتي هذه؟ حين يغرق المرء في عمقٍ سحيقٍ من الفقر الممنهج لا يرى مسارًا تصاعديًّا خارجه. الحياة معاناة، انتهى. لكن بالنسبة إليَّ نبعتْ أكثر قرارتي من افتراض أن الظروف ستبدأ -في نهاية المطاف- في التحَسُّن.

لم تُحدِث استقالتي من العمل جلبة؛ لن يلحظ معظم عملائي أنني تركتُ العمل، أو أن عاملةً جديدة حَلَّتْ محلي. ربما سوف تكنسُ بطريقةٍ مختلفة، أو تنظم الوسائد بنظامٍ جديد. ربما سيعود العميل إلى منزله ويرى عبوات الشامبو مرتبةً بطريقةٍ جديدة، ولكن الأرجح أن معظمهم لن يلاحظوا التغيير على الإطلاق. حين فَكَّرتُ في الخادمة الجديدة التي ستتولى مهماتي، فَكَّرتُ في ماهية شعور أن تعرف أن غريبًا كان في منزلك، يمسح الأسطح ويفَرِّغ سلة قمامة الحمام الملآنة بالفوط الصحية الملطخة بالدم. هل سيشعر الواحد

بأنه عارٍ بطريقةٍ ما ؟ كان عملائي يثقون في علاقتنا الخفية بعد مرور سنتين، ولكن ستحل إنسانةٌ خَفيةٌ أخرى محلي، وستترك آثارًا حين تكنس سجاد المنزل بشكلٍ سحري.

شَجَّعَتني بام على الحصول على رخصة وتأمين بما أنني سأعتمدُ بالكامل على دخل العمل الحر. ولكن شَمِلَ الاقتراح ضامنًا للاستمرارية، وبداية سلك مهني يمتدُّ مدى الحياة. قالت إنني سأحتاج إلى اسمٍ للشركة، شيء يُضفي طابع الرسمية على العمل. بَدَأتْ بام شركتها بتلك الطريقة. ولكن بقدر امتناني لنصيحتها، لم أرغب أن تكون تلك نقطة انطلاقتي. أردتُها أن تكون وسيلة النهاية، وتلك النهاية كانت الشهادة الجامعية. تذكرة الوصول إلى عدم الحاجة أبدًا إلى تنظيف مرحاض أي أحد سوى مرحاضي.

لم أخبر المرأة في منزل سيدة القطط بأنه كان يومي الأخير، ولكن عانقتُ بيث في منزل لوري. كنتُ سأفتقدُ قهوتها والحديث معها.

حين غادَرتُ منزل الطاهي، ابتسمتُ ولَوَّحتُ بيدي، ثم رَفَعتُ إصبعي الوسطى أمامه. أنا على أتم الثقة بأن صاحب البيت لم يحاول قط التصويب جيدًا خلال تبوُّله. تسللتُ من منزل السيدة المُدَخِّنة بنفس طريقتي في استراق النظر إلى أشيائها. سأفتَقِدُ قميصها الكشميري بكُمَّيه الطويلين اللذين يُغطيان كَفَّي يديَّ فأرَبِّتُ على خَدَّيَّ حين أرتديه.

سأفتقدُ محاولاتي في تجميع أجزاء حياتها، محاولات فَهمِ إن كانت سعيدةً أم حزينة، سأفتقدُ رؤيتها تأكل الخس وصلصةً خالية من الدهون بينما تُدَخِّنُ على منضدة المطبخ، أو مشاهدة التلفاز الصغير المُعَلَّق أعلى الخزانة. غادرتُ المنزل الإباحي وأنا حرفيًّا أطير من الفرح، قبل أن يقع نظري على المنزل الحزين وأدرك أنني لم أدخله منذ شهرٍ تقريبًا. تساءلتُ كم طالت معاناته ؟ كم طال انتظاره نهاية حياته؟

قضيتُ وقتًا طويلًا أتحدثُ مع هنري قبل مغادرة منزله. كان من الصعب عليَّ إخباره بأنني لن أستمر في العمل مع الشركة التي استعان بخدماتها لتنظيف منزله سنواتٍ عدة. رَفَعَ يديه وهَزَّ كتفيه، ثم بدأ يقترحُ عليَّ أن أساعد في تنسيق حديقته، قبل أن يتذكَّر أن لديه بالفعل طاقمًا من الرجال يجزُّون العشب ويشَذِّبون الشجيرات. ألَحَّتْ عليَّ رغبةٌ في أن أواسيه، فاقترحتُ عليه أن أُضيفه مَرجِعًا للتواصل في سيرتي الذاتية. سرَّه هذا، ثم بدأ يحصي كل المميزات التي سيسعدُ بقولها لأي أحدٍ يسأله عني.

قال وهو يدُقُّ الأرض بقدمه بخفةٍ ويكوِّرُ قبضته مُلقيًا تصريحًا: «أنتِ عاملةٌ مثابرة، واحدة من أفضل المثابرين الذين قابلتهم في حياتي».

قلتُ بصوتٍ خافت: «كنتُ فعلًا في حاجةٍ إلى معرفة هذا». ابتسمتُ له.

أردتُ أن أشرح له صعوبة اتخاذ هذا القرار، ومدى تقلقل المستقبل من أمامي. كل ما كان بين يدي عددٌ محدود من العملاء وقَرضٌ طُلَّابي كي أصل إلى بر الأمان حتى الخريف القادم. أردتُ أن أخبره عن خوفي. كانت لحظةً غريبة، أتطلعُ فيها إلى سلوى شخصٍ غريب، ولكن هنري كان بمكانة والدٍ لي.

صادف أن المرأة التي كانت تعيش في منزل المزرعة كانت موجودة في يومي الأخير. انتهى بي المطاف بأن أحبها. اتَّصَلَتْ مرةً بالمكتب وأخبرتهم أنها أحَبَّت الطريقة التي نَظَّفتُ بها الحمام الرئيسي، وعليَّ الاعتراف بأنني شعرتُ بالفخر إزاء هذا، رغم أنني ذُقتُ الأمرَّين لتنظيف زجاجه. كنتُ أحضر معي دومًا مِلقاطًا إلى منزلها كي أنزع الشُّعَيرات الضالة من حاجِبَيَّ أمام مرآتها المُكَبِّرة المُنَارة. ساعدتني وأنا في طريقي إلى المغادرة في إعادة أغراضي إلى السيارة، ثم طَلَبَتْ مني البحث في صندوقٍ وضعته في سيارتها الرياضية كانت تنوي التبرع به لجمعيةٍ خيرية. أخرَجتُ مِقلاةً غير لاصقة من كيتشن آيد ستكون رائعةً لإعداد الفطائر المُحَلَّاة التي تحبها ميا. بَدَتْ وكأنها على وشكِ أن تعانقني قبل أن أركب سيارتي، ولكن مَدَّتْ يدها وصافحتني. رغم أن علاقتنا بُنِيَتْ

على الثقة، كان التفاوتُ بيننا ما يزال قائمًا؛ ستظلُّ صاحبة المنزل، وسأظلُّ الخادمة.

كان في بيتنا الجديد غَسَّالة ومجفف في المرأب. بوسعي غسيل دُمَى ميا كلما ساءت حالة سُعالِها . توفرت فيها كذلك تدفئة مركزية، ومنقي هواء وأرضية خشبية، فكُنتُ على ثقةٍ باستحالة تَسَلُّلِ العفن إليها.

لم يكن مالك الاستوديو سعيدًا حين أخطَرتُه بأنني سأغادر في غضون خمسة عشر يومًا وليس في ثلاثين. قال لي إنه سيُبقي على مبلغ التأمين، وسيطرحُ منه أيًّا كان المبلغ الذي سيخسره في أن يبقى المكان بلا مُستَأجرٍ حتى الشهر القادم.

كَتَبتُ في رسالةٍ بريدية إليه: «لقد أجرَيتُ في الشقة الكثير من التحسينات؛ إنها تبدو الآن أفضل مئة مرة مما كانت عليه حين سكنتها». أضَفتُ صورًا للستائر الجديدة في منطقة المعيشة، والأرفف، وحوامل المناشف التي رَكَّبتُها في الحمام، إضافةً إلى أنني تركتها نظيفةً إلى أقصى درجة. ومع أنه وجدَ مستأجرًا جديدًا قبل أن أترك الشقة، أصرَّ على أخذ جزءٍ من مبلغ التأمين.

بدأتُ أترددُ على الشقة الجديدة حين أستطيع، وأملأ سيارتي بأكبر قدرٍ ممكن من الكتب، والملابس، والمناشف، والنباتات. دعانا كورت وأليس إلى العشاء ذات مساء لنُعَرِّفَ الفتيات على بعضهن بعضًا. رَكَضنَ معًا في الفناء، ونَبَحَ الكلب الأسود الضخم -بيو- من وقتٍ إلى آخر، بينما راقب الكلبان الكبيران الآخران المكان في لا مبالاة. كانت ميا على وشك أن تبلغ الرابعة من عمرها. اندَمَجَتْ بسلاسةٍ مع الفتيات الأكبر سِنًّا؛ إحداهن كانت أكبر منها بعامين، والأخرى بأربع سنوات. لاح الحماس والارتياح على وجه كورت وأليس أمام شخصية ميا الجميلة والمرحة.

بعد العشاء، أتتْ أليس بالأوراق القانونية لعقد الإيجار وبنوده، مع شيءٍ أضافته عن مقايضة الإيجار بالعمل. بلغ عدد ساعات أعمال تنسيق الحديقة

تقريبًا خمس ساعاتٍ أسبوعيًّا، سأقضيها في اقتلاع الحشائش الضارة. وسأنظفُ المنزل مرتين في الشهر أيام الخميس، من التاسعة والنصف حتى الثانية والنصف. كنتُ أملُ أن يكفي الوقت، لأن منزلهم كان شاسعًا، ولكنها قالت إن شركة التنظيف التي اعتادوا التعامل معها كانت تستغرق من ساعتين إلى ثلاث ساعات لتنظيفه.

سألتها: «كم عدد عاملات التنظيف؟». كنتُ أعرف سَلَفًا أن الإجابة ستكون أكثر من عاملةٍ واحدة.

قالت وهي تنظر إلى كورت: «لَستُ متأكدة».

قال كورت: «اثنتان أو ثلاث تقريبًا».

قلتُ: «ربما سيأخذ مني ست ساعاتٍ أو أكثر في البداية». رأيتُ عيونهما تتسعان. «تزداد سرعتي بمجرد أن أتعرَّف على منزلكما، ولكنني أعمل بلا توقف. رغم هذا فسأكون أبطأ من ثلاث عاملاتٍ يعملن معًا».

بدا أنهما يتفهَّمان، أو على الأقل تظاهرا بهذا. عَرَفتُ أن أليس كانت تتولى شؤون المنزل كلها قبل أن تُنجِبَ ابنتها الصغيرة. من وقتها - بين وظيفتها وبناتها - لم تعد تستطيعُ مجاراة أعمال المنزل أو الفناء. لم أعرف ما هي المساعدة التي قَدَّمَها كورت بالضبط.

سأتابع عدد الساعات التي أقضيها في أعمال الفناء -مثل بطاقة الدوام- وأرسلها إلى أليس عبر البريد الإلكتروني. كان اتفاقًا مذهلًا لكلتينا، ولكن أليس بَدَتْ مترددةً قليلًا؛ نظرًا إلى كومة المستندات القانونية الضئيلة التي كانت تخطط لتوثيقها قانونيًّا من كاتب العدل. أقسَمَتْ إن غرضها حماية كلتينا في حالة حدث أي شيء، مع ذلك بدا لي أمرًا غريبًا. كنتُ قد أجريتُ مقايضاتٍ كثيرة آنذاك، ووَثَق فيَّ معظم الناس أكثر منها.

اعترف كورت أنه قرأ مدونتي، وعَلَّقَ على أنني كاتبة بارعة. احمرَّ وجهي خجلًا وشكرته. مرَّ عامان شاقَّان منذ بدأتُ الكتابة في المدونة. نَدُرَ أَن رَغبتُ في التحدُّث عن أيٍّ مما أكتبه مع شخصٍ ما وجهًا لوجه، ولكن النشر فيها على الملأ ليقرأها أي أحد جعلني أفترضُ أنهما يعرفان كل شيءٍ عني، لذا ليس عليَّ شَرحُ نفسي. قال كورت إنها مُلهِمَة. ابتَسَمتُ، لكن امتَعَضتُ من الكلمة. وصفني الناس من قبل بنفس تلك الصفة. بدأتُ أسأل، كيف لمحاولات النجاة المستعصية أن تكون إلهامًا ؟

كَتَبَ أحدُ المعلقين: «إن كان في استطاعتكِ مجابهة الحياة مع طفلةٍ ذات ثلاث سنوات بمفردكِ في مساحةٍ ضيقة كتلك وبأقل القليل من المال، فأنا أيضًا أستطيع».

كانت المدونة منفذًا لسرد جمال الحياة، ولكنها كذلك كانت متنفسًا لخيبات أملي. كانت الحياة ترميني بلا كللٍ أو ملل بعقبةٍ تلو الأخرى قبل حتى أن أنتهيَ تمامًا من حَلِّ العقبة الأخيرة. عجزتُ عن سباقها.

اختَلَفَتْ تجارب حياتي اختلافًا شاسعًا عن تجارب أقراني جميعهم، وليس فقط الأمهات في الحضانة. حدث مراتٍ كثيرة أن تفاديتُ محادثاتٍ محتملة، أو فُرَصًا وشيكة لصداقة أشخاصٍ راقوا لي، لأنني شعرتُ أنني لا شيء سوى مصدر استنزاف. كنتُ سأمتصُّ موارد الآخرين المتاحة لأصدقائهم دون أن أقدِرَ على منح شيءٍ في المقابل. ربما أقايضُ عطاءهم برعاية أطفالهم ذات مساء، ولكن المني أنني لن أتمكَّ َن حتى من تقديم الحلوى أو الطعام لهم. أن يأتي طِفلٌ جائع إلى منزلي يعني إنفاق عشرة دولارات على البقالة، وأحيانًا أكثر، ودائمًا كانوا يرغبون في شرب أكواب كبيرة من الحليب؛ لن أقدر على شراء هذا.

شعرتُ حيال الشقة أعلى المرأب أنني عبرتُ إلى الجانب الآخر. شعرتُ أنني حَقَّقتُ شيئًا من خلال العثور على ظروف معيشيةٍ أفضل، حتى إن دَفَعتُ ثمنها خسارة دخلي الثابت. زاد عملائي اثنين ذاك الأسبوع. أخذتُ موافقةً

على أن تُغَطِّي معونة رعاية الطفل عملي التطوعي في مركز رعاية ضحايا العنف الأسري والاعتداء الجنسي. نجحتُ -بطريقةٍ ما- في إيجاد مكان في النظام الذي منحني مساحةً خانقة ووقتًا ضيقًا كي أتقَدَّم في حياتي.

ولكن لم أنجح في التخلُّص من شعوري بأن كل شيءٍ بدا حلمًا عابرا. بينما كنتُ أنجز المهمات الدراسية ذات مساء، رسمتْ ميا والفتيات قوس قزحٍ بالطباشير على الأسمنت أمام المرأب. هَدَرَتْ ضحكاتهن عبر النافذة المفتوحة. كانت الشمسُ مشرقةً وكل شيءٍ مثاليًّا.

حين نادَتْ أليس على الفتيات للغداء، صَرَخن وطالَبن بانضمام ميا إليهن. صعدت الفتيات السلم حتى شرفتي -وميا بينهن - لاهثات، ويتحدَّثن كلهن في نَفَسٍ واحد. ابتَهَجن حين ابتَسَمتُ ووافقتُ. راقبتهن يركضن على السلالم، ويضحكن معًا، ويعبرن الفناء إلى المنزل الكبير، ثم عدتُ وجلستُ على مكتبي. حقيقة أن ميا كانت تلعبُ في مكانٍ آمن عوضًا عن أن تشاهد فيلمًا كرتونيًّا مرةً تلو المرة خَفَّفَتْ من شعوري بالذنب الذي لازَمَني عادةً حين كنتُ أتركها محبوسةً في الحضانة بينما أعمل. شعرتُ أن الأيام التي عشناها في الاستوديو العَفِن ذي الغرفة الواحدة بعيدة أيما بُعد عنا.

26

منزل المُكدِّسين

حين وصلتُ أول مرة إلى ما أسميته منزل المُكدِّسين، فتحت الزوجة الباب فتحةً لا تتعدَّى عدة بوصات. رأيتُ نظرة عينيها تتحول من الحذر إلى التردد ثم تعود إلى حذرها.

قلتُ بابتسامة: «مرحبًا. أنا هنا لأنظف منزلك؟ راتشيل من مجموعة الفيسبوك عَرَّفتنا على بعضنا بعضًا».

أومَأتْ، وأدارت رأسها ثم فتحت الباب بما يكفي لتكشف عن بطنها الحامل الكبير وطفلٍ صغير متشبِّث بساقها. وقفتُ على المربع الصغير الأسمنتي لشُرفتهم الأمامية، وسَمِعتُ عصفورًا يُغَرِّد من داخل المنزل. حَدَّقَ إِليَّ أطفالٌ آخرون عبر نافذةٍ هائلة على يميني. حين عدتُ بنظري إلى المرأة، نظرت إلى داخل المنزل في توتر.

قالتْ قبل أن تفتح الباب باتساعٍ يكفي أن أدخل منه: «هذا سِرِّي الصغير». خطوتُ خطوةً وتعثرتُ. ترك مسار الباب بقعةً خاليةً على الأرض، وكانت تلك البقعة الوحيدة الخالية في المكان بأكمله. أول فكرةٍ خطرتْ لي كانت أَلَّا أُظهِرَ أي رد فعل. أشارَتْ في أول محادثةٍ دارت بيننا إلى أنها في حاجةٍ إلى

المساعدة في إخلاء المرأب وغسل الملابس، ولكن ما رأيته فاقَ توقعاتي؛ ملابس، وأطباق، وأوراق، وحقائب، وأحذية، وكتب. أُلقِيَ كل شيء على الأرض وتَجَمَّعَ الغبار والشعر عليه.

أخبَرَتني ونحنُ واقفتان في بقعةٍ شاغرة من الصالة أن العائلة انقَطَعَتْ عن سداد فواتير المنزل. أنصَتُّ لها بانتباه قدر استطاعتي، وحاولتُ أَلَّا تربكني الحالة التي وصل إليها المنزل. تحدثَتْ بسرعة، وبَدَتْ منفعلةً وغاضبة. استأجروا منزلًا جديدًا سينتقلون إليه عما قريب؛ الزوج وزوجته، والأطفال الخمسة، وقريبًا طفلٌ رضيع.

قالَتْ وهي تنظر إلى يدها على بطنها: «بصراحة لا يمكننا دفع ثمن خدماتك، ولكنني أكاد أُجَنُّ هنا. منزلنا الجديد سيكون بدايةً جديدة، لا أريدُ أن أنقل كل هذا معي».

أجبتُها بإيماءة، ونَظَرتُ إلى ما حولي. كان كل سطحٍ من أسطح المطبخ وغرفة الطعام مُغَطًّى بأكوام من الأطباق المتسخة. قَبَعَ في زوايا غرفة المعيشة ما بدا أنه أكداسٌ من الكتب والأوراق، مختلطةً بالملابس والألعاب، والمزيد من الأطباق. أحد الجدران، سقطت الأرفف من المكتبة وتناثرت الكُتُبُ على الأرض أسفلها.

قالت إنهم عجزوا عن تسديد الفواتير، وأشارت إلى القسائم الغذائية. رَوَّعَتني فكرة أن أُطالِبَها بثمن أي شيء، ولكن لا أستطيع العمل مجانًا. رغم أنها لم تطلب مني تخفيض أجر الساعة، أصرَرتُ على أن تدفع نصف ما أتقاضاه عادةً.

اقترَحتُ عليها وأنا أبحثُ عن مكانٍ أضعُ فيه أشيائي: «ما رأيكِ في خمسة دولارات لكل كيس قمامة ملآن بالغسيل؟ بإمكاني أخذها معي إلى منزلي وغسله هناك». لم تُجِبني على الفور. ارتَفَعَتْ يدها الفارغة، اليد التي لم تكن

تُرَبِّتُ على رأس طفلها بها، لتَمسحَ خَدَّيها. وضعتها أسفل أنفها لحظة، ثم أومات. أغمَضَتْ عينيها بشدة تحاول كَبحَ بكائها، قلتُ: «سأبدأُ بالمطبخ».

كنتُ أتناول أدوات النظافة من سَلَّتي، ورأيتُ الفتى الذي كان مختبئًا خلف ساق أمه أتى لمساعدتي. قالت السيدة: «إنه لا يتواصل بالكلام؛ لم ينطق كلمةً بعد». ابتَسَمتُ له، وتناولتُ قُفَّاز غسيل الأواني الأصفر من يده التي مَدَّها نحوي.

قضيتُ أول يوم أربع ساعاتٍ في غسل الأطباق، حتى لانَتْ أصابعي داخل القفازين. بدأتُ أنظف الأسطح حين نفد الماء الساخن. غطَّت الأطباق النظيفة -التي وضعتها على المناشف كي تجف- الطاولة، والموقد، ومناضد المطبخ التي نظفتها. كيف تَمَكَّنَت من أن تطهو طعامًا لسبعة أفراد مع طفلٍ صغير متعلقٍ بساقها في هذه المساحة الضيقة؟

لم أعرف ما الذي كانوا يأكلونه؛ كان أغلب الطعام المُعَلَّب والجاهز في خزانات المطبخ مُنتهي الصلاحية، انتهت صلاحية بعضه منذ عشر سنوات. ألقيتُ نظرةً سريعةً على الثلاجة، فرأيتُ الأرفف تقطر بأشياء قديمة لزجة.

وجدتُ غسالةً ومجففًا داخل خزانة في ردهة المنزل. تكوَّمت الملابس على الأرض في أكوام ضخمة في كل مكان، إضافةً إلى الردهة الضيقة التي تُفضِي إلى المرأب، الذي تحوَّل إلى غرفة نوم. بدأتُ أملأ الأكياس كي آخذها معي إلى المنزل، وتوقفتُ بين الحين والآخر لألتقط أنفاسي. امتلأت الملابس بالأغبرة؛ كنتُ أسعل وكأنني أمرُّ بنوبة ربو، فَرُحتُ ألهثُ من أجل الهواء بين هجمات السعال. حين كنتُ ألمُّ المجموعة الأخيرة من الملابس كي أملأ الكيس الثاني، كشفتُ الأرضية من تحتها. رأيتُ عنكبوتًا ضخمًا، وفضلات فئران، وشيئًا آخر أُقسِمُ إنه كان يشبه جلد الثعابين. عَضَضتُ لساني كي أمنعَ صرخةً من الهرب، وهززتُ رأسي مُعلِنَةً نهاية اليوم.

شكرتني السيدة قبل أن أغادر، ترقرقت الدموع في عينيها، واعتذرتْ عن حالة المنزل. قلتُ وأنا أحملُ أدوات التنظيف وأكياس الملابس: «لا داعي للاعتذار. سأعود غدًا في الوقت نفسه».

أخبرني معظم عملائي الذين تعاملوا معي مرةً أو مرتين أن حضوري في منزلهم يشجِّعهم على التنظيف معي بأنفسهم. أمَّا عملائي النظاميون -مَنْ كنتُ أنظف منازلهم كل أسبوع أو اثنين، أو مرةً في الشهر- فقد أدركوا ما عليهم فعله؛ أن يدعوني وحدي حتى أؤدي عملي. لم أقَدِّر وقتًا أكثر من المطلوب لكل منزل كي أمنحَ نفسي وقتًا أطول. وحتى إن انتهيتُ قبل الوقت المحدد، كُنتُ أبقى وأنظف جزءًا آخر منه. كانت سُمعَتي هي الفَيصَل مع عملائي الشخصيين؛ كنتُ الشخص الذي يأمل أن يرشحوه بحماسٍ لأصدقائهم. إن احتاجوا إلى شخصٍ يتسكَّع معهم أو يدردش وينصتُ إلى المشكلات التي يمرون بها بينما نُنَظِّفُ الفوضى العارمة، فبوسعي أن أكون هذا الشخص أيضًا.

في اليوم الثاني في منزل المُكَدِّسين، نَظَّفنا غُرفة نوم الفتاة الصغرى. ملأنا اثني عشر كيسًا من أكياس المطبخ ووضعناها مع بقية الأكياس التي ستُلقَى في مِكَبِّ النفايات. أسفل تشكيلةٍ متنوعة من الورق والأعمال الفنية المصنوعة بأعواد المثلجات الخشبية، وتلَّة من الطعام المنسي والبالونات المفرَّغة من الهواء، ومختلف الأغصان والأحجار والملابس المهترئة أو الصغيرة، عثرنا على غُرفة الفتاة. وجدتُ تماثيل جديدة من منزل الدُّمَى، فوضعتها مكانها بحذر في غُرفة المعيشة المناسبة لحجمها. أعدنا الكتب وصناديق من دُمَى «ماي ليتل بونيز » على الرف المطلي بالأرجواني والوردي. وضعنا الملابس في الخزانة، والأحذية على الرف المخصص لها. عَلَّقتُ فستانًا أحمرَ مع معطفٍ يُطابِقُه في خزانتها. كذلك عثرتُ على زَوجَي حذاء أسود لامع من طراز ماري جينز.

انتابني شعورٌ رائع بعد أن نَظَّفتُ تلك الغرفة؛ خطرتْ ببالي المرات التي ذَهَبَتْ فيها ميا إلى منزل والدها وقضيتُ وقتي أرَتِّبُ غرفتها وأفرز أغراضها.

كانت تكره رميَ أي شيء، ولم أستطع إقناعها بالتخلِّي عن بعض ألعابها إلا حين اصطحبتُها معي لتتبرع بها إلى ملجأ النساء، أو إلى متجر البضائع المستعملة فيزيدُ رصيدها فيه. ولكن كان علينا التخلُّص من كل ألعاب وجبات الهابي ميل، واللوحات، وألوان الشمع المكسورة. وبعد ساعاتٍ من التنظيف والتنظيم، كانت ميا تعودُ إلى المنزل، وتدخل غرفتها النظيفة والمنظمة على نحوٍ مثالي، فتبتسم وكأن كل شيءٍ تمتلكه عادَ جديدًا. تمنيتُ أن تشعر الفتاة الصغيرة التي كَبُرت - ابنتي - بفارق قصير بالشعور نفسه.

وضعتُ المزيد من الملابس في الأكياس قبل أن أغادر، وكنتُ قد أعدتُ الكيسين الآخرين بعد أن غَسَلتُ الملابس وطويتها. تلك الليلة في المنزل، ساعدتني ميا في طَيِّ القمصان والجوارب والفساتين. رَفَعَتْ تنورةً إلى خصرها وقالت إنها جميلة للغاية. راقَبتُها وهي تدورُ في المكان بها.

سألتني: «هل يمكنني أخذها ؟»، هَزَزْتُ رأسي رفضًا. بَرَّرتُ لها بأن الملابس كانت ملابس عائلةٍ أخرى.

- لماذا تغسلينها إذن؟

قلتُ: «لأنني أساعدهم يا ميا. هذه وظيفتي؛ مساعدة الناس».

فقط آنذاك -حين سمعتُ نفسي أقولها- صَدَّقتُ أنها الحقيقة. عادَتْ ذاكرتي إلى المرأة التي شكرتني لأنني نَظَّفتُ منزلها ووَضَعَتْ رزمةً من المال في يدي، وشَدَّت عليها لحظةً ثم أخبرتني بأن من الأفضل أن أغادر قبل أن يعود زوجها إلى المنزل. دعاني اثنان من عملائي -كنتُ أتولى أعمال تنسيق فناء منزلهما- بأنني أفضل عاملةٍ حظيا بها على الإطلاق.

كنتُ ما أزال أحملُ معي مذكِّرةً يومية، أُدَوِّن أسماء عملائي في جداول وأحاول حفظ مواعيدهم قدر استطاعتي؛ في حالة سألني أحدهم إن كنتُ متفرغةً يوم كذا أو ساعة كذا. لم يكن عليَّ أن أرتدي زيًّا رسميًّا في الاجتماعات مع

رئيستي في العمل، أو أن يُفتِّشَ أحدهم صندوقي عن مستلزمات التنظيف. لم يكن عليَّ أن أمر على أي مكاتب تبعدُ أميالًا عن طريقي حتى أحصل على منظفٍ جديد من وكلاء التنظيف. صحيحٌ أن تنظيف خمسة مراحيض يوميًّا أرهقني، ولكن -وعلى نحوٍ ما- تَحَسَّنَ شعوري قليلًا حيال تنظيفي إياها.

بعد كل تنظيف دام أربع ساعات، كان يتحول منزل المُكَدِّسين شيئاً فشيئًا إلى منزلٍ عادي. أصلَحتُ الأرفف في غرفة المعيشة، وكنستُ كل حبوب الطيور، ووجدتُ عشرات من الأقراص المضغوطة أسفل الأريكة. شعرتُ بامتنانٍ غامرٍ نحوها لأنها لم تطلب مني قط أن أنظف الحمام، رغم أنني حاولتُ إخفاء امتناني. لَستُ أعرف مدة بقاء المنزل نظيفًا؛ كنتُ أرَتِّبُ المطبخ ذات مساء، فأعود في المساء التالي وأجد أوعيةً وأطباقًا ملوثةً بصلصة حمراء جافة ومبعثرة على مناضد المطبخ والموقد. أملتُ أنني أدخلتُ السعادة على قلوب عائلتها، وأن التنظيف غمر قلبها بالسلام قبل ولادة طفلها. ولكني في الأساس كنتُ مسرورةً لأنني أنهيتُ مهمتي.

تَوَارى مبنى مركز رعاية ضحايا العنف الأسري غير الربحي -حيثُ تطَوَّعتُ- بعيدًا في مجمَّع أعمال جوار خطوط السكك الحديدية في ماونت ڤيرنون. لم أكن موظفة استقبالٍ متطوعة يملؤها الأمل فحسب، بل كنتُ عميلةً في المركز كذلك. كان في الغرفة الخلفية التي التقيتُ فيها محاميتي في قضية العنف المنزلي نوافذ عالية تقترب من السقف، تُدخِلُ ما يكفي من أشعة الشمس لتُبقِي نباتات الزينة على قيد الحياة. انتقلتْ كريستي -مُحاميتي- من ميزولا العام الماضي. تَكَلَّمَتْ كثيرًا عن مدى شوقها للمدينة، خاصةً بعدما أخبرتها أنها تغويني منذ عدة سنوات.

قالت كريستي: «لِمَ لا تزورينها ؟»

كنتُ وقتها أتحدَّثُ عن إعلانات جامعة مونتانا التي كنتُ أجدها في صندوق البريد كل صباح شهورًا طويلة وكأنها حبيبٌ سابق مُلِحٌّ في رغبته بأن نعود لسابق عهدنا. كنتُ أجدُ بطاقات بريدية وكُتيِّبات تحتوي على تفاصيل برنامج الكتابة الإبداعية مع صور لرجال مبتسمين، يرتدون بناطيل كارهارت ويصطادون السمك.

هَزَّتْ كريستي رأسها وابتسمت. نَحَّتْ جانبًا طلب تقديمي للحصول على منحةٍ طلبتُ منها مساعدتي فيها، ثم نظرتْ إليَّ.

قالت: «عليكِ زيارتها، وسنرى بعدها ما رأيك». بدتْ دومًا هادئةً ومُسالِمة. «أحبها أبنائي. ميزولا مكانٌ رائع ومناسبٌ لتنشئة عائلتك».

سألتُها بنبرة يشوبها التأفُّف : « ولماذا أُعَرِّضُ نفسي لهذا من البداية؟ ماذا لو أعجبتني فعلًا؟ سيزداد استيائي لا أكثر». أزَلتُ وحلًا عالقًا على بنطالي؛ كان متسخًا من اقتلاع أعشاب فناء أحد عملائي ذاك الصباح.

سألتْ كريستي وهي تميل على مقعدها: «لماذا لا تنتقلين للإقامة فيها؟»

قلتُ: «لن يسمحَ لي».

-والد ميا؟

قلتُ بينما أعقدُ ذراعيَّ: «أجل، جايمي».

في لقائنا الأول، ألقيتُ قصتي المحفوظة على مسامعها؛ القصة التي كررتها مرةً تلو المرة أمام الاختصاصيين النفسيين أو أي شخصٍ يسألني عن الماضي. تبدأ الحكاية من ملجأ المشردين، وتشمل أوامر منع التواصل مع جايمي، وقضية الحضانة، ونوبات الهلع، وأن جايمي يُقيم في مكانٍ يبعدُ ثلاث ساعات، وميا تقابله مرةً كل أسبوعين. ولكن تساءلتُ يومها إن كانت ميا قد ترغبُ في الإقامة معه.

انخفض صوتُ كريستي قليلًا: «انتقالك إلى ميزولا أو عدمه ليس قراره من الأساس».

-مع هذا فعليَّ أن أطلب موافقته.

قالت: «لا، ليس طلب موافقة، بل ستُخطِرينه بانتقالك إلى مدينةٍ أخرى، وسيكون لديه فرصة الاعتراض». كانت تجعل الأمر يبدو سهلًا. «في حال اعترض، سيُقَدِّم كل واحدٍ منكما قضيته، والكلمة الأخيرة للقضاء». نَظَرَتْ إلى طلب التقديم. بقيتُ صامتةً أمنح كلماتها المساحة كي تنغرس في رأسي. أردَفَتْ: «من النادر جدًّا أن تُمنَع الأمهات من الانتقال، تحديدًا إن أثبتن أنهن سيتمتعن بفُرَصٍ تعليميةٍ أفضل في المكان الجديد». ضَغَطتُ على أسناني ونَظَرتُ إلى الأرض. مجرد فكرة العودة إلى المحكمة مرةً أخرى جعلتْ قلبي يخفق.

قالت: «لا تفكري في الأمر أنه طلب موافقة، بل هو إخطار».

قلت وانتباهي منصَبٌّ على قماش وسادة المقعد: «صحيح».

قالت: «طيب، اشرحي لي إذن خطوات هذا». ثم أمسكت برزمة أوراق طلب التقديم.

أطلَعَتني محاميةٌ أخرى -محامية بورت تاونسند التي ساعدتني حين كنا مشردين- على منحةٍ مخصصةٍ للناجيات من العنف الأسري، أسمتهن: «سيدات الشمس المشرقة». ولكن لم أتأهل لها آنذاك. لم أكن لأتذكرها قط إن اختلف اسمها. ورغم أن اسمها الرسمي كان «برنامج منحة استقلال المرأة» (WISP) ، أوصلني البحث على الإنترنت بكتابة «سيدات الشمس المشرقة» إلى المكان الصحيح.

طبعًا منحةٌ مخصصةٌ للناجيات من العنف الأسري لن تكون بلا كمياتٍ هائلة من الأوراق وقائمةٍ طويلة من الشروط. لم أتأهل لسببٍ رئيسي لم أُولِه

اهتمامًا من قبل؛ ينبغي أن تكون مُتلقيات المنحة قد أنهين العلاقة المُسيئة منذ عامٍ على الأقل. ولكن كنتُ في حاجة إلى ضامن -ويُفَضَّل أن يكون عبر برنامج العنف الأسري- ليُدير الأمور المالية. سيُرسِلُ البرنامج تمويل المنحة إلى المنظمة، التي ستعملُ جنبًا إلى جنب معي لإنفاقه بأفضل طريقةٍ ممكنة. أظنُّ أنه عبر هذا الطريق سيكون البرنامج مُطَّلِعًا على المصدر الذي أُنفِقَتْ عليه أموال المنحة، ولكن العملية بَدَتْ شاقة.

قالت كريستي ونحنُ ننجزُ الأوراق المطلوبة: «اطلبي خمسة آلاف دولار. أسوأ ما قد يحدث أن تحصلي على مبلغٍ أقل بقليل».

قلتُ: «أتساءل إن كنتُ سأنجحُ في الوصول إلى الناس عبر كتابتي». كنتُ أوَجِّه الكلام إلى نفسي أكثر مما كان إليها.

أومَأتْ وابتَسَمَتْ في تشجيع. قالتْ: «يوجد في جامعة مونتانا قسمٌ مذهل للكتابة الإبداعية!» ثم عادَتْ إلى الصفحة الأولى وأردَفَت: «أظنها إحدى أفضل الجامعات في البلاد!»

قلتُ: «أعرفُ. كانت هذه خطتي. قَبلَ الحَمل». حاولتُ أَلَّا أبدو مُحبَطةً. ولكنها كانت خطتي قبل أن أنجب طفلةً تحتاج إلى رعايتي، قبل الحاجة إلى دخلٍ ثابت وتأمينٍ صحي، قبل أن يكون عليَّ التفكير في مستقبل ابنتي، وليس في مستقبلي فحسب. قلتُ: «ولكن شهادة البكالوريوس في الآداب ليست عملية». كانت كريستي على وشك أن تضحك، ولكنها لَمَحَتْ دموعًا في عيني.

لم أكن أريدها أن تشجعني على الإقدام على العكس، كما لم أرد سماعها وهي تشجعني على زيارة ميزولا. بَدَتْ تلك الأحلام عصيةً على التحقق. كان التوق إليها مشابهًا للأوقات التي جلستُ فيها على طاولة مطبخنا أراقب ميا تأكل بينما أشرب القهوة بدلًا من إسكات جوعي. كانت لهفتي إلى ميزولا متنامية، وكان يؤلمني مجرد الحلم بها.

قالت كريستي بصوتٍ يقطر تشجيعًا: «تخيلي فخر ميا بكِ حين ترى محاولات سعيكِ».

لم تُطلِق ميزولا سراحي. ظَهَرَتْ في حديثي مع أي شخصٍ شعرتُ بأنه يُشاركني ولو خيطاً رفيعًا من القدر. ظَلَّتْ تفعل هذا سنوات، ولكن لم أُعِرها اهتمامًا سوى آنذاك. تركتُ نفسي تستشعر وخزها وجذبها إياي.

ولكن لسوء الحظ، ظلت أشياء أخرى تُثقِلُ كاهلي أيضًا، لا تتحسن، تستمر في سلوكِ طرقها القاسية حين أتوق إلى قسطٍ من الراحة. أثبَتَتْ مالكة سكني الجديد - أليس - أنها أصعب عملائي. قضيتُ عشرات الساعات في منزلها أحاول تنظيفه بطريقةٍ لا تُثير شكواها. كانت تُدخِلُني إلى المطبخ وتُشيرُ إلى أماكن غابَتْ عني. كنتُ أستَخدِمُ مناشفها وأدواتها في التنظيف، ولكنها تغضبُ إن تركتُ المناشف المستخدمة في الغسالة. اتصلت بي ذات مرة وطلبت مني أن أحضر بنفسي لتُشير إليها قائلةً: «عليكِ أن تغسليها. أنتِ هكذا تتركين مزيدًا من العمل عليَّ». أرَدتُ أن أخبرها بمدى غرابة وقِلَّة ذوق هذا السلوك في ظل ظروفٍ عادية لأي عميل. ولكن بدلًا من ذلك، جَمَعتُ المناشف من الغسالة وحملتها إلى المرأب لأغسلها وأجففها، ثم أطويها وأصفَّها في كومةٍ أنيقةٍ على شرفتها.

بدأتْ أليس أيضًا تتهمني بالكذب في الوقت الذي أقضيه في اقتلاع الحشائش. لم أمر بتلك المواقف من قبل قط. لم أتلقَّ شكاوى منذ أيام المقطورة المجاورة لمنزل اللص الحافي.

ذات مساء هاتفتني أليس؛ ترغبُ مرةً ثانية أن تتحدث معي في منزلها. كنتُ أعرف ما أنا مُقبِلَةٌ عليه. قالت إنني لا أُنَفِّذُ التزامي من اتفاق المقايضة، وإنني فشلتُ في التنظيف بمهارة، وستفسخ العقد.

أومأتُ والتَفَتُّ، ثم غادرت. نظرتُ إلى ما حولي حين وصلتُ إلى شقتي. لم أصدق أن الإيجار تضاعف. حَدَّقتُ من النافذة إلى الشاطئ الممتد أمامي في صمتٍ مذهول. شعرتُ أن صدري ينطوي على نفسه ويضيق.

سألني كورت في وقتٍ لاحق في المساء نفسه: «هل أنت بخير؟»، كنا نقفُ امام ساحة اللعب في فنائهم. «أخبَرَتني أليس أنكِ كنتِ على وشك البكاء حين تحدَّثَت معكِ».

قلتُ وأنا مطرقة: «وصلت إليَّ أخبار سيئة وقتها».

أوماً، ثم قال وهو يدفع الطفلة على الأرجوحة: «أفهمكِ. أليس مضغوطةٌ هذه الأيام لأنها ستُسَرَّحُ من عملها».

طنَّ تشويشٌ في أذني. فَهِمتُ لِمَ فَصَلَتني من العمل؛ لَمْ تكن الرداءة، فصلتني لأنها لم تستطع تحمُّل تكلفة المقايضة، أو لأنها أرادت إنجاز العمل بنفسها لتوَفِّر المال وتضعف هِمَّتي خلال هذا. كانت أليس قد أوصلت الفتيات، اللواتي ركضن نحو ميا. رُحتُ أشاهدهن يركضن نحو عجلاتهن وسط الضحكات والصراخ. فكرتُ في كل الوثائق القانونية. إن حاولتُ الدفاع عن المقايضة فقد ينتهي بي الأمر في معركةٍ قانونية لا أستطيع تحمُّل نفقاتها. كنتُ سأخسر بقايا علاقة ودودة كانت ابنتي في حاجةٍ إليها لتمرح مع صديقاتها. مُحالٌ أن أتمكَّن من النضال.

في لقائي التالي مع كريستي، شَرَحتُ لها ما حدث وأخبرتها: «لن أستطيع دفع إيجار الشقة دون المنحة».

قالت: «ستحصلين عليها». كأنهم بالفعل أبلغوها أنني حصلتُ عليها وكانت تُبقي الأمر سِرًّا. بَلَغَتْ رزمة أوراق طلب التقديم خمسين صفحة تقريبًا. كنتُ ما زلتُ أنتظر الحصول على المزيد من خطابات التوصية.

- هل فَكَّرتِ أكثر في موضوع ميزولا؟

فكرتُ. نوعًا ما فكرتُ. ازداد سلوك جايمي سوءًا، وقلقتُ على سلامة ميا دومًا. كانت تقضي أسبوعًا في منزله بينما أنتهي من محاضرات فصل الربيع، وعادَتْ أخفَّ وزنًا. اصطحبتها إلى الطبيب لفحص التهاب الجيوب الأنفية قبل أن تذهب إليه، ثم أعدنا الفحص بعد عودتها لأن حالتها ساءت. كان نقصان وزنها الضئيل من الأساس أمرًا جَلَلًا . عادَتْ تتبول في ثيابها ولم أفهم السبب، فلم يحدث هذا منذ أشهر.

كان جايمي يعيش آنذاك في مركبه الشراعي الصغير، وظَلَّتْ ميا هناك خلال زيارتها إياه. لم يتعلم أيٌّ من ميا أو جايمي السباحة، فخِفتُ أن تسقط ميا من المركب أو تنزل منه دون أن ترتدي سترة النجاة وسط ظلام الليل. خفت أن يتبدل شيءٌ فيها بعد قضاء الوقت معه. كنتُ أسمع أصوات رجال من حوله كلما اتصلت به. وحين سألتُها لم تعرف مَنْ هم، ولا مكان أبيها، كانت على متن القارب فحسب. بدأتُ أشعر وأنا أُقِلُّها بأنني أؤدي مهمة إنقاذٍ أو شيئًا كهذا.

أخبرتُ كريستي بكل ما في بالي عن صاحبة الشقة، وعن سيطرة ميزولا. يزداد ضغط الدراسة في الخريف، ولكن لم أسجل سوى في مادتين في الصيف. كنتُ ما زلتُ أقتَرِضُ الحد الأقصى من القروض الطُّلَّابية لأغطي مصاريف المعيشة التي تَضَاعَفَتْ آنذاك. ذهبتْ ميا إلى الحضانة، بينما انهمكتُ في العمل أو التطوع قدر المستطاع.

قضيتُ يومين أبحث عن مصادر أخرى بعدما فصلتني أليس، مدركةً أن مالي لن يكفي سداد الفواتير في يونيو قبل أن يصل قرض الفصل الدراسي الصيفي. وجدتُ منحةً غريبةً في الكلية كي تساعدني في تسديد جزء من إيجار يونيو، منحة «رَبَّات البيوت»، مخصصة للنساء المُعيلات لمساعدتهن في تدبير المصاريف السكنية. ساعدتني أيضًا قسائم الاثني وعشرين دولارًا المخصصة للوقود التي يُقَدِّمُها قسم الإعانات لسداد تكاليف الخدمات والمرافق العامة.

كنتُ أكتم أنفاسي كلما فتحتُ بريدي الإلكتروني. تصل إليَّ الفواتير والإعلانات يومًا بعد يوم، لكن لا يصل أي شيء من لجنة المنحة، شعرتُ أن الشهر يمرّ، وأن كارثةً ستحلّ. علينا أن نترك الشقة إن لم أحصل على المنحة. ولكن إن حصلتُ عليها، فسنحظى بمالٍ يكفي أن نبقى فيها ويزيد. أخذتُ ميا في جولاتٍ إلى الشواطئ والحدائق لأُشَتِّتَ تفكيري عن المنحة. قضينا وقتًا طويلًا مع كورت والفتيات نتجول على ضفة الخليج، حيث كن يتدحرجن في الوحل. كنتُ أختبئ في شقتي حين تذهب ميا إلى منزل والدها؛ أقرأ أو أنجز المهمات الدراسية، وأفتح الأبواب لشمس الصيف.

ذات يومٍ من أيام نهاية الأسبوع، تناولتُ رواية الخيميائي عن الرف لأقرأها. استغرق إنهاء الكتاب الصغير يومين بما أن كل صفحةٍ تقريبًا كان بها سَطرٌ أحدده وأعيد قراءته ثم أحَدِّق إلى النافذة لأفَكِّرَ فيه لحظات. أعطتني أمي هذا الكتاب بعد أن عُدتُ من واشنطن إلى ألاسكا. شَرَحَتْ لي سريعا أن الحبكة تدور حول رحلة البطل الرئيسي التي انطلق فيها بحثًا عن مصيره، ليكتشف بعدها أن قدَره كان في قلب وطنه من البداية، امتَعَضتُ من فكرته. بلا شكٍّ طبعًا كانت نورث ويست واشنطن مكانًا ساحرًا حين تشرق فيه الشمس، وهناك نواحٍ من الطريق السريع ٢٠ نمرُّ فيها عبر ممر ديسبشن باس، حيثُ كنتُ أعرف الأشجار كأنها أصدقاء قدامى. ولكن روح الوطن انتهت هناك. لم أشعر أنني أنتمي إلى ذاك المكان. لم أعرف إن شعرتُ بالانتماء إليه يومًا من الأساس.

استوقَفَتني فكرة الخيميائي، تلك الأسطورة الشخصية. ظَلَّتْ رغبة الكتابة تلاحقني طوال خمسةٍ وعشرين عامًا تقريبًا.

أفصَحتُ لكريستي في موعدنا التالي قائلةً: «أظنني مستعدة لزيارتها».

في طريق عودتنا إلى المنزل، بعد أن أقلَلتُ ميا من الحضانة، رُحنا نغني معًا أغنية بول سيمون: «ألماسٌ في نَعلَي حذائها». كنتُ أبتسمُ كلما بَدَّلَت كلمات الأغنية. استمعنا لهذا الألبوم مرارًا وتكرارًا أسابيع في السيارة ونحن في طريق

ذهابنا إلى الحضانة وعودتنا منها، وكذلك ونحن في طريق إعدادنا لمغامرات نهاية الأسبوع. كانت تصاحِبُ ابتسامنا وغناءنا الأغنية نفسها أحيانًا نكهة المثلجات نفسها كذلك.

انعَطَفتُ بالسيارة إلى طريقنا، وبَدَأتْ ميا تسألني إن كان بوسعها اللعب مع الفتيات. قُلتُ لها وأنا أبطئ بجانب صندوق البريد: «انتظري لحظة». حاولتُ أَلّا أُكثِرَ من البحث فيه؛ تكون خيبة أملي عارمةً حين أراه فارغًا.

ناديتُها عند صندوق البريد: «ميا!». رفعتُ مظروفًا كبيرًا من «برنامج منحة استقلال المرأة». كان ظرفًا من تلك المظاريف ذات الأوراق المسطحة. فتحتُه ونظرتُ إلى الخطاب. كان داخل الظرف قصاصات ذهبية اللون كالشمس، تناثرتْ في أنحاء شقتي. قُبِلتُ في المنحة! جمَّعتْ ميا القصاصات بين أصابعها. كان «برنامج منحة استقلال المرأة» يمنحني ألفَي دولارٍ فقط لفصل الخريف، لكن ألفًا واحدًا للصيف. لم نبقَ في الشقة فحسب، بل لدي ما يكفي من المال لأخذ إجازة بين فصلي الصيف والخريف، يمكنني زيارة ميزولا.

ومض سطرٌ من الخيميائي في رأسي مثل شريط الأسهم: «حين ترغبُ في شيءٍ ما، يتآمر الكون كله في مصلحتك كي تُحققَه». من خلال تمويل المنحة، سيمكنني ادخار راتبي الشهري، وإصلاح سيارتي ثم قيادتها عبر ممرين جبليَين لأرى مدينةً كَتبَ العديد من كُتَّابي المفضلين قصص حبٍّ عنها.

27

وصلنا إلى البيت

في مكانٍ ما قُرب سبوكين[1]، قُدتُ سيارتي شرقًا على طريق إنترستيت ٩٠ السريع. امتدَّ الطريق خاليًا من كل شيءٍ أمامي وخلفي، وعلى يميني ويساري. ارتَعَشَ العُشبُ البُنِّيُّ المحترق من الشمس بسبب الرياح، يُناضل ليَظَلَّ على قيد الحياة. دفع المزارعون مرشاتٍ معدنية ضخمة عبر أراضيهم سعيًا للحفاظ عليها نَضِرةً لمواشيهم. على الطريق السريع ذي المسارين، مَرَّت على يساري فتاةٌ تقود سيارة سوبارو خضراء. اكتَظَّ المقعد الخلفي وصندوق سيارتها بالصناديق، وسلال الملابس المتسخة، وأكياس القمامة.

على عكسها، كان في سيارتي حقيبتان قديمتان لكن متينتان، ملآنتان بالقمصان المفتوحة الجديدة والسراويل القصيرة.

امتَدَّتْ حياتنا أمامنا نحنُ الاثنتين؛ فتاة السوبارو وأنا. ربما كانت ستنتقل إلى ميزولا لأنها ستلتحقُ بالجامعة مثلما كنتُ سأفعل في الماضي -لو لم أمزق أوراق التقديم تلك منذ زمنٍ بعيد-، ولكن ربما تنتهي التشابهات بيننا

عند تلك النقطة. تصوَّرتُ نفسي فيها منذ نحو خمس سنوات، تُغني مع أغنيةٍ يُذيعها مسجِّلُ السيارة. فكرتُ أنه كان ينبغي أن أكون مكانها.

---

[1]- مدينة في واشنطن. (المترجمة)

نَفَضتُ تلك الأفكار وضَغَطتُ على دوَّاسة الوقود، ألحقها، أُطارِدُ طيفَ ذاتي. لم يكن السفر إلى ميزولا يمثل ملاحقة أحلامي فحسب، بل كان محاولة للعثور على مستقرٍّ لنا، مكانٍ يكون الوطن والبيت.

حين وصلتُ كنتُ وحيدةً في الظلمة، بدا قلب ميزولا نابضًا بآثار يومٍ صيفيٍّ حارّ. حين تَرَجَّلتُ من سيارتي ووقفتُ على الرصيف، نَظَرتُ إلى أرجاء الشارع من حولي، مَرَّتْ فتاتان في أوائل العشرينيات من أمامي، أومأتا وابتَسَمَتا. كانت إحداهما تغني، والأخرى تعزفُ على قيثارة. ارتَدَتْ كلتاهما تنورةً فضفاضة وصندلاً . ذَكَّرَتاني بالفتيات اللواتي كنتُ أقابلهن في حفلات فيربانكس. كن هيبيات، لا يفقهن أي شيءٍ عن مساحيق التجميل، يعرفن كيف يشعلن النار، ولن يخفن من تمريغ أيديهن في الوحل. أفتقدُ هؤلاء الناس؛ ناسي.

في اليوم الأول، تجوَّلتُ في المدينة وشمس الصباح تَخِز جلدي. كان العُشب جافًّا ومُغريًا بالجلوس عليه، عكس رطوبة واشنطن تمامًا. جَلَستُ قُربَ الحرم الجامعي أقرأ كتابًا أسفل شجرة قيقب باسقة. استلقيتُ على ظهري وحَدَّقتُ إلى الشمس عبر الأوراق المتموجة. بقيتُ على حالي هذه معظم اليوم، أحَدِّق إلى التلال والجبال المُحيطة، وأراقب النهر يجري أسفل جسر المُشاة. في ذاك المساء، اكتَشَفتُ حديقةً تقع في قلب المدينة، اصطَفَّ بائعو الطعام على حواف ميدانٍ مُظَلَّل. انتشر الناس على العشب، أو على مقاعد الحديقة، كانت فرقةٌ موسيقية تعزفُ على إحدى المنصَّات. لم أتذكَّر آخر مرةٍ شعرتُ فيها بسرورٍ كهذا، آخر مرةٍ استرخيتُ وتركتُ الموسيقى تملأ صدري. تجوَّلتُ في الحديقة وعلى وجهي ابتسامةٌ بلهاء، ثم لاحظتُ أن الكلَّ مبتسمٌ كذلك.

بعد أن عِشتُ سنواتٍ دون شعورٍ بالودِّ والأنس، بعد سوء علاقاتي بعائلتي، بعد خسارة أصدقائي، بعد التنقل بين الشقق والعفن الأسود، بعد أن تلاشَيتُ في عملي خادمةً، كنتُ أتلَهَّفُ إلى اللطف والحنان، كنتُ متلَهِّفةً إلى أن يُلاحظني الناس، أن يتحدثوا معي، أن يتقبَّلوني. كنتُ متلهفةً بطريقةٍ لم أشعر بها طيلة حياتي.

أيقظتْ ميزولا بداخلي تلك اللهفة. فجأةً أردتُ أن أكون جزءًا من مجتمع، أردتُ أصدقاء، وشعرتُ أنني لن أواجه مشكلةً في تحقيق رغبتي تلك، لأنني بينما كنت أتمشى في الأنحاء، وبالحكم من مظاهر من حولي، كنتُ محاطةً بالكثير من الاحتمالات. ابتسم لي معظم الناس أسفل قُبَّعَاتهم التي تحمل خارطة مقاطعة مونتانا أو رمزها (٤٠٦) . دخلتُ ذات صباحٍ مقهًى صغيرًا لأتناول الإفطار، كل الطاولات كانت مشغولة، أحصيتُ ستة عشر صندلاً من طراز شاكو، وصندلي من ضمنهم. رأيتُ نساءً لا يُزِلن شعور أجسادهن، ومعظم الناس تغطيهم الوشوم. حمل الرجال أطفالهم في حقائب وحَمَّالات قماشية تُلبَسُ على الصدر. قابلتُ صدفةً بضعةً من أصدقائي القُدامى من فيربانكس. لم يشملني مكانٌ بهذه السرعة من قبل قط. لم يكن قد مرَّ سوى يوم واحد.

اخترتُ -ودون حتى أن أعرف- أحد أفضل الأوقات لزيارة المدينة في الصيف. أدرَكتُ خلال الاستكشاف أن «مهرجان جذور المدينة النهرية» قد غيَّر حال المدينة. أُغلِقَ الشارع الرئيسي، وباع الباعة قمصانًا ملونة، وتُحَفًا فخارية، وأعمالاً فنية، ودببةً خشبية منحوتة. جلس فوجٌ من الناس على كراسي التخييم جوار المنصة ليستمعوا إلى الموسيقى معظم اليوم. اصطَفَّتْ عربات الطعام على حواف الشوارع يتوسطها كوخٌ صغيرٌ يبيع البيرة، ميزولا تعشق الحفلات.

وهكذا سار المهرجان. قضيتُ كل يومٍ من أيام رحلتي أستكشفُ المدينة. تسَلَّقتُ جبالًا، وقطعتُ طُرُقًا أَنصِتُ إلى أصوات الغزلان الرخيمة تأتي من الغابة. سِرتُ جوار الجداول وأَدمَيتُ أصابعي من خشونة الصخور. فقدتُ طريقي عدة دقائق على جانب جبلٍ موغلٍ في أحد الأودية خلف المدينة، وكنتُ متعرقةً وأشعر بالجفاف، كنت جوعي وعطشى، مع ذلك مليئة بحماس التيه في براري مونتانا، رغم كونه تيهًا لم يَطُل.

وَقَعتُ في حُبِّ مونتانا، مثل شتاينبك، ومثل دانكن.

كتبتُ في رسالة إلى جايمي: «سأنتَقِلُ للعيش في ميزولا، عليَّ أن أفعل ذلك. المكان هنا مذهل». انتظرتُ رده بقلبٍ خافقٍ، ولكنه لم يرد. تساءلتُ عما سيفعله ليتلاعب بمشاعر ميا ويُثنيها عن أن تأتي معي. تساءلتُ إن كان سيهددني باللجوء إلى القضاء، أو ربما يحاول انتزاعها مني، حالت تلك المخاوف بيني وبين مجرد محاولة الانطلاق في هذه الرحلة من الأساس. ولكني ما عُدتُ أسأله؛ كنتُ أخبره لا أكثر. رغم ابتذال الفكرة، إلا إنني فكرتُ أن محبتي العارمة لميزولا ورغبتي الشديدة في بناء حياةٍ أفضل لميا هي طريقنا إلى بر الأمان. ستوصلنا إلى هناك.

سمحَ جايمي لميا بأن تتصل بي في اليوم التالي. كان الصباح قد انتصف، ورنَّ هاتفي وأنا جالسةٌ على تلةٍ عُشبية جوار نهر كلارك فورك. من خلفي دارَتْ لعبة الأحصنة الدوارة في دوائر بطيئة بجانب ساحةٍ خشبية للَّعب عَجَّت بالأطفال. كنتُ أقرأ كتابًا وأدون أفكاري في دفتري.

قالت ميا: «مرحبًا يا ماما» سمعتُ صوت جايمي في الخلفية ثم صوت جدتها؛ كانا يشجعانها على أن تتكلم. ثم قالت في لعثمةٍ سريعة: «لا أريد أن أعيش في مونتانا».

قلتُ: «آه يا حبيبتي...»، حاولتُ أن أشَكِّل كلماتٍ تُشبه العناق. تخيلتُ المشهد: تقفُ ميا في صالة منزل جدتها، وجايمي يُمسك الهاتف على أذنها، وحاجباه مرفوعان، وينتظر منها أن تكرر الجملة التي تَمَرَّنا عليها. قلتُ: «ميا، أنا آسفةٌ للغاية لأنكِ تخوضين هذه المعاناة». ثم انتزع جايمي الهاتف منها.

تأرجح صوته بين الزمجرة والهمس. قال: «سأخبرها أنكِ تنوين أخذها بعيدًا عني حتى لا تراني ثانيةً. أتمنى أن تدركي هذا. أنتِ أنانيةٌ لدرجة أنكِ لا تهتمين إذا لم ترني مرةً أخرى. ستفهم. ستكرهكِ على فعلتكِ».

حاولتُ تخيُّل عَينَي ميا الواسعتين الداكنتين، تراقبانه في أثناء حديثه. كنتُ أعرف منظره حين يتلبَّسه الغضب؛ يتجمع بصاقه الأبيض على شفتيه فوق أسنانه المعقوفة.

قاطعته وقلت: «أريد أن أتحدَّث مع ميا».

بدا صوتُ ميا مسرورًا حين عادَتْ إلى الهاتف. سألَتْ وقد عادَتْ إلى طبيعتها المرحة من جديد: «هل أحضرتِ لي الحذاء الوردي؟»

ابتسمتُ وقلتُ: «أجل، تمامًا مثلما وعدتكِ». حكيتُ لها عن المتجر ذي الممر المخصص كله للأحذية الوردية، وأنني وجدتُ واحدًا لها مع دُمية حصان أيضًا. «وكذلك علبةً معدنيةً لطعامكِ عليها رسمة راعي البقر!».

بَدَتْ نَاعسةً حين تحدثنا ثانيةً بعد يومٍ أو يومين. لم تعرف أين والدها، رغم أنها كانت تكلمني من هاتفه. سَمِعتُ أصوات رجالٍ كبار في الخلفية، ولكنها قالت إنها لا تعرفهم. نَدِمتُ أنني لم أصطحبها معي، ولكن إن كنتُ قد فعلتُ هذا، فعلى الأرجح لم نكن لنعود. تخيَّلتنا نعثر على مكانٍ نبيت فيه، ونملأ استمارات تغيير السكن في محكمة العدل المحلية. تخيَّلتُنا نقضي نهاية الصيف ونستلقي على العشب ونستكشفُ الجبال والأنهار.

ولكن ما تزال أمامي أيام معدودات من أول عطلةٍ آخذها منذ خمس سنوات، وأردتُ استغلال كل ثانيةٍ منها. في يوم السبت ذاك، تمشيتُ وسط سوق المزارعين. كان هناك الكثير من الأطفال من عُمر ميا، كان معظم الفتيات شعورهن شعثاء، ويرتدين تنوراتٍ مكشكشة. كنتُ لأتمشى معها هنا، وأرتدي قميصًا مفتوحًا يُظهِرُ وشومي، وترتدي حذاءها البلاستيكي الوردي ذا الكعب العالي، وفستانًا ملائكيًّا. كنا لنندمج بين الجميع. لن يرمقنا أحدٌ بنظراتٍ مستنكرة مثلما فعل الناس في واشنطن. كانت ميا لتلعب مع حشد الأطفال الذين يتسلَّقون تمثال السمكة. كان هذا المكان ليصير بيتنا. كان أولئك الناس ليصيروا عائلتنا. كنتُ على ثقةٍ من هذا.

غطستُ في هدوء السيارة وأصوات الطريق وأنا في طريق العودة إلى المنزل. آلمني قلبي مع كل ميلٍ اقتربتُ به من واشنطن، كأنني كنتُ أسلكُ الاتجاه الخطأ، طوال الأميال الخمسمئة، دارَتْ رحلة السنوات الخمس المنصرمة في رأسي وكأنها فيلم. رأيتُ ميا تتعثر في خطواتها نحوي ونحنُ في ملجأ المشردين. شعرتُ بالضغط واليأس اللذين تملكاني لأوفر بيتًا آمنًا لها. كل الوقت الذي قضيناه على الطريق. حادث السيارة. الليالي الباردة التي قضيناها على أريكتنا في الاستوديو. ربما كان الخيميائي على صواب.

ربما لو خطوتُ الخطوة الأولى نحو أحلامي ، فسيفتحُ الكون أبوابه لي ويرشد طريقي. ربما -في سبيل العثور على بيتٍ حقيقي- كان عليَّ أن أفتح قلبي ليسع حُبَّ البيوت كلها. لم أعد أؤمن بأن البيت هو منزلٌ فاخرٌ فوق التلال. البيت مكانٌ يُعانقنا ، مجتمع يشملنا، معرفةٌ ندركها.

بعد عدة أشهر، وقبل أيامٍ قلائل من الكريسماس، قُدتُ سيارتي عبر التلال المتموجة نحو ميزولا مرةً ثانية، ولكن مع ميا في المقعد الخلفي. سألتُها وأنا أخفض صوت الراديو: «هل ترين الأنوار ؟»، أشَرتُ إلى نجوم الوادي المتلألئة. نَظَرتُ إلى المرآة الخلفية ورأيتُ ميا تهزُّ رأسها من مقعد السيارة.

كانت تُحَدِّقُ إلى التلال الثلجية المتموجة أمام النافذة، وسألتني: «أين نحن؟»

بعد سنواتٍ طوال من التَنَقُّل المستمر، استقررتُ وميا بهدوء. اختفى والدها في الشهور الأولى؛ لم يُجِب اتصالاتنا، لم يظهر في مكالمات الفيديو التي تنازعنا على تحديد مواعيدها تبعًا لخطة الرعاية المشتركة الجديدة، ولم أعرف كيف أبرر لها أسبابه.

بدأتْ ميا تركضُ مني في كل اتجاه؛ في المنزل أو في المتاجر، على الرصيف أو في الشارع. كنتُ أحملها فتركلني وتصرخ، وتنحني لتلتقط حذاءها البلاستيكي الوردي حين يسقط منها خلال نوبة الغضب. كنتُ أدرك أن سلوكها كان استجابةً طبيعيةً لما حدث من تغيير، لخسارة أبيها، لأنها انتُزِعت من جذورها وغُرِسَتْ في مكانٍ حَبَسَنا شتاؤه داخل منزلنا منذ وصولنا. كان سلوكها يفوق أي شيءٍ خُضْتُه من قبل، ولم أعرف كيف أتعامل معه بحكمة. شعرتُ أن اصطحابها إلى أيِّ مكان سيكون أمرًا في غاية الخطورة والهياج والإنهاك. ذات صباح، كان عليَّ إنجاز بعض المهمات، أردتُ الذهاب إلى مكتب البريد والمتجر كي أحضر السَدَّادات القطنية. رَفَضَتْ ميا ساعتين كاملتين أن ترتدي ملابسها أو حذاءها، كانت تركلُ وتصرخُ، وتقاوم بقوةٍ شديدة كأنني كنتُ أحاول كتم أنفاسها تحت المياه، حَلَّتْ بي نوبة هلعٍ شرسة، خَلَّفَتني متكورةً على الأرض بين شهقاتي، بينما عادتْ ميا إلى غرفتها بسعادة لتلعب بالدُّمَى، مسرورةً بنصرها في معركةٍ أخرى.

ولكن للحياة طريقتها في تصحيح مسارها، كعادتها دومًا. وجدتُ عملًا في تنظيف مبنى شركةٍ كبيرة، إضافةً إلى عميلين أرادا أن أنظف منزليهما. ذات يوم، تناولتُ مجلةً من إحدى غرف الانتظار في المكتب، كان اسمها «ماما لود» وأرسلتُ إليهم نَصًّا قصيرًا. نشروه في العدد المطبوع، ولم أستطع إزاحة عيني عن اسمي.

وجدتُ في المجلة نفسها إعلانًا عن حضانةٍ تنتهج التعلُّم الحركي، وتقع في مركزٍ محلي للجمباز. بعد لقائي أصحابها، وافقوا على أن أنظف المكان مقابل المصاريف. أقامتْ إحدى الموظفات معنا، ودَفَعَتْ مبلغًا ضئيلًا من الإيجار، مع التنبيه بأنها ستظل في المنزل حين أذهب إلى العمل قبل الفجر، قبل موعد استيقاظ ميا.

ذات يومٍ من أواخر أيام الربيع في ميزولا بعد انتقالنا للعيش فيها، أعلَنَتْ ميا إعلانًا بعد أن نظرت إلى السماء الزرقاء عبر النافذة: «ماما، علينا أن نذهب في نُزهة». جلستُ على طاولة المطبخ في شقتنا الواقعة وسط المدينة في

انتظار أن تُنهي إفطارها. كانت عيني تُغمِضُ رغمًا عن إرادتي من شدة التعب. كنتُ أتلذذ بأيام نهاية الأسبوع لأن بوسعي أن أنام، وأقضي وقتًا أطول في احتساء قهوتي قبل البدء في تصفُّح ملاحظاتي الدراسية.

لهذا السبب ترددتُ. كان تعبي يفوق قدرتي على مقاومة ميا. ورغم أنها توقفتْ عن الركض بعيدًا عني منذ التحاقها بالحضانة تقريبًا، فقد ظَلَّتْ ثقتي فيها مُهتَزَّة. ولكنها نَظَرَتْ إليَّ نظرةً متلهفة، رأيتُ عينيها تشتعلان حماسًا فاقَ حماسي منذ انتقالنا. كان الطقس دافئًا والشمس ساطعةً لأول مرة. فتذكرتُ السحر الذي شعرتُ به حين زُرتُ المدينة أول مرة في أغسطس. نهضتُ وبدأت أضع ألواح البروتين وقناني المياه في حقيبة، ثم قلتُ: «هيا بنا!».لم أرَها قط ترتدي حذاءها بتلك السرعة من قبل.

تقعُ جامعة مونتانا في سفح جبل، اسمه الرسمي سِنتنَل، ولكن يُسميه السكان «إم»، لأن حوله طريق متعرج جانبي يؤدي إلى حرف «M» كبير وأبيض اللون ومصنوع من الأسمنت. حَدَّقتُ إلى هذا الحرف شهورًا وأنا في طريقي إلى قاعة المحاضرات أراقب نقاطاً صغيرةً من الناس تتسلقُ التل. حسدتهم، لكن كنتُ دائمًا أجد مبررًا يحول بيني وبين تسلُّقه بنفسي.

ركنتُ السيارة في موقف السيارات عند سفح الجبل. وقف بضعة أشخاص على السلالم المؤدية إلى طريق المُشاة. ارتدى جميعهم أحذيةً رياضية مناسبةً للركض أو المشي، وكانوا يشربون المياه من قنانيهم، ويبدو عليهم الاستعداد للسير على أقدامهم حتى يصلوا إلى الناحية الأخرى من الجبل.

هَندَمتُ سروالي القصير الزيتوني، وأدرَكتُ غباء قرار ارتداء الصندل.

قلت: «كم سيطول سيرنا ؟»

قالت ميا: «حتى حرف الميم». كأن تلك المسافة شيءٌ تافه. كأنها لم تكن هدفًا وضعته نصب عيني منذُ زُرت المدينة أول مرة. كأن السير حتى حرف الميم لا يعني صعود طريقٍ جبلي يطول خمسة آلاف ميل.

حين خطونا أولى خطواتنا على الطريق، أدرَكتُ أن ميا ستخور قواها قبل أن نقطع نصف المسافة إلى الحرف، وأن النزهة ستنتهي بحملها على ظهري حتى السيارة. ولكنها كانت تقطع منعطفًا تلو الآخر، وتسبقُ المُشاة المستريحين على المقاعد ليتأملوا المنظر.

نظرتُ إليها بعينٍ لا تصدق ما تراه. ابنتي التي تقتربُ من عامها الخامس تصعد الطريق ركضًا وهي ترتدي تنورتها وحذاء سبايدر مان، وذراعا دُمية زرافة متعلقتان برقبتها. رَكَضَتْ بسرعةٍ شديدة حَدَّ أنها سبقت الآخرين، ثم وقفت وانتظرتني حتى ألحق بها. أما أنا، فكنتُ ألهثُ وأتصبب عرقًا. كان أصعب مشي مشيته منذ سنين. ناديتُ على ميا لتتوقف؛ أخافَني أن تصل إلى الحرف فتنزلق عن سطحه، أو أن تستمر في ركضها حتى تصل إلى الحافة. كان طريق المُشاة والجبل منحدرين، فعجزتُ عن رؤية أعلى المسار. كنتُ أرى ميا تميل أحيانًا على حافة الطريق ويدها الصغيرة تنقبض في إصرار. كانت يدي تفعل المثل.

حين وصلنا إلى نهاية الطريق، جلسنا على قمة الحرف وتأملنا المنظر عدة دقائق، قبل أن تنهض ميا وتعلن أن علينا أن نستمر في سيرنا. تَبِعتُها في ذهولٍ من رغبتها في الاستمرار. بدا أن الفرحة ملأتها لأننا سنصعدُ إلى القمة. كانت تُقَرفِصُ أرضًا بين حينٍ وآخر لتنظر إلى النمل، أو إلى داخل جحور السناجب. صَمَّمتُ أن تشرب المياه، وأن تأكل قطعةً من الحلوى الغنية بالبروتين والتوت. ثم مضينا في طريقنا نصعدُ الطريق أعلى وأعلى.

تتعدد اختيارات صعود قمة جبل سِنتنَل، ولكننا سلكنا طريقًا يتموَّج على جانب الجبل. ورغم أن حِدَّة منعطفات الطريق قلَّت عن ذي قبل، كان تسلُّق الجبل حتى قمته من جانبه الخلفي أمرًا مروعًا. كنتُ أستريح كل عشر

خطواتٍ تقريبًا. توقفتْ ميا جواري أكثر من مرة. ربما كان الإندورفين السبب، أو حرارة الشمس، ولكن شعرتُ بالدوار من شدة السعادة. كنتُ أعرف أن قطع الخطوات الأخيرة يتطلب جهدًا جهيدًا على قدمَيْ ميا الصغيرتين، ولاحَظَتْ هي أيضًا مدى تعبي.

حين وصلنا إلى القمة، رَفَعَتْ يديها فوق رأسها وضحكت. التَقَطتُ صورًا لها هناك، ترقصُ على قمة الجبل، أعلى من المدينة بكثير، مدينتنا، بيتنا. جلسنا على الحافة والجبل ينحدر من تحتنا ننظرُ إلى ميزولا. بدت المباني مثل بيوت الدُّمَى الصغيرة، والسيارات مثل نقاطٍ لامعة. جَلَستُ هناك أرسمُ خارطةً ذهنيةً للمدينة في عقلي؛ شعرتُ أن ميزولا شاسعة للغاية في عيني، احتَلَّتْ مساحةً هائلةً من عقلي وقلبي، لدرجة أنه بدا لي شعورًا غريبًا أن أراها بأسرها من هذا العلو.

امتَدَّ في الأسفل الحرم الجامعي الذي أدرسُ في جامعته، والمسرح الذي -في غضون عامين اثنين- ستراني ميا أسير على منصته كي أتسلَّم شهادة الحصول على درجة البكالوريوس في اللغة الإنجليزية والكتابة الإبداعية. من أعلى الجبل، رأيتُ المرج الأخضر والأشجار التي استلقيتُ أسفلها يوم زُرتُ الجامعة صيفًا، حيثُ حلمتُ أن أكون طالبةً فيها. كان بوسعي أن أرى شقتنا، والحدائق التي نلعبُ فيها، ووسط المدينة الذي تَحَمَّلْنا مصاعب أرصفته الشتوية الزلقة. ورأيتُ النهر يجري وسطها مثل ثعبانٍ كسول.

قَطَعَتْ ميا طريق العودة بأكمله حتى السيارة. مع غروب الشمس، ألقى النور أشعةً ذهبيةً داكنةً على بشرتها. نَظَرَتْ إليَّ بثقةٍ بالغة أكثر من مرة، كأنها كانت تقول لي بعينيها: «لقد نجحنا». ليس في الوصول إلى قمة الجبل فحسب، بل إلى حياةٍ أفضل.

أظنُّ أنهما متشابهتان.

شكر وعرفان

هذا العمل نتاج مجهودات الأمهات المستقلات. أُحِبُّ أن يكون في مقدوري قولُ هذا، لأن الأمهات المستقلات عنيدات وشجاعات ومقاومات وجسورات وقويات في حيواتهن، خاصةً في حُبِّهن. إنني ممتنة لكل الأمهات اللواتي دعمن كتابي وأحببنه من بداياته:

ديبي ويانجرتن، منارة الصداقة، التي قَرَأَتْ مسوَدَّاتٍ كثيرة شنيعة لهذا الشيء (ولعرضه التقديمي) وأجابت بلا تأخير رسائل لا حصر لها؛ المحموم منها والاحتفالي. كيلي سنْدبيرج، التي قادني صوتها الهادئ عبر لحظاتٍ من الهلع التام، حتى غَدَا صوتها صوتي الداخلي. بيكي مارجولِس، أفضل جارة ومستمعة ورفيقة لتناول العشاء حظيتُ بها في حياتي على الإطلاق، التي أسعَدَتْ ميا بأن تكون «أمها الأخرى». أندريا جيفارا، التي تُذهِلُني مقدرتها على رؤية معدن الناس النقي وقلوبهم. وأخيرًا، كريشان ترومان، محررتي المذهلة في دار هاشِيت. كان هذا الكتاب سيصبح مزيجًا فوضويًّا من «ومن ثمَّ حدث هذا» دون تعديلاتكِ الدقيقة والمدروسة والمُكَثَّفَة على نحوٍ عظيم. شكرًا لأنكِ وضعتِ قطعةً من روحكِ في هذا الكتاب. من المستحيل أن أحظى بمرشدةٍ أفضل منكِ في هذا العالم.

إلى جيف كلينمان، أعظم وأهم الوكلاء الأدبيين. ليس لديك أدنى فكرة عن مدى استمتاعي بكل رسائلك الملآنة بعلامات التعجب.

إلى مُعَلِّميَّ: الأستاذ بيردسال، مُعَلِّمي في الصف الرابع في مدرسة سينك بارك الابتدائية في مدينة أنكوراج بألاسكا، لأنه أيقظَ الكاتبة بداخلي. الأستاذة ديبرا ماجباي إيرلينج؛ لقولها إن مقالي - «اعترافات مُدَبِّرة منزل» - قد يتحول إلى كتاب بقناعةٍ عميقة تحوَّلت إلى نبوءةٍ أحققها. شكرًا لأنكِ أيقظتِ الحكَّاءة بداخلي. كذلك إلى باربرا إرينيرك، وماريسول بيلُّو، وليزا درو، وكولين سميث،

وجودي بلنت، وديڤيد جيتس، وشيروين بيتزوي، وكيتي كين، ووالتر كيرن، وروبرت ستابِلفيلد، وإيرين سالدين، وكريس دومبروفسكي، وإلكي جوڤرستن؛ لأنهم أرشدوني في رحلة الكتابة بصبر حتى أصل إلى التماسك والترابط، بتشجيعٍ وتمكينٍ غامِرَين. شكرًا لكم جميعًا.

إلى ابنَتَيَّ اللتين هما سبب كل شيء: كورالاين، لقد مَكَّنَتني ابتساماتُكِ الذكية وأحضانكِ الدافئة من تَحَمُّل أيام الكتابة والتحرير الطويلة. ميا، ابنتي الحلوة، إيميليا ستوري، شكرًا لأنكِ جَعَلتِني أمًّا. شكرًا لأنكِ عِشتِ هذه الرحلة معي. شكرًا لإيمانكِ بي. وشكرٌ خاص لأنكِ دومًا، دومًا، تُهَذِّبينني بقدرتكِ على أن تكوني على سجيتكِ، ولا شيء غيرها. قلبي مُفعمٌ بمحبتي لكما، التي تزداد يومًا بعد يوم.

إلى قُرَّائي ومُشَجِّعِيَّ خلال تلك السنوات الماضية، إلى الملفات. إلى العالقين في النظام المتهالك للدعم الحكومي، والذين يعيشون أيامهم منسحقين أسفل يأس الفقر. إلى من نشؤوا على أيدي الأمهات المستقلات، وإلى من رعين أطفالهن وحدهن. شكرًا لتذكيركم المستمر لي بأهمية مشاركة هذه القصة وحماستها. شكرًا لأنكم حملتم هذا الكتاب بين أيديكم.

شكرًا لأنكم صاحبتموني في هذه الرحلة.

شكرًا لدعمكم ومساندتكم.

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

تحرير وتدقيق: **هدى/ mohamed**

ترتيب وتصميم: **أشرف غالب**

t.me/twinkling4

عصير الكتب

ستيِفَني لاند

نُشرتْ كتابات ستيِفَني لاند في نيويورك تايمز وواشنطن بوست والجارديان وذا أتلانتيك والعديد من المنصات والصُّحف الأخرى. تركِّز كتابتها على العدالة الاجتماعية والاقتصادية.

MAID
خادمة

في الثامنة والعشرين من عمرها، سرعان ما تلاشت أحلام ستِيفَني لاند بالالتحاق بالجامعة وأن تصبح كاتبةً حين تحوَّلتْ علاقةٌ عابرةٌ صيفية إلى حَملٍ غير مخططٍ له. وقبل مرور وقتٍ طويل، وجدتْ نفسها أمًّا مستقلة، تعاني شظف العيش من عملها خادمةً لتدبير أمورها.

إن هذه السيرة الذاتية سردٌ صريحٌ ومتقن للسنوات التي قضتها لاند تعملُ في خدمة عائلات الشريحة العُليا من الطبقة المتوسطة في أمريكا باعتبارها «طيفًا بلا اسم»، يُشارك انتصارات عملائه ومآسيهم وأحلك أسرارهم في هدوء. حثَّتها رغبتها في بناء حياةٍ أفضل لعائلتها، فنظفتْ نهارًا ودرستْ عبر الإنترنت ليلًا، وكتبت بلا هوادة بينما تجتهدُ لتحصل على شهادتها الجامعية. كتبتْ قصصًا حقيقية لم تُحكَ من قبل عن العيش على الكوبونات والقسائم الغذائية، عن برامج الدعم الحكومية التي لم تُقدِّم سوى المسكن، عن الموظفين الحكوميين اللامبالين الذين أهانوها لأنها تتلقَّى المعونة الضئيلة التي نالتها. وعلاوةً على هذا، كتبتْ عن مطاردة وهم الحلم الأمريكي من عند خط الفقر، وكل هذا بينما تشقُّ طريقها عبر الوصمات المتجذرة في المجتمع عن العاملين الفقراء. تحكي مذكرات «خادمة» قصة ستِيفَني، لكنها ليست قصتها وحدها. إنها شهادةٌ مُلهِمة عن شجاعة الروح البشرية وإصرارها وقوتها التي لا تنضب.

تصميم الغلاف: محمود هشام

9 789776 972452

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

عصير الكتب

t.me/twinkling4